تفسير

مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتدقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

المجلد الأول

والكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

تفسير
مقتنيات الدرر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

المجلد الأول

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتدقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

الحائري الطهراني، السيد ميرعلي (١٢٧٠ ـ ١٣٥٣ هـ)
تفسير مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر
العنوان والمؤلف: تفسير مقتنيات الدرر / تاليف السيد ميرعلي الحائري الطهراني
تحقيق: محمدوحيد الطبسي الحائري مراجعة وتدقيق: محمدتقي الهاشمي /
تصحيح: حسين مه نيا
الناشر: قم دارالكتاب الإسلامي، ٢٠١٢م ١٣٩١ هـ . ش
المجموعة: (١ ـ ١٢ مجلد) لغة الكتابة: لغة العربية
الموضوع: تفاسير شيعية ـ القرن ١٤ هـ.
تسنيف: ١٣٨٨ ٧م ٢٣ح ٩٨/ BP
تسلسل ديويي: ٢٩٧/١٧٩
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية: ١٨٢٧٥٨٦

با مشاركت وحمايت معاونت امور فرهنگى
وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى چاپ و منتشر گرديد

الكتاب .... تفسير مقتنيات الدرر (ج ١)
المؤلف .... السيد مير علي الحائري الطهراني
الناشر .... مؤسسة دارالكتاب الإسلامي
الطبعة .... الأولى ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م
المطبعة .... ستاره
عدد المطبوع .... (٢٠٠٠) دوره
الترقيم الدولي للمجموعة .... ٩ ـ ٢٧٦ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
الترقيم الدولي (ج ١) .... ٦ ـ ٢٧٧ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
السعر .... ٩٠٠٠٠٠ ريال

قم ـ ميدان المعلم ـ شارع سمية ـ رقم ٢٢ ـ رقم المبنى ٢٦
تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ ـ ٧٧٣٠٩٩٤ فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم السلام على سيدنا محمد المصطفى ﷺ رسول الله المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله الطاهرين الهداة الميامين.

لقد زخرت المكتبة الإسلامية العامرة بالكتب القيمة والمؤلفات الجليلة، ومن أعظمها فضلاً وشرفاً وأجلها قدراً في المرتبة تأتي تفاسير القرآن الكريم، لذلك دأب أكابر العلماء والفقها من أهل العلم والفضيلة جاهدين ومثابرين للأستشراف من عظيم معرفة الباري (عزّ وجلّ) وبالغ حكمته وبديع صنعه وجليل قدرتة في كتابه المجيد، والأهتداء بنور عزته وبهاء هيبته وكمال منزلته. ولما كانت (مؤسسة دار الكتاب الإسلامي) قد وضعت في أولويات برنامجها وفي طليعة أهدافها إحياء التراث الإسلامي، والعمل على إعداد وإخراج النفائس من المصنفات والقيمة من الكتب والمؤلفات، بعد استكمال متابعة الأمور العلمية المطلوبة من تحقيق ومقابلة وتصحيح، وتنفيذ الإجراءات الفنية اللازمة من تنضيد الحروف والكلمات وترتيب الصفحات، وفق المعايير اللازمة، وطباعتها ونشرها بحلة قشيبة ومظهر أنيق وإخراج جيد، وعرضها لتكون في متناول أيدي الطالبين والراغبين، مساهمة منها في رفد الحركة العلمية العريقة

في بلادنا الإسلامية ونشر الثقافة الدينية في أرجاء المعمورة (عسى أن يوفقنا الله لذلك، وعلى الله قصد السبيل) فقد اختارت كتاب (تفسير مقتنيات الدرر وملتقطات الثمر) وانتقته من بين المؤلفات العديدة نظراً لأهمّية موضوعه وبراعة أبحاثه وجودة بيانه وعظيم فائدته (إن شاء الله).

وأقدمت على إعداده وإخراجه، حيث تكفل بعض الأفاضل بمقابلة النسخ المتوفرة بين أيدينا وقام آخرون بأستخراج مصادر الأحاديث والروايات وأخذ بعضهم على عاتقه مهمة الترتيب والأخراج الفني بعد استكمال مراحل التحقيق والتصحيح، فجاءت هذه الطبعة محققة ومصححة وموثقة الأصول والمصادر ولابد هنا من الإشارة إلى بعض التغييرات التي طرأت على هذه الطبعة ليتبيين القارئ الكريم، منها:

١) تم تغيير أو تعديل أسماء بعض السور القرآنية الكريمة التي وردت في هذا الكتاب من مسمياتها القديمة الى التسمية الجديدة المتبعة في المصاحف المتداولة بين أيدينا وهي:

التسميه الجديدة	التسمية القديمة
سورة الإسراء	سورة بنى إسرائيل
سورة الماعون	سورة أرأيت
سورة فاطر	سورة الملائكة
سورة التوبة	سورة البراءة
سورة غافر	سورة المؤمن
سورة المسد	سورة تبت
سورة الزلزلة	سورة الزلزال

٢) تم الاعتماد علي نسخة المصحف الشريف بخط عثمان طه (في رسم الخط القرآني) وذلك تفادياً من حصول بعض الأخطاء المطبعية واستكمالاً للجوانب الفنية في الكتاب.

وفي الختام نتقدم بالشكر والامتنان لكل من ساهم في إنجاز هذا العمل القرآني المبارك من علماء ومحققين ومصححين وفنّيين وغيرهم، فجزاهم الله خير جزاء المحسنين.

وآخردعوانا أن الحمدلله رب العالمين

تقديم

بقلم: السيد علي الشهرستاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كلمتان جميلتان جمعتا لتكونا عنواناً لكتاب قيم في تفسير القرآن، يحمل اسم «**مقتينات الدرر وملتقطات الثمر**».

فالمُقْتَنَيات جمع مُقْتَناة مؤنثة مُقْتَنَى، ففي «الصحاح»: «واقتناء المال وغيره: اتّخاذه»[1]، وفي «العين»: «واقتنى يقتني اقتناءً: اتّخذهُ لنفسه لا للبيع»[2].

وفي «اللسان»: «ومنه قولك: قد أقتنيت كذا وكذا، أي علمت على أنّه يكون عندي لا أُخرجه من يدي»[3].

والدُرر جمع دُرّة، وهي اللُؤلؤة العظيمة كما في «التاج»[4]، وعن ابن دريد: «ما عظم من اللؤلؤ»[5].

والمؤلّف بجمعه بين هاتين الكلمتين أراد أن يشير إلى أنّه التقط من الدرر المعرفيّة أغلاها، ومن الثمار أجودها وأنقاها، لكنّه لم يدّخرها لنفسه، بل جعلها بين متناول أيدي الآخرين أيضاً، فهي درر وقف عليها في بحوث

١ـ الصحاح، ج ٦، ص ٢٤٦٨.

٢ـ العين، ج ٥، ص ٢١٧.

٣ـ لسان العرب، ج ١٥، ص ٢٠٢، (قنا).

٤ـ تاج العروس، ج ١١، ص ٢٨٨، (درر).

٥ـ جمهرة اللغة، ج ١، ص ١١٠.

أساتذته، ومقتطفات حصل عليها أثناء مطالعاته لكتب التفاسير والفقه والكلام واللغة والأدب.

وقد صرّح بهذا في خطبة الكتاب:

«...ومع ذلك اقتنيت دُرراً من البحور الزاخرة، والتقطت ثِماراً جيّدة فاخرة، من كتب التفاسير من الأسانيد والنحارير، مستعيناً بالله، وألّفت الملتقطات، وسمّيته بـ(**مقتنيات الدُرر وملتقطات الثمر**)»[1].

وباعتقادي أنّ المؤلّف بكلامه هذا أراد أن يُعلم الآخرين بأنّ في حوزته نفائس، وهي أمانة بيده ووديعة في عنقه عليه نشرها؛ لأنّ زكاة العلم التعليم، فأخذ يلقي ما حصل عليه على شكل دروس في المسجد الجامع بطهران[2]، ثم دوّنها في قصاصات لتعميم النفع والفائدة، لكنّه لم يوفّق لِأن يرى كتابه مطبوعاً في حياته، فطبع الكتاب بعد ثلاثة عقود من وفاته تقريباً بشيء قليل من السقط والخطأ؛ أي في عام (١٣٨٠ هـ) بدار الكتب الإسلامية بطهران، على نفقة الحاج محمود الكاشاني، وبهمة تلميذه الحاج عبدالحسين محسنيان تغمدهما الله جميعاً برحمته وأجزل في ثوابهما.

وقد أشار مصحّح الكتاب إلى بعض هذه السقطات ضمن عمله، فقال في ذيل تفسير الآية ٨٧ من سورة النساء (أي في ج٣، ص ١٤٩): «هنا سقط من النسخة عدة أوراق أوردنا مكانها من نص الطبرسي في المجمع، ولم تتعرّض لما ذكره في وجه الإعراب والقراءة والحجّة عليها صوناً لسرد الكتاب».

فالكتاب طبع بعيداً عن إشراف مؤلّفه، وإن كنّا لا ننكر ما للسيّد كاظم الموسوي المياموي من دور في تصحيح الطبعة الأولى منه، آملين ممّن يريد

١ـ مقتنيات الدرر، ج ١، ص ٢٠.

٢ـ مستدركات أعيان الشيعة، ج ٩، ص ١٢٦.

إعادة طبعه الاهتمام به أكثر، رافعاً نواقصه العلمية والفنية، من تخريج الأقوال والأحاديث، والتثبُّت من إحالات المؤلّف، وضبط النصوص المنقولة مع المصادر، والاهتمام باللمسات الفنية من تفقير العبارات وعلامات التعجّب والاستفهام والفارزة وما شابه ذلك.

ولا يخفى على العالِم البصير لزوم تعدّد الروافد المعرفية للمفسِّر، وذلك لتعدّد المفاهيم والعلوم الموجودة في القرآن الكريم، ولذلك اختلفت مناهج المفسِّرين، آخذين جانباً وتاركين الجانب الآخر منها، نظراً لاتّجاهاتهم الفكرية والعقيدتية والمذهبية.

فمنهم من اكتفى بالمأثور من أقوال النبيّ والصحابة وأهل البيت، مثل «الدر المنثور» للسيوطي، و«جامع البيان» للطبري، وتفسير الثعلبي «الكشف والبيان»، وتفسير الثعالبي «الجواهر الحسان»، و«البرهان» للسيّد هاشم البحراني، و«نور الثقلين» للحويزي، وتفسير العياشي، وتفسير القمي، والتفسير المنسوب إلى الإمام العسكريعليه‌السلام.

ومنهم من اهتم بأحكام القرآن ومسائل الفقه، مثل القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»، والجصاص الحنفي، وابن العربي المالكي، والإمام الشافعي، والكيا الهراس الشافعي في «أحكام القرآن»، والقطب الراوندي في «فقه القرآن» والسيوري في «كنز العرفان»، والمقدس الاردبيلي في «زبدة البيان»، والفاضل الجواد الكاظمي في «مسالك الأفهام».

ومنهم من اهتم بالجانب العرفاني والصوفي، مثل: ابن عربي في «الفتوحات المكية» و«الفصوص»[1]، والسلمي، والقشيري في «لطائف الإشارات»، والآلوسي

١ـ وقد جمع هذه الأقوال محمود محمود الغراب باسم «رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن» وهناك تفسير آخر منسوب إليه صنعه الشيخ عبدالرزاق الكاشي السمرقندي «متوفى ٧٣٠ هـ».

في «روح البيان»، وملا صدرا الشيرازي في تفسيره.

ومنهم من توجّه إلى الأدب واللغة، مثل الزمخشري في «الكشاف»، والحياني الأندلسي في «البحر المحيط»، والواحدي في «البسيط»، والطبرسي في «جامع البيان»، والزجاج وابن النحاس في «إعراب القرآن»، والفرّاء والأخفش في «معاني القرآن»...

ومنهم من اهتم بالعلوم العقلية وأقوال الحكماء والفلاسفة والردّ عليهم في بعض الأحيان كالفخر الرازي في «مفاتيح الغيب» و...

وهناك مناهج كثيرة أخرى نترك ذكرها، لكنّ النظره الشمولية هي التي تواكب العمل بالنجاح والموفّقية.

ومفسّرنا الحائري من أولئك النخبة الذين اعتمدوا التفسير التجزيئي والتبسيط والتمثيل وسلاسة التعبير وعدم التعقيد في طرح الفكرة منهاجاً في عملهم، وذلك بذكرهم أوّلاً ثم يعقّبونها ـ إن اقتضى الأمر ـ ببيان سبب نزولها، وتفسير غريبها، ورفع مشكلها، وتوضيح معانيها، وإعرابها، ساعين إلى تفسير القرآن بالقرآن، ثم السُنَّة، ثمّ أقوال العلماء.

أجل، إنّ السيّد الحائري ولادةً ومسكناً، واللاّريجاني أصلاً ومَحْتِداً، والطهرانيّ مدفناً، والمفسِّر اشتهاراً ونسبةً، كان من المفسّرين الكِبار والفقهاء العظام، فقد ترجمَهُ بعض المشايخ، منهم الشيخ آغا بزرك الطهراني في «نقباء البشر في القرن الرابع عشر»:

> عالم جليل، ومفسّر بارع، ولد في كربلاء في حدود سنة (١٢٧٠ هـ) وقرأ على علماء كربلاء والنجف الأشرف مدّة طويلة، وقرن العلم بالعمل، وفاز منهما بالحظ الأوفى، وهبط سامراء فحضر بها على المجدّد الشيرازي مدّةً، وهبط طهران بإذن منه أي

المجدد الشيرازي] في سنة (١٣١٢ هـ) وقبل وفاته بفترة وجيزة، ولم يتصدَّ للزعامة مع أنّه كان أهلاً لها، لشدّة تقواه وورعه وزهده في حطام الدنيا.

فقد كان على جانب عظيم من الصلاح والعبادة، انزوى عن الخلق، وتَرَكَ المعاشرةَ، وعكَفَ على تأليف تفسير القرآن (مقتنيات الدُّرر وملتقطات الثمر) حتّى أتمّه، وطبع أخيراً في اثني عشر مجلّداً من سنة (١٣٧٧ ـ ١٣٨١ هـ).

واستمرَّ على التدريس والإفادة، فكان لا يضيع الوقت فيما لا ينفع، بل فيما لا يقرِّب من الله ويجلب رضاه، وكانت لنا معه صحبة ومودّة وثيقة، حتى اختار الله له دار الإقامة، وأتانا نعيه في حدود العشرين من شوال سنة (١٣٥٣ هـ) ودارُ جدّه السيّد يونس معروفه في كربلاء قرب طاق النقيب، وكان يسكنها ولده السيّد مهدي شمس الفقهاء[١].

ودفن السيّد الحائري في طهران في مقابر (إمام زاده عبدالله) عن عمر ناهز (٨٣ سنة)، وقبره شاخص لحدّ الآن هناك، يرتاده الناس للسلام عليه والدعاء عند قبره.

وعليه فالكتاب في غاية الجودة والمتانة، لأنّه يربط بين المقتنيات التي بحوزته وبين كلامه بحيث تصير جملة واحدة، ولا يعرف القارئ أو السامع هل هي ،، أم لآخر سبقه؟

وإنّي وقفت في تفسيره على نوادر لم أقف عليها في التفاسير الأخرى، فله بحوث قيّمة في الكلام والفقه وحتى في اللغة والبديع، فقد تكون تلك

١ـ نقباء البشر، ص ١٤٢٢.

البحوث هي من بُنيَّات أفكاره؛ وقد يكون أخذها من آخرين.

مع أن المؤلف لم يشرح منهجه في التفسير ولم يحوي كتابه علي مقدمة مفصلة تشرح ما يريد عمله لكن المطالع يمكنه الوقوف على اهتمام المؤلف واحاطته بجميع علوم التفسير والقراءت، وهو جدير بأن يطلق عليه لقب «المفسر».

وعلى كل حال ففي الكتاب لطائف جميلة، ونكات ظريفة، يستانس بها كلّ مطالع، فهو ليس من التفاسير الفلسفية المعقّدة، أو الرمزية العرفانية التي لا يفهمها إلاّ ثلة معدودة من الناس، أو الإشارية المكتوبة على الطرق الصوفية.

فالكتاب يحمل بين جوانبه ما هو الضروري والمفيد، بعيداً عن الغموض والتعقيد، إذ ليس في كتابه غموض ابن عربي، أو ما يقوله المَلاَ صدرا الشيرازي، فهو تفسير ممتع يفيد الطلاب والمبتدئين كما يفيد العلماء والباحثين، فقد كان وسطاً بين الإيجاز والإطناب، والكلام بلسان العوامَ والخواصّ، فليس هو بمختصر مثل تفسير (الجلالين) للسيوطي أو تفسير (الوجيز) للسيّد عبدالله شبر أو (الأصفى) أو (المُصفّى) للفيض الكاشاني أو (التسهيل) لابن جزي الكلبي الغرناطي، وليس بمطوّل مثل التفاسير الجامعة المعروفة المطوّلة.

وهي كما وصفها المؤلف مقتنيات للدُّرر الثمينة التي حصل عليها وملتقطات للثمار التي جناها.

وهذا التفسير أشبه بمعرض للتحفيات والنوادر التي حصل عليها أيّام اشتغاله العلمي، جعلها في متناول أيدي المؤمنين للاستفادة منها، مستخدماً في عمله التمثيل والتنظير تسهيلاً للقارئ، وقد يكون التمثيل والشاهد الذي اعتمده قد أخذه من القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف، أو جاء في

كلام أحد العلماء أو العرفاء، وقد يكون التمثيل من عند نفسه.

وقد وضّح المؤلّف أهمّيّة التمثيل ضمن تفسيره لقوله تعالى:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾

بأنّ التمثيل أَلْطَفُ ذريعةٍ لبيان الأحكام «ولتصوير الحقائق الغامضة العقلية بكسوة الأمثال الحسيّة، وذلك لأنّ أكثر الناس يغلب عليهم الجهة الحسية»، إلى أنّ يقول:

«ثم اعلم إنّ الأمثال تتفاوت في الدرجات نازلة، «مثلا ما بعوضة فما فوقها»، وصاعدة حتى تنتهي إلى آل محمد صلوات الله عليهم، كما في فقرة الزيارة الجامعة، «المثل الأعلى»، وليس فوقهم مَثَلٌ، وقد ضرب الله الأمثال، في السُّوَر، لهذه الحكمة، في البقرة، وآل عمران، والأنعام، والأعراف، ويونس، وهود، والرعد، وإبراهيم، والنحل، وبني إسرائيل، والكهف، والحجّ، والنور، والفرقان، والعنكبوت، والروم، ويَس، والزمر، وزخرف، ومحمد، والفتح، والحديد، والحشر، والجمعة، والتحريم، والمدثّر، وغيرها»[1].

ثمّ قال ضمن تفسيره لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ لأنّ المثل «يؤتى به لفهم المخاطب، سواء كان صغيراً كالبعوضة أو جليلاً كالفيل، وقد ورد في كلام العرب والعجم، فقالوا في التمثيل: أجرأُ من الذباب، وأسْمَعُ من القُراد». تزعم العرب أنّ القُراد يسمع الهَمْس الخفيَ من مناسم الإبل على مسافة سبع ليال أو سبعة أميال، وفي المثل: «فلان أعمر من القراد»، وذلك أنّها تعيش سبعمائة سنة، «وأجرأ من الذباب»، لأنّه

١ـ مقتنيات الدرر، ج ١، ص؟؟؟.

يقع على أنف الملك، وجفن الأسد، فإذا ذُبَّ ودُفِعَ آب ورجع، ولذلك سُمّي بالذباب، وفي المثل يقال: هو أجمع من ذرّة، يزعمون أنّها تدّخر قوت سبع سنين. فانظر أيّها المتأمل، كيف خلق الله للذباب والبعوض مع صغر حجمهما كلّ آلة وعضوٍ أعطاه الفيل القويَ الكبير، بزيادة جناحين، وأعطى البعوضَ والذُبابَ جُرأة، أظهرها في طيرانهما في وجوه الناس، مع مبالغة الناس في ذبّهما ودفعهما بالمذبّة.

وكيف ركَّب الجُبْنَ في الأسد، وأظهر ذلك الجُبْن فيه بتباعده عن مساكن الناس وطرقهم وأمكنتهم، ولو تجاسر الأسد تجاسُرَ الذباب والبعوض، لهلك الناس، فجعل بقدرته في الضعيف التجاسُرَ والجُرْأة، وفي القوي الجُبْن، وأعجب من هذين الأمرين عجزك عن هذا الضعيف، وقُدرتك على ذلك الكبير.

«حكي أنّه خطب المأمون ذات يوم، فوقع ذباب على عينه، فطرده، فعاد مراراً حتى عجز وقطع الخطبة، فلمّا صلّى، أحضر أبا هذيل شيخ الاعتزال، فقال له: لِمَ خلق الله الذباب؟ قال الشيخ: ليذلّ به الجبابرة، قال: صدقت»[1].

فالروح المعتدلة، والنظرة المتّزنة، وسلاسة التعبير، والشموليّة، والاحتواء على النكات الدقيقة والطرائف الأنيفة، هي من سمات تفسير الحائري.

فهو حينما يريد أن يبيّن حُكْماً، أو يشرح موضوعاً، سعى الأنْ يُحيط بكلّ جوانبه مستخدماً العقل طريقاً إلى العلم، ذاكراً الروايات الواردة فيه، وقد يستشهد بأشعار العرب، والأمثال، ويتعرّض لمختلف الأقوال الفقهية والكلامية،

١ـ مقتنيات الدرر، ج ١: ص ؟؟؟ ـ ؟؟؟.

فهو ليس بالطويل المملّ، ولا بالقصير المخلّ، بل هو الوسط بينهما.

فإنّه إن تكلّم عن شيء أجاد، وغالباً ما ينتقد كلام الفلاسفة والعرفاء، ويجهر بما يعتقد به ويدافع عنه.

والكلام عن هذا الكتاب كثير، ولا يمكن بيانه في هذه الوريقات، وباعتقادي أنّ المؤلف لم يُنْصَف ـ كما ينبغي ـ بعد من قبل الباحثين، ولم تُعرف قيمته في المحافل العلمية، فأردت بقدر المستطاع رفع هذه الظلامة غير المقصودة عنه، لأنّ الباحثين والمفسّرين قلّما يرجعون إلى تفسيره، ولم يطبع كتابه إلاّ لمرة واحدة، وإني استجابة لطلب عزيزي ـ سبط المؤلف ـ السيّد وحيد بن السيّد علي النقي الطبسي الحائري ـ الذي سرني في إقدامه على إعداد الكتاب ونشره ـ ونزولاً عند رغبته، كتبت هذه الأوراق، راجياً أن يكون قد وفّق لإخراج كتاب جَدّه بأحسن صورة وأبدع أسلوب، سائلاً المولى سبحانه أن يوفّقه لإحياء آثار أجداده الكرام، وآخر دعونا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

علي الشهرستاني

في ١٨ محرم الحرام ١٤٣٢هـ

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفقنا لاقتناء الدرر من كلماته الغرر، وهدانا لمعرفة التقاط الثمر من الشجر، شجرة مباركة كثيرة النماء، أصلها ثابت وفرعها في السماء، قرآنا عربياً غير ذي عوج، ناطقاً بالبينات والحجج، تكاد الرواسي لهيبته تمور، ويذوب من خشيته الحديد وصم الصخور.

أنزله على عبده وحبيبه محمد المصطفى لرسالاته، والمرتضى بكمالاته، أرسله بالهدى ودين الحق، وعرفه من شعائر الشرائع ما جلَ ودقَ، صلوات الله عليه وعلى ابن عمه وخليفته المخلوق من سنخه وطينته وجعله مستودعاً لعلمه وعلى الأئمة الأحد عشر من أولاده، الذين لم يعصوا الله طرفة عين وهم بأمره يعملون، وبوحيه يحكمون.

يا بني الزهراء والنّور الذي ظن موسى أنه ناراً قبس

لا أوالي الدّهر من عاداكم إنه آخر حرف من عبس

وبعد فيقول الحقير الفقير «علي بن حسين الموسوي» الطهراني مسكناً والحائري مسقطاً ومولداً، لما رأيت أن يوسف الصدّيق يباع في سوق العدو والصديق، وعرض كل غنى في شرائه أموالاً خطيرة، وحضروا في ذلك السوق والحظيرة، فساقني الطمع وشاقني حبي إلى ذلك المطمع، أن أقدم بين يدي نجوى صدقة بدراهم معدودة، استجديتها برهة من الزمان من هاهنا

وهاهنا، وأنا ذو بضاعة مزجاة وظلّي فيه أقلص من ظل حصاة، فلمت نفسي من هذه الإرادة وقلت لها قفي مكانك، من أنت وما تمنيك وأنت أحقر من ذرة، والصفقة أغلى من ملايين درة، لكني ما استطعت أن أمنعها لأنّ الذكرى تسوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه.

فغلبني الغرام والهيام، فألقيت دلوي في الدلاء، رجاءً أن ينفعني حب الصديق، فما باليت عذل العدو والصديق وأنا أعلم انه ليس من لمس درهماً صيرفياً، ولا من اقتنى دراً جوهرياً، ومعذلك اقتنيت درراً من البحور الزاخرة، والتقطت ثماراً جيدة فاخرة من كتب التفاسير من الأساتيد والنحارير، مستعيناً بالله وألفت الملتقطات، وسميته بـ(**مقتنيات الدرر وملتقطات الثمر**) وأرجو من الله أن يتفضل عليّ بالغفران ويجعلني من أهل القرآن.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وفي تقديم الاستعاذة على البسملة من باب تقديم التخلية على التحلية، فإن طبيب القلوب يبدأ أولاً بتنقيتها من العقائد الزائغة، ثمّ يعالجها بما يقويها على الطاعات، وكذلك طبيب الأجسام، ومن أراد قراءة القرآن والدخول في المناجاة مع الحبيب يحتاج إلى طهارة اللسان، لأنه قد تلوث بفضول الكلام، فيطهره بالاستعاذة. فهذه الكلمة فاتحة كلام المتقربين، على أنه امتثال أمر رب العالمين، حيث قال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[1]

فإن قيل: فاستعيذ بالله من الشيطان الرجيم أوفق دراية لمطابقته المأمور به.

فالجواب، أنّه ﷺ قال: «**هكذا أقرأنيه جبرئيل عن القلم عن اللوح**». فمعنى أعوذ ألتجئ وأستعصم وأستجير بالله، واختلف في أن هذا الاسم الشريف علم فرد أو صفة مشتق أو غير مشتق، قيل هو من وله لتحيّر العقول عن إدراك كنهه، وقال بعض أهل التحقيق مثل السعد التفتازاني في حواشي الكشاف، انه كما تحيرت الأوهام في ذاته وصفاته تعالى فكذا في اللفظ الدال عليه، والاستعاذة تتناول جمع أقسام الشرور من المذاهب الباطلة والعقائد الزائغة وما يضر في الدين وهو منهيات للتكليف بل من جميع المكاره

١ـ سورة النحل: ٩٨.

والبلايا النازلة كالغرق والحرق والعمى والزمانة والفقر وأشباهه من المخاوف والآفات. فأعوذ بالله يتناول الكل، فالعاقل لما علم ان التحرز من مجموع هذه الأمور لا يمكن لعدم تناهيها، وان قدرة الخلق لا تفيء بدفعها، فحمله وعلمه العالم بأن يقول أعوذ بالله القادر على كل المقدورات من الشيطان أي: المبعَد من رحمة الله، والاستعاذة من الجن والإنس لازمة وعظة الإنسان نفسه ألزم.

قال ابن عباس: «**لمّا عصى لعن وصار شيطاناً وإنّما سمّي بهذا الاسم بعد لعن الله له**». والشيطان من الشطن وهو البعد. أو من شاط إذا بطَل. وامّا قبله فاسمه عزازيل أو نأيل.

وفي روضة الأخبار «**الشياطين ذكور وإناث يتوالدون ولا يموتون، بل مخلّدون حتّى تنقر من الدنيا. لكن الجن ذكور وإناث يتوالدون ويموتون، والملائكة ليسوا بذكور ولا إناث ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون**»، وللشيطان والجنّة حقيقة ووجود، ولم ينكر الجن إلّا شرذمة[1] قليلة من الجهّال وحمقاء الفلاسفة، وحقيقتهم عند من لم يقل بالمجردات، هي: أجسام هوائية، وقيل: (نارية قادرة على التشكّل بأشكال مختلفة من الحيوان والطير وبني آدم، لها عقول وأفهام تقدر على الأعمال الشاقة)[2] كما كانوا يعملون لسليمان المحاريب والتماثيل والجفان والقدور، وعند من قال لها: مجردات أرضية سفلية، وذلك لأنّ المجردات أعني الموجودات الغير المتحيزة ولا الحالة في المتحيز، اما عالية مقدسة، وهم الملائكة، ويسمّيها المشائيون عقولاً، والإشراقيون أنواراً قاهرة، أو متعلقة بتدبيرها، ويسمّونها المشائيون، نفوساً سماوية، والإشراقيون أنواراً مدبّرة، وأشرفها حملة العرش، ثم الحافون حوله، ثم ملائكة الكرسي،

١ـ شرذمة: معناه، جماعة قليلة من الناس.

٢ـ انظر: بحار الأنوار، ج ٦٠، ص ٢٩١.

ثم ملائكة السماوات طبقة طبقة، ثم ملائكة كرة الأثير والهواء الذي من طبع النسيم، ثمّ ملائكة كرة الزمهرير، ثمّ ملائكة البحار، ثم الجبال. وهكذا. (ٱلرَّجِيمِ) أي المرمي من السموات بإلقاء الملائكة حين لعن وطرد، أو المرمي بشهب السماء إذا قصدها. قيل: من استعاذ بالله من الشيطان على وجه الحقيقة بحضور القلب وبشرائطها، جعل الله بينه وبين الشيطان ثلاثمائة حجاب، كل حجاب كما بين السموات والأرض، ومن المعلوم انّ الدعاء الذي لا يختلف عن الاستجابة المشار إليها في الآية بقوله تعالى ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[1] هو الذي يكون بلسان الاستعداد، فإنّه أجمع الفقهاء على انّ الشرط إذا كان مناف لمقتضى العقد فذلك العقد فاسد، فتأمل في سبب حرمانك من الإجابة.

قال ابن عباس: (خرج النبيﷺ ذات يوم من المسجد فإذا هو بإبليس فقال له النبيﷺ: «**ما الذي جاء بك إلى مسجدي؟**» قال: يا محمد جاء بي الله، قال: «**فلم ذا**»، قال: لتسألني عمّا شئت، قال ابن عباس: فكان أول شيء سأله الصلاة، فقالﷺ له: «**يا ملعون لم تمنع أمتي عن الصلاة بالجماعة؟**» قال: يا محمد إذا خرجت أمتك للصلاة، تأخذني الحمى الحارة فلا تندفع حتى يتفرقوا فقالﷺ: «**لم تمنع أمتي عن العلم والدّعاء؟**»، قال: عند دعائهم يأخذني الصمم والعمى، فلا تندفع حتى يتفرقوا. وقالﷺ: «**لم تمنع أمّتي عن القرآن؟**» قال: عند قراءتهم أذوب كالرصاص، قالﷺ: «**لم تمنع أمّتي عن الجهاد؟**» قال: إذا خرجوا إلى الجهاد يوضع على قدمي قيد حتّى يرجعوا وإذا خرجوا إلى الحجّ أسلسل وأغلل حتى يرجعوا وإذا همّوا بالصدقة توضع على رأسى المناشر فتنشرني كما ينشر الخشب. وكل معروف صدقة).

١ـ سورة غافر: ٦٠.

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**أتاني جبرئيل وقال انّ الله يقول وعزّتي انه ليس من الكبائر كبيرة هي أعظم عندي من حبّ الدّنيا وقال: ما عبد الله أبغض على الله من الهوى**» انتهى.[1]

أقول: ومن أبواب التخلّص من شرّ اللعين، المراقبة والمحاسبة بمؤاخذة النفس وملامتها، مثل أن يخاطبها يا نفس ويحك مضى ربيع الشباب فلا يفوتك خريف الشيب فإن فاتك الهرفي فلا تحرم من الرجعي، يا ظالم النفس والعباد أما سمعت قول الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[2] أليس ورائك عقبة كئود والرّجل حافية وما لك مركب وانّ قدامك يوماً لو طلعت فيه شمس الضحى لعاد أظلم من ليلك وقد دنوت إلى منازل دونها حتوف والطريق مخوف. قال علي عليه السلام «**أيها اليفن الكبير قد لهزه القتير** [أي: خالطه الشيب] **كيف أنت إذا التحمت أطواق النّار بعظام الأعناق**»[3]؛ فاغتنم مهلة قبل قدوم الغائب المنتظر.

أقول: وكيف يكون الإنسان عاقلاً ولا يقسم أوقاته. وفي الخبر: (انّ إبليس يرفع الدّنيا كلّ يوم في يديه فيقول: من يشتري ما يضرّه ولا ينفعه ويهمّه ولا يسرّه فيقول: أصحاب الدّنيا نحن، فيقول: لا تعجلوا فإنها معيوبة، فيقولون: لا بأس بها، فيقول: ثمنها ليس بدراهم ولا دنانير، إنّما ثمنها نصيبكم من الجنّة واني اشتريتها بأربعة أشياء بلعنة الله وعذابه وقطيعته، وبعت الجنّة بها فيقولون: يجوز لنا ذلك، فيقول: أريد أن تربحوني على ذلك وهو أن توطنوا قلوبكم على أن لا تدعوها أبداً، فيقولون: نعم فيأخذونها فيقول

١ـ تفسير الآلوسي، ج ٢٣، ص ٢٣١.

٢ـ سورة الفجر: ١٤.

٣ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٨٣.

الشيطان: بئست التجارة).[١]

وسئل النبيّ‌صلى‌الله‌عليه‌وآله عن وسوسة الشيطان، فقال: «**السارق لا يدخل بيتاً ليس فيه شيء فذلك من محض الإيمان**». قال أمير المؤمنين‌عليه‌السلام: «**الفرق بين صلاتنا وصلاة أهل الكتاب وسوسة الشيطان**»، لأنّه قد فرغ من عمل الكفّار وانّهم وافقوه والمؤمنون يخالفونه والمحاربة تكون مع المخالفة.

١ـ لم نعثر عليه فيما بأيدينا من المصادر.

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ قالوا: (علوم جميع الكتب السّماويّة في القرآن وعلومه في الفاتحة وعلومها في البسملة وعلومها في الباء)[1]. وقد وقع الاختلاف بين فقهاء المدينة والشام والبصرة وقراء مكّة والكوفة وفقهائهما، في أنّ البسملة هل هي آية من الفاتحة وغيرها فقال، ففقهاء المدينة والبصرة والشام: (انّ التسمية ليست من الفاتحة ولا من غيرها من السّور وإنّما كتبت للفضل والتبرك) وهو مذهب أبو حنيفة ومن تابعه، وقراء مكّة والكوفة وفقهائهما على أنّها: (آية من الفاتحة ومن كلّ سورة) كما عليه ابن عبّاس، فقال: (هي آية في كل سورة) وهو الصحيح، وأوّل ما جرى به القلم في اللوح، وأوّل ما نزل على آدم، وكانت الكفّار والمشركون يبدءون باسم آلهتهم فيقول: باسم اللّات والعزّى، فوجب أن يقصد الموحّد، معنى اختصاص اسم الله بالابتداء فلذلك قدر المتعلّق متأخّراً أي: باسم الله أتلو وأقرأ وأستعين؛ والابتداء يكون بالأهم نحو قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[2] كقولك للمعرس: باليمن والبركة والتقدير أعرست باليمن، والاسم أحد أسماء التي بنوا أوائلها على السكون،

١ـ نور البراهين، للجزائري، ج ٢، ص ٣.

٢ـ سورة هود: ٤١.

فإذا نطقوا لها مبتدئين زادوا همزة لئلا يقع الابتداء بالساكن. أو من الوسم محذوف الفاء، وطولوا الباء في كتابة (بسم الله) تعويضاً من طرح الألف وكلمة ﴿ٱللَّهِ﴾ أصله الإله، أو من لاه يليه إذا تستر من الستر، ثم ادخلت عليه الألف واللام فجرى الاسم العلم، مثل النّاس أصله أناس فحذفت الهمزة وعوّضت منها حرف التعريف، والصحيح انّ: معنى الإله هو الذات الذي يحقّ له العبادة وإنّما حقّت له، لقدرته تعالى على أصول النعم ولا يطلق هذا الاسم على غيره تعالى أبداً.

عن الصّادقعليه السلام قال: «**من قال لا إله إلّا الله مخلصاً دخل الجنة، وإخلاصه بها أن يحجزه لا إله إلّا الله عمّا حرم الله**»[1] وعن حذيفة بن اليمان قال: (لا يزال لا إله إلّا الله ترد غضب الربّ عن العباد ما كانوا لا يبالون ما انتقص من دنياهم إذا سلم دينهم، فإذا كانوا لا يبالون ما انتقص من دينهم إذا سلمت دنياهم. ثم قالوا هذه الكلمة ردّت عليهم وقيل لهم كذبتم ولستم بصادقين).[2]

قال عليعليه السلام: في تفسير الإمام في معنى البسملة: «**أستعين على هذا الأمر بالله الذي لا يحق العبادة لغيره إذا استغيث والمجيب إذا دعي**».[3]

وقد أودع جميع العلوم في الباء أي: بي كان ما كان وبي يكون ما يكون فوجود العوالم بي. وقال بعض أهل النظر لعلّ السرّ في أن جعل افتتاح الكتاب الكريم بحرف الباء؛ وقدّمت على سائر الحروف، لا سيّما على الألف مع تجرد الألف، بل يسقط الألف ويثبت مكانه الباء في (بسم الله).

إنّ في الباء تواضعاً وانكساراً وفي الألف ترفّعاً وتطاولاً، فمن تواضع لله

١ـ تفسير نور الثقلين، للحويزي، ج ٥، ص ٤٠.

٢ـ بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ١٩٧ ـ ١٩٨، ح ٢٣ (عن ثواب الأعمال).

٣ـ معجم المحاسن و المساوئ، أبوطالب التجليل التبريزي، ص ٢٤٠.

رفعه الله والباء للاتصال والإلصاق، بخلاف أكثر الحروف خصوصاً الألف من حروف القطع، والباء مكسورة فلمّا كانت فيها انكسار في الصورة والمعنى وجدت شرف العندية من الله، وذكروا فيها استحساناتاً أخرى ليس هذا المختصر يسعها، مثل انّ للباء علوّ الهمّة بخلاف بعضها، فإنّه لما عرضت عليها النقط ما قبلت إلّا واحدة، ومن قبيل هذه المناسبات كثيرة ذكروها في شروحهم.

قال أمير المؤمنين عليه السلام «**أنا النقطة تحت الباء**»[١] لعلّ مراده بيان مرتبة دلالته وإرشاده على التوحيد، أو يصف نفسه عليه السلام في مقام معرفة التوحيد ولذا وجبت ولايته.

قال محمّد بن صفوان عن ابن عبّاس قال: (كنّا عند رسول الله فأقبل علي عليه السلام قال له النبي صلى الله عليه وآله: «**مرحباً بمن خلقه الله قبل أبيه آدم بأربعين ألف سنة**»، قلنا أكان ابن قبل أبيه، فقال: «**نعم انّ الله خلقني وعليّا من نور واحد قبل هذه المدة، ثمّ قسّمه نصفين، ثمّ خلق الأشياء من نوري ونور عليّ...**»[٢] الحديث أو مراده علمه بعلوم الكتب الأولين والآخرين فيما أشرنا قبيل ذلك. قال صاحب التأويلات النجميّة: انّ الباء شفوي وكان أوّل انفتاح فم الذرة الإنسانيّة في عهد (الست) بالجواب بكلمة (بلى)، فاختصت الباء بهذه الاختصاصات، فجعلها سبحانه مفتاح كتابه ومبدأ كلامه وخطابه؛ وأسماء الله تذكر فيما يصح أن يطلق عليه بالنظر إلى ذاته أو باعتبار صفة من صفاته الثبوتية، كالعليم، أو السلبيّه كالقدوس، أو باعتبار فعل من أفعاله كالخالق، لكنها توقيفية عند الأكثر.

١ـ تفسير الآلوسي، ج ١، ص ٥١. و رواه السبزواري في شرح الأسماء الحسنى، ج ١، ص ٥.

٢ـ مشارق أنوار اليقين، للحافظ رجب البرسي، ص ٥٨.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الرحمة في اللغة رقة القلب والانعطاف ومنه الرحم، والمراد هنا هو التفضل والإحسان فالمعنى العاطف على خلقه بالرزق لهم ودفع الآفات عنهم؛ والرحمن، فعلان، في الرحمن الذي يرحم ويبسط الرزق علينا، الرحيم في دنيانا وديننا؛ وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم تلك المبالغة لشمول الرحمن في الدارين واختصاص الرحيم بالآخرة أو بالمؤمنين.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: المترحّم، إذا سئل أعطى وإذا لم يسئل غضب، وبني آدم حين يسأل يغضب، قال النبيﷺ **«ان لله مائة رحمة أعطى واحدة منها لأهل الدنيا كلها وادّخر تسعاً وتسعين إلى الآخرة يرحم بها عباده»**.[١]

واعلم؛ ان الرحمة من الصفات الإلهية وهي حقيقة واحدة؛ لكنها تنقسم بالذاتية والصفاتية، أي تقتضيها أسماء الذات وأسماء الصفات وكل منهما عامّة وخاصّة، فالرحمة العامة والخاصة الذاتيّتان ما جاء في البسملة، قيل: (ان لله تعالى ثلاثة آلاف اسم، ألف عرفها الملائكة لا غير، وألف عرفها الأنبياء لا غير، وثلاثمائة في التورية وثلاثمائة في الإنجيل وثلاثمائة في الزبور وتسعة وتسعون في القرآن وواحد استأثر الله به؛ ثم معنى هذه الثلاثة آلاف في هذه الأسماء الثلاثة ﴿ٱللَّهِ﴾ و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فمن علمها وقال فكأنّما ذكر الله بكل أسمائه).[٢]

وفي الخبر انّ النبيﷺ قال: **«ليلة أسري بي إلى السماء عرض عليّ جميع الجنان، فرأيت فيها أربعة أنهار: نهراً من لبن ونهراً من ماء ونهراً من خمر ونهراً من عسل فقلت: يا جبرئيل، من أين تجيء هذه الأنهار والى أين تذهب؟ قال: تذهب إلى حوض الكوثر ولا أدري من أين تجيء فادع الله ليعلّمك أو يراك، فدعا ربّه فجاء ملك**

١ـ نهج الحق وكشف الصدق، للعلّامة الحلي، ص ٣٧٤.

٢ـ انظر: عوالي اللآلي، ج ٤، ص ١٠٦.

فسلم على النبي(ص) ثم قال: يا محمد غمّض عينك، قال: فغمضت عيني ثم قال: افتح عينك ففتحت، فإذا أنا عند شجرة ورأيت قبة من درة بيضاء ولها باب من ذهب وقفل لو أن جميع ما في الدنيا من الجن والانس وضعوا على تلك القبة لكانوا مثل طائر جالس على جبل، فرأيت هذه الأنهار الأربعة، تخرج من تحت هذه القبة، فلما أردت أرجع قال لي ذلك الملك: لم لا تدخل القبة قلت: كيف أدخل وعلى بابها قفل لا مفتاح له عندي، قال الملك: مفتاحه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فلما دنوت من القفل، وقلت بسم الله الرحمن الرحيم انفتح القفل فدخلت في القبة فرأيت هذه الأنهار تجرى من أربعة أركان القبة؛ ورأيت مكتوباً على أربعة أركان القبة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[1] ورأيت نهر الماء يخرج من ميم بسم الله ورأيت نهر اللبن يخرج من هاء الله، ونهر الخمر يخرج من ميم الرّحمن ونهر العسل من ميم الرّحيم فعلمت ان أصل هذه الأنهار. الأربعة من البسملة، فقال الله سبحانه: يا محمد من ذكرني بهذه الأسماء من أمتك بقلب خالص من الرياء وقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ سقيته من هذه الأنهار» وفي الحديث: «من رفع قرطاساً من الأرض مكتوباً عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إجلالاً له ولاسمه عن ان يدنس كان عند الله من الصديقين، وخفّف عن والديه وان كانا مشركين».[2]

وعن الرضا(ع): «ان البسملة أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها»[3] قال النبي(ص): «إذا قال المعلم للصبي بسم الله بالخلوص، كتب الله له ولأبويه ولمعلمه برائة من النار إذا كانوا مؤمنين»[4] ولا يحصل الخلوص الا بهذه الأربع. قال النبي(ص): «أوصيك بأربع خصال (الأولى) الصدق فلا تخرجن عن فيك

١ـ لم نعثر عليه فيما بأيدينا من المصادر.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١، ص ١٧١. الدر المنثور، للسيوطي، ج ١، ص ١١.

٣ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٥٠.

٤ـ معارج اليقين في أصول الدين، للسبزواري، ص ١١٩.

كذبة أبداً (الثانية) الورع ولا تجرأ على خيانة أبداً و(الثالثة) الخوف من الله كأنك تراه و(الرابعة) كثرة البكاء من خشية الله يبنى لك بكل دمعة ألف بيت في الجنة».[١]

قال الشيخ أحمد البوني في لطائف الإشارات: (ان شجرة الوجود تفرعت عن البسملة والعالم كله قائم بها ومن أكثر من ذكرها رزق الهيبة عند العالم العلوي والسفلي)، قال الشيخ الأكبر في الفتوحات: (إذا قرأت فاتحة الكتاب، فصل بسملتها معها في نفس واحد من غير قطع). قال النبي ﷺ: **«حالفاً عن جبرئيل حالفاً عن ميكائيل حالفاً عن إسرافيل قال الله: يا إسرافيل بعزتي وجلالي وجودي وكرمي من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم متصلة بفاتحة الكتاب مرة واحدة فاشهدوا علي اني قد غفرت له وقبلت منه الحسنات وتجاوزت له عن السيئات ولا أحرق لسانه بالنار وأجيره من عذاب القبر وعذاب النار وعذاب يوم القيمة والفزع الأكبر»**.[٢]

وجه التسمية بفاتحة الكتاب

إمّا لافتتاح المصاحف بها، وإمّا لأنّ الحمد فاتحة كل كلام، واما لأنها أول سورة نزلت وسمّيت بأم القرآن، وأم الشيء أصله وذلك لأنّ المقصود من كل القرآن تقرير أمور أربعة: إقرار بالألوهية والنبوة، وإثبات المعاد، وإثبات الحكم، والأمر له، وهذه السورة جامعة لهذه المراتب، وسميت بالسبع المثاني لأنها سبع آيات، أو لأنّ كل آية منها تقوم مقام سبع من القرآن، فمن قرأها اعطي ثواب قراءة الكل أو لأنّ من قرأ آياتها السبع غلقت عنه أبواب النيران السبعة. واما وجه التسمية بالمثاني: فلأنها تثنى في كل صلاة، أو لأنّ نزولها مرتين، مرة في مكّة وأخرى في المدينة. وسمّيت بسورة الصلاة،

١ـ الكافي، ج ٨، ص ٧٩ ومن ذهب إليها في «من لايحضره الفقيه»، ج ٤، ص ١٨٩.

٢ـ انظر: الفتوحات المكية لابن عربي، ج ٤، ص ٤٩٥.

وسورة الشافية، والكافية، والوافية وسورة الحمد، وسورة السؤال، وسورة الدعاء، وسورة الكنز لما روي: «**ان الله تعالى قال فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشي**».[١]

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾

قال الزمخشري: (الحمد على الابتداء وخبره الظرف، الذي هو لله، وأصله النصب بإضمار فعله، على انه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة ومعنى الاخبار كقولهم شكراً وعجباً وما أشبهه، ومنها: سبحانك، ومعاذ الله، ينزلونها منزلة أفعالها، والعدول بها عن النصب إلى الرفع في الآية على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره).

ومنه قوله تعالى ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[٢] قال إبراهيم: سلام، رفع السلام للدلالة على انّ إبراهيم حيّاهم بتحيّة أحسن من تحيّتهم، لأنّ الرفع دالّ على معنى ثبات السلام لهم، فيؤول حقيقة المعنى نحمد الله حمدا فلذلك قيل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انتهى.

فقوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لامه؛ امّا للعهد، أي الحمد الكامل؛ وهو حمد الله لنفسه وحمد الرسل، أو اللام للعموم والاستغراق، أي جميع المحامد والأثنية من الملك والبشر خاص لله.

والحمد والمدح أخوان وهو الثناء الجميل من نعمة أو غيرها. والحمد والثناء ذاتاً خاص به تعالى شأنه على لسان أنبيائه، والتكليف من النعمة لأن بقائك موقوف عليه، واما الشكر فعلى النعمة خاصة، والحمد ثناء المحمود وإظهار كماله وأفعاله وآثاره، وهو: قولي، وفعلي، وحالي.

امّا (القولي): فحمد اللسان وثنائه عليه بما أثنى به نفسه على لسان أنبيائه.

١ـ علل الشرايع، ج ١، ص ١٢٨.

٢ـ سورة هود: ٦٩.

وامّا (الفعلي): فهو الإتيان بالأعمال البدنية من العبادات والخيرات ابتغاء لمرضاته حتى يستعمل الحامد كل عضو فيما خلق لأجله، على الوجه المشروع حتى يوافق ساير أعضائه لسانه.

وامّا (الحالي): فهو بحسب القلب؛ كالتخلق بأخلاق الله من الرضا والتسليم والاتصاف بالكمالات العلمية وحبّ المعروف وبغض المنكر وردهُ، وهو الجهاد الأكبر، فيكون في حكم الشهيد ثواباً. فمن ما روي في ثواب الشهداء يشمله فحينئذٍ يكون أهل الحال ويستحق المواهب من الله الواردة عليه ميراثاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1] وذلك بسبب العمل الصالح المزكّي للنفس المصفّي للقلب، وعبّر بالحال لحول العبد به من الرسوم العادية الشهوية إلى الصفات الحقية، وأول قدم الحال الدخول في باب الأبواب وهو التوبة، لأنها أول ما يدخل به العبد حضرت القرب من جبان الرب.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ربَه يُربّه فهو ربّ، ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة، كما وصف بالعدل والرب السيد المالك، ومنه قول صفوان لأبي سفيان: (لأن يربّني رجل من قريش، أحبّ إليّ من أن يربّني رجل من هوازن)،[2] ومنه قوله ﷺ: «**أللهم لا تجعل لفاجر عليّ يدا**»[3]: بيان برهان على استحقاقه تعالى الحمد بقوله مربي العالمين بإيجادهم وتربية أسباب وجودهم فيربي الظاهر بالنعمة والباطن بالفيض والرحمة وأحكام الشريعة التي بها قوام بقائهم في السعادة الأبدية ويربي سبحانه أجزاء العوالم كلاً بحسبها، فسبحان

١ـ سورة المؤمنون: ١٢ ـ ١١.

٢ـ التوحيد، للصدوق، ص ٢٠٣، عدة الداعي، ص ٣٠٣. المصباح، للكفعمي، ص ٣٣٥. بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٩٤.

٣ـ التحفة السنية، ص ٨٤.

من ربى الإنسان بأحسن التربية فاسمع بعظم وبصر بشحم.

اعلم أنّه اختلف في أفضلية نعمة البصر والسمع، فقال قائل: بأفضلية السمع لوجوه: منها: أنّ الله قدّم في الذكر في أغلب القرآن، السمع على البصر والتقديم في الذكر دليل على الشرف.

ومنها؛ أنّ العمى وقع في حقّ الأنبياء وأمّا الصمم فغير جائز، لأنّه مخل بأداء الرسالة.

ومنها؛ ان السمع تدرك من جميع الجوانب دون البصر.

ومنها؛ انّ الإنسان يستفيد من المعارف من المعلم وذلك لا يمكن إلّا بالسمع.

ومنها؛ انّ امتياز الإنسان عن سائر الحيوانات بالنطق والكلام، وأنّما ينتفع به السامعة لا الباصرة ومتعلّق السمع، النطق الذي به شرف الإنسان، ومتعلق البصر الألوان والأشكال وذلك أمر مشترك بين الإنسان وسائر الحيوان.

ومنهم؛ من قال بأن البصر أفضل من السمع، قالوا: المشهور انّه ليس الخبر كالمعاينة وذلك تدلّ على أنّ أكمل وجوه الإدراك البصر.[1]

الثّاني: انّ عجائب حكمة الله في العين، أكثر من عجائب حكمته في تخليق الأذن فركّب العين من سبع طبقات وثلاث رطوبات وجعل لها عضلات كثيرة على صور مختلفة والأذن ليس كذلك، وكثرة العناية في التخليق في الشيء يدلّ على كونه أفضل من غيره.

الثّالث: انّ القوّة الباصرة هي النور والآلة السّامعه هي الهواء والنّور أشرف من الهواء.

الرابع: انّ البصر، يرى ما فوق سبع سماوات والسمع، لا يدرك ما بعد على فرسخين فكان البصر أقوى.

١ـ انظر: شرح أصول الكافي، ج ١، ص ١٢٧.

الخامس: إنّ بعض النّاس يسمع كلام الله وكلام الملائكة في الدنيا ولا يراه أحد وأنّ موسى سمع كلام من غير سؤال؛ ولمّا سئل الرؤية، قال: ﴿لَن تَرَانِي﴾، فذلك يدل على أنّ حال الرؤية أعظم وأعلى من السماع، على أنّ ذهاب العين ليس كذهاب السّمع وهي الكريمتان. وأنطق بلحم ورتّب غذائه في النبات بحبوبه وثماره وفي الحيوان بحياته وآثار نفعه، وفي الأراضي بأشجاره وأنهاره وفي الأفلاك بكواكبه وأنواره.

ولمّا علم أنّ النفوس لو يهملوا أهلكوا أنفسهم في مدّة قليلة لعدم علمهم في تدبير أمورهم وبقائهم، وضع لهم قانوناً سماوياً لحفظ نفوسهم ودرك السعادة الفانية والباقية لأنّهم خلقوا للبقاء لا للفناء، فسبحان من فلحت حجّته واستظهر سلطانه وأقسطت موازينه، فجعل السيئة ذنباً والذنب فتنة والفتنة دنساً، وجعل الحسنى عتباً والعتبى توبة والتوبة طهوراً، فمن تاب اهتدى ومن افتتن غوى، ما لم يتب إلى الله ويعترف بذنبه، ولا يهلك على الله هالك. الله الله فما أوسع ما لديه من التوبة والرحمة والبشرى والحلم العظيم. وما أنكل ما عنده من الإنكال والجحيم والبطش الشديد، فمن ظفر بطاعته اجتلب كرامته ومن دخل في معصيته ذاق وبال نقمته وعمّا قليل ليصبحنّ نادمين.

قال الباقر عليه السلام: «**صلّى علي عليه السلام بالعراق صلاة الصبح، ثمّ خطب خطبة، فبكى وأبكى الناس من خوف الله ثمّ ما رؤي بعد ذلك ضاحكا إلى أن توفي فما ظنّك بنفسك**».

وربما يغتر بعض الجهّال ببعض ظواهر الأخبار بما ورد في ثواب الأعمال وهو غافل عن شرائطها الشرعية الواقعية، أو يغتر بالنسب الرفيع كالسيادة والعالمية، فيقول مثلا: جدّي يشفعني، فلا يقوم بالشرعيات ولا يعمل بالفرعيات ولا ينفعه الحسب ولا النسب كما في روضة الكافي.

قال الباقر عليه السلام: «**لا تتخذوا من دون الله وليجة، فلا تكونوا مؤمنين فإنّ كل سبب**

ونسب وقرابة ووليجة وشبهه منقطع مضمحلّ، كالغبار الّذي يكون على الحجر الصلد إذا أصابه المطر الكثير إلاّ ما أثبته القرآن»[١]، ويكون بإطاعة الرسول و﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[٢] ودع عنك الفضولي والمعضلات، وإنّ سنة الله لا تبدّل.

و﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جمع عالم والعالم جمع لا واحد له من لفظه. والعالم اسم لكلّ ما يعلم به في الأصل كالخاتم اسم لما يحتم، ثمّ غلب استعماله فيما سوى الله.

قال وهب: (لله ثمانية عشر ألف عالم والدنيا عالم منها).[٣] قال كعب الأحبار: (العوالم لا تحصى لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾).[٤]

وعن أبي هريرة: (إنّ الله تعالى خلق الخلق من ذوي العقول أربعة أصناف: الملائكة والشياطين والجنّ والإنس، ثمّ جعل هؤلاء عشرة أجزاء: تسعة منهم الملائكة وواحد الثلاثة الباقية، ثمَ جعل هذه الثلاثة عشرة أجزاء: تسعة منهم الشياطين وجزء واحد الجنّ والإنس، ثمّ جعلهما عشرة أجزاء تسعة منهم الجنّ وواحد الإنس. ثمّ جعل الإنس مائة وخمسة وعشرين جزءا فجعل مائة جزء في بلاد الهند، منهم ساطوخ وهم أناس رؤوسهم مثل رؤوس الكلاب، ومالوخ وهم أناس أعينهم في صدورهم، وماسوخ وهم أناس آذانهم كآذان الفيلة، ومألوف وهم أناس لا يطاوعهم أرجلهم يسمّون «دوالپاي» وهؤلاء كلّهم كفرة مصيرهم إلى النار. وجعل اثني عشر جزءاً منهم في بلاد الروم: النسطوريّة والملكانيّة والإسرائيليّة ومصيرهم إلى النار جميعاً.

١ـ الكافي، ج ٨، ص ٢٤٢.

٢ـ سورة النساء: ٥٩.

٣ـ تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٢٦.

٤ـ سورة المدثر: ٣١.

وجعل ستّة أجزاء منهم في المشرق: يأجوج ومأجوج وترك وخاقان، وترك حد خلخ وترك خضر، وترك جرجر، وجعل ستّة أجزاء في المغرب: الزنج والزط والحبشة والنوبة وبربر وسائر كفّار العرب ومصيرهم إلى النار، وبقي من الإنس من أهل التوحيد جزء واحد، فجزّأهم ثلاثا وسبعين فرقة: اثنتان وسبعون على خطر وهالكة، وهم أصحاب البدع والضلالات وفرقة ناجية).

وفي الحديث: «**إنّ بني إسرائيل تفرّقت على اثنتين وسبعين فرقة، وتفرّق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة كلّهم في النار إلّا فرقة واحدة**» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**من هم على ما أنا عليه...**»[1] يريد في الاعتقاد والقول والفعل.

وبالجملة؛ هو تعالى شأنه ربّ العوالم بأسرها، و«العالم» بفتح اللام اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين ويطلق على كلّ ما علم به الخالق من الأجسام والأعراض.

فأقول: عالمون وعالمين جمع الواو والنون وهو جمع العقلاء.

اعلم؛ أنّ العاقل من اجتمع فيه هذه الخصال العشرة: أن يحلم عمّن جهل عليه، ويتجاوز عمّن ظلمه، ويتواضع لمن هو دونه، ويسابق من فوقه في طلب البرّ، وإذا تكلّم تدبّر، فإن كان خيرا تكلّم فغنم، وإن كان شرّا فسكت فسلم، وإذا عرضت له فتنة استعصم بالله، وأمسك يده ولسانه، وإذا رأى فضيلة في الأدنية انتهز لها، لا يفارقه الحياء ولا يبدو منه الحرص، فتلك عشرة خصال يعرف بها العاقل.

وأمّا الجاهل هو: أن يظلم من خالطه، ويتعدّى على من هو دونه، ويتطاول على من هو فوقه، كلامه بغير تدبّر إن تكلّم أثم، وإن سكت غفل،

١ـ الملاحم والفتن، للسيد بن طاووس، ص ۳۰۹ (باختلاف يسير)، وانظر: بحار الأنوار، ج ٢٨، ص ٣٠، ومسند أحمد، ج ٣، ص ٢٠، والسنن الكبرى، ج ١٠، ص ٢٠٨.

وإن عرضت له فتنة سارع إليها، فأردته، وأن رأى فضيلة أبطأ عنها، لا يخاف ذنوبه القديمة، ولا يرتدع فيما بقي من عمره من الذنوب، يتوانى عن البرّ، غير مكترث لما فاته من الطاعة، فتلك عشر خصال من صفة الجاهل الّذي حرم العقل بشهوته.

[فإن قيل:] هذا اسم لا صفة فكيف جمعت بالواو والنون؟

قالوا: ساغ ذلك لتضمّن معنى الوصفيّة فيه وهي الدلالة على معنى العلم أو للتغليب؛ لأنّ في هذه العوالم عالم العقلاء من الملك والجنّ والبشر، فصحّ أن يؤتى بجمع العاقل.

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣﴾

وفي التكرار إشعار بأنّ التسمية آية مستقلّة وأيضاً ندب العباد بذكر رحمته ويناسب الربّيّة الرحمانيّة السائقة إليهم أرزاقهم في الدنيا. والرحيميّة الّتي توجب الغفران لهم في العقبى، ولأنّ الرحمة تنال بعد الحمد أو بالرحمانيّة والرحيميّة المتعلّقة بالذات، وفي البسملة وهو المتعلّقة بالصفات.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾

وقرئ «**مَلِكِ يَوْمِ الدّينِ**» قال هرمس الهرامسه:[1] (أشدّ الأعمال ثلاثة: الجود عند القلّة، والورع عند الخلوة، والعفو عند القدرة)،[2] ويقال لذي السلطة أيضاً: ملك عادل.

ولا تدوم ملكيّته هي في الدنيا إلّا بأمور ستّة:

١ـ هرمس الهرامسة: المعبر عنه في أساطير اليهود بالعربية بادريس النبي: قال القفطي في كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء في ترجمة إدريس: اختلف الحكماء في مولده ومنشأه وعمن أخذ العلم بالنبوة.

٢ـ انظر: فيض القدير شرح جامع الصغير، للمناوي، ج ٢، ص ٥٢.

الأوّل: أن لا يتجاوز عن قانون الكتب فإنه متى ما عدل عنه عدل النظام عن ملكه لا محالة.

الثاني: فإنه ان لا تأخذه في الله لومة لائم.

الثالث: صاحب شرطة توقف الرعية على حدودهم وينتصف من الأقوياء للضعفاء.

والرابعة: صاحب خراج يستقصى ولا يخون ولا يظلم.

والخامسة: صاحب بريد صادق ينهى الاخبار بالصدق، يوسع ولا يضيق على الحفد والولد وإذا ملك الأراذل باد، وقراءة أهل الحرمين ملك لقوله: لمن الملك اليوم ولقوله: ملك الناس وأصل الملكة، الربط والشدة والقوة، والمراد من اليوم في الآية، مطلق الوقت، لا ما نعبّر به من أنّه من الطلوع إلى الغروب وإضافة اليوم إلى الدين كإضافة سائر الظرف إلى ما وقع فيها من الحوادث، كقولهم: (يا سارق الليلة أهل الدار)[1]؛ أي مالك الأمر في يوم الجزاء، وقيل: قراءة الملك أبلغ من المالك لأن المالك هو الذي ملك شيئاً من الدنيا واما (ملك) هو الذي يملك الملوك لكنه مع هذا قالوا: (مالك) بالألف، أكثر ثواباً من ملك لزيادة حرف فيه.

حكي عن الثلجي انّه قال: (كان من عادتي قراءة مالك فسمعت من بعض أهل الفضل، ان ملك أبلغ فتركت عادتي وقرأت ملك ورأيت في المنام قائلاً يقول لي لم نقصت من حسناتك عشراً، أما سمعت قول النبي ﷺ: **«من قرأ القرآن كتب له بكل حرف عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات ورفعت له عشر درجات»**[2]، فلم أترك عادتي حتى رأيت ثانيا في المنام انّه قيل لي لم لا

١ـ الكتاب، للسيبويه، ج ١، ص ٨٩. (و نسبه إلى بعض الرجاز).

٢ـ تفسير القرآن الكريم، للسيد مصطفى الخميني، ج ١، ص ٤٣١.

تترك هذه العادة اما سمعت قول النبي ﷺ: «**اقرؤا القرآن فخماً مفخماً**» أي: عظيماً معظماً، فأتيت قطربا فسألته ما بين المالك والملك قال الملك أفخم معنى من المالك وهو الأنسب بمقام الإضافة إلى يوم الدين).

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

(**إيّا**) ضمير منفصل للمنصوب واللواحق التي تلحقه من الكاف والهاء والياء لبيان الخطاب، والغيبة والتكلم وتقديم المفعول لقصد الاختصاص، والعدول عن لفظ الغيبة الي الخطاب يسمى الالتفات عادتا من كلام الفصحاء، لأن فيه فائدة للسامع وتطربة نشاط يحصل له في الافتنان ويحصل بهذه الصنعة في الكلام استدرار إصغائه إليه بحسن الإيقاظ، فبيّن الله سبحانه للعبد بيان الحقيق بالحمد وأمره بالحمد واستشهد سبحانه في استحقاقه الحمد واختصاصه له تعالى بربوبيّته ومن صفاته برحمانيته فانكشف للعبد علم اليقين بمالكيته وخالقيته، فإنّ من كانت هذه صفاته لم يكن غيره يستحق العبادة والثناء إذ هو المختص بالحمد وهو الرّب المالك للعالمين بأسرها لا يخرج أحد من ملكوته وربوبيته وهو موصوف بولاية النعم الظاهرة والباطنة من الرحمة فالمعبودية خاصة به.

والفائدة المختصة من صنعة الالتفات في الآية هي: انه بعد بيان شئون (الجلالة) بالأوصاف المذكورة، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالعبادة والاستعانة به، فخوطب ذلك المعلوم المتميز فقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وإنّما قدم ذكر العبادة على الطلب لأن تقديم الوسيلة يكون قبل طلب الحاجة ليستوجب العبد الهداية فقال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

وروي ان الصادق عليه السلام قرأ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ واعلم ان المهتدى هو الذي ترك الدنيا والعادة، ثم اشتغل بوظائف الطاعة والعبادة، لا

من اتبع هواه أو خلط هواه بهداه.

قال الشيخ الطبرسي: (من استدام ذكر الهادي الخبير المبين عقيب سهر وجوع اطلع على أسرار الغيب). وكذا ذكر النور الهادي، ويقول بعده: اهدني يا هادي وأخبرني يا خبير، فبهذا البيان الجلي صار العبد يشاهد بعين اليقين ويخاطبه وجاهاً ويناجيه شفاهاً.

(إياك) يا من هذه صفاته، نخص[ك] بالعبادة ونستعين منك ولا نعبد غيرك والضمير المستكن في (نعبد) و(نستعين) للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضري الجماعة. أو له ولسائر الموحدين، أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم، لعلها تجاب وتقبل ببركاتها ولهذا شرعت الجماعة.

والعبادة، هي العبودية على النهج الذي امر به المعبود، فمن العبادة الصلاة بلا غفلة، والصوم بلا غيبة، والصدقة بلا منة، والحج بلا إرائة، والغزو بلا طمع ولا سمعة، والعتق بلا أذية، والذكر بلا ملالة، وسائر الطاعات بلا آفة، وكذلك في الأخلاق الرضى بلا ملال وكدورة، والصبر بلا شكاية، واليقين بلا شبهة، والاقبال بلا رجعة، والإيصال بلا قطيعة، ويجمع كل هذه الأمور اتباع السنة وهو مفتاح السعادة، كما قال: ﴿**إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾.[1]

ولمّا أنعم الله على عبده بنعمة الصلاة، قسّمها بينه وبين عبده كما قال على لسان نبيّه «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سئل فنصفها الذي لحضرة جلاله: الصفات والأسماء الحسنى والحمد والثناء والشكر ونصفها الذي للعبد الطلب والدعاء**»[2].

١ـ سورة آل عمران: ٣١.

٢ـ المجموع، محي الدين النوري، ج ٣، ص ٣٢٨.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾

بيان الطلب والمعونة المطلوبة، إذ هو الذي سئله الأنبياء والأولياء، كما قال يوسفعليه السلام: توفّني مسلما إذ لا يعتمد على ظاهر الحال، فقد يتغير بالمآل كما لإبليس وبرصيصا وبلعم، أي ارشدنا طريق الهداية، والصراط المستقيم، استعارة عن ملة الإسلام والدين الحق، وأثبتنا على الهداية، وهداية الله على أنواع، منها الهداية بإرسال الرسل، فإنّهم الدعاة إلى الله في عالم الأمر والخلق اي: الباطن والظاهر قال تعالى **﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾**[1] وهذا سماع يعم المعنوي شامل للمعاينة القلبية المساوق للإيمان بالغيب، ومنها الهداية بإنزال الكتب سيما الفرقان. **﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾**[2]، **﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾**[3] ومنها الهداية القلبية: في الحديث: «**إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينا قلبه لا يسمع بمعروف إلا عرفه ولا بمنكر الا أنكره**.»[4] ومنها الهداية بالإلهام الرباني، المخصوص بالأولياء، أو المعجزات الباهرات الجاريات على أيدى الأنبياء والمعصومين.

وإلى هذه الإشارة بقولهصلى الله عليه وآله: «**إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ما أن تمسّكتم بهما لن تضلّوا**»[5] والألف واللام في الصراط، للعهد، يشمل جميع أنواع الهدايات بقرينة بعده في قوله **﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾** فيعمّ هذا المعنى الكلّي في هذا الفرد، فهو من قبيل الاشتراك المعنوي، لكن ليس بمشترك

١ـ سورة آل عمران: ١٩٣.

٢ـ سورة الإسراء: ٩.

٣ـ سورة البقره: ٢.

٤ـ أنظر: المحاسن، ج ١، ص ٢٠٠. ورواه الكليني في الكافي، ج ١، ص ١٦٥.

٥ـ الاحتجاج، ج ١، ص ٣٩١.

معنوي، بل هذه الأنواع افراده وأعداده كعدد الأول والثاني في معنى العترة، فالصراط المتصف بالاستقامة مندرج تحت هذا المفهوم الكلي، وهو صراط أوليائه.

قيل فيه وجوه أخرى (أحدها) ثبتنا على الدين الحق، لأنّ الله قد هدى الخلق كلّهم على الفطرة، الّا انّ الإنسان قد ينزل وترد عليه الخواطر الفاسدة، فيلزم أن يسأل الله أن يثبته على دينه ويدعه عليه ويعطيه زيادات الهدى التي هي أحد أسباب الثبات على الدين كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] وهذا كقول القائل لغيره وهو يأكل: كل، أي دم على الأكل. و(ثانيها) انّ الهداية هي الثواب أو لازمها الثواب فمعناه اهدنا إلى طريق الجنة ثوابا و(ثالثها) ان المراد، دلنا على الدين الحق في مستقبل العمر كما دللتنا عليه في الماضي، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**يعنى أدم لنا توفيقك الذي أطمناك به في ماضى عمرنا، حتى نطيعك لذلك في مستقبل أيامنا**».[2]

وفي الكلام تحقيق آخر؛ وهو ان العبد يحتاج إلى الهداية في جميع أموره آناً فآناً ولحظة فلحظة، فإدامة الهداية هي هداية أخرى بعد الهداية الأولى، فتفسير الهداية بإدامتها ليس خروجا عن ظاهر لفظها، وفي الآية الشريفة لفظ جامع يشتمل على مسألة أحكام المعرفة، والتوفيق لإقامة الشرائع في الإسلام ومعرفة من أوجب الله طاعته، واجتناب المحارم والآثام، والبرائة من أحوال الزائلين المزيلين والضالين المضلّين ممن عاند الحق وعمى عن طريق الرشد، فقال:

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾

بدل من الصراط الأول، بدل الكلّ، والمنعم عليهم الذي اصطفاهم من

١ـ سورة محمد: ١٧.

٢ـ الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٣٨.

خلقه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين والذين أقبلوا بالقبول من طلب رضاه حتى لو امر بذبح ولده، كإبراهيم أو بأن ينقاد للذبح، كإسمعيل، أو بأن يرى نفسه في البحر، كيونس، أو بأن يتلمذ مع بلوغه أعلى درجات الغايات، كموسى، أو بأن يصبر في الأمر بالمعروف على القتل والشق بنصفين، كيحيى وزكريا.

ومعلوم ان المنعم عليهم طبقات، وهؤلاء المذكورون وأمثالهم المكمّلون في الاهتداء بحسب قابلياتهم، فأنعم الله على ضمائرهم وأرواحهم أنوار العناية، وعلى هممهم آثار الولاية وعلى نفوسهم وطباعهم قمع الهوى وقهر الطبع وحفظ الشرع بالرعاية ومن مكايد الشيطان بالمراقبة والكلاية، ودونهم المؤمنون الذين معهم، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا في اتباع السنة وانقياد النفس للأوامر والنواهي.

وفي كتاب المعاني: عن الصادق عليه السلام: «**الهداية هي الطريق إلى معرفة الله وهما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأما الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه عن الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة**».[1]

وعنه عليه السلام «**ان الصراط أمير المؤمنين**»،[2] وزاد في رواية أخرى (**ومعرفته**)،[3] وفي أخرى «**نحن الصراط المستقيم، فمعرفته واتّباعه، الصراط المستقيم، فمن أصابه تلك المعرفة وذلك النور فقد اهتدي، ومن أخطأه فقد ضلّ يا علي أنت صراط الله، لو**

١ـ معاني الأخبار، للصدوق، ص ٣٢.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

انصفوك» وقرأ: صراط من أنعمت عليهم، عن أهل البيت عليهم السلام وعن عمر بن الخطاب وعمر بن الزبير.

لكن الصحيح هو المشهور، والمنعم عليهم هم الذين خصهم الله بعصمته واحتج بهم على بريّته وفضلهم على خليقته، فيكون ذلك شهادة لصراطهم بالاستقامة على أكد الوجوه، كما تقول: هل دلك على أكرم [الناس] فلان فيكون ذلك في وصفه بالكرم من قولك هل أدلك على فلان الأكرم، لأنك ذكرت كرمه مجملاً أوّلاً ومفصلاً ثانياً وأوقعت فلاناً تفسيراً للأكرم فجعلته علماً في الكرم، ومعنى الكلام انه: من أراد رجلاً جامعاً للكرم ففلان: والمنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله وقائدهم ورئيسهم الذي لم يشرك بالله طرفة عين، وهو الصراط الأعظم أمير المؤمنين عليه السلام.

قال الشاعر:

حبه موجب خلد ونعيم	بغضه منشأ نار وسقر
ها عليّ بشر كيف بشر	نوره فيه تجلّى وظهر
هو والمبدء شمس وضياء	هو والواجب نور وقمر
علّة الكون ولولاه لما	كان للعالم عين وأثر
ما هو الله ولكن مثلا	معه الله كنار وحجر
و له أبدع ما تعقله	من عقول ونفوس وصور
فلك في فلك فيه نجوم	صدف في صدف فيه درر
جنس الأجناس عليّ وبنوه	نوع الأنواع إلى الحادي عشر
كلّ من مات ولم يعرفهم	موته موت حمير وبقر
ليس من أذنب يوما بإمام	كيف من أشرك دهرا وكفر
قوسه قوس نزول وعروج	سهمه سهم قضاء وقدر

حبـه مبـدء خلـد ونعـيم　　　بغضـه منشـأ نـار وسـقر
مـن لـه صـاحبة كـالزهراء　　　او سـليل كشـبير وشـبر
من كمن هلّل في عهد صبي　　　او كمن كبّر في عهد صغر
أيهـا الخصـم تـذكر سـندا　　　متنـه صـحّ بـنصّ وخبـر
إذ أتى أحمد في خم غـدير　　　بعلـيّ وعلـى الرّحـل نبـر
قال من كنت أنـا مـولى لـه　　　فعلـي لـه مـولى ومقـر
قبـل تعيـين وصـيّ ووزيـر　　　من رأى مات نبي وهجر[1]

قال شيخ الطائفة في أماليه، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: دخل الحارث الهمداني على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في نفر من الشيعة وكنت فيهم، وذكر الحديث، وقال في آخره «**وأبشرك يا حارث والذي فلق الحبّة وبرء النسمة ليعرفني وليّي وعدوّي في مواطن شتّى ليعرفني عند الممات وعند الصّراط، وعند المقاسمة**»، فقال: وما المقاسمة يا مولاي قال: «**مقاسمة الجنّة والنار، أقول: هذا وليي وهذا عدوّي**»، ثمّ أخذ أمير المؤمنين بيد الحارث وقال: «**يا حارث؛ أخذت بيدك كما أخذ رسول الله بيدي، فقال لي، وقد اشتكيت حسدة قريش والمنافقين: انّه إذا كان يوم القيمة أخذت بحجزة، يعني: عصمة من ذي العرش تعالى، وأخذت أنت يا عليّ بحجزتي وأخذت ذريّتك بحجزتك وأخذت شيعتك بحجزتكم، فماذا يصنع بنبيّه، وما يصنع نبيّه بوصيّه، وما يصنع وصيّه بأهل بيته وشيعتهم. خذها إليك قصيرة من طويلة، أنت مع من أحببت ولك ما اكتسبت، قالها ثلاثا**»، فقام الحارث جر ردائه جذلا وقال: ما أبالي وربّي بعد هذا متى لقيت الموت أو لقيني[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**قال لي رسول الله يا علي ان الله أعطاني فيك**

١ـ القصيدة الغديرية المعروفة: للحاج ملاعلي الخوئي النجفي (المتوفى ١٣٥٠ ق).

٢ـ الأمالي، للطوسي، ص ٦٢٥. ورواه المجلسي في البحار، ج ٦٥، ص ١٢٠.

سبع خصال أنت أول من ينشق القبر عنه واوّل من يقف على الصراط معي، فتقول للنار خذي هذا، فهو لك وذري هذا، فليس هو لك، وأنت أول من يكتسى إذا كسيت ويحيى إذا حييت، واوّل من يقف معي عن يمين العرش وأول من يقرع باب الجنّة وأول من يسكن معي عليين وأول من يشرب معي من الرحيق المختوم الذي ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون».(١)

ابن بابويه قال: قال رسول الله ﷺ: «معاشر الناس من أحسن من الله قيلا وأصدق من الله حديثا، معاشر الناس ان ربكم أمرني أن أقيم لكم علياً علماً وإماماً وخليفة ووصياً وأن أتخذه أخاً ووزيراً، معاشر الناس ان علياً باب الهدي بعدي والداعي إلى ربي وهو صالح المؤمنين ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال: انني من المسلمين، معاشر الناس ان عليا منّي، ولده ولدي وهو زوج حبيبتي، أمره أمري ونهيه نهيي، أيها الناس عليكم بطاعته واجتناب معصيته، وانّ طاعته طاعتي ومعصيته معصيتي، معاشر الناس ان علياً صدّيق هذه الأمة وفاروقها وهارونها ويوشعها وشمعونها وآصفها، انه باب حطتها وسفينة نجاتها، انه طالوتها وذو قرنيها، معاشر الناس انه محنة الورى والحجة العظمى والآية الكبرى وإمام الهدى والعروة الوثقى، معاشر الناس انّ علياً قسيم، لا يدخل النار وليّ له ولا ينجو منها عدوّ له، انّه قسيم الجنّة لا يدخلها عدوّ له ولا يتزحزح منها وليّ له، معاشر أصحابي قد نصحت لكم وبلّغتكم رسالة ربّي ولكن لا تحبون الناصحين أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم».(٢)

وأصل الصراط، سراط من السين وبدلوا السين بالصاد لما بين الصاد والطاء مواخاة في الاستعلاء، ولكراهة ان يتسفل بالسين، ثم يتصعد بالطاء أبدلوا بالصاد.

١ـ الأمالي، الصدوق، ص ٦٤٣.

٢ـ الأمالي، للصدوق، ص ٨٣. ورواه الفتال النيسابوري في روضة الواعظين، ص ١٠٠، حلية الأبرار، للسيد هاشم البحراني: ج ٢، ص ٤٣٨.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ جرّ غير على البدلية من الهاء والميم في عليهم مثل قول الشاعر:

على حالة لو انّ في القوم حاتم　　　على جوده لضنّ بالماء حاتم

فجرّ حاتم على البدليّة من الهاء من جوده، أو يكون غير مجروراً على البدليّة من الذين، أو يكون صفة للذين وكلمة، غير، يستعمل لمعنى المغايرة ونفى الحكم. ومعنى الغضب ثوران النفس عند ارادة الانتقام ويحصل غليان في دم القلب لشهوة التشفي والانتقام، وهذه الكيفية في حقّ الله تعالى محال، والمراد هنا نقيض الرضى، أو ارادة الانتقام أو الأخذ الشديد: وذلك لأنّ القاعدة التفسيرية عند أهل التفسير، انّ الأفعال التي لها أوايل بدايات وأواخر غايات، إذ لم يجز ولم يمكن إسنادها إلى الله، باعتبار البدايات يراد بها حين الإسناد النهايات؛ كالغضب والحياء والتكبّر والاستهزاء والسرور والغم. والمراد من المغضوب عليهم، هم اليهود. والضالين، النصارى.

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.[٢]

واما النصارى بدلالة قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[٣]، والآية في حقهم، وقد اشتهر تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى، وفسّر المغضوب عليهم بالعصاة في الفروع، والضالين بالمختلين في الاعتقاديات،

١ـ سورة المائده: ٦٠.

٢ـ سورة البقره: ٦٥.

٣ـ سورة المائدة: ٧٧.

فإن المنعم عليه من وفق الجمع بين العلم والعمل بالأحكام الاعتقادية والعمل بالشريعة، فالمقابل له، من اختل إحدى قوتيه العاقلة والعاملة،[١] ولفظة «لا» تفيد تأكيد النفي الواقع قبلها، وفي عدوله سبحانه عن إسناد الغضب إلى نفسه تعالى، مع التصريح باسناد عديله أعني، النعمة، إليه، تشييد لمعالم العفو والرحمة وإشارة لمباني الجود والكرم، حتى كان الصادر عنه هو الإنعام لا غير، وان الغضب صادر عن الغير بسبب أن الغير صار سبب الغضب والا فالمناسب ان يقول غير الذين غضبت عليهم، فصار الكلام في قوة التصريح في جانب الرحمة، والتعريض في جانب العقاب.

وكذلك أغلب الآيات المتضمنة لذكر العفو والانتقام، فإنك تجدها ظاهرة في ترجيح جانب العفو، مثل قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] مع إنّ ظاهر المقابلة ونسق الآية أن يقول: وكان الله غفوراً معذباً، وكذلك قال تعالى ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾[٣] حيث بعد بيان صفة الانتقام بقوله شديد العقاب جعلها محفوفة بنعوت الإحسان. وليس المراد تخصيص نسبة الغضب باليهود ونسبة الضلال بالنصارى، بل جميع الكفار في بين النسبتين داخلون والكفر ملة واحدة، الا إن الله يخص كل فريق بسمة يعرف بها ويميز بينه وبين غيره بها وان كانوا مشتركين في صفات كثيرة.

وقال عبد القاهر الجرجاني: (ان حق اللفظ فيه أن يكون خرج مخرج الجنس)[٤].

١ـ انظر: مشرق الشمسين، للبهائي العاملي، ص ٤٠٩.

٢ـ سورة آل عمران: ١٢٩.

٣ـ سورة غافر: ٣.

٤ـ رواه صاحب مجمع البيان، ج ١، ص ٧١.

وقيل: المراد من ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ العصاة، ومن ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ الجاهلون بالله، لأن المنعم عليهم هم الجامعون بين العلم والعمل، فكان المقابل لهم من اختل إحدى قوتيه العاقلة والعاملة والمخل بالعلم والعمل جاهل ضالّ.[١]

فإن قيل: انّ من المعلوم ان المنعم عليهم غير الفريقين فما الفائدة في البيان، أقول: الفائدة إشعار مقام الخوف والرجاء.

قال محمد الحلبي: (عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه كان يقرء ملك يوم الدّين، ويقرء اهدنا صراط المستقيم)[٢]. وعند أهل السنّة بعد فراغ الفاتحة، يستحب القول بكلمة «آمين» وروى جميل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا كنت خلف إمام ففرغ من قراءة الفاتحة فقل أنت من خلفه: الحمد لله ربّ العالمين**».[٣] وروى فضيل بن يسار عنه عليه السلام «**إذا قرأت الفاتحة ففرغت من قراءتها وأنت في الصلاة فقل الحمد لله رب العالمين**».[٤] واعلم انّ المصلّي إذا توجه بوجهه إلى الله لأداء وظيفة العبودية وأحرم بالتكبيرة مع النية الخالصة لمولاه، والتزم بحضور قلبه وعرف نعم الله بالمشاهدة، ونفسه بذلك أعدل شاهد وأصدق رائد، ابتدأ بالتسمية استفتاحاً باسم المنعم واعترافاً بإلهيته واسترواحاً إلى ذكر فضله، فبعد أن اعترف بالمنعم الفرد اشتغل بالشكر له والحمد له، فقال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ولما رأى نعم الله على غيره واضحة، كما شاهد آثارها على نفسه لائحة، عرف أنّه رب الخلائق أجمعين، فقال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولذلك لمّا كان شمول فضله وعموم رزقه للمربوبين، قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ولما رأى تقصيرهم في واجب شكره وعدم مؤاخذته عاجلاً بالعصيان، قال: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾

١ـ انظر: تفسير البيضاوي، ج ١، ص ٨١.
٢ـ نور الثقلين، ج ١، ص ١٩، الحديث ٧٩ و٨٠.
٣ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٧٢، ومن ذهب إليها في «بحار الأنوار»، ج ٨٥، ص ٩٣، الحديث ٦٠.
٤ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٧٢، ووسائل الشيعة، ج ٤، ص ٧٥٣ (باختلاف يسير).

ولمّا رأى ما بين العباد من التباغي والفساد والتكالب والتلاكم وان ليس بعضهم من شرّ بعضهم بسالم، علم أنّ ورائهم يوما ينتصف فيه للمظلوم من الظالم فقال: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ولما عرف هذه الجملة، فقد علم انّ له خالقاً رازقاً يحيى ويميت ويبدي ويعيد ولمّا صار الإله الموصوف بهذا الوصف كالمدرك بالحس والعيان تحول عن لفظ الغيبة إلى الخطاب فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ثم سئله الإستعانة لأموره ديناً ودنياً بقوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ ثم سئله الاستدامة على دين الحق والثبات عليه، بل طلب أمراً جامعاً لجميع مراتب الخير فقال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ صراط أوليائك الذين اصطفيتهم، فسأله أن يلحقه بهم ويسلك به سبيلهم، لا سبيل الزائغين والمنحرفين فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

والقرآن أعجز الأولين والآخرين بالبلاغة والفصاحة. اعلم أنّه لا بدّ أن يكون لكلّ كلام مرغوب حظّ من البلاغة وقسط من الجزالة والبراعة فحينئذٍ ما ظنّك بما في ذروة الإعجاز، واعلم انّ شعب البلاغة في علم المعاني والبيان عشرة: الاستعارة، والتشبيه والكناية والإيجاز والإطناب والمغالطة والتضمين والاستدراج والمبادي والتخلص.

«**الأولى**»: أي الاستعارة؛ هو أن يحاول المنشي والمتكلم تشبيه شيء بغيره ولا يأتي بأداة التشبيه طلبا لزيادة الدلالة مع الإيجاز فيستعير اسم المشبه به ويكسوه الشبه من غير تعرض لذكر المشبه فيحصل به زيادة بلاغة مثاله ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾[1].

الضمير المؤنث راجع إلى مكة باعتبار أهلها، ووجه الاستعارة ان الثوب

١ـ سورة النحل: ١١٢.

لما كان يحيط بجوانب اللابس استعار اسم اللباس للخوف والجوع حيث أراد سبحانه الإخبار عن إحاطة الجوع والخوف من جميع الجهات، فهو أبلغ في المقصود، إذ لو قال: جعل الله الجوع والخوف محيطين بهم من جوانبهم، كأنّه لباس لهم لم يكن في الكلام من الحسن ما في الاستعارة.

«**الثانية**»: من أبواب البلاغة التشبيه؛ وهو الدلالة على شيئين اشتركا في معنى لكن ذلك المعنى ثابت ومعروف في الاسم الذي دخلت عليه أداة التشبيه، فيجعل المنشي والمتكلم الاسم الذي لم تدخل عليه الأداة كالاسم الذي دخل عليه الأداة مثاله «زيد كالأسد» و«وجهه كالقمر»، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ شبّه سبحانه الناس عند خروجهم من القبور مضطربين متحيرين قد طبقوا الجهات بكثرتهم لا يلوي بعضهم على بعض، بالجراد المنتشر، لحصول هذا المعنى من هذا التشبيه.

«**الثالثة**»: الكناية؛ وهو لفظ استعمل في معناه لكن المراد ما يلزم ذلك المعنى، مثاله في، عيسى وامه، كانا يأكلان الطعام، كنى به عن خروج الخارج منهما، لأنه من لوازم الأكل، وهو أفصح وأوجز والطف، والمقصود من هذه الكناية ان من خرج منه، هذا الخارج، فهو بمعزل عن الإلهية، وردّ محكم لقول النصارى.

«**الرابعة**»: الإيجاز؛ وهو التعبير بالألفاظ القليلة عن المعاني الكثيرة وهو دليل على رجحان العقل، فكل نوع صحيح من الإيجاز معدود من الإعجاز، وقد أجمع أرباب المعاني والبيان انّ أوجز كلمة استعملتها العرب هي قولهم: القتل أنفى للقتل، فلمّا نزل قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[1] أذعنوا برجحانه، بل قولهم: القتل انفى للقتل، هذا الكلام ليس بتامّ فإنّ بعض القتل هو موجب لكثرة القتل لا نفيه.

١ـ سورة البقرة: ١٧٩.

«**الخامسة**»: الإطناب؛ وهو ذكر الشيء مرّة أخرى بلفظ غير الأول، لشدة الاعتناء به، مثاله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾[١]، فقوله بأفواهكم إطناب؛ لأنّ قوله تقولون، دلّ على ما دلّ بأفواهكم، فإنّ القول لا يكون الا بالفم ولكن نبّه به على تعظيم هذا الأمر لشدة قبحه.

«**السادسة**»: المغالطة؛ وهي أن يأتي المنشي المجيد بكلام يدلّ على معنى وله مثل أو نقيض، يكون المثل والنقيض أحسن موقعا، مثاله في حقّ المنافقين وقد صدر منهم كلمات في حق النبيّ بالاستهزاء، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[٢] فغالطوا في الجواب بهاتين الكلمتين الموهمتين صدق ما كانوا فيه، فكذّبهم الله بقوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[٣].

«**السابعة**»: التضمين؛ وهو أن يضمن المنشي كلامه شيئاً من الأمثال أو الشعر أو الحديث وهو يزيد الكلام عذوبة وحسنا.

«**الثامنة**»: الاستدراج؛ وهو أن يصوغ لغرضه ألفاظاً يكسوها من اللطافة ما يحيّر الألباب، وهو الركن الأعظم في هذه الصناعات، مثاله في القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾[٤]، فإنّ موسى عليه السلام لمّا أراد أن ينقل قومه من أرضهم إلى غيرها أسمعهم ما سرّهم ثم استدرجهم إلى مطلوبه بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[٥].

١ـ سورة النور: ١٥.

٢ـ سورة التوبه: ٦٥.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ سورة المائدة: ٢٠.

٥ـ سورة المائدة: ٢١.

«**التاسعة**»: المبادي؛ وتسمّى براعة الاستهلال، وهو أن يجعل أوّل كلامه دالاً على المقصود كقول النحوي: الحمد لله الذي رفع من انخفض لجلاله.

«**العاشرة**»: التخلّص؛ وهو أن يجعل بين المعنى الذي ينتقل عنه والذي ينتقل إليه ارتباطاً وتعلّقاً بحيث يكون الكلام المشتمل على المعاني المتعددة كالمنتظم في سلك واحد مثاله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إلى أن يقول: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، فإنّ في هذه الآيات إلى قوله: (ثم يحيين) من حسن التخلص ما يدهش العقول، فتأمّل في حسن البلاغة.

قال أهل البيان: انّ من البلاغة، براعة الاستهلال وحسن الابتداء، وهو أن يأتي المتكلّم بكلام يفهم غرضه من كلامه، عند الابتداء من كلامه، استهل الصبي، أي: صاح عند الولادة، واستهل رأى الهلال واستهلت السماء، أي: جادت بالهلال وهو أول النظر والمقصود من إنزال القرآن حفظ الأصول التي عليها مدار الدين والدنيا والأصل الأول معرفة الله وصفاته، والى هذا المعنى الإشارة بربّ العالمين، الرحمن الرحيم، من الصفات.

فيستحق الحمد والإطاعة، ثم الأهم معرفة النبوات، وإليه الإشارة بالذين أنعمت عليهم، ومعرفة المعاد، وإليه الإشارة بمالك يوم الدين، ثم علم العبادات وإليه الإشارة بإيّاك نعبد، وعلم السلوك وهو حمل النفس على الآداب الشرعية والانقياد، وإليه الإشارة باهدنا الصراط المستقيم، وعلم القصص وهو الاطّلاع على أخبار الأمم السابقة ليعلم المطّلع على ذلك سعادة من أطاع الله وشقاوة من عصاه، وإليه الإشارة بقوله:

١ـ سورة الشعراء: ٧٧.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ففي فاتحة القرآن براعة وتنبيه على الغرض من إنزال القرآن، وكذلك سورة (اقرأ) فيها حسن الابتداء والبراعة، فإن فيها الأمر بالقرائة، والبدء فيها باسم الله لتعريف ذاته، وفيه إشارة إلى علم الأحكام بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[١] مثال براعة الاستهلال في الشعر، قول أبي تمام يهنّي المعتصم العباسي بفتح عمورية وكان المنجمون زعموا انها لا تفتح في هذا الوقت:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

بيض الصفائح[٢] لاسود الصحائف في ... متونهنّ جلاء الشك والريب[٣]

قيل في معنى التفسير: أصله من التفسرة وهو ماء المريض، يجعلونه في القارورة، ليعلم ويستنبط الطبيب مرض المريض فيستكشف منه، وقيل غيره. والقرآن معانيه على أقسام؛ منها: ان المصلحة لا تقتضي أن يعلم علمه أحد حتى الأنبياء، مثاله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٤] وقسم يعلمه من عرف العربية وهو المحكم، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾[٥] و﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾[٦] و﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾[٧]. وأغلب القرآن من هذا القسم الثاني.

١ـ سورة العلق: ٥.

٢ـ الصفائح: جمع صفيحة، وهي الحديدة العريضة، ويقال للسيف العريض كذلك.

٣ـ ديوان أبو تمام، ج ١، ص ٤٥.

٤ـ سورة الأعراف: ١٨٧.

٥ـ سورة الأنعام: ١٥١.

٦ـ سورة الإسراء: ٣٢.

٧ـ سورة الإسراء: ٣٤.

وقسم ثالث؛ وهو الذي لا يتبين المراد منه كاملا الّا إذا شرحه النبي، وهو الذي يسمّى بالمجمل نحو: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1] ومثل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[2]

وقسم رابع؛ وهو الّذي لفظه مشترك وهو الّذي يسمّى بالمتشابه ومثال آيات متشابهة، مثل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[3] وقوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[4]، بعبارة أخرى؛ لا يقدم المكلّف في العمل به الا بإخبار الرسول والإمام من نقل الصحيح عنهم.

والقران فيه الناسخ والمنسوخ، بمعني ان الآية التالية تنسخ حكم ما قبلها مثل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[5] حيث نسخت هذه الآية ما كان من حكم الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾[6] وهذا الحكم منسوخ لكن التلاوة غير منسوخة، هذا قسم من النسخ، واما العامّ فهو لفظ يشمل جميع أفراد جنسه، والخاص لا يشمل الا الفرد. واما أسامي القرآن: أولها القرآن، من الضم والجمع، وفرقان، وكتاب، وذكر، وتنزيل، وحديث، وموعظة، وتذكرة، وتبيان، وبصائر، وفصل، وحكم، وحكيم، وذكرى، وحكمة، ومهيمن، وشافي، وهدى، وهادي وصراط مستقيم، ونور، وحبل، ورحمة، وروح، وقصص، وحق، وبيان، وعصمة، ومبارك، ونجوم،

١ـ سورة المزمل: ٢٠.

٢ـ سورة آل عمران: ٩٧.

٣ـ سورة الفجر: ٢٢.

٤ـ سورة البقره: ١١٥.

٥ـ سورة البقره: ٢٣٤.

٦ـ سورة البقره: ٢٤٠.

لأنّها نزلت نجماً نجما قال الله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[١] وهو المراد من المعنى، ومجيد، وعزيز، وكريم، وعظيم، وسراج، ومنير، وبشير، ونذير، وعجيب وقيّم، ومبين، ونعمة، وعليّ، فهي ثلاثة وأربعون اسما لها مناسبات مع المسمى. واما السورة، سميت بها، قيل: السورة المنزلة العظيمه. قال النابغة:

الـم تـر ان الله أعطـاك سـورة ترى كل ملك دونها يتذبـذب[٢]

أي منزلة شريفة عالية، وكذا سور البلد لأنه مرتفع.

هذا إذا كان بغير الهمزة، لكن إذا كان مهموزا فالمعنى، بقية الماء والطعام في الإناء، واما الآية، بمعني: العلامة، مثل: وآية منك، في كلام عيسى وبمعنى الرسالة، أبلغه عني آية، أي: رسالة، وبمعنى: الجماعة، كقولهم خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم، وبمعنى الأعجوبة، كل هذه المعاني مناسبة للآية، واما الكلمة: لفظ موضوع يدل على معنى بالوضع.

في ثواب القراءة، روى شهر بن حوشب عن النبيﷺ قال: «**فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه**»[٣]، وقالﷺ: «**القرآن غني لا غنى دونه ولا فقر بعده**»[٤] وقالﷺ: «**القرآن أفضل كل شيء دون الله فمن وقّر القرآن فقد وقر الله ومن لم يوقّر القرآن فقد استخف بحرمة الله وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد عند ولده**»[٥].

وعن أبي امامة عن رسول اللهﷺ قال: «**من قرأ ثلث القرآن كأنّه أوتي ثلث**

١ـ سورة الواقعة: ٧٥.

٢ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٢٠.

٣ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٣٨٠. بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٩.

٤ـ وسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٦٨. ورواه المجلسي في البحار، ج ٨٩، ص ١٩.

٥ـ بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٩. ومن ذهب اليها في (مستدرك الوسائل) ج ٤، ص ٢٣٦.

النبوّة؛ ومن قرأ ثلثيه كأنّما أوتي ثلثي النبوّة؛ ومن قرأ تمام القرآن فكأنّما أوتي تمام النبوّة؛ ثمّ يقال له اقرأ وارقأ بكلّ آية درجة في الجنّة».[١]

وفي رواية عن نساء النبي، قال رسول الله ﷺ: «**حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله، الملبّسون نور الله، المعلّمون كلام الله، من عاداهم فقد عادي الله، ومن والاهم فقد والى الله، يقول الله تعالى: يا حملة القرآن تحبّبوا إلى الله بتوقير كتابه يزدكم حبًا ويحببكم إلى خلقه ويدفع عن مستمع القرآن شرّ الدنيا ويدفع عن تالي القرآن بلوى الآخرة، ولمستمع آية من كتاب الله خير من مبشر ذهبا، ولتالي آية من كتاب الله خير مما تحت العرش إلى تخوم الأرضين السفلى**»[٢]، وفي رواية عن النبي ﷺ: «**من تلا كتاب الله من الصفحة لا من ظهر الخاطر خفّف الله عن والديه ولو كانا مشركين**».[٣]

وفي خبر آخر، قال معاذ بن جبل: قال رسول الله ﷺ: «**إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور، والهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن فإنّه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان**».[٤] وروى حارث الهمداني عن أمير المؤمنين عن رسول الله، انّه ﷺ ذكر فتنة بعده، فقلنا يا رسول الله فبما الخلاص منها؟ قال: «**بكتاب الله**».[٥]

قال عطا: (أنزلت فاتحة الكتاب بمكّة يوم الجمعة، كرامة أكرم الله نبيّه بها وكان معها سبعة آلاف ملك حين نزل بها جبرئيل)، روي ان عير أقدمت

١ـ مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ٢٦٢. وتاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ١٠٠ وكنز العمال، ج ١، ص ٥٢٤.

٢ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٤. بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٩. كنز العمال، ج ١، ص ٥٢٧.

٣ـ انظر: مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ٢٦٩.

٤ـ أمالي الطوسي، ج ١، ص ٥. جامع الأخبار، للسبزواري، ص ١١٥. بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٩.

٥ـ لم نعثر عليه فيما بأيدينا من المصادر.

من الشام لأبي جهل بمال عظيم وهي سبع فرق ورسول الله وأصحابه ينظرون إليها وأكثر الصحابة بهم جوع وعرى فخطر ببال النبي ﷺ ان يسأل شيئاً من الله لحاجة أصحابه فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾[١] أي مكان سبع قوافل لأبي جهل، ولمّا علم الله ان تمنّيه لم يكن لنفسه بل لأصحابه قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.[٢]

وفضايل هذه السورة كثيرة، قيل: انّه ليست فيها سبعة أحرف، ثاء الثبور، وجيم الجهيم، وخاء الخوف، وزاء الزقوم، وشين الشقاوة، وظاء الظلمة، وفاء الفراق، ومن قرأها على التعظيم والحرمة أمن من هذه الأشياء السبعة. وفي الروضة من خطبة لعليّ بن الحسين عليهما السلام: «**وأشعروا قلوبكم**» خوف الله وتذكّروا ما وعدكم الله في مرجعكم إليه من حسن ثوابه كما قد خوّفكم من شديد العقاب، فإنّه من خاف شيئاً حذره ومن حذر شيئاً تركه، ولا تكونوا من الغافلين.[٣] قال الصادق عليه السلام: «**من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخط نفسه عن الدنيا**».[٤]

وان حبّ الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الهارب[٥] والمؤمن بين مخافتين ذنب قد مضى وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك فهو لا يصبح إلا خائفاً، ولا يصلحه إلا الخوف ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو.[٦]

١ـ سورة الحجر: ٩٠.

٢ـ سورة الحجر: ٨٨.

٣ـ الكافي، ج ٨، ص ٧٤.

٤ـ وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٢٠.

٥ـ الكافي، ج ٢، ص ٦٩.

٦ـ المصدر السابق، ص ٧٠.

روى الصدوق من ليث بن ابى سليم قال: (سمعت رجلاً من الأنصار يقول: بينما رسول الله ﷺ مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحر، إذ جاء رجل فنزع ثيابه، ثمّ جعل يتمرّغ في الرّمضاء يقلّب ظهره مرّة وبطنه مرّة وجبهته مرّة ويقول: يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم ممّا صنعت بك، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ما يصنع، ثمّ انّ الرجل لبس ثيابه ثمّ أقبل، فأومى إليه النبي ﷺ بيده ودعاه، فقال له: «**يا عبد الله ما حملك على ما صنعت**»، قال: مخافة الله، فقال النبي ﷺ: «**لقد خفت ربّك حق مخافته، فإنّ ربّك يباهي بك أهل السماء**»؛ ثم قال ﷺ لأصحابه: «**يا معشر من حضر ادنوا من صاحبكم حتّى يدعو لكم**»، فدنوا منه، فدعا لهم فقال: «**اللهمّ أجمع أمرنا على الهدى واجعل التقوى زادنا والجنة مآبنا**».[1]

أقول: وقلّة الخوف ناشية من ضعف الإيمان وشدة الغفلة، امّا ضعف الإيمان لأنّك ما استكملته باليقين وإيمانك ظنّياً تخمينياً ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة، والعلاج ملازمة الفكر في أهوال القيامة والتدبّر في سيرة الأنبياء والكمّلين، فإنّهم مع عصمتهم وجلالة شأنهم كيف يخافون الله ويأخذهم الغشوة من الخوف ويتململون تململ السليم؟

وأما الغفلة؛ فتزول بالتذكير ومجالسة الأخيار ومشاهدة أحوالهم، فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو من تأثير. قال السجاد عليه السلام: «**سبحانك عجبا لمن عرفك، كيف لا يخافك؟**»[2]

أقول: إنّ الخوف، إذا كان صادقاً يظهر أثره في الظاهر والباطن، كما ترى المتصف بالغضب، يحمر وجهه ويقف شعره ويشتد حركاته إلى انتقام

١ـ الأمالي، للصدوق، ص ٤٢٠.

٢ـ مستدرك الوسائل، ج ٥، ص ١٤٩.

من ظلمه، كذلك من اتّصف بالخوف يصفر وجهه ومن اتّصف برقة القلب تجرى دمعة عينيه بمجرّد سماع مصيبة، كلّ ذلك للعلاقة الذاتية بين الظاهر والباطن. وهذا معنى قولهم بين الروح والجسد علاقة طبيعية، ففي الروح كالأصل واللب وفي الجسد كالفرع والقشر وهما متلازمان، اما سمعت انه ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة تغير لونه حتى يعرف ذلك من وجهه[1]، وكذلك ابنه السجاد عليه السلام كان إذا قام للوضوء تغيرت حاله[2]، وذلك لأنّه قد غلب عقولهم على شهواتهم، فتركوا اللّذائذ الدنيويّة علماً منهم بفنائها وخافوا من هيبة كبرياء الله ورجوا رضى الله والرجاء مقام سني.

١ـ فلاح السائل، ص ١٠. وانظر: وسائل الشيعة (باب مقدمات العبادات).

٢ـ منتهى المطالب، العلامة الحلي، ج ١، ص ٢٩٨.

سُورَةُ البَقَرَة

مدنيّة إلّا آية منها، فإنّها نزلت في حجّة الوداع بمنى وهي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ تفسيره، واعلم انّ المراد من قولهم مكيّة أو مدنيّة انّه كلّما نزل قبل الهجرة يقال: مكيّة، وكلّما نزل بعد الهجرة يقال: مدنيّة، سواء نزلت بالمدينة أو غيرها، وفي الكافي عن العياشي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**نزل القرآن على أربعة أرباع ربع فينا وربع في عدوّنا وربع سنن وأمثال وربع في فرائض**».[2]

وفي رواية عن الأصبغ بن نباتة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**نزل القرآن أثلاثاً، ثلث فينا وفي عدوّنا وثلث سنن وأمثال وثلث فرائض وأحكام**».[3]

والمثل إتيان لفظ جلي لايضاح معنى خفيّ وفائدته التأكيد في إثبات الحكم للممثّل، مثل قوله صلى الله عليه وآله: «**مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركب فيها نجى ومن تخلّف عنها هلك**».[4]

١ـ سورة البقرة: ٢٨١.

٢ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ٩.

٣ـ المصدر السابق نفسه. ورواه المجلسي في البحار، ج ٨٩، ص ١١٤.

٤ـ تحف العقول، ص ١١٣ وشرح أصول الكافي، ج ٦، ص ٤٢٢.

الٓمٓ ﴿١﴾

وقد تكلّموا في شأن فواتح السور الكريمة، فقيل: إنها من الأسرار المحجوبة، والعلوم المستورة ومن المتشابه الذي استأثر الله بعلمه وهي سرّ القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله، وهذا هو المروي عن أئمتنا عليهم السلام وفسّرها الآخرون على وجوه:

أحدها: انها أسماء السور.

وثانيها: ان المراد الدلالة على أسماء الله، فقوله: ﴿الٓمٓ﴾ معنى الالف: أنا الله، واللام: اللطيف، والميم: المجيد، كما في قوله: ﴿الٓر﴾ أنا الله أرى، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾: أنا الله الكريم الهادي الحكيم العليم الصادق[1]، فهي حروف مقطعة كل منها مأخوذ من اسم من أسمائه، وقالوا: الاكتفاء ببعض الكلمة معهود في العربيّة كما قال الشاعر: (قلت لها قفي فقالت: ق)، أي: وقفت. والقول الأول أقرب إلى القبول، فيكون من المواضع المعمّيات بالحروف بين المحبين، لا يطلع عليها غيرهما.

قال الرازي في المفاتيح: إن الألفاظ التي يتهجّى بها، أسماء مسمّياتها الحروف المبسوطة. لأنّ الضاد مثلا لفظة مفردة دالة على معنى مستقل بنفسه من غير دلالة على الزمان المعين لذلك المعنى وذلك المعنى هو الحرف الأول من ضرب، فثبت أنّها أسماء لذلك المسمّيات، ولأنّها يتصرّف فيها بالتعريف والتنكير والجمع والتصغير والوصف والإضافة والإسناد، وحكمها ما لم تلها العوامل أن تكون ساكنة الأعجاز كأسماء الاعداد فيقال:

ألف، لام، ميم، كما تقول: واحد، اثنان، ثلاثة، فإذا وليتها العوامل أدركها الإعراب، كقولك: هذه ألف وكتب ألفاً، ونظرت إلى ألف، وإنّما

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٧٥.

سكنت سكون ساير الأسماء حيث لا يمسّها إعراب لفقد موجبه، وسكونها وقف لا بناء، لأنّها لو بنيت لحذي بها حذو كيف وأين، انتهى.

والذين قالوا: انّ هذه الحروف المقطعة سرّ محجوب استأثر الله به، كما سئل الشعبي عن هذه الحروف، فقال: (سرّ الله فلا تطلبوه).[1] وعن ابن عبّاس قال: (عجزت العلماء عن إدراكها)[2] فقد ردّ عليهم المتكلّمون وقالوا: لا يجوز أن يرد في كتاب الله ما لا يكون مفهوما للخلق، واحتجّوا بالآيات والأخبار والمعقول مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[3] أمرهم بالتدبر في القرآن ولو كان غير مفهوم فكيف يأمرهم بالتدبر فيه، وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[4] يدلّ على أنّه نازل بلغة العرب وإذا كان كذلك وجب أن يكون مفهوما، وكذلك قوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[5] والاستنباط منه لا يكون ممكناً إلا مع الإحاطة بمعناه، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[6] وكيف يكون الكتاب كافيا؟ وهو غير مفهوم.[7]

وأما الأخبار: قال علي عليه السلام: **«عليكم بكتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما**

١ـ تفسير أبي السعود، ج ١، ص ٢١.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ سورة محمّد : ٢٤.

٤ـ سورة الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥.

٥ـ سورة النساء: ٨٣.

٦ـ سورة العنكبوت: ٥١.

٧ـ انظر: تفسير الرازي، ج ٢، ص ٣.

بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله ومن اتبع الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، هو الذي لا يزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم له فلج، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».[١]

أمّا المعقول: انّه لو ورد شيء لا سبيل إلى العلم به لكانت المخاطبة به تجري مجرى مخاطبة العربي باللّغة الزنجيّة ولمّا لم يجز ذلك فكذا هذا، واحتجّ مخالفوهم بالآية والخبر والمعقول.

أما الآية، فهو: انّ المتشابه من القرآن وأنّه غير معلوم لقوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٢] والجواب، عن هذا الجواب انّه إنّما استدلوا على مدّعاهم بهذه الآية حيث أوجبوا الوقف بقوله ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ومن أين ثبت وجوب الوقف، ثم من أين لزم فهم المتشابهات لكل احد، بل كلّ أحد يجب أن يفهم من القرآن ما بيّنه الشارع على لسان النبيﷺ وذلك مفهوم من المحكمات بتعليم النبي وبيانه، وأمّا العلم بتأويله وما لا يجب عليهم فذلك علمه عند رسوله وإنّما يعرف القرآن من أنزل عليه، فيكون علم فواتح السور من العلوم المخزونة عنده وعند نبيّه، ومن المعلوم أنّ معرفة كمال حقايق القرآن بأجمعها ليس من وظيفة عامّة الناس لأن القرآن بحر له بطون، وأين الثريا من يد المتناول، ولكن يجب معرفته لأداء ما يجب على المكلّف أدائه، فأيّ محذور يترتّب إذا لم يفهم المكاري من قوله: ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾[٣] وهو علم غير مربوط بالأحكام، والعلم المتعلّق بالأحكام، فهو من المحكمات، وقد بينه

١ـ التفسير الكبير، للرازي، ج ٢، ص ٤.

٢ـ سورة آل عمران: ٧.

٣ـ سورة الشورى: ١ ـ ٢.

الشارع، على أنّ القول بأنّ هذه الفواتح من السّور غير معلومة مروي عن أكابر الصحابة.

والأفعال التي كلفنا بها قسمان: منها ما نعرف وجه الحكمة فيها على الجملة كالصلاة، والزكاة، والصوم، مثل أن الصلاة تواضع محض وتضرّع للخالق، والزكاة سعي في دفع حاجة الفقير والصوم سعي في كسر شهوة النفس والاستغفار مثلا حطّ للذنوب، فمن استغفر السبعين بهذا الاستغفار المذكور في (الصحيفة العلوية) الذي في آخره: «**اللهمّ واستغفرك لكل ذنب جرى به علمك فيّ وعليّ إلى آخر عمري بجميع ذنوبي لأوّلها وآخرها وعمدها وخطائها وقليلها وكثيرها ودقيقها وجليلها وقديمها وحديثها وسرّها وعلانيتها وجميع ما أنا مذنبه، وأتوب إليك وأسألك أن تصلّي على محمّد وآل محمّد وأن تغفر لي جميع ما أحصيت من مظالم العباد قبلي فإنّ لعبادك عليّ حقوقاً أنا مرتهن بها تغفرها لي كيف شئت وأنّى شئت يا أرحم الراحمين**»[1]، غفر الله ذنبه.

ومنها: ما لا نعرف وجه الحكمة فيه ولا يلزم لنا معرفة حكمة أفعاله، مثل رمي الجمرات، ومعرفة بعض متشابهات القرآن، وفواتح السور يكون من هذا القبيل، انتهى.

﴿الٓمٓ﴾ قيل إنّ فواتح السّور أقسام، أقسم الله بها وهي من أسمائه تعالى.[2]

وقيل: إنّها أسماء القرآن.[3] وقيل: إنّها تسكيت للمشركين كانوا تواصوا فيما بينهم أن لا يستمعوا لهذا القرآن وأن يلغوا كما ورد به التنزيل من قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ فربّما صفقوا وصفروا ليغلطوا النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الحروف، حتى إذا سمعوا شيئاً غريباً استمعوا إليه، وتفكّروا،

١ـ رواه المجلسي في البحار، ج ٨٤، ص ٣٢٥، نقلاً عن الكفعمي في المصباح، ص ٦٢.

٢ـ فتح الباري، لابن حجر، ج ٨، ص ٤٢٥.

٣ـ انظر: التبيان، ج ٨، ص ٤٤١، ومجمع البيان، ج ١، ص ٧٦.

واشتغلوا عن تغليطه، فيقع القرآن في مسامعهم، ويكون ذلك سبباً لدرك منافعهم.[١]

وقيل: إنّ المراد بها أن هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته، من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في خطبكم وكلامكم، فإذا لم تقدروا عليه فاعلموا أنّه من عند الله؛ لأنّ العادة لم تجر بأنّ النّاس يتفاوتون في القدر من الكلام هذا التفاوت العظيم، وإنّما كرّرت في مواضع استظهاراً في الحجّة.[٢]

وقيل: انّ كل حرف منها يدلّ على مدّة قوم وآجال آخرين[٣] يعرفه النبي ﷺ وفي تأويلات القاسانية، «**ألف**» إشارة إلى الذات الذي أول الوجود، و«**ل**» إشارة إلى العقل الفعّال المسمّى بجبرئيل وهو أوسط الوجود الذي يستفيض من المبدأ ويفيض إلى المنتهي، و«م» إشارة إلى محمّد الذي هو آخر الوجود ولذا ختم به. وقيل وجوه أخر لا يسعها هذا المختصر.

وأما إعراب موضع ﴿الٓمٓ﴾ فيختلف بحسب اختلاف هذه الوجوه، فيجوز الرفع على الابتداء أو على الخبر لمبتدأ مقدر، ويجوز النصب محلاً على إضمار فعل، تقديره اتل أو اقرأ. وأما على قول من جعل هذه الحروف المقطعة قسماً موضعها النصب أيضاً بإضمار، لأنّ حرف القسم إذا حذفت يصل الفعل إلى المقسم به فينصبه، فإنّ معنى قولك: بالله، أقسم بالله، ثم حذف أقسم فبقى بالله، فلو حذفت الباء، لقلت: الله لأفعلنّ. بنصب الله. وأما على مذهب من جعل هذه الحروف اختصاراً من كلام يعلمه النبي ﷺ والقائل ابن عبّاس، فلا محلّ لها من الإعراب لأنّها بمنزلة قولك زيد قائم، في أنّ موضعه لا محلّ له من الإعراب، وإنّما يكون للجملة موضع إذا وقعت

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٧٦.

٢ـ المصدر السابق، ص ٧٧. (وهذا كلام أبومسلم)

٣ـ جوامع الجامع، للطبرسي، ج ١، ص ٦٢. وانظر: تفصيل الأقوال ومن ذهب إليها في التبيان، ج ١، ص ٤٧ ـ ٤٩.

موقع المفرد، وهذه الحروف المتهجيّة وأسماء الأعداد إذا أخبرت عنها أدخلتها في جملة الأسماء المتمكّنة وأخرجتها بذلك من حيّز الأصوات، والّا فحكمها على السكون كالمبني أو هو المبني.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢)

إن جعلت ﴿الٓمٓ﴾ اسماً للسورة ففيه وجوه:

أحدها: أن يكون الم مبتدأ وذلك مبتدأ ثانياً، والكتاب خبره، والجملة خبر المبتدأ الأول، فيكون المعنى: انّ ذلك الموعود به، الكتاب الذي يستأهل أن يسمّى كتابا، كأنّ ما سواه بالنسبة إليه ناقص، كما تقول هو الرّجل أي الكامل في الرجولية.

والوجه الثاني: أن يكون الكتاب صفة، فيكون المعنى الم هو ذلك الكتاب الموعود.

والوجه الثالث: أن يكون التقدير هذه الم، فيكون جملة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ جملة أخرى، ﴿ذَٰلِكَ﴾ يشار إلى البعيد كما انّ هذا إشارة إلى ما قرب، والاسم ذا، والكاف للخطاب واللام مزيدة للتأكيد.[١] قال الأخفش ذلك في الآية بمعنى هذا لأنّ الكتاب كان حاضراً.[٢]

قال الحفاف بن ندبه:

أقول له والرمح يأطر متنه   تأمّل خفافا انني أنا ذلكا[٣]

أي أنا هذا، وهذا الاستشهاد غير تام، لأنّه يمكن إجرائه على أصله، أي انّني ذلك الرّجل الّذي سمعت به وبشجاعته.

١ـ انظر: الكشاف، ج ١، ص ١١. وتفسير النسفي، ج ١، ص ١١.

٢ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٨١.

٣ـ انظر: التبيان، ج ١، ص ٣٣٥، نقلاً عن الأغاني، ج ٢، ص ٣٢٩. (قال هذا في مقتل ابن عمه معاوية بن عمرو أخي الخنساء)

قال الزمخشري: الإشارة وقعت إلى الم بعد ما سبق التكلّم به وتقضى، والمنقضي في حكم المتباعد، وهذا جار في كلّ كلام، يحدث الرجل بحديث ثم يقول: وذلك ممّا لا شكّ فيه، ويحسب الحاسب ثم يقول: فذلك كذا وكذا، وقال تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[١] ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه وقع في حدّ البعد كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئاً: احتفظ بذلك.[٢]

والحق: انّ هذه البيانات لا يطمئن إليها النفس وأضعف من حجة نحوي، لكنّ الأوجه، هو انّ الله وعد نبيّه أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء، ولا يخلق على كثرة الرد فلمّا أنزل القرآن قال: هذا القرآن ذلك الكتاب الذي وعدتك أو هذا القرآن (و القرآن يشمل على الكل والبعض ولو آية) ذلك الكتاب الذي وعدت به في الكتب السالفة والكتاب مصدر بمعنى المكتوب، كالحساب بمعنى المحسوب، والكتب بمعنى الضمّ لانضمام بعض الحروف ببعض، ومنه يقال للجند كتيبة، ومن قال انّ المراد من الكتاب في الآية: التوراة والإنجيل فقول فاسد، لأنّه وصف الكتاب بأنه لا ريب فيه وانه هدى، ووصف ما في أيدي اليهود والنصارى بأنه محرّف بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[٣] والكتاب جاء في القرآن على وجوه:

أحدها: الفرض مثل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[٤] ومثل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.[٥]

١ـ سورة البقرة: ٦٨.

٢ـ الكشاف: ج ١، ص ١٠٨.

٣ـ سورة المائدة: ١٣.

٤ـ سورة البقرة: ١٨٣.

٥ـ سورة النساء: ١٠٣.

وثانيها: الحجّة والبرهان مثل: ﴿ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.[1]

وثالثها: الأجل مثل: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾.[2]

ورابعها: المكاتبة مثل كتابة السيّد عبده، ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾.[3]

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ : أي لا ريب وشكّ كائن في الكتاب، وانّه حقّ وصدق ومعجزة، وريب اسم لا، وفيه خبرها. والريب من رابني الشيء إذا حصل فيه الريبة، وهي قلق النفس واضطرابها، والريب أقبح أقسام الشكوك.

فإن قيل: انّه نفى الريب ونحن نرى انّ الكفار شكّوا فيه، والمبتدعون شكّوا في معاني متشابهة، فما معنى نفي الريب على سبيل الاستغراق؟ فالجواب: انّ نفي الريب عن الكتاب يعني انّ الكتاب ليس فيه سبب ريب ولا يتمكّن فيه ريب لصدقه، لا انّ الناس لا يشكّون فيه.

وقيل معنى الآية النهي وإن كان لفظها الخبر، أي لا ترتابوا ولا تشكّوا فيه[4] كقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾.[5]

﴿هُدًى﴾ : أي القرآن رشد، أو فيه هدى.

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ : المتّصفين بالتقوى، وتخصيص الهداية بالمتّقين وإن كان القرآن هدى لجميع الناس؛ لأنّهم هم المهتدون به، فالشمس شمس وان لم يرها الضرير، والعسل عسل وان لم يجد طعمه المحرور والمتّقين أصله الموتقين، مفتعلين من الوقاية، فقلبت الواو تاء وأدغمت تاء الأولى في الثانية

١ـ سورة الصافات: ١٥٧.

٢ـ سورة الحجر: ٤.

٣ـ سورة النور: ٣٣.

٤ـ تفسير الثعلبي، ج ١، ص ١٤٢.

٥ـ سورة البقرة: ١٩٧.

التي بعدها وحذفت الكسرة من الياء استثقالاً لها ثم حذفت لالتقاء الساكنين فبقي متّقين، والتقوى أصله وقوى، فقلبت الواو تاء كالتراث أصله وراث.

والتقوى له ثلاث مراتب:

الأولى: التوقّي عن العذاب المخلّد بالتبرّي عن الكفر، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.[(١)]

والثانية: التجنب عن كلّ ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر وهو المتعارف بالتّقوى في لسان الشرع، وهو المعنى بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟﴾.[(٢)]

والثالثة: ان يتنزّه عمّا يشغل ضميره عن الحقّ ويتبتّل إليه بكلّيته وهو التقوى الحقيقيّة المأمور بها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[(٣)] وهذا النوع من التقوى ما انتهى إليه همم الأنبياء والأولياء، وما عاقهم التعلّق بعالم الأشباح عن العروج إلى عالم الأرواح ولم تصدّ همّ الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق في شئون الحق ولم يتعدوا الحدود، ولذا احتملوا في دين الله حتى شتموهم: يا مذلّ المؤمنين.

وروى الصدوق في أماليه بإسناده عن المفضّل بن عمر، قال: سألت الصّادق عليه السلام عن العشق، فقال: «**قلوب خلت عن ذكر الله فأذاقها الله حب غيره**».[(٤)]

قال أفلاطون الإلهي: (العشق قوّة غريزية متولدة عن وساوس الطبع وأشباح التخيل للهيكل الطبيعي يحدث للشجاع جبنا وللجبان شجاعة ويكسو

١ـ سورة الفتح: ٢٦.

٢ـ سورة الأعراف: ٩٦.

٣ـ سورة آل عمران: ١٠٢.

٤ـ الأمالي، للصدوق، ص ٣٩٦ ورواه المجلسي في البحار، ج ٧٠، ص ١٥٨.

كلّ إنسان عكس طباعه). قيل: (انّ بعض الصلحاء غسل ثوبه في الصحراء مع صاحب له فقال له: تعلّق الثوب في جدار الكروم، فقال: لا تضرب الوتد في جدار الناس، فقال: نعلّقه في الشجر، فقال: انّه لعلّ يكسر الأغصان أو يضرّها، فقال: نبسطه على الأرض، فقال: انّها معلف الدواب لا نستره عنها، فولى ظهره حتى جفّ جانب ثم قلّبه حتى جفّ الجانب الآخر). وكان بعض الصلحاء لا يجلس في ظل شجرة غريمه، ويقول في الخبر: «**كلّ قرض جرّ نفعاً فهو ربا**».[1]

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣)﴾

صفة للمتّقين، فحينئذٍ الجملة محلّها الجر، ويجوز أن يكون محلّها النصب، تقديره أعني: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، ويجوز أن يكون محلّه الرفع أي هم الذين يؤمنون بما غاب عن العباد علمه، وخفي عن حواسهم من التوحيد والبعث والجنّة والنار وقيام القائم والرجعة وسائر الأمور التي يلزمهم الإيمان بها ممّا لا يعرف بالمشاهدة، وإنّما يعرف بدلائل نصبها الله عليهم. والإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان.

وقد جاء هذا المعنى بلفظ آخر، وهو انّ الإيمان قول مقول وعمل معمول وعرفان بالعقول واتباع الرّسول، وقيل انّ المراد من الغيب في الآية القرآن، فمن أخلّ بالاعتقاد به وحده فهو منافق، ومن أخلّ بالإقرار والاعتقاد فهو كافر، ومن أخلّ بالعمل دونهما فهو فاسق عندنا، وكافر عند الخوارج، وخارج عن الإيمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة: والغيب قسمان، قسم لا طريق عليه كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[2]

١ـ انظر: من لايحضره الفقيه، ج ٣، ص ٢٨٥. والخلاف، ج ٣، ص ١٧٤.

٢ـ سورة الأنعام: ٥٩.

وقسم نصب عليه دليل كالتوحيد والنبوّات واليوم الآخر وأمثاله وهو المراد هنا، والباء للملابسة، وقيل المراد بالغيب: القلب لأنّه مستور، والمعنى: يؤمنون بقلوبهم حقيقة، لا كالمنافقين الذين ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[١]، فحينئذٍ الباء للآلة والاستعانة.

وقيل في معنى قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: غائبين عن مرأى الناس متلبسين بالغيب كقوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[٢].

وعن عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ، إذ أقبل رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، ما يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد منا، فأقبل حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ وركبتيه يمس ركبة رسول الله، فقال يا محمّد أخبرني عن الإسلام، فقال النبي ﷺ: «**أن تشهد أن لا إله إلّا الله وانّ محمّداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت إليه سبيلا**»، فقال: صدقت، فتعجّبنا من سؤاله وتصديقه، ثمّ قال فما الإيمان؟ قال ﷺ: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنّة والنار وبالقدر**»، فقال: صدقت، ثم قال فما الإحسان؟ قال ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»، قال صدقت، ثم قال: فأخبرني عن الساعة فقال النبي ﷺ «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل؟**» قال صدقت، قال فأخبرني عن أماراتها، قال ﷺ: «**أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**»، قال صدقت، ثم انطلق، فلما كان بعد ثالثة، قال لي رسول الله: «**يا عمر هل تدري من الرّجل؟**» قلت الله أعلم ورسوله، قال ﷺ «**ذاك**

١ـ سورة آل عمران: ١٦٧.

٢ـ سورة الأنبياء: ٤٩.

جبرئيل أتاكم يعلّمكم امر دينكم، وما أتاني في صورة إلّا عرفته فيها إلّا صورته هذه»[١].

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإقامة الصلاة إدامتها على الوجه المأمور به، يقال: أقام القوم سوقهم، إذا لم يعطّلوها عن البيع والشراء، ولعلّ معنى الصلاة مأخوذ أصله من رفع الصلا في الرّكوع والسجود، والصلا عظم في العجزة وللصلاة إطلاقات: للدعاء، كما في قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾[٢] أي ادع لهم، وللثناء، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾[٣] والقراءة، مثل قوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾[٤] وبالرحمة، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾[٥] وبالصلوة المشروعة المخصوصة بأفعال وأذكار، سميت بها لما في قيامها من القراءة وفي قعودها من الثناء والدّعاء ولفاعلها من الرحمة، والمراد في الآية المداومة على الصّلوات الخمس المشتملة على القيام والركوع والسجود والتسبيح، ومراعاة حدودها الظاهرة من الفرائض والسّنن وحقوقها الباطنة من الحضور والإقبال بالقلب.

قال إبراهيم النخعي: (إذا رأيت رجلاً يخفّف الرّكوع والسجود فترحم على عياله) يعني من ضيّق المعيشة.

فاستمع آداب الصلاة حتى لا تكون كالتاجر الذي اشترى حمل أبريسم ولم يره فلما أتى بالأحمال في معرض البيع رآها التجار كلها خرق الصوف، فقاموا يضحكون من بضاعته وهو مطرق برأسه خجلان، وأنت كذلك يوم تبلى السرائر قال الله: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي

١ـ المحلى، لابن حزم، ج ١، ص ٣٨.

٢ـ سورة التوبة: ١٠٣.

٣ـ سورة الأحزاب: ٥٦.

٤ـ سورة الإسراء: ١١٠.

٥ـ سورة البقرة: ١٥٧.

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.[(١)(٢)]

فاعمل خالصاً ونقّحه عن الشوائب، مثل الرياء فإن الرياء يتصور بصورة الحية في قبرك وتنهشك، وكذلك البخل بصورة العقرب فتلسعك.

وقليل من العمل، إذا كان خالصاً يكشف سدد الغفلة ويدفع الشبه القلبية ويزيل سوادها، فتنور بنور الصدق ويتطهر عن قذارة المعاصي السالفة وعن لوث الأجسام الرذلة المعلولة، فيكون أول باب بدر الهداية، رؤية كوكب ضعيف ثم ينبسط بالخلوص والعمل شيئاً فشيئاً فصار قمراً وشمساً، فينقلب الليل من شمس وجودك نهارا، فعند ذلك تدرك ذوق حلاوة الخلوة والمناجاة، وإنما منعك عن الذوق وصرف وجهك عن الباب، عاداتك المألوفة وشهواتك النفسيّة ومخالطتك مع أبناء الدنيا.

وفي كتاب تنبيه الغافلين، انّ حاتم الزاهد دخل على عاصم بن يوسف فقال له عاصم: يا حاتم هل تحسن أن تصلّي؟ فقال: نعم، قال: كيف تصلى؟ قال: إذا تقارب وقت الصلاة أسبغ الوضوء، ثم أستوي في الموضع الذي أصلّي فيه حتى يستقر كل عضو منّي، وأري الكعبة بين حاجبي والمقام بحيال صدري والله فوقي يعلم ما في قلبي، وكأن قدمي على الصراط والجنة عن يميني والنار عن شمالي وملك الموت خلفي، وأظنّ انّها آخر صلاتي في الدنيا؛ ثم أكبّر تكبيراً بإحسان، وأقرأ قراءة بتفكر، وأركع ركوعاً بتواضع، وأسجد سجوداً بتضرع، فأجلس وأتشهد على الرجاء، وأسلّم على الإخلاص،

١ـ سورة الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.

٢ـ اشار المفسر في بيانه إلى بيت شعر بالفارسية نورده في الهامش مع ترجمته:

سرمايه عمـر وكـار وبـار تـو بحشـر   بنگر چو گشايند چـه خواهـد بـودن

المعنى: رصيدك من حياتك وعملك وممتلكاتك سيؤول إلى يوم المحشر، فانظر ماذا سيكون ذلك عندما تعلن النتائج.

فأقوم وانا بين الخوف والرجاء، وأتعاهد على الصبر، قال عاصم، يا حاتم أهكذا صلاتك؟ قال: كذا صلاتي منذ ثلاثين سنة فبكى عاصم وقال: ما صلّيت من صلاتي مثل هذا قطّ.

وفي ثواب الأعمال؛ قال الصادق عليه السلام: **«فضل الصلاة في أول وقتها خير للمؤمن من ولده وماله»**[١]، وفي حديث آخر أيضاً عنه عليه السلام: **«كفضل الآخرة على الدنيا»**[٢]، وعن أصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: **«ان الله ليهمّ بعذاب أهل الأرض جميعا حتى لا يحاشي منهم أحداً إذا عملوا بالمعاصي واجترحوا السيئات فإذا نظر إلى الشيب ناقلي أقدامهم إلى الصلاة والولدان يتعلّمون القرآن، رحمهم فأخّر ذلك عنهم»**.[٣] والنوافل لها آثار مخصوصة وهي مكمّلات لنواقص الفرائض. وللأذكار وللآيات آثار مخصوصة، مثل: انّ آية الكرسي مع قطع النظر عن ثواب قراءتها يدفع كيد العفاريت.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«أتاني جبرئيل فقال يا محمّد أنّ عفريتاً من الجنّ يكيدك في منامك فعليك بقرائة آية الكرسي عند منامك»**[٤]، فكان يقرئها حين منامه وإذا قام من نومه خرّ لله ساجداً ثم يقول: **«الحمد لله الذي أحياني بعد موتي أنّ ربّي لغفور شكور»**.

ومن أفضل الطاعات، الصلاة، والصبر على الطاعات شديد مطلقا، لأنّ النفس بطبعها تنفر من العبوديّة وتشتهي الربوبيّة ومن الطاعات والعبادات ما يكره بسبب الكسل، كالصلاة فيحتاج إلى الصّبر، ومنها ما يكره على الطبع بسبب البخل وحبّ المال، كالزكاة والإنفاق، وكذلك، الحج والجهاد. ويحتاج

١ـ ثواب الأعمال، ص ٣٦. وأيضاً رواه في من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢١٧.

٢ـ الكافي، ج ٣، ص ٢٧٤. ورواه الصدوق في ثواب الأعمال، ص ٣٦.

٣ـ ثواب الأعمال، ص ٢٨.

٤ـ مكارم الأخلاق، ص ٣٨. وبحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٥٣.

المطيع في إطاعته إلى الصبر في ثلاثة أحوال، **الأولى**: قبل الطاعة بتصحيح النية والإخلاص، **والثانية**: حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، لئلا يكون العمل جسداً بلا روح فلا يتكاسل في آدابه ويدوم على ذلك إلى الفراغ، **والثالثة**: بعد الفراغ فيحتاج إلى الصبر، أيضاً عن إفشائه من السمعة والرياء والعجب.

وكذلك المعاصي يحتاج إلى الصبر عن تركها، فأشدّ أنواع الصبر عليها بالصبر عما كان مألوفاً بالعادة فإنّ العادة طبيعة خامسة فإذا انضافت إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشياطين على جند الله فلا يقوى الجند جندين، ثم ان كانت تلك المعصية مما تيسّر فعله كان الصبر عنه أثقل كالصبر عن معاصي اللسان من الكذب والغيبه والثناء على النفس وجميع هذه المعاصي تحتاج إلى الصبر وتركها شديد على النفس.

وهيهات فأين الثريا من يد المتناول، فمن لم يقدر على حفظ لسانه كيف يتمكن من عفة بطنه وفرجه؟ مع أنّه عرف ان الصّمت سلّم الخلاص، والنطق يحبس الهزار في الأقفاص. ولن تدرك لذة العبادة إلّا بالتدبّر والتفكر في خلوص العمل، وهذه القطعة من اللحم إذا ما حبسته بطابقين لا تبقي لك عملاً في الغالب، أما سمعت ان الجرس آفة القوافل؟ خير القوس الكتوم، وخير الشراب المختوم، وشين الفتى يطرد الأحبّاء، ووسواس الحلي يوقظ الرقباء.

وا أسفاه على غفلة الملدوغ ومعه الترياق يتداوله ولا يتناوله. اما يعلم أنّ تأخير العمل عن العلم حبس الماء من النبت، وإصلاح الظاهر مع فساد الباطن حيلة أصحاب السبت؟ دانق من الصلات أحب إليه من الصلاة. أترجو نجاة المخفين بأوزار جمعتها وحقوق منعتها؟ عرض عليك زخارف الدنيا فنسيت كلمة الله العليا، سترى حين تبدوا الضمائر وتبلى السرائر. ثوب مطوي

تبصر خروقه يوم النشر وبزَ مكتوم تظهر عيوبه يوم الحشر ولو انّ الحراثة ريعان الحداثة والزّراعة في أوّل الخريف لا في آخر المصيف، ولكن يا نفس لا تيأسي من روح الله ما دامت بقية فيك بشرط خلوص النيّة والإقبال الكلي إلى الله والإعراض عن غيره ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.[1] والقرآن شفاء ويختلف الأثر باختلاف الكلام والمتكلّم.

وقصة علقمة بن عطارد وتنصّره بعد إسلامه في زمن أبي بكر حيث ناقش في اهدنا الصراط المستقيم فشكى أبو بكر إلى أمير المؤمنين فكتب عليه السلام:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾[2]، ثم فسّر معنى ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في الكتاب وبعثه إلى علقمة فأسلم علقمة ورجع إلى المدينة. فاستشف بالقرآن وتلاوته مع التدبر في فحاويه من الأمراض الروحانية والعقائد الفاسدة والأخلاق المذمومة، فإنه يهديك إلى الذي ينفعك النفع الباقي لا الفاني، تأمّل في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[3] كيف عين لك الخير الباقي وهو إجابة ربكم بالإطاعة، ووقت الإجابة في أيام عمرك، وإشارة إلى أنّ الطريق إليه مفتوح، وعن قريب سيغلق الباب عليكم بالموت بغتة.

قال الشاعر:

تمتع من شميم عرار نجد[4] فما بعد العشيّة من عرار[5]

١ـ سورة الإسراء: ٨٢.

٢ـ سورة غافر: ٣.

٣ـ سورة الشورى: ٤٧.

٤ـ عرار: بالفتح وتكرير الراء وهو نبت طيبة الريح.

٥ـ أنشده الصمة بن عبدالله القشيري، راجع: تاج العروس، للزبيدي، ج ٣ ص ٢٥٣.

فشمّ العرار في النجد فانّك ان انتقلت إلى حدّ البرزخ بزوال شمس الحيوة لا يمكنك التدارك وشمه فلا تغلق على نفسك أبواب المواهب والفتوحات حيث أقدرك على تحصيلها، فتتبّع القرآن في الليل والنّهار يوصلك إلى مقام الإيمان ومرتبة اليقين والإجابة فإن الله جعل القرآن علاجاً للقلوب المريضة التي ناشئة من نسيان الله كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[1]، والعلاج يكون بالذكر كما قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2] فإذا ذكر الله وتدبّر في القرآن استشفي، ويكون قلب الذاكر عرش الرحمن والمنظر الإلهي، والقرآن أعظم نعم الله وهو حبل الله المتين، فالويل لمن انقطع عن هذا الحبل.

فما تنفعه شفاعة الشافعين وكان السلف إذا فاتهم بعض آداب الليل من الصلاة والتلاوة يبكون طول النهار لما فاتهم من الليل ويقول ما أشد ألمي بابي مغلق وستر الليل مسدل ولم أقرأ حزبي البارحة وما ذاك الا بذنب أحدثته.

في أخبار داود عليه السلام: ان الله أوحى إلى داود. يا داود أبلغ أهل الأرض اني حبيب لمن أحبني، مونس لمن آنس بذكري، جليس لمن جالسني، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبّني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه الا قبلته لنفسي وأحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيرى لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلمّوا إلى كرامتي ومصاحبتي، وأنسوا بي أو أنسكم وأسارع إلى محبتكم[3] فاني خلقت طينة إحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نجيي ومحمد حبيبي.

۱ـ التوبة: ٦٧.

۲ـ البقرة: ١٥٢.

۳ـ جامع السعادات، ج ۳، ص ١٥٣.

وروي: «ان الله أوحى إلى بعض الأنبياء انّ لي عبادا يحبوني وأحبّهم ويشتاقون إليّ واشتاق إليهم ويذكروني أذكرهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وان عدلت عنهم مقتك، قال: يا رب وما علامتهم؟ قال سبحانه: يراعون الظلال بالنهار، كما يراعي الراعي الشفيق غنمه ويحنّون إلى غروب الشمس كما يحنّ الطائر إلى وكره عند الغروب فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إليّ أقدامهم وافترشوا إليّ وجوههم وناجوني بكلامي وتملّقوا إلي بانعامي، فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين قاعد وقائم وراكع وساجد بعيني ما يتحمّلون من أجلي وبسمعي ما يشتكون من حبّي أوّل ما أعطيهم ثلاث: أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عنّي كما أخبر عنهم، والثانية: لو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة: أقبل بوجهي عليهم أفترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه»[1]، وأوحي إلى داود عليه السلام: «اعلم بني إسرائيل انه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب فلتعظم رغبتهم عندي ضعني بين عينيك وانظر إليّ ببصر قلبك، وخذ من نفسك لنفسك، واقطع شهوتك لي فانّما ابحت بعض الشهوات لضعفة خلقي، وامّا الأقوياء فإنّ نيل الشهوات المباحة تنقص حلاوة مناجاتي، فاني لا أرضى الدنيا لحبيبي ونزهته عنها، يا داود لو يعلم المدبرون عنّى كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ وتقطعت أوصالهم من محبّتي يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المقبلين عليّ وما أجلّ ما يكون عندي إذا رجع إليّ»[2].

قال قطب محيي: الخروج من زمرة الخاسرين بنص القرآن المجيد الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق أي المعروف والصبر أي تحمل

١ـ الجواهر السنية، للحر العاملي، ص ٣٥٨.

٢ـ المحجة البيضاء، ج ٨، ص ٥٩ ـ ٦٠ وجامع السعادات، ج ٣، ص ١٠٣.

مشقّة التكليف كما في سورة العصر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.[1]

فعلى هذا إذا كان المؤمن رأى انّ أخاه جاهلاً في أمور دينه فلا يهتم له ولا يرفع جهله، لا يخرج من زمرة الخاسرين ولو آمن وعمل صالحاً، لأنّه مسامح في إقامة الحدود ومداهن في دينه، بل يسري جهل الجاهل إليه فإنّ العالم والجاهل من نوع واحد والناس مشتركون في القعود في سفينة الدنيا، فإذا كان واحد من أهل السفينة بسبب جهله، أخذ قدوماً واشتغل بنقر السفينة ليشرب الماء من النقب فإذا ما منعوه وما أخذوا القدوم من يده فيغرق السفينة وأهلها جميعاً، كما أن البدن إذا أصاب عضوه مرض فجميع الأعضاء تكون مؤفة. وأيضاً يسرى الجهل والضلالة إلى ذلك المؤمن العالم الصالح لأنّ السيل إذا كان جارفاً ليذهب الفيل. والنجار إذا لم يجد المنشار والخشب من أين يصنع الباب، فيكون بطالا وينقطع صنعة النجارة ولا يكون باب ولا نجّار، وبالجملة فهذان العمودان وهو الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ان لم يكونا من أصول الدين كما قالته المعتزلة، فهما قواما للدين ولولاهما ما بقي الدين، فاكشفوا يا أهل الدين صحائف التعليم وصفائح التعلم وأحيوا السنة بتواصي الحق وأكثروا مجالس مذاكرة العلم النافع على طريقة محافظة السلف من دون الجدل والمراء في بيان الأسباب المنجية من النار والمؤدية إلى دار السلام من السنة النبويّة، والقرآن العظيم، الذي أخرست آياته الفصحاء وحيّرت حكمته ومعانيه العقلاء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ ولا تضيّع الجوهر النفيس وهو أيّام عمرك

١ـ سورة العصر: ١ ـ ٣.

في تحصيل بعض العلوم، واعلم ان أجلّ العلوم ما دخل معك في القبر وهو علم التوحيد ولا ينكشف لك هذا الباب الّا بعد أن تعمل بقدر معلومك منه فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا فالحزم التجنّب عن المعاصي حتى تكون النفس مطمئنة.

وأول ما يجب عليك بعد أن عرفت ان لك رباً صون النفس عن القبائح والرذائل ففي إقامة الفرائض فجاهد وعلى سنن الرسول فعاهد فمن لم يوقر السنة ولم يجلها لم يعرف قدر الفريضة ولا محلّها فإنّ العروس يجب لها الزينة والسنة زينة الفريضة، ثم لا تغفل من هفوات تصدر منك وأنت غافل ولا تقل، اني اتقيت الكبائر فإن السيل اوّلها القطرة وان شبل الزنبال تقطع أوصاله النمل ولا يقدر الزنبال دفع النمل الضعيف مع قوته عن شبله، ولا تقل انها صغيرة النهاية الصغيرة تولد في قبرك حيّة والكبيرة ثعباناً.

أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1]؟

وفي كتاب (انس الجليل في تاريخ القدس والخليل) انّ بجانب الغربي من بيت المقدس مقبرة كانت معروفة بمقبرة ماملا تصحيف ما من الله يسمّونها اليهود بيت مملو فاتّفق يوماً ان قارئ قرأ هذه الآية في تلك المقبرة في ضمن تلاوته فسمع من قبر وجدنا وجدنا، وكان ذلك القبر معروفا بقبر وجدنا وما عرف صاحب القبر.

وبالجملة فإن كنت في ريب فعافاك الله وان كنت من أهل اليقين فما هذه الغفلة فكما انّ الحكم في القود والقصاص يختلف في تنوين وإضافة في قولك: أنا قاتل غلامك وأنا قاتل غلامك كذلك بحركة أو كلمة أو فعلة تكون

---

١ ـ سورة الكهف: ٤٩.

في الآخرة من أهل الشقاوة أو السعادة فاعمل ولا تغفل ولا تيأس.

أما سمعت قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١] فإنّ هذه الآية متضمنة كثرة الرحمة من وجوه:

الأول: خطاب اللطف بالنسبة إلى ذاته، فقال يا عبادي ولم يقل يا أيّها العصاة مع ان الخطاب إليهم.

الثاني: قال: لا تقنطوا ولفظ القنوط مستلزم تحريم اليأس من المغفرة مع الإسراف والتجاوز في ارتكاب المعاصي.

الثالث: انّه تعالى لم يكتف بذكر لا تقنطوا بل أكّد بقوله: انّ الله يغفر الذنوب جميعا.

الرابع: وضع المظهر موضع المضمر وقال انّ الله وذلك لأسناد المغفرة بصريح اسمه الذي قامت السموات والأرض به.

الخامس: استوعب مغفرته بلفظ الجميع للتحقّق والتأكيد في وقوع المغفرة.

السادس: إتيان ضمير الفصل بين الاسم والخبر ليفيد معنى الحصر من رحمته ومغفرته للدلالة على التأكيد في المغفرة.

السابع: ضمّ الرحمة بالمغفرة دلالة على سعة رحمته.

عن ثوبان مولى رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «**بعد نزول الآية ما أحب ان لي الدنيا وما فيها بهذه الآية**».[٢] في النهج، عن أمير المؤمنين عليه السلام: انّ هذه الآية أوسع آية دالة على الرحمة وقيل: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٣]

١ـ سورة الزمر: ٥٣.

٢ـ مسند أحمد، ج ٥، ص ٢٧٥. وتفسير ابن أبي حاتم، ج ١٠، ص ٣٢٥٣. والدر المنثور، ج ٥، ٣٣١.

٣ـ سورة هود: ١١٤.

أوسع آية في القرآن.[1][2]

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[3]. فاسع أن تدرك المراتب الأربعة (تخلية وتحلية وتجلية وفناء) حتى يكون قلبك أزهر أجرد.

في الكافي: القلوب أربعة؛ قلب فيه نفاق وإيمان إذا أدرك الموت صاحبه على نفاقه هلك وان أدركه على إيمانه نجى وقلب منكوس وهو قلب المشرك والكافر وقلب مطبوع وهو قلب المنافق وقلب أزهر أجرد وهو قلب المؤمن فيه كهيئة السّراج، ان أعطاه الله شكر وان ابتلاه صبر فحينئذٍ أدرك المرتبة الرابعة من النفس وهي (الأمّارة واللوامة والملهمة والمطمئنة).[4]

في البحار من الحديث: انّ في القيامة تنكشف خزانة ساعات يومك وليلك، فالساعة التي عملت فيها الخير والحسنات يصيبك فرح وسرور لو قسم على أهل النار لما وجدوا الم النّار وكذلك الساعة التي عصيت فيها يصيبك خوف لو قسم على أهل الجنة لا يستلذّون من نعيمها، وكذلك ساعة اشتغلوا في المباحات يتحسرون غاية من تضييع الوقت فيا مغرور ترتكب الكبائر، فلو نصحك ناصح تعتّل بالضرورة، ما أشبه عذرك بعذر السارق للغمر فلو اغتررت بانتسابك التشيّع وحبّ عليّ عليه السلام فما هذه النسبة مع إدمان المعاصي الا كذب محض وادّعاء، إنّما شيعة علي عليه السلام من شايعه وتابعه فما أشبه كلامك بكلام ذلك المداح السكران لمّا قيل له لم تشرب الخمر وما

١ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٠٧.

٢ـ كما أنّ المفسر قد استشهد في هذا المجال ببيت شعر من الأدب الفارسي وهو:

قـائم باشـی بخـدمت حـق   صـائم باشـی ز شـر مطلـق

المعنى: مادمت قائماً بخدمة الحق (سائراً في طريقه) لابد أن تكون تاركاً للشر والرذيلة مطلقاً.

٣ـ سورة البقرة: ٤٥.

٤ـ الكافي، ج ٢، ص ٤٢٢. وانظر: معاني الأخبار، ص ٣٩٥.

تصنع ان لم يغفرك لك الله؟ فقال: ان لم يغفرلي فعلي عليّ حتى يوم القيمة فيغفر لي آه، آه! فما رعوها حق رعايتها.

والحاصل ان الله سبحانه سنّ في الصلاة أموراً فبالمداومة عليها قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[١] وبالإقامة عليها بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٢] وبأدائها في أوقات مخصوصة بقوله: ﴿كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[٣] وبأدائها في الجماعات بقوله: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[٤] وبالحضور والخشوع فيها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾[٥] ثمّ بعد هذه الأوامر من الله في الصلاة صار الناس على طبقات:

طبقة لم يقبلوها رأسا ورئيسهم أبو جهل، قال الله في حقّه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ فذكر سبحانه مصيرهم بقوله:-﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾[٦] إلى قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[٧].

وطبقة قبلوها ولم يؤدوا حقها وهم أهل الكتاب قال الله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٨] فذكر سبحانه مصيرهم إلى النّار فقال: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[٩] وهي دركة في جهنّم أهيب موضع فيها تستغيث النار منها كل يوم كذا وكذا مرة.

١ـ سورة المعارج: ٢٣.

٢ـ سورة المزمّل: ٢٠.

٣ـ سورة النساء: ١٠٣.

٤ـ سورة البقرة: ٤٤.

٥ـ سورة المؤمنون: ٢.

٦ـ سورة المدثر: ٤٢ـ٤٣.

٧ـ سورة المدثر: ٤٦.

٨ـ سورة مريم: ٥٩.

٩ـ المصدر السابق نفسه.

وطبقة ادّوا بعضاً ولم يؤدّوا بعضاً متكاسلين وهم المنافقون قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾[1] وذكر ان مصيرهم إلى النار والويل، وهو واد في جهنّم لو جعلت فيها جبال الدنيا لماعت وسالت.

قال النبي ﷺ: **«من ترك صلاة حتّى مضى وقتها عذّب بالنار حقباً، والحقب ثمانون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم ألف سنة مما تعدّون وتأخير الصلاة من غير عذر كبيرة»**.

وطبقة قبلوها وراعوها بشرائطها، ورأسهم المصطفى ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾[2] وكذلك أصحابه، فذكرهم الله بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[3] وذكر مصيرهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾[4]، وهو أرفع موضع في الجنة وأبهاه، ينال المؤمن فيه مناه وينظر إلى رحمة مولاه.

والصلاة خير موضوع فمن شاء فليستقلل ومن شاء فليستكثر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[5]

وقال النبي ﷺ: **«الصلاة قربان كل تقي»**.[6]

وعليك بعد إتمام الفرائض بآدابها وإتيان قضاء ما فات من عمرك كما فات الاشتغال بالنوافل خصوصاً نافلة الليل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ

١ـ سورة النساء: ١٤٢.

٢ـ سورة المزمل: ٢٠.

٣ـ سورة المؤمنون: ١ـ٢.

٤ـ سورة المؤمنون: ١٠ـ١١.

٥ـ سورة العنكبوت: ٤٥.

٦ـ الكافي، ج ٣، ص ٢٦٥. والخصال، ص ٦٢٠.

أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.[١] وقد جاء في الحديث: «**قم من الليل ولو قدر حلب شاة أو قدر أربع ركعات أو ركعتين**».[٢] وقيل في تفسير ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾[٣] هو قيام الليل كسلا أو تهاونا لقلة الاعتداد بذلك، يليك عليه، فقد حرم من الخير الكثير، وقد يكون العبد شائقاً وتائقاً لقيام الليل ولا يتوفق فالسبب فيه ان ذنوب النهار قد قيّدته فليحذر العبد في نهاره، حتى قال بعض المتهجّدين: حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنب فقيل له ما كان ذلك الذنب، قال: رأيت رجلاً بكاّء فقلت في نفسي هذا مراء، وقد يكون ينقطع عنك التوفيق خمسين سنة بسبب أداء حق من حقوق الله أو حقوق الخلق، مثل ان تطلق ـ مثلاً ـ امرأتك وهي تهب لك صداقها بمحضر القاضي وأنت مديون لها وما أوفيت صداقها مع انّها وهبتك، أما سمعت قول الله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾[٤]؟ وإبرائها لك بسبب سوء العشرة معها، لا عن طيب نفسها والقاضي الفقير لا يعلم بذلك وقد حكم لك بالتخليص من الصداق.

ومن آداب الصلاة؛ انّه إذا دخل الوقت، يقدم السنة والنوافل الراتبة، ففي ذلك سرّ وحكمة، منها انّ العبد تشعث باطنه وتفرق همّه بسبب المخالطة من الناس والدنيا وقيامه بمهامّ المعاش من صرف همّ إلى أكل أو نوم بمقتضى الحيلة فإذا قدم النافلة ينجذب باطنه إلى الحضور ويتهيّأ للمناجات فيذهب بالنافلة أثر الغفلة والكدورة من الباطن فيصير مستعداً حاضراً للفريضة، يستنزل بها البركات وتطرق النفحات، ثم بعد النافلة يجدّد

١ـ سورة المزمل: ٦.

٢ـ انظر: مكارم الأخلاق، ص ٢٩٤. وراجع بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ١٦٧.

٣ـ سورة آل عمران: ٢٦.

٤ـ النساء: ٤.

التوبة عند الفريضة عن كل ذنب عمله من الذنوب عامّة وخاصة، فالعامّة، الكبائر والصغائر مما نطق الكتاب به، واما الخاصّة ذنوب الحال، فكلّ عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله ويعرّفها صاحبها كما قيل: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».[1]

ثم إذا تمكّن لا يصلّي الّا جماعة، فإنّها تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة.

وبعد ان استقبل القبلة بظاهره والحضرة الإلهيّة بباطنه، يقرأ سورة الناس وآية التوجّه قبل الصلاة، فتوجّه ظاهراً وباطناً ثم يرفع يديه حذو منكبيه بحيث يكون كفّاه حذو منكبيه وإبهاماه عند شحمة أذنيه ويضمّ الأصابع، والضمّ أولى من النشر، ويكبّر ويجزم «راء» أكبر ويجعل المدّ في «الله» ولا يبالغ في ضمّ الهاء من «الله» ثم يرسل اليدين مع التكبير من غير نقص.

وصفوة الصلاة «التكبيرة». ويكون النيّة بالله لله ومن الله. وقال السلف: كيفيّة الدخول في الصلاة هو أن تقبل على الله إقبالك عليه يوم القيامة ووقوفك بين يدي الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تناجيه وتعلم بين يدي من أنت واقف، فإن لله عباداً إذا كبّر في الصلاة غاب في مطالعة العظمة والكبرياء وامتلأ باطنه نوراً فصار الكون بأسره في فضاء شرح صدره كخردلة في فلاة وإذا شرع في القراءة يطرق رأسه في قيامه ويكون نظره إلى موضع السجود ويكمل القيام بانتصاب القامة ونزع يسر الانطواء عن الركبتين ويعاطف البدن ورعاية الاعتدال في الاعتماد على الرجلين جميعا، ويقول: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» قبل «البسملة» في الركعة الأولى، ويقرء (الفاتحة والسورة) بحضور قلب، وجمع همّ وخاطر، بين القلب واللسان،

١ـ بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣١٦.

بحظٍ وافر من الوصلة والدنو والهيبة والخشية والوقار، وان لم يكن كذلك وقال باللسان من غير مواطاة القلب، فما اللسان ترجماناً، ولا القاري متكلّماً، قاصداً سماع الله حاجته، ولا مستمعاً إلى الله، فاهماً عنه سبحانه ما يخاطبه. فصلوته جسد بلا روح، واقلّ مراتب الخاصّة الجمع بين القلب واللسان في التلاوة، فتخرج الكلمة من لسانه، ويسمعها بقلبه، فتقع الكلمة من القرآن في فضاء قلب ليس فيه غيرها بكمال الوعي. ودرك شريف فحواها من معانٍ تلطّف عن تفصيل الذكر، فيكون الظاهر له من معاني القرآن قوت النفس، فالنفس المطمئنة متعوّضة من معاني القرآن، وبمثل هذه المطالعة يكون كمال الاستغراق في لجج الاشواق، كما حكى عن أمير المؤمنين عليه السلام، انّه صلّى ذات يوم فاستخرجوا كسرة النشارة التي كانت في رجله وهو لم يحسّ بذلك.

ثم إذا أراد الركوع يتأملّ قدراً يسيراً، فيركع والنصف الأسفل بحاله في القيام من غير انطواء الركبتين، وتجافي مرفقيه عن جنبيه، ويمدّ عنقه مع ظهره، ويضع راحتيه على ركبتيه، منشورة الأصابع، ويستحب في الركوع نشر الأصابع وفي السجود بالعكس.

ويقول: «**سبحان ربي العظيم وبحمده**» ثلاثة، وهذا العدد أدنى الكمال، والذكر يكون بعد التمكن من الركوع ويكون في ركوعه ناظراً نحو قدميه فهو اقرب إلى الخشوع من النظر إلى موضع السجود، وإنّما النظر إلى موضع السجود حال قيامه ويقول بعد الذكر راكعاً: «**اللهمّ لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري وعظمي ومخي وعصبي**»[١]، ويكون قلبه في الركوع متصفاً بالتواضع والإخبات.

قيل: علامة الهداية، الصلاة مع الخشوع والتواضع، ثم يرفع رأسه قائلاً:

١ـ الألفية والنفلية، ص ١١٩.

«سمع الله لمن حمده» عالماً بقلبه ما يقول، فإذا استوى قائماً يحمد ويقول: «ربّنا لك الحمد ملأ السموات والأرض وملأ ما شئت» إلى آخر الدعاء فإن أطال في القيام فيكون ذلك في النافلة بعد الرفع من الركوع فليقل «لربي الحمد» مكرّرا ما أراد، فامّا في الفرض فلا يطول تطويلاً يزيد على الحدّ زيادة بيّنة تخرجه عن صورة الصلاة، ثم يهوي ساجداً ويكون في هويّه مستيقظاً حاضراً خاشعاً عالماً بما يهوي فيه وإليه وله، فإنّ من الساجدين من يتصور ويكاشف انّه يهوي إلى تخوم الأرضين، متغيّباً في آجزاء الملك، من الحياء، وإظهار الانكسار والذلّة واستشعار روحه عظيم كبريائه تعالى، كما ورد أن جبرئيل يستر بخافقة من جناحه استصغاراً لنفسه، وحياء من الله، ويتفاوت الساجدون في مراتب العظمة واستشعار كنهها من الأنبياء والأولياء والمؤمنين لكل منهم على قدر حظّه من ذلك. وفوق كل ذي علم عليم، فمنهم من يتّسع دعاؤه وينشر صباؤه في سجوده ويخطى بالصنيعين ويبسط الجناحين فيتواضع بقلبه إجلالاً ويرفع بروحه إكراماً فيجتمع له الأنس والهيبة، والحضور والغيبة، والقرار والفرار، والأسرار والجهار، فيكون في سجوده سابحاً في بحر معرفته وشهوده لم يتخلّف منه عن السجود شعرة كما قال سيد البشر في سجوده: «**سجد لك سوادي وخيالي**» إلى آخره.

ويقول في سجوده الذكر ثلاثاً إلى السبع الذي هو الكمال وفي الهويّ يضع ركبتيه أولاً ثم يديه ثم جبهته وأنفه، ويباشر بكفّيه من دون حائل من الأرض من ثوب وغيره، ويكون رأسه بين كفّيه ويداه حذو منكبيه من تيامن وتياسر منهما ولا يلصقهما بفخذه، ويقول بعد التسبيح بالدعاء المأثور: «**اللهم لك سجدت وبك أمنت**» إلي آخره، ثم يرفع رأسه بكراً ويجلس على رجله اليسرى موجهاً بالأصابع إلى الكعبة ويضع اليدين على الفخذين ويقول: «**رب**

اغفر لي وارحمني»، ولا يطيل هذه الجلسة في الفريضة.

اما في النافلة؛ فلا بأس بالإطالة ويكرّر قوله: «رب اغفر وارحم»، ثم يسجد السجدة الثانية مكبّراً ثم إذا أراد النهوض إلى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة، وهكذا بقيّة الركعات، وفي الصلاة سرّ المعراج وهو معراج القلوب فليذهن ويفهم ما يفعل ويقول، فالتشهد مقرّ الوصول بعد قطع الهيئات على تدريج طبقات السموات والدعوات والمناجاة ويدري ما يفعل وما يقول، فبعد الشهادة يسلم على النبيﷺ بأدب كامل، ثم على عباد الله الصالحين، فإذا صلّى وسلّم لا يبقى عبد في السماء ولا في الأرض من عباد الله الصالحين الّا ويسلّم عليه بالنسبة الروحيّة والخاصيّة الفطريّة، ويدعو في آخر صلاته لنفسه وللمؤمنين وان كان المصلّي إماماً لا ينفرد بالدعاء بل يدعو لنفسه ولمن ورائه وللمؤمنين.

فان الإمام المتيقّظ كحاجب دخل على سلطان وورائه أصحاب الحوائج يسأل لهم ويعرض على السلطان حاجاتهم، والمؤمنون كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً ولهذا وصفهم الله بقوله: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[1]، كلّما اجتمعت ظواهرهم تجتمع بواطنهم، فالبركات تسري من البعض الي البعض بل جميع المؤمنين المصلّين في أقطار الأرض، بالصلوة يقع بينهم تناصر وتعاضد بحسب القلوب، بل يمدّهم الله بالملائكة الكرام كما أمدّ رسول الله بالملائكة المسوّمين، وهذا الإمداد يقع لهم إذا اصطفوا للجماعة.

كما حكي عن كعب الأحبار انّه سئل كيف تجد نعت رسول اللهﷺ قال: «يولد بمكّة ويهاجر بطيّبة ليس بفحّاش ولا يكافئ بالسيئة السيئة ولكن يعفو، وأمّته الحمّادون لله ويكبّرون الله على كل نجد، يوضّئون أطرافهم

١ـ سورة الصف: ٤.

ويأتزرون في أوساطهم، يصفّون في صلاتهم كما يصفّون في قتالهم، دويّهم في مساجدهم كدويّ النحل».[١]

ومن أقام الصلوات الخمس في جماعة بحضور القلب فقد ملأ البرّ والبحر عبادة، وهي سرّ الدين وتمحيص للذنوب، لكن يجتنب المصلّي أن يكون باطنه مرتهناً بشيء ويدخل الصلاة، وكذا قيل: من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ولا يدخل في الصلاة وهو مغضبا بل يكون خاشعاً. قال ابن عباس: ان الخشوع في الصلاة أن لا يعرف المصلّي من على يمينه وشماله.[٢] قال بعضهم: «إذا كبّرت التكبيرة الأولى ان الله ناظر إلى شخصك عالم بما في ضميرك فمثّل الجنة عن يمينك والنار عن شمالك». وهذا التمثّل يكون تداوياً لدفع الوسوسة. قال النبي ﷺ: **«من صلّى ركعتين صحيحتين ولم تحدّث نفسه بشيء من الدنيا غفر الله ما تقدم من ذنبه».**[٣] وقد قيل ورد: **«أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان خوفاً منه لأنّه تأهّب للدخول على الملك ويضرب بينه وبين الشيطان سرادق، فإذا قال الله أكبر، اطّلع الملك في قلبه، فإذا لم يكن في قلبه أكبر من الله وأهمّ منه يقول الملك صدقت، الله في قلبك كما تقول، وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش وإذا كان في قلبه شيء أكبر واهمّ منه يقول له كذبت فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجاباً لقلبه من الملكوت، فيلتقم الشيطان قلبه فلا يزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس إليه حتى ينصرف من صلاته».**[٤] والقلوب الصافية تصير سماويّة فيدخل بالتكبير في السماء، والله تعالى حرس السماويّات من تصرّف الشياطين، والمؤمن لا زال يكون

١ـ بحار الأنوار، ج ٦١، ص ٢٣٩.

٢ـ انظر: مستدرك الوسائل، ج ٢٤ ص ٩٩.

٣ـ سنن أبي داود، ج ١، ص ١٠٦، سنن البيهقي، ج ١، ص ٤٨.

٤ـ روضة الواعظين، للفتال النيسابوري، ص ٣٠٦.

يرفع الحجاب، ورفع الحجاب لا يحصل الّا بعد فناء نفسه في رضى الله.

قال النبي ﷺ «**لا يستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحبّ إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف احبّ إليه من أن يعرف**».[١] وهذا مقام يحصل بعد مجاوزة عقبات، وطيّ مقامات كثيرة صعبة، أدناها الإخلاص وإلقاء حظوظ النفس بالكلّية ثم مكاتمة ذلك عن الخلق جملة. فإذا حصل هذا المقام لا يبقى للنفس أنيّة وصار تسليماً محضاً ورضى بحتاً، ولا يريد الّا ما يريد الله، فيتخلّص حينئذٍ من الكبر والرياء والحرص والعجب والمهلكات جميعا.[٢]

حتى انّهم إذا لم تحضرهم النية لم يقدموا على العمل لأنّ النيّة انبعاث النفس وتوجّهها إلى ما ظهر، وذلك ممّا يقدر عليه وممّا لا يقدر عليه في بعض الأحيان. فإنّ الدواعي لها أسباب مثل ان إذا غلبت على الإنسان شهوة النكاح كيف يتمكّن أن يكون غرضه ثواب كثرة النسل في أمّة محمّد ﷺ بل الداعي دفع الشهوة ودرك اللذّة، فالقصد الشهوة لا السنّة.

فمن مال قلبه إلى الدنيا لم يتيسّر له القربة في غالب الأعمال حتى في الفرائض، وغايته أن يتذكّر النّار ويحذّر نفسه عقابها، أو نعيم الجنة ويرغب في ثوابها، فيكون ثوابه ناقصاً بسبب انّه انبعثت له داعية ضعيفة فيكون الثواب بقدر الرغبة والقصد، واما الطاعة على نيّة إجلال امر الله لاستحقاقه تعالى الطاعة والعبوديّة فلا يتيسّر للراغب في الدّنيا، وهي أعزّ النيّات والعبادات ويعزّ على بسيط الأرض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها.

١ـ التحصين، لابن فهد الحلّي، ص ١٢.

٢ـ استشهد المفسر في كلامه ببيت شعر باللغة الفارسيه نورده في الهامش مع ترجمته:

نردبان خلق اين ما ومنيست   عاقبت زين نردبان افتادنيست

المعنى: السلّم الذي يرتقيه الناس (لبلوغ مقاصدهم) يقوم على الـ(أنا) و(نحن) = (الأنانية) سيكون مصير من يرتقي هذا السلّم إلى الانهيار والسقوط.

فافهم سبب قلة آثار الفيض من عبادتك، وقد غلط أقوام حيث اعتقدوا انّ المقصود من الصلاة ذكر الله فايّ حاجة إلى الصلاة وقد سلكوا سبيل الضلال، وقوم آخرون سلكوا طريقاً ادّتهم إلى نقصان الحال فإنّهم راقبوا الفرائض ولكن أنكروا فضل النوافل واغترّوا بسير روح الحال وأهملوا فضل الأعمال ولم يعلموا انّ لحكم الله في كلّ هيئة من الهيئات أسراراً وحكماً لا توجد في شيء من الأذكار.

فالأحوال والأعمال روح وجسمان، فالأعمال تزكوا بالأحوال، والأحوال تترقى وتنمو بالأعمال، وصاحب الشريعة اعلم بصلاح الأمر منك يا فضول، وصاحب البيت أدرى بما في البيت، وعليك بإجراء سنة الله، وعليك بالتناسب في الأحوال.

فمن المناسب أن يكون اللباس شاكلاً للطعام والطعام شاكلاً للكلام والكلام شاكلاً للفعال، ترى بعض الناس يلبس عبائة بثلاثة دراهم، وشهوته في بطنه بخمسة دراهم، كل أكله ومنكحه بدنانير، فمن خشن ثوبه ينبغي أن يكون مأكوله من جنسه، فمتى اختلف الثوب والمأكول أو القول والفعل فذلك دليل على كون الهوى في أحد الطرفين، امّا في طرف الثوب لموضع نظر الخلق إلى زهده، وامّا في طرف المأكول لفرط الشره، وكلا الوصفين مرض، الم تعلم انّ الّذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم تسوّد وجوههم؟ ومما ينسب إلى السجّادﷺ من الأدعية: «**اللهمّ انّي أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي وتقبح لك فيما أخلو سريرتي فيحلّ بي مقتك**».[1]

و حكي عن بعض الكاملين انّهم لم يحضروا بعض الأوقات عند أساتيدهم، فسئلوا عن السبب فقال: انّي إذا رأيته أحسن له كلامي وتظهر نفسي عنده بأحسن أحوالها وفي ذلك الفتنة والعجب، وكلّ ذلك لأجل

١ـ الصحيفة السجادية، ص ٧١

التخلّص من شائبة الرياء.

في بيان حكم العمل المشوب، هل يستحق به الثواب أم هدر؟ فقد اختلف فيه بأن يقتضي ثوابا أم عقابا أم لا ثواباً ولا عقاباً، وظاهر بعض الاخبار تدلّ على انّه لا ثواب له، وليس بعض الأخبار يخلو عن تعارض والعلم عند الله، ولعلّ أن ينظر إلى قدر قوّة الداعي فإن كان الداعيين مساوياً في القوّة تقاوماً وتساقطاً فصار العمل لا له ولا عليه وان كان باعث الدنيا أغلب فليس بنافع ومفض للعقاب نعم العقاب الذي فيه أخفّ من الرياء الخالص، وان كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الدنيوي والرياء فله بقدر ما فضّل من قوّة الباعث الديني، والدليل عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[1] وبقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾[2] فيحبط منه قدر الذي يساويه وبقيت زيادة، فداعية الرياء من المهلكات، وداعية الخير من المنجيات، فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادّتان فإن كان يقوّيه هذا أغلب فهذا أغلب وكذلك بالعكس، فكما ان المستضر بالحرارة لا يخلوا عن أثر فكذلك.

قال بعض أهل السلوك: كن نجماً فإن لم تستطع فكن قمراً، فإن لم تستطع فكن شمساً، أي كن مصلّياً جميع الليل كالنجم يشرق أو كالقمر يضيئ بعض الليل أو فصلّ بالنهار.

وأداء الفرائض بالجماعة من المستحبّات الأكيدة؛ خصوصاً اليومية منها؛ وخصوصا لجيران المسجد أو من يسمع النداء، وقد ورد في فضلها وذمّ تاركها من ضروب التأكيدات ما كاد تلحقها بالواجبات، ففي الصحيح: «**الصلاة**

١ـ سورة الزلزال: ٧

٢ـ سورة النساء: ٤٠.

في جماعة تفضل على صلاة الفرد بأربع وعشرين درجة».[1]

قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبرئيل مع سبعين ألف بعد صلاة الظهر فقال يا محمد انّ ربّك يقرئك السلام وأهدى إليك هديّتين، قلت ما تلك الهديتان؟ قال الوتر ثلث ركعات والصلاة الخمس في الجماعة، قلت يا جبرئيل ما لأمّتي في الجماعة، قال إذا كان اثنين كتب الله لكل واحد بكل ركعة مائة وخمسين صلاة وإذا كانوا ثلاثة كتب الله لكلّ واحد بكل ركعة ستمائة صلاة، وإذا كانوا أربعة كتب لكل واحد ألفاً ومأتي صلاة وإذا كانوا خمسة كتب الله لكل واحد بكل ركعة ألفين وأربعمائة صلاة، وإذا كانوا ستة فأربعة آلاف وثمانمائة بكل ركعة، وإذا كانوا سبعة فلهم بكلّ ركعة تسعة آلاف وستمائة صلاة، وإذا كانوا ثمانية كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة تسعة عشر ألفاً ومأتي صلاة، وإذا كانوا تسعة كتب لكل واحد منهم بكل ركعة ستة وثلاثين ألفاً وأربعمائة صلاة، وإذا كانوا عشرة كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة سبعين ألفاً وألفين وثمانمائة صلاة، فإن زادوا على العشرة فلو صارت السموات كلّها مدادا والأشجار أقلاما والثقلان مع الملائكة كتابا لم يقدروا ثواب ركعة، يا محمد تكبيرة يدركها المؤمن مع الإمام خير من ستين ألف حجة وعمرة، وخير من الدنيا وما فيها بسبعين ألف مرة، وركعة يصلّيها المؤمن مع الامام خير من مائة ألف دينار يتصدّق بها على المساكين وسجدة يسجدها المؤمن مع الإمام في جماعة خير من عتق مائة رقبة».[2]

وكذلك يتضاعف الثواب والأجر بتضاعف الأمكنة والأئمة مثل مسجد الكوفة وساير المساجد، ومثل العالم الهاشمي وغيره. ولا يجوز ترك الجماعة رغبة عنها أو استخفافاً بها. ففي الخبر: «لا صلاة لمن لا يصلّي في المسجد إلا من علة، ولا غيبة لمن صلّى ورغب عن جماعتنا، ومن رغب عن جماعة المسلمين وجب

١ـ كشف الغطاء، ج ١، ص ٢٦.

٢ـ مستدرك الوسائل، ج ٦، ص ٤٤٤.

على المسلمين غيبته وسقطت عدالته، ووجب هجرانه، وإذا دفع إلى إمام المسلمين أنذره وحذّره فإن حضر جماعة المسلمين والا أحرقت عليه داره»[1] وفي خبر آخر أمير المؤمنين عليه السلام بلغه ان قوماً لا يحضرون الصلاة في المسجد فخطب فقال: **«إنّ قوماً لا يحضرون الصلاة معنا في مساجدنا فلا يؤاكلونا، ولا يشاربونا، ولا يناكحونا، أو يحضروا معنا صلاتنا جماعة، واني لأوشك بنار تشعل في دورهم فأحرقها عليهم أو ينتهون»**.[2]

وأمثال هذه الأخبار عندنا الإمامية كثيرة. واما عند أهل السنة، قال بعضهم: المراد من قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾[3] المراد من الداعي المؤذنون الذين يدعون إلى الجماعة في الصلوات الخمس وتارك الجماعة شرّ من شارب الخمر وقاتل النفس بغير حق، ومن القتات ومن العاق لوالديه، ومن الكاهن والساحر، ومن المغتاب وهو ملعون في التورية والإنجيل والزبور والفرقان، وهو ملعون على لسان الملائكة، لا يعاد إذا مرض، ولا يشهد جنازته إذا مات. قال النبي صلى الله عليه وآله: **«تارك الجماعة ليس مني، ولا أنا منه، ولا يقبل الله منه، صرفاً ولا عدلاً، أي نافلة ولا فريضة، فإن ماتوا على حالهم، فالنار أولى بهم»**.

كذا في روضة العلماء، قال ابن عباس بعث الله نبيّه صلى الله عليه وآله بشهادة أن لا إله إلا الله فلمّا صدّق زاد الصلاة فلمّا صدّق زاد الزكاة فلمّا صدّق زاد الصيام فلمّا صدّق زاد الحج ثمّ الجهاد ثمّ أكمل لهم الدّين[4]، قال مقاتل كان النبي صلى الله عليه وآله يصلّي بمكّة ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشاء، فلما عرج به إلى

١ـ الاستبصار، ج ٣، ص ١٣ ووسائل الشيعة، ج٨، ص ٣١٧.

٢ـ لم نعثر عليه فيما بأيدينا من المصادر.

٣ـ سورة الأحقاف: ٣١.

٤ـ و أيضاً رواه السيوطي في الدرالمنثور، ج ٦، ص ٧١.

السماء امر بالصلوة الخمس[1] وإنما فرضت الصلاة ليلة المعراج لأنّ المعراج أفضل الأوقات وأشرف الحالات، والصلاة بعد الإيمان بالله أفضل الطاعات، وفي مرتبة العبودية أحسن الهيآت، ففرض أفضل العبادات.

ولما اسرى به شاهد ملكوت السماء وعبادات سكانها من الملائكة، فاستكثرهاﷺ غبطة، وطلب ذلك لأمته، فجمع الله له في الصلوات الخمس عبادات الملائكة كلّها، لأنّ منهم من هو قائم، ومنهم من هو راكع، ومنهم من هو ساجد، وحامد، ومسبّح، إلى غير ذلك، فأعطى الله أجور عبادات أهل السموات لأمّته إذا أقاموا الصلوات الخمس.

وقيل: انّ الحكمة في كونها خمس صلوات، لأنّها كانت في الأمم السالفة متفرقة فجمعها لنبيّه وأمّته مجمع الفضائل كلّها، فأوّل من صلّى الفجر آدمعليه السلام والظهر ابراهيمعليه السلام والعصر يونسعليه السلام والمغرب عيسىعليه السلام، والعشاء موسىعليه السلام[2] وقيل: صلّى آدمعليه السلام الصلاة الخمس كلّها، ثم تفرقت بعده بين الأنبياء، واوّل من صلّى الوتر رسول اللهﷺ ليلة المعراج، لذلك قال زادني ربي صلاة ـ أي الوتر ـ على الخمس، ـ أو صلاة الليل ـ واوّل من بادر إلى السجود جبرئيل ولذلك صار رفيق الأنبياء، واوّل من قال: (سبحان الله) جبرئيل، (والحمد لله) آدم، (ولا إله إلا الله) نوح، (والله أكبر) إبراهيم، (ولا حول ولا قوّة إلا بالله) رسول اللهﷺ، ذكر هذا في كشف الكنوز وحل الرموز، وفي بعض الشروح لمّا أراد الله افاضة الخيرات لنبيّه وتيسير الأمر لهم كي لا يملوا من العبادات لوّن لهم الطاعات ليستريحوا من نوع إلى نوع، فجعل في اليوم خمساً وفي السنة شهراً وفي المأتين خمسة وفي العمر نورة

١ـ بحارالأنوار، ج ١٩، ص ١٩٣.

٢ـ انظر: السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٥٠.

كيلا ينفكون عن العبودية ولا يملون، ووسع عليهم الوقت حتى لا يتأسفون بفوت أوقاتها، وتبقى لهم صفة الاختيار، وفرّق بين يد المرتعشة من الفلج واليد التي تحركها وترعشها أنت، فتأمل يا أخي في هذه الدقيقة كي تبين لك نكتة الجبر والاختيار، انتهى.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ اي ومن الذي رزقناهم وأعطيناهم ينفقون، والرزق في اللغة العطاء، والإنفاق إخراج المال يقال أنفق ماله اي أخرجه عن ملكه وصرفه، وتقديم المفعول في الآيه للاهتمام به، والمحافظة على رؤس الآية، والمراد بهذا الإنفاق الصرف إلى سبيل الخير فرضاً كان أو نفلاً، ومن فسّره بالزكوة ذكر أفضل أنواعه أو خصّصه بها لاقترانه بما هي شقيقتها وأختها، وهي الصلاة. والأظهر في الآيه انّ المراد من النفقة الزكاة، وفي الإنفاق فضائل لا تحصى قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾[١] الآية.

واعلم انّ إنفاق المال في الخيرات أحد أركان الدّين والسرّ فيه انّ المال محبوب الخلق وهم مأمورون بحبّ الله ومدعوّون للحبّ بنفس الإيمان فجعل تعالى بذل المال امتحاناً لصدقهم في دعواهم فإنّ المحبوبات تبذل لأجل المحبوب.

فانقسم الخلق إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: الأقوياء وهم الّذين أنفقوا جميع ما ملكوا ونصف ما ملكوا فهولاء صدقوا ما عاهدوا الله في دعواهم، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢].

١ـ سورة البقرة: ٢٦١.

٢ـ سورة الفتح: ١٠.

الطبقة الثانية: المتوسطون وهم الذين لم يقدروا على أخلاء اليد عن المال دفعة ولكن أمسكوها لا للتنعم، بل للإنفاق عند ظهور محتاج، ويقنعون في حق أنفسهم بما يقوّيهم على العبادة، وإذا عرض محتاج بادروا إلى سدّ خلّته، ولم يقتصروا على قدر الواجب من الزكاة، وإنما غرضهم العمدة في الإمساك ترصّد الحاجات.

والطبقة الثالثة: الضعفاء وهم المقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليها ولا ينقصون منها ولا شكّ بانّا لسنا من الطبقة الأولى والثانية، لكن ينبغي أن نتجاوز الدرجة الثالثة ولوالى أواخر طبقات المتوسّطين، ونزيد على الواجب فإنّ الاكتفاء بمجرّد الواجب حدّ البخلاء. قال الله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ﴾[1] فاجتهد لا ينقضي عليك يوم الّا وتتصدّق بشيء وراء الواجب ولو شيئاً يسيرا فترتفع بذلك من طبقة البخلاء، وإن لم تملك شيئاً فمعونة في حاجة أو شفاعة خير فيكون بذلك في الخير ممّا تقدر عليه من جاه وكلمة طيّبة إذا كنت فقيرا.

وحافظ في صدقتك على خمسة أمور:

الأول: الأسرار، فإنّ صدقة السّر تطفي غضب الربّ. وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2] وبذلك تخلص عن الرياء، والرياء محبط ومهلك ينقلب في القلب في صورة حيّة إذا وضع في القبر أو يولم إيلام الحيّة، كما انّ البخل ينقلب في القبر في صورة عقرب.

الثاني: ان يحذر من المنّ وحقيقته أن ترى نفسك محسناً إلى الفقير، وعلامته ان تتوقّع شكراً منه. قال الله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ

١ـ سورة محمّد: ٣٧.

٢ـ سورة البقرة: ٢٧١.

وَٱلۡأَذَىٰ﴾[1] مع انّ آخذ الصدقة هو الذي يكون له على المعطى حق بقبوله منه، والزكاة والصدقات أو ساخ الأموال فإذا أخذ الفقير منك فقد طهّر لك طهرة فله الفضل عليك، أرايت لو انّ فصّاداً فصدك مجّاناً وأخرج من باطنك الدم الّذي تخشى ضرره أليس هو المحسن لك؟ فالّذي أخرج من الباطن رذيلة البخل مع انّ ضرره في الحيوة الآخرة أولى بأن تراه متفضّلا عليك.

الثالث: أن تخرج من أطيب أموالك قال الله تعالى: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾[2]، والإنسان يؤثر الأعزّ لحبيبه دون الأخس.

الرّابع: ان تعطى بوجه طلق فرح غير مستكره، قال رسول الله ﷺ: «**سبق درهم بمائة ألف درهم**»[3]، وإنّما أراد ﷺ به ما يعطيه عن بشاشة وطيب نفس من أنفس أمواله فذلك أفضل من مائة ألف درهم مع الكراهيّة.

الخامس: أن تتحرّى بصدقتك محلّا تزكوا به الصدقة مثل الرّجل المتّقي العالم الّذي يستعين بها على تقوى الله والصالح المعيل ذي الرحم، وإن لم تجتمع تمام هذه الأوصاف فباحادها أيضاً تزكوا الصّدقة. قال رسول الله ﷺ: «**أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين**»[4]، وقال ﷺ: «**لا تأكل الّا طعام تقيّ ولا يأكل طعامك الّا تقيّ**».[5]

وفي ثواب الأعمال عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**انّ عابدا عبد الله ثمانين سنة ثم أشرف على امرأة فوقعت في نفسه فنزل إليها فراودها على نفسها فطاوعته فلمّا قضى**

١ـ سورة البقرة: ٢٦٤.

٢ـ سورة البقرة: ٢٦٧.

٣ـ المحلى، لابن حزم، ج ٨، ص ١٤. ونيل الأوطار، للشوكاني، ج ٤، ص ٢٥٧.

٤ـ مستدرك الوسائل، ج ١٦، ص ٢٥٣.

٥ـ انظر: جامع أحاديث الشيعة، ج ٨، ص ٥٠٤. نقلاً عن الأمالي ابن الشيخ، ص ٣٣٩.

منها حاجته طرقه ملك الموت فاعتقل لسانه فمرّ سائل فأشار إليه ان خذ رغيفاً كان في كسائه فأحبط، الله عمل ثمانين سنة بتلك الزنية، وغفر الله له بذلك الرغيف»[1]، أتظنّ أن ينفعك في غنمته لا بل الربح في خير أمضيته أو خصم أرضيته فأدّ قرضك وأوف فرضك ولا تسع لقاعد ولا تسهر لراقد.

روي انّه أوحى الله إلى بعض أنبيائه، انّي قضيت عمر فلان نصفه بالفقر ونصفه بالغنى فخيّره حتى أقدّم له أيّهما شاء فدعى النبيّ وطلبه، فجاء الرّجل فأخبره النبيّ بما أخبره الله، فقال الرجل حتى أشاور زوجتي، فقالت زوجته: اختر الغنى حتّى يكون هو الأول، فقال لها الرّجل: انّ الفقر بعد الغنى صعب شديد والغنى بعد الفقر طيب لذيذ، فقالت: لا بل أطعني في هذا فرجع إلى النبيّ فقال اختار نصف عمري الّذي قضى لي فيه بالغنى أن يقدّم، فوسّع الله عليه الدنيا، وفتح عليه باب الغنى، فقالت له امرأته: ان أردت أن تبقى هذه النعمة فاستعمل السخاء مع خلق ربك، فكان الرجل إذا اتّخذ لنفسه ثوباً اتّخذ لفقير ثوباً مثله، فلمّا تمّ نصف عمره الذي قضى له فيه بالغنى أوحى الله إلى نبي ذلك الزمان، انّي كنت قضيت نصف عمره بالفقر ونصفه بالغنى لكنّي وجدته شاكراً لنعمائي والشكر يستوجب المزيد فبشّره انّي قضيت باقي عمره بالغنى.

وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

ثم بيّن سبحانه صفة المتّقين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي القرآن بأسره والشريعة عن اخرها والتعبير عن إنزاله بالماضي مع كون بعضه مترقّبا ولم ينزل لتغليب المحقّق وقوعه على المقدّر ولتنزيل ما في شرف الوقوع لتحققه منزلة الواقع ولأنّ القرآن شيء واحد في الحكم، أو الإنزال في هذه الآية بمعنى الوحي، وهذا النزول الثانوي على عالمه البشريّة والنزول

١ـ ثواب الأعمال، ص ١٣٩.

الأول إلى عالم نوره من غير واسطة جبرئيل والنزول الثّاني إلى عالم الخلق زيادة في علمه غير مسبوق بالجهل بل نزول علم على علم أو زيادة علم على علم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1] ويستفاد من هذه الآية وهي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ انّ الكلام مخلوق لأنّ المنزل لا بدّ وأن يكون حادثاً وممكناً ولا يكون قديماً خلافاً للأشاعرة فإنّهم قالوا بالكلام النفسي فزعموا أنّ الله لم يزل متكلّما مع وضوح أنّ الكلام غير المتكلّم.

ويمتنع اقترانهما كما يمتنع اتحادهما مع انّه يستلزم تعدّد القدماء وهو ينافي التوحيد، فالكلام الإلهي المنزل على أنبيائه كلّه حادث ومخلوق، والمتكلّم هو الخالق فيخلق الكلام بإرادته ومشيّته والأشاعرة يقولون بالصفات الزائدة مع ما يدّعون من الإقرار بالتوحيد ويقولون بالقدماء الثمانية ومنها الكلام النفسي، وهذا ينافي التوحيد ضرورة انّ مفهوم الواجب لا يصدق على كثيرين، وحقيقة الوجود البحت لا يشوبه شيء من التركيب الذاتي والخارجي والذهني والجنس والفصل وما قاله الأشاعرة يستلزم تركّب الواجب من الذات والصفات بشهادة انّ الصفة غير الموصوف. والقول بالصفات الزائدة يستلزم كون الذات فاقداً للكمالات الذاتية وافتقارها إلى صفاتها، وكل محتاج ممكن ويستلزم النقص، وكل ناقص ممكن، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ونظام توحيد الله تعالى نفي الصفات عنه، فمن وصف الله فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه**».[2] إيقاظ: وامّا ما قرره الحكماء من أنّ الواحد لا يصدر عنه الّا الواحد وأنّ العقل الأول هو المخلوق من غير واسطة وانّ العقل الأول هو

١ـ سورة طه: ١١٤.

٢ـ انظر: الكافي، ج ١، ص ١٤٠، والتوحيد، للصدوق، ص ٥٧

الخالق للعقل الثّاني، وهكذا إلى أن ينتهي إلى العقول العشرة، فهذه القاعدة مع عدم ورود تصديقها في شيء من الكتاب والسنّة مخالفة لما ينساق من هذه الآية الكريمة لأنّ العقل الأول هو الحقيقة المحمّديّة كما يستفاد من الحديث، وهو: «**أول ما خلق الله نور نبيك**»[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾[2] صريح في أنّ المنزل بالكسر إنّما هو الله، والقول بأنّه ﷺ خالق للعقل الثاني مخالف للأدلة الأربعة وهي الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل، إذ نسبة الخلق والصنع إلى غيره غير جائز، هل من خالق غير الله؟ وقد صحّ انه ﷺ عبد ونبيّ وقوله: ﴿**بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ**﴾ إشارة إلى الهدايات والإفاضات والوحي النازلة من الله بالنسبة إليه، وقد جعلهم الله مجرى للفيوضات، وليس علمه ذاتيا مستغنيا عن الافاضة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ**﴾[3]، ولا شكّ انه ﷺ ممكن، فيحتاج في هدايته وساير صفاته إلى الواجب، والضالّة بمعنى الغيبوبة، لأنّ مرتبته كانت خفيّة من أول الأمر، فهدى الله بإظهار تلك الحقيقة المقدّسة وإعلانها وإعلاء كلمتها والله متمّ نوره ولو كره المشركون، قال عليّ عليه السلام: «**أنا الأول، أنا الآخر، أنا الظّاهر، أنا الباطن**»[4]، قيل في معناه وجوه:

الأول، انّه عليه السلام أوّل من آمن برسول الله ﷺ في عالم الغيب والشهادة وانّه عليه السلام أوّل من آمن في جميع العوالم من عالم الأنوار والمثال وعالم الأرواح والنفوس وعالم الذّر الأول، الّذي قال الله: ﴿**أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ**﴾، وعالم الذر

١ـ بحار الأنوار، ج ٥٤، ص ١٩٨.

٢ـ سورة الرعد: ٣٦.

٣ـ سورة الضحى: ٧.

٤ـ مناقب آل ابي طالب، لابن شهر آشوب، ج ٢، ص ٢٠٦.

الثاني المتّصف بالإجابة المشروطة. والذّر الثالث المشتمل على الإجابة المتخيّرة وعالم الملك والناسوت، فإنّهﷺ أوّل من دعي وأجاب.

الثاني: انّهﷺ أوّل من أجاب نداء إبراهيم حين اذّن للناس بالحجّ، وهو والأئمّة، حقيقة الرّسول، وهم والرسول أوّل الأولياء وآخرهم وجوداً أو رتبة وتمام الأنبياء، والأولياء والأوصياء إنّما خلقوا من اشعّة انوار محمد وأهل بيته (صلوات الله عليهم) ومن قبسات فيضهم ونورهم، وهو قولهﷺ «**بكم بدأ الله وبكم يختم**».[١] وفي الحديث قال الصادقﷺ «**نحن الأوّلون ونحن الآخرون**»[٢]، وأيضاً في الحديث عنهم انّه (أي عليّاً)ﷺ الأول والآخر، أي مرجع الأولياء بدأ وختماً وأنّ له الولاية الكلّية في الدنيا والآخرة. وإنّه أوّل الخلق شرفاً **(وإياب الخلق إليهم)** لأنّه الواسطة في جميع الفيوضات.

﴿**وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**﴾ التورية والإنجيل وسائر الكتب السالفة والإيمان بالكلّ فرض عين جملة، وبالقرآن فرض عين تفصيلا حيث أنّا متعبّدون بتفاصيله.

﴿**وَبِٱلْأَخِرَةِ**﴾ تأنيث الأخر الذي يقابل الأول وسمّيت الدنيا دنيا لدنوّها من الآخرة، وسمّيت الآخرة آخرة لتأخرها ولكونها بعد الدنيا، والآخر بفتح الخاء الذي يلي الأوّل. ﴿**هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ الإيقان إتقان العلم بالشيء بنفي الشكّ والشبهة عنه نظراً واستدلالاً. والمراد من الآخرة الدار الآخرة بحذف الموصوف لأنّ الآخرة صفة، ولا بدّ لها من موصوف. و﴿**يُوقِنُونَ**﴾ أي يعلمون، وذلك لأنّ الكافرين ما كانوا متيقّنين بها بل كانوا يقولون: ﴿**إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا**﴾[٣]، ولمّا كان أهل الكتاب عليه من الشكوك.

١ـ الزيارة الجامعة الكبيرة، منسوب للإمام الهاديﷺ.

٢ـ الأمالي. للشيخ المفيد، ص ١١٠.

٣ـ سورة المؤمنون: ٣٧.

وكانوا يقولون: لا تمسّنا النار الّا أيّاماً معدودات وكذلك مختلقاتهم في أنّ نعيم الجنّة هل هو من قبيل نعيم الدنيا ألا وهل هو دائم أم لا؟ فقال فرقة منهم: يجرى حالها في التلذّذ بالمطاعم والمشارب والمناكح على حسب مجراها في الدنيا، وقال آخرون: إنّ ذلك إنّما أحتيج إليه في هذه الدنيا من أجل نماء الأجسام والتوالد والتناسل، وأهل الجنّة مستغنون عنه فلا يتلذّذون الّا بالنسيم والأرواح العبقة والسّماع اللذيذ والفرح والسرور، فهم عن الاعتقاد في أمور الآخرة بمعزل من الصحّة فضلا عن الوصول إلى مرتبة اليقين، وأمّا المؤمنون فهم موقنون غير مختلفين ولا شاكّين.

قال علماء الأخلاق: اليقين على ثلاثة أوجه؛ يقين عيان ويقين خبر ويقين دلالة، فأمّا يقين العيان فهو أنّه إذا رأى شيئاً زال عنه الشك في ذلك الشيء، وأمّا يقين الدلالة فهو أن يرى الرّجل دخاناً ارتفع من موضع فيعلم باليقين انّ هناك ناراً وإن لم يرها، وامّا يقين الخبر فهو انّ الرجل يعلم باليقين انّ في الدنيا مدينة يقال لها بغداد وإن لم ينته إليها، فهاهنا يقين خبر[1]، والعلم اليقين هو العلم الحاصل بالإدراك والاستدلال والنظر. ودرجات اليقين تكمل بدوام النظر والمجاهدات المشروعة مثل دوام الوضوء وقلّة الأكل وكثرة الذكر والسكوت بالفكر في ملكوت السموات والأرض وبأداء السنن والفرائض وترك ما سوى الحق وتقليل المنام وأكل الحلال وصدق المقال والمراقبة بالقلب إلى الله، فهذه مفاتيح العلوم والمشاهدة، وثمرة اليقين الاستعداد للآخرة.

ولذا قيل عشرة من المغرورين، من أيقن انّ الله خالقه ولا يعبده، ومن أيقن انّ الله رازقه ولا يطمئنّ به، ومن أيقن انّ الدنيا زائلة ويعتمد عليها، ومن

١ـ تفسير السمرقندي، ج ١، ص ٥٠.

أيقن انّ الورثة اعداؤه ويجمع لهم، ومن أيقن انّ الموت آت فلا يستعدّ له ومن أيقن انّ القبر منزله فلا يعمره، ومن أيقن ان الدّيان يحاسبه فلا يصحّح حسابه وحجته، ومن أيقن ان الصراط ممرّه فلا يخفّف ثقله، ومن أيقن انّ النار دار الفجّار فلا يهرب منها، ومن أيقن انّ الجنّة دار الأبرار فلا يعمل لها.

قال رجل من الزّهاد: رأيت غلاماً في البادية يمشى بلا زاد فقلت إن لم يكن له يقين فقد هلك، فقلت: يا غلام أتمشي في مثل هذا الموضع بلا زاد؟ فقال: يا شيخ ارفع رأسك، هل تري غير الله تعالى؟ فقلت: له الآن فاذهب حيث شئت.

قال إبراهيم الخواص: طلبت المعاش لأكل الحلال فاصطدت سمكة وقعت في الشبكة وأخرجتها وطرحت الشبكة في الماء فوقعت أخرى فيها ثم عدت فهتف بي هاتف لم تجد معاشاً الّا ان تأتي إلى ما يذكر الله فتقتلهم، فكسرت القصبة وتركت.

فعاشر أهل الرشد تهتـدى   و لا بدّ للمبتدي من منبّـه

من الأولى فالأولى بالنسبة إلى حال السالك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾

أولاء: جمع لا واحد له من لفظه، ومفردة ذلك والكاف للخطاب، وما في إشارة لفظ أولئك من البعد للإشعار بعلوّ درجتهم وبعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتداء أي الموصوفون بالصفات المذكورة كائنون على هدى وتنكير هدى لكمال تفخيمه كأنّه قيل على هدى أي هدى لا يبلغ كنهه كما تقول لو أبصرت فلاناً لأبصرت رجلاً ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ من عنده تعالى، وإنّما قال من ربّهم لأنّ كل خير وهدى من الله والهداية في اتباع الرسول.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ تكرير أولئك للتفخيم وللدلالة على انّ كلّ

واحد من الحكمين مستقلّ لهم في التميّز به عن غيرهم فكيف بهما، وكلمة «هم» في مثل هذه المواضع يسمّونه البصريّون فصلا والكوفيّون عمادا إنّما يأتون بها للدلالة على انّ الواقع بعده خبر لا صفة وانّ المسند ثابت للمسند إليه دون غيره، فالقصر قصر الصفة على الموصوف لا العكس. والمفلح الفائز بالبغية والفلح الشقّ والقطع والفتح، ومنه سمّى الزارع فلّاحاً لأنه يشقّ الأرض، وحاصل المعنى هم الفائزون بالجنّة والناجون من النار وتشبّثت الوعيدية بالآية في خلود الفساق من أهل القبلة في العذاب.

وأجيبوا بأن المراد من المفلحين، الكاملون في الفلاح، فيلزم من المعنى عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم، فأما عدم الفلاح لهم رأسا لا يلزم. هذا ما اجابه البيضاوي وتمسك المرجئة بهذه الآية من وجه آخر واحتجوا بأنّ الله حكم بالفلاح على الموصوفين بالصفات المذكورة في هذه الآية فوجب أن يكون الموصوف بهذه الأشياء مفلحاً وإن زنى وإن سرق وشرب الخمر، وإذا ثبت في هذه الطائفة تحقق العفو ثبت في غيرهم ضرورة إذ لا قائل بالفرق. والجواب عن قول المرجئة ان وصفهم بالتقوى يستلزم اتّقاء ترك الواجبات والمعاصي، ومعلوم بالضرورة انّ من اتقى من المعاصي كيف يسرق ويزني؟ وهو متّقي من المعاصي؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾

لما ذكر خاصة عباده بصفات الإيمان والتقوى والفلاح ذكر في هذه الآية العتاة المردة الذين لا يغني عنهم الآيات والنذر. وتعريف الموصول امّا للعهد، والمراد به ناس بأعيانهم، كأبي لهب وأبي جهل وأحبار اليهود، أو للجنس متناولاً كل من صمّم على كفره تصميما لا يرعوي بعده، والكفر لغة الستر والتغطية، وفي الشريعة إنكار ما علم بالضرورة مجيئي الرسول به. والكافر له إطلاقات.

أحدها نقيض المؤمن، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١]، ويطلق على الجاحد قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] أي جحد وجوب الحج، ويطلق نقيض الشاكر، قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[٣] ويطلق على المتبري، قال تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾[٤] أي يتبرأ بعضكم من بعض.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي متساو، وسواء اسم بمعنى الاستواء، وخبر لأن. ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ يا محمد ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ وهذا مثل قولك، سواء علي أقبلت أم أدبرت واللفظ لفظ الاستفهام ومعناه الخبر أي الإنذار وعدم الإنذار سيان لهم، واصل الإنذار الإعلام بأمر مخوف وكان هؤلاء القوم كقوم هود الذين قالوا لهود، سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مؤكدة مبيّنة لما قبلها من إجمال ما فيه الاستواء وتخفيف وتفريغ لقلبه ﷺ فإن قلت لما علم الله انهم لا يؤمنون فلم امر نبيه بدعائهم، فالجواب: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ﴾ وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.[٥]

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾

لما ذكر هم بصفاتهم الخبيثة ذكر عقوباتهم فهو تعليل للحكم السابق وبيان ما يقتضيه. وفي معنى الختم وجوه:

١ـ سورة النساء: ١٦٧.

٢ـ سورة آل عمران: ٩٧.

٣ـ سورة البقرة: ١٥٢.

٤ـ سورة العنكبوت: ٢٥.

٥ـ سورة طه: ١٣٤

أحدها: ان المراد بالختم العلامة فإذا انتهى الكافر من كفره إلى حالة يستحق الحرمان من الفيض الأقدس ختم وطبع على قلبه علامة ونكتة سوداء تشاهدها الملائكة فيعلمون بها انّه لا يؤمن بعدها كما انّه يعلم ويكتب في قلب المؤمن علامة تعلم الملائكة بها انّه مؤمن فيمدحونه ويستغفرون له.

وثانيها: ان المراد بالختم ان الله شهد عليها وحكم بأنها لا تقبل الحق.

وثالثها: ان المراد بذلك انه ذمهم بأنها كالمختوم عليها في انّه لا يدخلها الإيمان ولا يخرج عنها الكفر فتمكن الكفر في قلوبهم فصارت كالمختوم عليها.

ورابعها: ان قلبه ضاق عن النظر والاستدلال، فهو خلاف من ذكر في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[1] ومثل قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2] والوجوه بحسب المعنى متقاربة:

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي وختم الله على آذانهم فجعلها بحيث تعاف استماع الحق ولا تصغى إلى خبر ولا تعيه عقوبة لهم على سوء اختيارهم فعبر سبحانه من احداث هذه الكيفية والهيئة بالطبع والختم على الاستعارة، فلو قيل إذا ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فمنعهم الهدى فكيف يستحقون العقوبة؟ فالجواب انّ الختم والطبع والضلال وأمثال هذه الأمور عقوبة ومجازاة من الله بكفرهم، وهي مستندة إلى الله من حيث ان الممكنات بقدرته ومن حيث انها جزاء منه تعالى لكن هذا الجزاء مسبب مما اقترفوه بدليل قوله :﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[4] فالختم لاستحقاق الكفر كالعذاب الواقع

١ـ سورة الزمر: ٢٢.

٢ـ سورة محمد: ٢٤.

٣ـ سورة النساء: ١٥٥.

٤ـ سورة المنافقون: ٣.

على الكافر، والله تعالى قد يسرّ عليهم السبل فلو سلكوا سبيله لوفّقهم، فحاصل معنى الختم عقوبة من الله لا تمنع العبد جبراً ولا تحمله على الكفر كرهاً بل هي زيادة عقوبة له على سوء اختياره، وتماديه وغيّه في الكفر تسبّب عن هذا الطبع. والأمر لهم بالإيمان بقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١] يدلّ على أنّهم متمكنين من الإيمان والخطاب بقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٢] يدلّ على أنّهم غير عاجزين عن الإيمان والّا لزال الخطاب وسقط اللّوم، فالعبد هو الذي أورد هذا الختم على قلبه وعلى سمعه. وفي توحيد السمع، قيل: السبب فيه انّه في الأصل مصدر والمصادر لا تجمع لصلاحيتها للمفرد والجماعة، مثل انّهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا، لكن الأبصار جمع البصر وهو اسم عين لا مصدر، فجمع. والإضافة إلى الجماعة تغني عن الجماعة، وقال سيبويه انّه توسّط جمعين فدلّ على الجمع وان وحّد، مثل قوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٣] دلّ على الأنوار.

﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ أي: غطاء، والمراد حدوث حالة تجعل أبصارهم بسبب كفرهم لا تجتلى الآيات كما تجتليها أعين المستبصرين ومعنى التنكير في الغشاوة بيان انّه على أبصارهم ضرباً من الغشاوة خارجاً ممّا يتعارفه الناس وهي غشاوة التعامي عن الآيات، وترتيب الذكر يوافق الخطابات حيث يقول: أفلا تعقلون، أفلا تبصرون، أفلا تسمعون.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والتنكير أي لهم من الآلام نوعاً عظيماً لا يعلم كنهه الّا الله، نعوذ بالله من سوء الخاتمة. حكي انّ ملكا شابّاً في بني

١ـ سورة الانشقاق: ٢٠.

٢ـ سورة الحجرات: ١٥.

٣ـ سورة البقرة: ٢٥٧.

إسرائيل، قال: انّي أجد في الملك لذّة فلا أدري أكذلك يجده الناس أم أنا أجده، فقالوا له: كذلك يجده الناس، قال، فماذا يقيمه ويديمه؟ قالوا: يديمه ويقيمه لك ان تطيع الله ولا تعصيه، فدعا من في بلده من العلماء والصلحاء وقال لهم: كونوا بحضرتي ومجلسي فما رأيتم من طاعة الله فأمروني وما رأيتم من المعصية فازجروني عنها، فعل ذلك فاستقام له الملك أربعمائة سنة، ثمّ أنّ إبليس: أتاه يوماً على صورة رجل وقال له من أنت؟ قال الملك رجل من بني آدم، قال إبليس: لو كنت من بني آدم لمتّ كما يموت بنو آدم ولكنّك إله، فادع الناس إلى عبادتك، فدخل في قلبه شيء ثم صعد المنبر، فقال: أيّها الناس انّي أخفيت عليكم امراً حان ولزم إظهاره، وهو انّي ملككم منذ كذا سنة ولو كنت من بني آدم لمت، ولكنّي إله، فاعبدوني، فأوحى الله إلى نبيّ ذلك الزمان، وقال: أخبره انّي استقمت له ما استقام لي، فتحول من طاعتي إلى معصيتي، فبعزّتي لأسلّطن عليه بخت نصر، ولم يتحول عن ذلك، فسلّطه عليه فضرب عنقه، وأوقر من خزينته سبعين سفينة من ذهب.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

لما افتتح الله السورة ببيان أحوال المؤمنين وأوصافهم وثنّى بذكر أضدادهم الماحضين في الكفر ظاهراً وباطناً ثلّث في هذه الآية بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين وهم المنافقون الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله لأنّهم موّهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاء.

و﴿ٱلنَّاسِ﴾ اسم جمع للإنسان سمّي به لأنّه عهد إليه فنسي قال الله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[1] وقيل سمّي به لظهوره بخلاف الجن من إنس أي أبصر لأنّهم ظاهرون، ولذلك أيضاً سمّوا

١ـ سورة طه: ١١٥.

بشر، وقيل من الأنس الذي هو ضد الوحشة، لأنّهم يستأنسون بأمثالهم، واللّام في «ومن الناس» للجنس «ومن» موصوفة، وتقدير الكلام، ومن الناس، ناس يقرّون باللّسان ويقولون صدقنا بالله وبيوم القيمة؛ وسمّي آخراً، لأنّه لا يوم بعده ولا ليلة بعده ومتأخر عن جميع الأيّام. والناس أصله أناس، وزنه فعال فأسقطت الهمزة منها لكثرة الاستعمال إذا دخله الألف واللّام وأدغمت اللّام في النّون كما قيل لكنا في لكن أنا.

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ «ما» حرف مشبّه بليس من حيث يدخل على المبتدأ والخبر كما يدخل ليس عليهما. وفيه معنى، نفي الحال، كما في ليس فأجرى مجراه في العمل، و«الباء» زائدة، مؤكّدة للنفي، أي ليسوا بمصدّقين في دعويهم واظهارهم الإيمان.

﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

استيناف وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الذهن كأنّه قيل ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين؟ فقيل يخادعون الله ويخادعون المؤمنين بقولهم إذا رأوهم آمنا وهم غير مؤمنين، فإنّهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطلعوا على أسرار المؤمنين فيشيّعوها إلى مخالفيهم وأعدائهم وأن يدفعوا أنفسهم ما يصيب ساير الكفّار من القتل والنهب والأسر، وصنع الله معهم من إجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده أخبث الكفّار وأهل الدرك الأسفل من النار، استدراجاً لهم ومجازاة لهم بمثل صنيعهم صورة صنع المخادعين فتكون المخادعة بين الاثنين.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ النفس ذات الشيء وحقيقته أي ان ضرر مخادعهتم راجع إليهم لا يتخطاهم إلى غيرهم وما يضرون بذلك الّا أنفسهم فيستوجبون بذلك النفاق العقاب في العقبى، وفي الحديث: «**يؤمر**

بنفر من الناس يوم القيمة إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصور الجنة والى ما اعدّ الله تعالى لأهلها نودوا ان اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بندامة وحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون يا ربّنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثواب ما أعددت لأوليائك فيقول ذلك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بي بارزتموني بالمعاصي فإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين وتظهرون خلاف ما تنطوي قلوبكم عليه هبتم الدنيا ولم تهابوني، أجللتم النّاس ولم تجلّلوني، فاليوم أذيقكم أليم عذابي». قال الله لعيسى: «يا عيسى، ليكن لسانك في السر والعلانية واحداً وكذلك قلبك»[١]. وعن الصّادق عليه السلام قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق»[٢] انتهى.

والمنافق قسم معادل للمشرك حيث قال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾[٣] بل أشدّ عذاباً لأنهم في الدرك الأسفل من النّار.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ حال من ضمير يخدعون أي ما يحسون بذلك الفعل القبيح لتماديهم في الغواية ونزّلهم منزلة الجمادات وحطّهم من منزلة البهائم حيث سلب عنهم الحسّ الحيواني. اعلم انّ كل واحد نوع من الموجودات له كمال خاص وفعل لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء بمعنى انّه لا يجوز ان يكون موجود آخر سواه يصلح لذلك نوعاً، وهذا حكم مستمر في الأمور العلويّة والسفليّة كالشمس والكواكب وكأنواع الحيوان وكأنواع النبات والمعادن وكالعناصر، إذا تقرر هذا فاذن نوع الإنسان له كمال وفعل خاص به

١ـ ثواب الأعمال. ص ٢٦٩.

٢ـ الكافي، ج ٢، ص ٣٩٦.

٣ـ سورة الأحزاب: ٧٣.

لا يشاركه فيه غيره وهو ما يصدر عن قوّته المميّزة، فكل من كان تميزه واختياره أفضل كان أكمل في إنسانيته لأنّ أفضل السيوف ما كان امضى، فمن كان اقدر على فعله الخاص به وأشدّ تمسكاً بشرائط جوهره الذي تميّز به عن الموجودات كان أكمل، فإنّ الفرس إذا قصّر عن كماله ولم تظهر أفعاله الخاصّة به وهو العد وحطّ عن مرتبة الفرسيّة واستعمل بالإكاف كما يستعمل للحمير، فإذا قصّر الإنسان عن أفعاله التي خلق لها حطّ عن مرتبة الإنسانيّة إلى مرتبة البهيميّة، هذا إذا صدرت أفعاله ناقصة غير تامّة، لكن إذا صدر منه افعال ضد ما خلق له يستحق المقت والعذاب وان دام على الضدّ استحق العذاب الدائم كما إذا دام على فعل ما خلق له استحق النعيم الدائم، وسعادة كل موجود إنّما هي صدور أفعاله التي تخصّ صورته عنه تامّة كاملة فسعادة الإنسان تكون في صدور أفعاله التي خصّ بها وخلق لأجلها بحسب تميّزه ورويّته وان كان لهذه الرويّة والمروي فيه تفاوت، فأفضل الرويّة ما كان في أفضل مروي ثم ينزل رتبة فرتبة إلى ان ينتهى إلى النظر في الأمور الممكنة من العالم الطبيعي والحسّي فيكون الناظر في هذه الأشياء اعرض عن خاصّته التي بها صار إنساناً وسعيداً وأقبل في أشياء دنيّة لا فائدة له بها واستعمل نظره وفكره فيما لم يخلق لأجله فتنزل عن درجته فإذا اشتغل بالشهوات صار في زمرة البهايم وإذا اشتغل في الفتنة والفساد صار في زمرة المؤذيات والسباع، وإذا تعطل صار في زمرة الجمادات وهكذا إلى ان تفنى خاصّته ودخل في خاصّة غيره على حسب اعماله واختياره.

واعلم انّ الحكماء الإلهيون وعلماء الأخلاق؛ أجمعوا على انّ أصول أجناس الفضائل أربع وهي (الحكمة والعفّة والشجاعة والعدالة)؛ ويتنوع منها فروع، كما انّ أصول أجناس الفضائل أربع ويتنوع منها فروع وهي (الجهل

والشره والجبن والجور) وهي أضداد الأربعة الأولى لكن أشخاص الأنواع من الطرفين بلا نهاية.

أما الحكمة، فهي فضيلة النفس الناطقة المميّزة وهي أن يعلم الموجودات من حيث هي موجودة، وثمرة علمه أن يعرف أيّها يجب أن يفعل وأيّها يجب أن يترك، وامّا العفّة فهي فضيلة الحسّ الشهواني، وثمرة هذه الفضيلة أن يصرف شهواته بحسب النظر حتى لا ينقاد لها ويكون غير متعبّد لشيء من شهواته الضارّة حتى يصير حرّاً مالكاً لا مملوكاً.

وأمّا الشجاعة، فهي فضيلة النفس الغضبيّة، فيستعمل ما يوجب الرأي الحاذق ولا يخاف من الأمور الهائلة المفزعة إذا كان فعلها جميلاً وتحمّلها محمودا، وامّا العدالة، فهي فضيلة للنفس ويحدث للنفس بعد اجتماع هذه الفضائل الثلاث المذكورة، فيحدث للإنسان بالعدالة سمة يختار بها دائماً الإنصاف من نفسه على نفسه أولاً، ثم الإنصاف والانتصاف من غيره، والفضائل التي من فروع أجناس الأربع كثيرة، مثل الفروع التي تحت العفّة، الحياء والصبر والقناعة والدماثة، ومعنى الدماثة حسن انقياد النفس وتبرعها في الجميل. وكذلك من فروع العفّة الانتظام ومعناه حال للنفس تقودها إلى تقدير الأمور، منها حسن الهدي وهو تكميل النفس بالزينة الحسنة، ومن فروع العفة الورع والوقار وهي لا تعد، وكذلك فروع الرذائل الأربع كثيرة، وهي اجمالاً ما يضاد الفضائل الأربع، لأنّه يفهم من كلّ واحدة من الفضائل الأربع وفروعها ما يقابلها، مثل انّ الجهل يقابل العلم والوقاحة يقابل الحياء إلى ما لا يتناهى.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

المراد بالمرض في الآية الشك والنفاق وإنّما سمّي الشك والنفاق مرضاً لأنّ المرض هو الخروج عن حدّ الاعتدال فالبدن ما لم تصبه آفة يكون

صحيحاً وكذلك القلب ما لم يصبه آفة من الريب يكون صحيحاً، والمراد انّه في اعتقاد قلوبهم الذي يعتقدونه في توحيد الله ورسالة رسوله مرض، وزاد يجيء متعدّياً كما في هذه الآية، ولازماً كما في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[١] فالمرض حقيقة فيما يعرض للبدن، فيخرجه عن الاعتدال ومجاز في الاعراض النفسانيّة التي يخلّ بكمالها كالجهل وسوء العقيدة والحسد وحبّ المعاصي من فنون الفسق والكفر المؤدّى إلى الهلاك الروحاني، وزوال الحيوة الابديّة وكانت قلوب المنافقين متألمة تحرقاً على ما فات عنهم من الرياسة، وحسداً على ما يرون من إثبات أمر الرسول واستعلاء شأنه يوماً فيوماً فزاد الله غمّهم بما زاد في إعلاء أمره فزاد المرض بأن طبع على قلوبهم لعلمه بأنّه لا يؤثّر فيها التذكير والإنذار وبازدياد التكاليف الشرعية وتكرير الوحي وتضاعف النصر لأنهم كلّما ازداد التكاليف بنزول الوحي يزدادون كفرا ويشقّ عليهم التكلّم بالشهادة حقيقة، وازدادوا بذلك اضطرابا وامتناعا، وازدادوا بذلك في الآخرة عذابا على عذاب كما قال سبحانه: ﴿زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾[٢] يصل ألمه إلى القلوب.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ بسبب كذبهم المستمر، أو بمقابلة كذبهم الدائم، وهو قولهم، آمنّا والكذب من قبايح الذنوب، وفواحش العيوب، لا سيّما الكذب في الدين، ورأس كلّ معصية، به يتكدّر القلوب، وانّه أبغض الأخلاق ومجانب للإيمان، بمعنى انّ الإيمان في جانب، والكذب في جانب آخر مقابل له. وفي الحديث: «**ما لي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في**

١ـ سورة الصافات: ١٤٧.

٢ـ سورة النحل: ٨٨.

النار»[١]، وبالجملة فقبح الكذب وحسن الصدق ضروريتان مطلقتان. انظر إلى الصبح الكاذب طالما قتل القوافل والصبح الصادق ظهر به تباشير الهداية والنور لأهل المراحل، فلا تكدّر جوهر النفس بترك الفضائل فضلاً عن ارتكاب الرذائل ويكون أول تجريد افعال النفس أن ترفعها عن رتبة الأخس التي يستحق بها المقت من الله والعذاب الأليم ثمّ تكميلها بالعلوم الشريفة الأولى فالأولى، فإنّ كسب الفضائل كالصناعات في مراتب الشرف فإنّ في الصناعات ما هو أشرف وما هو أدون كصناعة الطب وصناعة الدباغة التي يستصلح بها جلود البهائم، والسيف الصمصام، غير السيف الكهام واعلم ان وجود الجوهر الإنساني بقدرة فاعله وخالقه تعالى، فأمّا تجويد جوهره ففوض إلى الإنسان ليستعمل قوتيه اعني العالمة والعاملة فيما خلقا له، فيختار الأشرف فالأشرف في العالمة، وهو العلم بمعرفة خالقه، وكذلك العاملة لخدمة مولاه حيث انّه عبد وما خلقت الجنّ والانس إلّا ليعبدون ولا يهمل دقيقة ولا ساعة من عمره هاتين القوّتين، ولما كان هذا الإنسان مركّب ومحتاج إلى أمور يتعيّش بها فلا بدّ أن يصرف بعض قواه العاملة لمعاشه بقدر ما يتوقف معاشه عليه والزائد علية تفريط للنعمة وتفويت للسعادة الإنسانيّة التي خلقه الله لها.

واعلم ان الإنسان من بين جميع الحيوان انسيّ الطبع لا يكتفي بنفسه في تكميل ذاته ولا بدّ له من معاونة قوم كثيري العدد حتى يجري أمره على السداد، ولهذا قال الحكماء، انّ الإنسان مدنيّ بالطبع وكلّ إنسان بالطبع وبالضرورة يحتاج إلى غيره، ولا بدّ أن يعاشر الناس بقدر الضرورة لاحتياجه ولأنّهم يكملون ذاته ويتمّمون إنسانيّته، وهو أيضاً يفعل بهم مثل ذلك، فإذا

١ـ كنزالعمال، المتقي الهندي، ج ٣، ص ٦٣٤.

كان الأمر كذلك كيف يؤثر الإنسان التفرّد والتخلّي بملازمة المغارات والكهوف أو الإسكان في الصوامع أو التعيش الصعب في المفاوز ويمنع نفسه عن درك هذه الفضائل.

ولذا قيل: (كن بين الناس ولا تكن مع الناس)، والنهي بسبب ان الشرور فيهم غالبة على الخير لكن بالانفراد لا تظهر أفعاله الخاصّة وصار بمنزلة الجماد، وليست الفضائل اعداماً بل هي أعمال وأفعال وهي تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم من ضروب الاجتماعات لأنّ العفّة مثلاً أو الحياء أو الصبر أو السخاوة أو الحلم وأمثالها، كيف يتحقّق وجودها من دون أن يكون الإنسان متعاشراً في أمثاله؟ وبئس العادة الجهل، والخلق، حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر وروية.

وهذه الحالة تنقسم إلى قسمين، منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج كالإنسان الذي يحرّكه أدنى شيء نحو غضب ويهيّج من أقلّ سبب أو يجبن من أيسر شيء أو يرتاع من خبر يسمعه أو يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله. ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقا. واختلف الناس فقال بعضهم من كان له خلق طبيعيّ لم ينتقل عنه، وقال آخرون ليس شيء من الأخلاق طبيعياً للإنسان بل تنتقل بالتأديب امّا سريعاً أو بطيئاً، وهو المختار، لأنّا نشاهد خلافه عياناً ولأنّ القول الأول يؤدّي إلى إبطال قوّة العاقلة والى رفض السياسات وترك الناس همجاً مهملين، وهذا ظاهر الشناعة.

والرواقيّون قالوا: (انّ الناس كلّهم يخلقون أخياراً بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشراراً بمجالسة أهل الشرّ والميل إلى الشهوات الرديئة التي لا تقمع بالتأديب)، وامّا قوم آخرون قبل الرواقيين قالوا: (انّ الناس خلقوا من الطينة السفلى وهي كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنّما يصيرون أخياراً

بالتأديب إلّا انّ فيهم من هو في غاية الشرّ لا يصلحه التأديب، وفيهم من ليس هو في غاية الشرّ فيمكن ان ينتقل من الشرّ إلى الخير بالتأديب).[١]

وامّا جالينوس قال: (انّ النّاس من هو خيّر بالطبع وفيهم من هو شرير بالطبع وفيهم من هو متوسّط بين هذين) وأفسد المذهبين الأوّلين، واثبت مذهبه، بأن قال: (أنّا نرى من النّاس من هو خيّر بالطبع وهم قليلون وليس ينتقل هؤلاء إلى الشرّ، ومنهم من هو شرير بالطبع وهم كثيرون، وليس ينتقل هؤلاء إلى الخير، ومنهم من هو متوسّط بين هذين، وهؤلاء قد ينتقلون بمصاحبة الأخيار إلى الخير وقد ينتقلون بمصاحبة الأشرار إلى الشرّ).[٢]

أقول: انّ في كلام جالينوس، نظراً، بأن يكون من الناس شرير بالطبع، لأنّه لو صح هذا لكان التكليف عليهم عبثاً ولغواً، فإنّهم يكونون بطبعهم خارجين عن حدّ تعلّق سياسة الله إليهم، فإنّ أحداً لا يروم أن يغير حركة النار التي إلى فوق بأن يعودها الحركة إلى أسفل، ولا أن يعود الحجر حركة العلو، ولو رامه ما صحّ له، وبهذا البيان ثبت منع الشرير بالطبع، وصحّ التوسط بينهما، فحينئذٍ الإنسان قابل الأخلاق في الخير والشرّ، فليتخلّق بأخلاق الله وسياسته التي بيّنها في الكتاب على السنة أنبيائه، فأبواب هذه السياسة متابعة الكتاب كما انّ أبواب الشرّ مخالفة الكتاب والسنة، وبالمتابعة يظهر جوهر الإنسان واسم الإنسان وإن كان يطلق على الطرفين من هذا الباب لكن البون بينهما كبون الأضداد. قال رسول الله ﷺ: **«ليس شيء خيراً من ألف مثله إلّا الإنسان»**[٣]، وقال ﷺ: **«الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة واحدة»**.[٤]

١ـ راجع: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج ٣، ص ١٣٣.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ كنز العمال، للمتقي الهندي، ج ١، ص ١٤٦.

٤ـ تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٥٠.

قال الشاعر:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً إلى المجد حتى عدّ ألف بواحد

قال ﷺ: «**وزنت بأمتي فرجحت بهم**»[١] ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ مع انه سلام الله عليه واحد، فكن ألفاً ولا تكن واحداً.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

اي وإذا قال المسلمون لهؤلاء المنافقين هذا القول، وهو قولهم، لا تفسدوا في الأرض. والفساد خروج الشيء عن الصلاح، والفساد في الأرض، تهيّج الحروب والفتن المتتبّعة لزوال الاستقامة في أحوال العباد واختلال النظام والمعاش والمعاد، والمراد ما نهوا عنه من افشاء امر المسلمين وأسرارهم إلى الكفّار.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ جواب لـ«إذا» وردّ للناصح ان شأننا الإصلاح وحالنا متمحّضة عن شوائب الفساد، الا تنبيه أي اعلموا أيها المؤمنون.

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

أثبت سبحانه لهم ما نفوه ونفى عنهم ما أثبتوه، أي، هم مقصورون على الفساد، لأنفسهم بالكفر، وللناس بالتعويق عن الايمان ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يحسّون فيدركون الصلاح عن الفساد، فيفسدون صلاح آخرتهم بإصلاح دنياهم، ولا شعور لهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

١ـ كتاب التعجب، لأبي الفتح الكراجكي، ص ٥٨.

من طرف المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف (آمِنُوا) حذف المؤمن به لظهوره أي (آمنوا بالله وباليوم الآخر كما آمن الناس) إيماناً مماثلاً لإيمانهم، واللام في النَّاس للجنس والمراد به الكاملون في الإنسانيّة، العاملون بعطيّة العقل أو للعهد، والمراد به الرسول ومن معه. ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الهمزة للإنكار، وإنّما نسبوهم إلى السفاهة مع انهم في الغاية من الرشد والرزانة والعقل، لكمال انهماكهم في الغواية، فمن حسب الضلال هدى فسمّي الهدى لا محالة ضلالاً، وكان حينئذٍ كثير من المؤمنين فقراء صعاليك، ومنهم موالي، كصهيب وبلال وأمثالهم. فإن قيل كيف يصحّ النفاق مع المجاهرة بقولهم، أنؤمن كما آمن السفهاء، فالجواب: انّ المنافقين كانوا يتكلّمون بهذا الكلام في أنفسهم سرّاً، دون أن ينطقوا به جهراً، لكن هتك الله أستارهم، واظهر أسرارهم، وكانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين، فردّ الله عليهم هذا القول بقوله:

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ والآية تنبيه، وردّ، ومبالغة في تسفيههم وتجهيلهم، فإنّ الجاهل بجهله، الجازم على ما هو الواقع أعظم ضلالة وأتم جهالة من المتوقف، فإنّه ربّما ينفعه الآيات والنذر، وقوله لا يعلمون، بيان على أن ذلك الجهل لازم لهم، لعدم علمهم بجهلهم، وذلك لعدم تعقلهم بما ينفعهم وما يضرّهم، فإن العلم تابع للعقل، وبئس العادة والخلق الجهل.

روي انّه لما خلق آدم، أتى إليه جبرئيل بثلاث تحف: (العلم والحياء والعقل)، فقال: يا آدم اختر من هذه الثلاث ما تريد، فاختار العقل فأشار جبرئيل إلى العلم والحياء بالرجوع إلى مقرّهما، فقالا أنّا كنّا في عالم الأرواح مجتمعين فلا نرضى أن يفترق بعضنا عن بعض في الأشباح أيضاً، فتتبع

العقل حيث كان فقال جبرئيل عليه السلام: استقرا، فاستقر العقل في الدماغ والعلم في القلب والحياء في العين[1]، فليسارع العاقل إلى تحصيل العلم والمعرفة، وللعقل نجوم وهي للشيطان رجوم وللعلوم أقمار وللقلوب أنوار واستبصار، وللمعارف شموس ولها في قلوب المتقين طلوع، وللعاملين بالتقوى مشارق ليس لها مغارب، فالعلم بلا عمل يتيم، والعمل بلا علم سقيم، وهما معاً صراط مستقيم.

في الكافي عن السجاد عليه السلام قال: «**انّ المنافق ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، وإذا قام إلى الصلاة اعترض**»، قلت يا بن رسول الله وما الاعتراض قال: «**الالتفات، وإذا ركع ربض**[2] **يمسي وهمّه العشاء وهو مفطر ويصبح وهمّه النوم ولم يسهر، إن حدّثك كذبك وإن ائتمنت خانك وإن غبت اغتابك وإن وعدك أخلفك**».[3]

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾

روي أنّ عبد الله بن أبي وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة، فقال: إبن ابي، انظروا كيف أردّ هذه السفهاء عنكم، فلمّا دنوا منهم أخذ عبد الله بيد علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: مرحباً بابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وختنه وسيّد بني هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال علي عليه السلام: يا عبد الله إتق الله ولا تنافق، فإنّ المنافقين شرّ خلق الله، فقال له عبد الله: مهلاً يا أبا الحسن أنى تقول هذا، والله إنّ إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم، ثمّ افترقوا، فقال ابن أبيّ لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت، فإذا رأيتموهم فافعلوا ما

١ـ كتاب العقل وفضله، ابن أبي الدنيا، ص ٤٥.

٢ـ ربض: مأوى الغنم وكل مايؤوي ويستراح إليه.

٣ـ الكافي، ج ٢، ص ٣٩٦.

فعلت، فاثنوا عليه خيرا وقالوا: ما نزال بخير ما دمت فينا، فنزلت الآية.[١]

المعنى، ساق القصة في تمهيد نفاقهم وبيان مذهبهم ومعاملتهم مع المؤمنين بأن يظهرون معهم الإيمان وإذا اجتمعوا في الخلوة، و(الى) في الآية بمعنى (الباء) أو (مع) مثل خلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه، والمراد من شياطينهم المشاركون في النفاق والتمرّد وكل عات متمرّد فهو شيطان، وقيل: المراد من شياطينهم، كهنتهم في بني قريضة، كعب ابن الأشرف، وفي جهينة، عبد الدار، وفي بني اسد، عوف بن عامر، وفي الشام، عبد الله بن سوداء، وكانت العرب تزعم فيهم انهم مطلعون على الغيب ويداوون المرضى ويعرفون الأسرار، وليس من كاهن الّا وعند العرب انّ معه شيطانا.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ موافقوكم على اعتقادكم ودينكم ولا نفارقكم في حال من الأحوال، وكأنّه قيل لهم عند قولهم، أنّا معكم، فما بالكم توافقون المؤمنين بكلمة الشهادة والحضور في جماعاتهم ومساجدهم، فقالوا إنّما نحن في اظهار الإيمان عندهم مستهزؤن بهم وإنّما نكون معهم ظاهراً لنشاركهم في غنائمهم وننكح بناتهم ونحفظ أموالنا ونسائنا من أيديهم، فرد الله عليهم بقوله:

ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾

اى يجازيهم على استهزائهم ويرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزئ بهم أو يعاملهم معاملة المستهزئ بهم في الآخرة كما أشرنا إليه سابقاً، يروى انّه يفتح لهم باب إلى الجنة وهم في جهنم فيسرعون نحوه فإذا وصلوا إليه سدّ عليهم وردّوا إلى جهنم، والمؤمنون على الأرائك في الجنة ينظرون إليهم فيضحكون منهم كما ضحكوا من المؤمنين في الدنيا فذلك

١ـ تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، شرف الإسلام بن كرامة،ص ٢١.

بمقابلة هذا، ويفعل بهم ذلك مرّة بعد مرّة، ويمدهم أي يزيدهم من مدّ الجيش وامدّه إذا زاده، والمدّ الجذب، لأنّه سبب الزيادة في الطول والمادة، كلشيء يكون مدداً لغيره، وقيل: كلشيء حدثت زيادته في نفسه فهو مدد بغير ألف، وكل زيادة أحدثت في الشيء من غيره فهو أمده، ويمدّهم في طغيانهم قيل: معناه يملي لهم ليؤمنوا، وهم مع ذلك متمسكون بطغيانهم وعمههم، والعمه في البصيرة كالعمى في البصر وهو التحيّر، وقيل المعنى: يدعهم ويتركهم من فوائده ومنحه التي يكرم المؤمنين ثواباً لهم ويمنعها الكافرين عقاباً، كشرح الصدور وتنوير القلب، فهم في ضلالهم يتحيّرون وذلك بسبب انهم أعرضوا عن الحق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾

أولئك المنافقون الموصوفون الذّين اشتروا الضلالة وهي الكفر والنفاق بالهدى وهو الإيمان وقبول القرآن واستبدلوها به ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ فإسناد التجارة إلى مثل هذا الأمر على الاتساع ولمشابهتها إيّاه من حيث انّها سبب الربح والخسارة والتاجر الرابح من اتفق له في الصبا أن يربى على أدب الشريعة وأخذ بوظائفها حتى تعودها فقد بلغ مراتب الإنسانيّة فليكثر حمد الله على هذه الموهبة العظيمة ومن لم يتفق له ذلك في مبدأ نشوه وابتلي بمعاشرة أهل الخلاعة والمجون ورواية الشعر الفاحش ونيل اللذّات، مثل أشعار امرئ القيس والنابغة، ومال طبعه إلى التغزّل والتعشّق، فقد أدركه الشقاء والخسران، فما ربحت تجارته ومهما تنبّه وهيهات، فليجتهد على التدريج إلى نظام نفسه منها، ممّا لا يدرك كلّه لا يترك بعضه فإن فاته الربح فلا يفوته رأس المال، وادخل السّفينة قبل ان يغرق.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ إلى طريق التجارة لأنّه قد فات منهم الربح ورأس المال لأنّهم اكتسبوا من طول العمر خذلاناً ومن كثرة الأموال والأولاد

حرماناً، قال الله سبحانه لحبيبه ليلة المعراج: «**انّ من نعمتي على امتك أنّي قصّرت أعمارهم كيلا تكثر ذنوبهم وأقللت أموالهم كيلا يشتدّ في القيامة حسابهم وأخرت زمانهم كيلا يطول في القبور حبسهم**» قال بعض علماء الأخلاق: ينبغي للسالك أن يتحفظ رأس ماله ثم يطلب الربح حتى إذا فاته الربح في صفقة فربما يتداركه في صفقة أخرى لبقاء الأصل.

حكي انّه كان للشيخ أبي علي الدقاق مريد تاجر متمول فمرض يوماً فعاده الشيخ وسأل منه سبب علّته، فقال التاجر: اشتغلت نهاري في التجارة حتى تعبت فقمت هذه الليلة لمصلحة التهجد فلمّا أردت الوضوء بدء لي من ظهري حرارة فاشتد أمري حتّى صرت محموماً، فقال الشيخ: لا تفعل فعلاً فضولياً ولا ينفعك التهجد ما دمت لم تهجر دنياك وتخرج محبتها من قلبك وتحرص عليها فاللائق لك أولاً هو ذاك ثم الاشتغال بوظائف النوافل فمن كان به أذى من صداع لا يسكن ألمه بالطلاء على الرجل ومن تنجست يده لا يجد الطهارة بغسل ذيله وكمّه ومن علامة اتّباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات ترى الواحد منهم يقوم بالأوراد الكثيرة والنّوافل الثقيلة ولا يقوم بفرض واحد على وجهه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ صنعة الإيغال فإنّ الإيغال في اصطلاح البديعين ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها فإنّ في قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾ تم المعنى وأفاد بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ مبالغة في ضلالتهم لأنّ المطلوب في تجارتهم سلامة رأس المال وحصول الربح وربما تضيع الطلبتان ويبقى لهم معرفة التصرف في طريق التجارة فبيّن هذه النكتة انّهم ضلّوا الطريق، وليس لهم طريق ومعرفة في التجارة بعده أبداً، فتاجروا مع الله، بالأعمال الصالحة،

والصدقات، واطلب التجافي عن دار الغرور، واقرع باب الاستغفار والاعتذار، ودع المباهات والافتخار ولا يغرّك عزّك في دنياك، وإقبال أيامك، فإنّ الإقبال مقلوب لا بقاء، فبموتك يذهب الذهب، والغناء عناء، والدرهم همّ، والدينار نار، بل لا تضيع عمرك في تحصيل العلوم الفضول، فاقنع من العلوم بقدر حاجتك للعمل، فإن النحو محو، والنجوم رجوم والرياضي رياضة، والفلسفة فلّ وسفه، والعلم النافع، علم القرآن والحديث، وهما أصول الشريعة وقانون الطريقة، كل العلوم سوى القرآن مشغلة غير الحديث، وإلّا الفقه في الدين، العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

اي مثل هؤلاء المنافقين لمّا أظهروا الإيمان وابطنوا الكفر كمثل الذي أوقد نارا، واصل المثل بمعنى النظير، ثم قيل للقول الناشر واستعير لكل حال أو قصّة أو صفة لها شأن عجيب وغرابة، كقوله، ولله المثل الأعلى أي الوصف الذي له شأن من العظمة والجلال، والتمثل الطف ذريعة إلى تفهيم الجاهل ويجعل المعقول محسوساً، والخفي جليّاً، ولذا أكثر الله في كتبه الأمثال، وفي الإنجيل سورة تسمّى سورة الأمثال، قيل وفي القرآن قريب من ألف آية من الأمثال والعبر، اعلم ان التمثيل ألطف ذريعة إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع سورة الجامح الأبي كيف لا، وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبراز لها في معرض المحسوسات وكان من عادة الأنبياء والرسل، بيان الحكم في بعض المقامات بالأمثال، وتصوير الحقائق الغامضة العقلية، بكسوة الأمثلة الحسيّة، وذلك لأنّ أكثر الناس يغلب عليهم الجهة الحسيّة.

قال إبراهيم النظام: في المثل أربع خصال، لا يجتمع في غيره من الكلام، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التنبيه، وجودة الكناية[١]، ثمّ اعلم، انّ الأمثال، تتفاوت في الدرجات، نازلة (مثلاً ما بعوضة فما فوقها) وصاعدة، حتى ينتهي إلى (آل محمد صلوات الله عليهم) كما في فقرة الزيارة الجامعة (المثل الأعلى) وليس فوقهم مثل، وقد ضرب الله الأمثال في السور لهذه الحكمة، في البقرة، وآل عمران، والانعام، والأعراف، ويونس، وهود، والرعد، وإبراهيم، والنحل، وبني إسرائيل، والكهف، والحجّ، والنور، والفرقان، والعنكبوت، والروم، ويس، والزمر، وزخرف، ومحمد، والفتح، والحديد، والحشر، والجمعة، والتحريم، والمدثّر، وغيرها، والتشبيه باعتبار المشبّه والمشبّه به، على أربعة أقسام:

الأول: يقال له التشبيه الملفوف، وهو أن يؤتى على طريق العطف بالمشبهات أولا، ثم تمّ بالمشبه بها، يقول امرء القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً   لدى وكرها العناب والحشف البالي

والثاني: يقال له التشبيه المفروق، وهو أن يؤتى بمشبّه، ومشبّه به ثمّ آخر وآخر، كقول المرقش، يصف النساء:

النشر مسك والوجوه دنا   نير وأطراف الأكف عنم[٢]

الثالث: التسوية، وهو أن يتعدد المشبه دون المشبّه به، كقول الشاعر:

صدغ الحبيب وحالي كلاهما كالليالي   وثغره في صفاء وأدمعي كاللئالي[٣]

والرابع: المجمع، وهو أن يتعدّد المشبّه به دون المشبّه، كقول البحتري.

١ـ الأمثال في القرآن الكريم، ص ١٢.

٢ـ النشر: ريح فم المرأة.. العنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء تشبه بنان المخضوبة بها.

٣ـ أنشده، صدغ الحبيب وحالي

كأنّمـا يبسـم عـن لؤلـؤ منضّـد أو بـرد أو أقـاح

وقد مثّل الله حال المنافقين، في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[1] ثم انه لزيادة التوضيح مثّل مثالاً آخر: فقال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾[2] فقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ أو هاهنا للإباحة، نحو جالس الفقهاء أو المحدثين، يعني كلا الفريقين أهل ان تجالس، كصيّب، أي كأصحاب مطر منزل من السماء، وتنكر الصيّب أريد به نوع تهويل شديد، كالنار في التمثيل الأول، فالمعنى مثل هؤلاء المنافقين، في جهلهم كأصحاب مطر منزل عليهم من السحاب، في هذا المطر ظلمات، لأنّ السحاب يغشى الشمس بالنهار، والنجوم باللّيل، فيظلم الجو، ورعد وبرق، فحاصل المعنى، انّ الله شبّه حالهم، في حيرتهم، بحال من أخذته السماء، في ليلة مظلمة، مع هذه الأحوال، من الرعد والبرق وخوف من الصواعق، فكلّما دعوا إلى خير وغنيمة، اسرعوا لطلب النفع، كما انّ أولئك كلّما أضاء لهم البرق مشوا بضوء البرق لكن إذا وردت شدّة على المسلمين، مثل يوم أحد وقفوا وتحيّروا لكفرهم، كما وقف أولئك في الظلمات متحيّرين.

تأمّل في هذا التمثيل، كيف جمع بياناً شافياً واضحاً مفيداً، يتعقله كل جاهل، ويفهم منه معانٍ كثيرة، دون إطناب، مع وضوح المقصود المعنَى به، وهذا التشبيه، من القسم الثالث، من الأقسام الأربعة، لأنّ القسم الثالث، هو أن يتعدد المشبه، دون المشبه به، انتهى.

وقد يحذف آلة التشبيه، لأنّه يستنبط التشبيه، من الكلام، مثاله في

١ـ سورة البقرة: ١٧.

٢ـ سورة البقرة: ١٩.

القرآن، قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[١] فإنه مثل الاغتياب بأكل الإنسان، لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك، حتى جعله لحم الأخ، ثم لم يقتصر عليه حتى جعله ميتا، ثم جعل ما هو في غاية الكراهة. ففيه أربع دلالات، وفيه لطف آخر فإنّه تعالى جعل المغتاب بمعنى المفعول، بمنزلة الميت، لأنه كما لا يقدر الميت، الدفاع من السّوء عن نفسه، كذلك حال الغائب الذي اغتيب، لا يعلم حتى يدفع عن نفسه ذكر السوء.

﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: الاستيقاد طلب سطوع النار، وارتفاع لهبها، والمعنى أوقد في مفازة في ليلة ظلماء، ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾: الاضائة فرط الإنارة، ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾: أي حول المستوقد من الأماكن والأشياء، واصل الحول، الدوران، ومنه الحول للعام، لأنّه يدور، وجواب لمّا ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي أذهب وأطفأ نارهم التي هي مدار نورهم وضوئهم ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾: بحيث لا يبقى من النور عين ولا أثر أي صيّرهم في ظلمات لا يبصرون ما حولهم فإنّ المنافقين أظهروا كلمة الإيمان غدراً ومكراً، فاستناروا بنورها، واستعزوا بعزّها، فناكحوا المسلمين، وأورثوهم، وقاسموهم الغنائم، وأمنوا على أموالهم وأولادهم، فإذا بلغوا آخر العمر، كلّ لسانهم عنها وحرموا من فائدتها، وبقوا في ظلمة النفاق والكفر وسخط الله، وعادوا إلى الخوف والظلمة.

صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

اي هم صم عن الحق لا يسمعونه، كأنه انسدت خروق مسامعهم، بكم، خرس، لا يقولونه، كأنّهم لا يتمكّنون أن ينطقوا به، مثل من به آفة في لسانه، ﴿عُمْىٌ﴾ فاقدوا الأبصار عن النظر، وهم في الآخرة يعاقبون بجنسها قال الله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ لا يسمعون سلام

١ـ سورة الحجرات: ١٢.

الله، ولا يخاطبون الله، ولا يرون آثار رحمته، والمؤمنون يكرمون يومئذ بخطابه، ولقاء كرامته، وسلامه ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة، لا يعودون عن الضلالة إلى الهدى والفطرة السليمة التي فطر النّاس عليها.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

مثّل الله مثالاً آخر، عن حال المنافقين، أي حالهم كحال أصحاب مطر يصوّب ويقع، وصيّب أصله صيوب، على وزن فيعل، فاجتمعت الواو والياء، والأولى ساكنة، فقلبت ياءاً، وأدغمت، مثل سيّد وجيّد، وأو في الآية للتخيير والتساوي، أي كيفيّة قصة المنافقين، شبيهة بهاتين القصتين، فإن مثلت بأحدهما، أو بهما جميعاً، فأنت مصيبٌ، وأو، يكون بمعنى الواو أوجه، مثل قوله تعالى: ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾[1]

قال الشاعر:

و قد زعمت ليلى بأنّي فـاجر لنفسي تقاهـا أوعليهـا فجورهـا

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: يتعلّق بصيّب، والصيّب ليس بعاقل، ولا يعطف غير العاقل على العاقل، فالمراد أصحاب الصيّب المنزل من السماء، قال الامام الرازي: (من الناس من قال: المطر إنّما يتحصل من ارتفاع أبخرة رطبة من الأرض، ومن البحار إلى الهواء، فينعقد هناك من شدة البرد، ثم ينزل مرة أخرى، وأبطل الله ذلك المذهب، بأنّ ذلك الصيب نازل من السماء، ومادته منها)[2]، وعن ابن عباس: (ان تحت العرش بحراً، ينزل منه أرزاق الحيوانات،

١ـ سورة النور: ٦١.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٢، ص ٧٩.

يوحي إليه، فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء، حتى ينزل إلى سماء الدنيا، ويوحى إلى السحاب، ان غربله، فيغربله، فليس من قطرة يقطر إلّا ومعها ملك، يضعها موضعها، ولا ينزل من السماء قطرة، إلّا بكيل معلوم، إلّا ما كان من يوم الطوفان، فإنه ما نزل بكيل)[١].

﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾: أي في الصيب، أو في السحاب، فأيهما أريد، فظلمة المطر تكاثفه، وانسجامه بتتابع القطر، وظلمة لازمة، وهو الغمام، وكذلك ظلمة السحاب، تطبيقه، وانسجامه، وتراكمه، وظلمة الليل، ولما كان التعلّق بين السحاب، والمطر شديداً، جاز إجراء أحدهما مجرى الآخر، في بعض الأحكام.

﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾: الرّعد هو صوت قاصف يسمع من السحاب، والبرق هو ما يلمع من السحاب، والمشهور بين الحكماء، انّ الرعد يحدث من اصطكاك أجرام السحاب، بعضها ببعض، أو من إقلاع بعضها عن بعض، عند اضطرابها، بسوق الرياح إيّاها سوقاً عنيفاً، ولا يعتمد على مثل هذه الكلمات، سواء صدرت من حكيم أو غيره، ما لم يوافق الروايات المأثورة عن الأئمة عليهم السلام، بل إذا خالف قول الحكيم، بما نطق به الأئمة المعصومون، فذلك ليس بحكمة، والقائل ليس بحكيم، بل هو حجّام.

قال المورج: (الحكمة مأخوذة من حكمة اللجام، لأنّها تضبط الدابة، ولمّا كانت الحكمة تمنع السفه، فلذا سميت حكمة)[٢]، فلو قيل انّ الحكيم، يأوّل الحديث، ولا ينكره، فالجواب، ان الضرورة باعثة على التأويل في أمور لا يجوز أن يحمل على ظاهر حكمها، لا في كلّ محكم ورد في لسان الشرع، فأرادوا أن يوافقوا معنى أرادوا فأولوه فمثل هذه التأويلات، آخر باب

١ـ الكافي، ج ٨، ص ٢٣٩.

٢ـ تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٢١٠.

التعطيل، وفتح أول باب الإلحاد، والحكمة المحمدية، أغنتنا عن كلّ حكمة، وانفع الحكم ما أمرنا به، وهو الزهد في الدنيا، حتى يكون سلامة لنا في آخرتنا، قال عبد المؤمن الأصبهاني، في رسالته الموسومة (بأطباق الذهب) وهي مائة مقالة، عارض بها (اطراق الذهب) للزمخشري وقد صنع في تمام مقالاته المأة، صنعة الاقتباس، قال في المقالة السابعة، طوبى للتقي الحامل الذي سلم من إشارات الأنامل وتبّاً لمن قعد في الصوامع ليعرف بالأصابع، والكامل، كامن متضائل، والناقص، قصير يتطاول، والعاقل قبعة، والجاهل طلعة، والوجاهة فتنة، والاشتهار محنة، اجعل كنزك في التراب، وسيفك في القراب، ولو علم الجزل، صولة النجار، وعضة المنشار، لما تطاول شبراً، ولا تخايل كبراً، وسيقول البلبل العيقل، يا ليتني كنت غراباً، ويقول الكافر، يا ليتني كنت تراباً.

قال الله: ليس لك من الأمر، وانّ الأمر كلّه لله، فلا تختر ما نهاك الله، وامتثل ما أمرك الله ولا تعتذر بالضرورة، وبالجملة فالصحيح، الذي يعول عليه انّ الرعد صوت ملك السحاب، يزجرها، وهو يسبّح، قال الطبرسي: روي ذلك عن ابن عباس، ومجاهد وهو المرويّ عن أئمتنا عليهم الصلاة والسلام وروى الترمذي، عن ابن عباس في روح البيان، قال: أقبلت اليهود، إلى رسول الله ﷺ، فقالوا أخبرنا عن الرعد، ما هو، قال ﷺ: «**ملك من الملائكة، موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار، تسوقه بها حيث شاء الله**» فقالوا: ما هذا الصوت الذي يسمع، قال: «**زجره حتى ينتهي إلى حيث امر**» فقالوا صدقت.[1]

فعلى هذا، المراد بالرعد، صوت ذلك الملك، لا عينه، وانّه يخور في

١ـ بحار الأنوار، ج ٥٦، ص ٣٥٧. ورواه الترمذي في سننه، ج ٤، ص ٣٥٧.

نقرة إبهام الملك الماء وانّه يسبّح الله، لا يبقى ملك في السماء، الّا رفع صوته بالتسبيح، فعندها ينزل القطر، وفي الحديث انّ الرعد، صوت ملك، أكبر من الذباب، وأصغر من الزنبور.[1]

﴿وَبَرْقٌ﴾: قيل: (انه مخاريق الملائكة من حديد[2]، يضرب بها السحاب، فينقدح منه النار) عن علي سلام الله عليه وقيل: (انّه سوط من نور، يزجر به الملك السحاب)[3] وامّا في مناسبة المثل، قيل وجوه: أحدها انّه شبّه المطر المنزل من السماء بالقرآن، وما فيه من الظلمات بما في القرآن من الابتلاء، والوعيد بزواجر القرآن، ومن البرق، والصواعق، ببيانه، ووعيده والأقرب في بيان التشبيه، ما روي عن ابن مسعود، وجماعة من الصحابة: (ان رجلين، منافقين، من أهل المدينة، هربا من رسول الله ﷺ فأصابهما المطر الّذي ذكر الله في الآية، ورعد وبرق وصواعق، فكلما أضاء لهما الصواعق، جعلا أصابعهما في آذانهما، مخافة أن تدخل الصواعق، في آذانهما، فتقتلهما، وإذا لمع البرق، مشيا في لمعه، وإذا لم يلمع لم يبصرا، فندما، وجعلا، يقولان يا ليتنا قد أصبحنا، فنأتي محمداً، فنضع أيدينا، في يده فأصبحا، فاتياه، وأسلما، وحسن إسلامها، فضرب الله شأن هذين الرجلين مثلاً لمنافقي المدينة، فإن منافقي المدينة، كانوا إذا حضروا النبي ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم، فرقا من كلام النبيّ أن ينزل فيهم شيء، كما كان ذلك الرجلان، يجعلان أصابعهما في آذانهما).[4]

١ـ من لايحضره الفقيه، للصدوق، ج ١، ص ٥٢٦.

٢ـ الكافي، ج ٨، ص ٢١٨.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ التبيان في تفسير القرآن، للشيخ الطوسي، ج ١، ص ٩٤ وتفسير مجمع البيان، للشيخ الطبرسي، ج ١، ص ١١٨.

﴿مِنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ جمع صاعقة، وهي الوقع من السحاب، تسقط معه نار محترق، لكنّها مع حدّتها سريعة الخمود، قالوا بين السماء وبين الكلة الرقيقة، التي لا يرى أديم السماء، الّا من ورائها نار منها تكون الصواعق، تخرج النار، فتفتق الكلة وتكون الصوت منها أو جرم، ثقيل، مذاب، مفرغ من الأجزاء اللطيفة الأرضيّة الصاعدة، المسمّاة دخاناً، والمائية المسمّاة بخاراً حارّ حاد، في غاية الحدّة والحرارة، لا تقع على شيء الّا ثقب وأحرق، ونفذ في الأرض حتّى بلغ الماء، فانطفأ ووقف.

قال ابن عباس، من سمع صوت الرعد فقال، سبحان الذي يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كلشيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته، وكان النبيﷺ إذا سمع الرعد، وصواعقه، يقول: «**اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك**».[1]

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ منصوب بيجعلون على العلة أي خوفاً من الموت.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ الإحاطة الإحداق بالشيء من جميع جهاته وهو مجاز في حقه تعالى أي محدق بعلمه وقدرته لا يفوتونه فيحشرهم يوم القيمة ويعذبهم والحيل لا ترد بأس الله ووضع الظاهر موضع الضمير للإيذان بأنّ ما دهمهم من الأمور الهائله بسبب كفرهم والتصريح بكفرهم.

يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

الكلام وقع جواباً عن سؤال مقدّر كأنّه قيل فكيف حالهم مع ذلك البرق فقيل يكاد ذلك البرق يختلس ويستلب أبصارهم بسرعة، من شدّة

١ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٢.

ضوئه، وكاد من أفعال المقاربة ولا يتم بالفاعل، ويحتاج إلى خبره، وخبره الفعل المضارع، ويخطف أبصارهم في موضع النصب، وخبر يكاد وكلّما: أصله كلّ، وضمّ إليه ما الجزاء، وهو منصوب بالظرف، والعامل فيه أضاء: فالمعنى متى ما أضاء البرق لهم مشوا فيه: أي في ذلك المسلك وفي مطرح نور البرق، خطوات يسيره.

﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ﴾: وخفي البرق، واستتر صار الطريق مظلماً، ووقفوا في أماكنهم متحيرين.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾: أي ولو أراد الله أن يذهب الأسماع التي في الرأس، والأبصار لذهب بها بصوت الرعد ونور البرق عقوبة لهم لأنّه لا يعجز عن ذلك وذلك مثل قول الشاعر

فلو شئت أن أبكي دماً لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع[1]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فاعل له بقدرته وحاصل المعنى إن الله شبه حال المنافقين في حيرتهم وضلالتهم بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق والموت فكلّما دعوا إلى خير وغنيمة أسرعوا لطلب الخير والنفع كما إنّ أولئك كلّما أضاء لهم البرق مشوا فيه لاهتدائهم الطريق بضوء البرق فكذلك حال المنافقين لكن إذا وردت شدّة على المسلمين مثل يوم أُحد تحيّروا ووقفوا لكفرهم كما وقف أولئك في الظلمات متحيرين وقيل المراد انّهم إذا آمنوا صار الإيمان لهم نوراً ومشوا باهتداء نور الإيمان فإذا ماتوا عادوا إلى ظلمة العقاب لان إيمانهم ليس عن حقيقة.

١ـ لأبي يعقوب إسحاق بن حسان الخذيمي، وذكره المشهدي في تفسيره «كنز الدقائق»، ج ١، ص ١٦٣.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾

ياء حرف نداء وأيَ اسم مبهم يقع على أجناس كثيرة ولا يتم الا بأن يوصف وصفته تكون باسم الجنس مثل الناس وايّ منادي مفرد معرفة لأنه وقع موقع حرف الخطاب وهو الكاف وإنّما بني على الحركة مع انّ الأصل في البناء السكون لأنه ليس بغريق في البناء والبناء عارض فيه وحرك بالضمّ لأنّه كان في أصله أيّ بالتنوين فلما سقط التنوين أشبه قبل وبعد الذي قطع عنه الغاية والناس مرفوع لأنه صفة لايّ فتبعه على حركة لفظه ولا يجوز هاهنا النصب وان كانت الأسماء المنادات المعرفة يجوز في صفاتها النصب والرفع لأن هنا الصفة هو المنادى في الحقيقة واي وصلة إليه ويدل على ذلك لزومها هاء التنبيه وبالجملة الناس يصلح اسما للمؤمنين والكافرين والمنافقين والنداء تنبيه الغافلين وتعريف الجاهلين وتهيج المطيعين اعبدوا ربكم يقول للكفار وحدّوا ربكم وللعاصين أطيعوا ربّكم، وللمنافقين أخلصوا معرفة ربكم، وللمطيعين اثبتوا على طاعة ربّكم واللفظ قابل لهذه الوجوه كلها وهو من جوامع الكلم والعبادة استفراغ الطاقة في استكمال الطاعة.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ صفة تدل على التعظيم والتعليل والخلق اختراع الشيء على غير مثال سبق وخلق الذين من قبلكم من الأمم المتقدمة قبل زمانكم وانّ خلق أصولهم من موجبات العبادة كخلق أنفسهم.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلّكم تتّقون الحرمات بينكم وتكفون عما حرّم الله وهذا كقول القائل: أقبل لعلّك ترشد وإنّه ليس من ذلك على شك وإنّما يريد أن يقبل فيرشد. قالوا فائدة إيراد لفظة لعلّ هي: ان لا يحل العبد أبداً محل ألّا من المدلّ بعمله، بل يزداد حالاً فحالاً حرصاً على العمل وحذراً من تركه.[1]

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ١٢٢. وأيضاً التبيان، ج ١، ص ٩٩.

والحاصل انّ لعلّ للترجي والأطماع وهي من الله واجب لأنّه تعالى لا يطمع الّا فيما يفعل واستعمال لعلّ مشعر: بأن العامل لا ينبغي أن يغتر بعبادته وعمله، بل يكون ذا خوف ورجاء فعليك في مراقبة الواردات من خزانة الخيال عن كتاب «إسعاف الراغبين» انّ الشيخ محمّد ابو المواهب الشاذلي رآى النبي صلى الله عليه وآله فقال النبي له: «**إذا كان لك حاجة فأنذر للطاهرة النفيسة ولو بدرهم يقضي الله حاجتك**» وهي بنت الحسن ابن زيد بن الحسن المجتبى عليه السلام زوجة الإسحاق المؤتمن ابن أبي جعفر الصادق عليه السلام توفّيت بمصر ودفن بها وكانت حفرت قبرها بيدها تنزل فيه وتصلّي وقرأت فيه ستة آلاف ختمة توفيت سنة ثمان ومأتين. احتضرت وهي صائمة فالتزموها لتفطر، فقالت: وا عجباه انّي منذ ثلاثين أسئل الله أن ألقاه وانا صائمة، أفطر الآن، هذا لا يكون، ثم قرئت سورة الانعام إلى أن وصلت للآية، لهم دار السلام عند ربهم، وماتت.[1]

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

صفة ثانية لربكم، الأرض بساط العالم وبسيطها، روي عن أمير المؤمنين انّه قال: «**إنّما سمّيت الأرض أرضاً لأنها تتأرّض ما في بطنها يعني تأكل ما فيها وقيل لأنها تتأرض بالحوافر والأقدام**»[2]، قال أهل المساحة: انّ بسيطها من حيث يحيط بها البحر الذي يقال له المحيط أربعة وعشرون ألف فرسخ، كل فرسخ ثلاثة أميال، يصير اثنا عشر ألف ذراع وكلّ ذراع ست وثلاثون إصبعا، كلّ إصبع ست حبّات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض. فللسودان اثنا عشر ألف فرسخ، وللبيضان ثمانية، وللفرس ثلاثة، وللعرب ألف، كذا نقل

١ـ انظر: مستدرك سفينة البحار، ج ١٠، ص ١٢١.

٢ـ الجامع لأحكام القرآن، الأنصاري القرطبي، ج ١٩، ص ١٩٧.

صاحب الكتاب الملكوت وسمت وسط الأرض المسكونة حضرة الكعبة، وامّا وسط الأرض كلّها عامرها وخرابها فهو الموضع الذي يسمّى قبّة الأرض، وهو مكان يعتدل فيه الأزمان في الحرّ والبرد، ويستوي الليل والنهار أبداً، لا يزيد أحدهما على الاخر.

﴿فِرَٰشٗا﴾ جعلها متوسطة بين الصلابة واللين، صالحة للتوطن والقعود عليها، والنوم فيها كالبساط المفروش، وليس من ضرورة ذلك كونها سطحاً حقيقيّاً، فإنها وان سلّمنا كرويّتها لكن مع عظم جرمها قابلة للتسطيح والافتراش، وجعل ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ وهو ما علاك ﴿بِنَآءٗ﴾ قبّة مضروبة عليكم، وكلّ سماء مطبّقة على الأخرى، مثل القبّة، والسماء الدنيا ملتزمة أطرافها على الأرض كذا نقل في بعض التفاسير كما في تفسير أبي الليث.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي مطراً ينحدر من السماء على السحاب ومنه على الأرض ولعلّ حكمة نزوله على السحاب بدواً ثم على الأرض لأجل ان يغربله السحاب حتى ينزل على ترتيب التقاطر حسب ما نشاهده.

﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ﴾ أي أنبت الله بسبب الماء المنزول.

﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: أي المأكولات من الحبوب والفواكه من الأرض والشجر.

﴿رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ وذلك بأنّ أودع في الماء قوّة فاعليّة وفي الأرض قوّة منفعلة فتولد من تفاعلهما أصناف الثمار لتعرفوه بالخالقيّة والرازقية فتوحدوه.

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾: جمع ند وهو المثل أي أمثالاً تعبدونهم كعبادة الله، قال ابن عباس لا تقولوا لو لا فلان لأصابني كذا ولو لا كلبنا يصيح على الباب لسرق متاعنا، وعن النبي ﷺ قال: «**اياكم ولو، فإنّه من كلام المنافقين، قالوا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا**».

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: انّ الله هو الذي خلقكم وخلق الأرزاق لكم لتعبدوه وتعرفوه باستحقاقه الوحدانيّة والتفرد، والآية تفيد انّ الإنسان لا بدّ أن يخلص عمله لله فقط، ويترك ملاحظة الأغيار.

واعلم انّ معرفة النفس من أهمّ الأمور فيكون [أن] نعرف ما هي، وايّ شيء هي، ولايّ شيء أوجدت فينا، حتى نستعملها فيما ينبغي، ونمنعها عمّا لا ينبغي، وما الذي يزكيها فنفلح وما الذي يدسيها فنخيب، كما قال الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]، وقد اتضح انّ فينا شيء ليس بجسم، ولا بجزء من جسم، ولا عرض، بل هو جوهر بسيط غير محسوس بشيء من الحواس، وله أفعال تضاد أفعال الأجسام، ولا يشاركها في حال من الأحوال، والدليل على انّه ليس بجسم ولا عرض، انّ كلّ جسم له صورة ما، فإنّه ليس يقبل صورة أخرى، الا بعد مفارقة الصورة الأولى، مثل انّ الجسم إذا كان في صورة وشكل من الأشكال كالتثليث مثلاً فليس يقبل شكلاً آخر من التربيع والتدوير الا أنّ يفارقه الشكل الأول وان بقي فيه شيء من رسم الصورة الأولى، لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل يخلط به الصورتان، ولا يخلص له أحدهما على التمام، ونحن نجد أنفسنا تقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام من غير مفارقة للأولى ولا زوال رسم، بل يبقى الرسم الأول تاماً كاملاً وتقبل الرسم الثاني أيضاً تاما كاملا ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة دائماً، وهذه الخاصة مضادة لخواص الأجسام وبهذه العلّة يزداد الإنسان فهما كلما تخرج في العلوم والآداب، فليست النفس جسما.

وامّا انّها ليست، بعرض لأن العرض في نفسه محمول أبداً، موجود في

١ـ سورة الشمس: ٩ـ١٠.

غيره، لا قوام له بذاته، فثبت ان طباع النفس وجوهرها من غير طباع الجسم وللبدن، وانها أكرم جوهراً من كل ما في هذا العالم، من الأمور الجسمانية، والنفس وان كانت تأخذ كثيراً من مبادي العلوم عن الحواس، لكن لها من نفسها مباد أخر، لا تأخذها عن الحواس، وهي المبادي العالية التي تبتني عليها القياسات الصحيحة المقطوعة الصحة، بل الحواس تخطئ أحياناً مثل حركة السفينة والشاطئ، لكن النفس العاقلة ترد على الحواس هذا الحكم، وتغلطه في إدراكه، وتعلم انه ليس كما يراه، وهذا العلم من ذاتها وجوهرها فهذه فضيلة النفس، وبهذه الفضيلة يدرك الإنسان السعادات، ما لم تتلوث النفس برذائل الشهوات الرديئة الجسمانية، فحينئذٍ تنقلب هذه الملكة الملكية إلى ملكة الشيطانية، وخاب من دسيها.-

فالعاقل ينبغي أن يقوي قوة ملكيته، ويضعف قوى بهيميّته، حتى يستدرك من فيض النور المودع فيه، وهو المعبّر بالنفس الناطقة، وبالروح القدسي وبالعقل، لأن يستفيد من تلك القوة، السعادة الدائمة، ويبعد عن عالم البهيميّة والشقاوة الابدية، ولا يحصل هذا الفيض الا إذا كان حريصاً في الإطاعة والعبادة، قنوعاً في الدنيا، ولم يكن حريصاً في المال وزخارف الدنيا، لأن من أحب المال والدنيا حباً مفرطاً فقد هلك هلاك الأبد، ويكون حاله أسوأ من البهيمة، لأن البهيمة إذا ماتت وهلكت استراحت، وهو أول عذابه، ومعلوم ان حرصه على المال يصده عن استعمال الرأفة وبذل ما يجب، ويضطره إلى الخيانة والكذب والاختلاق ومنع الواجب والاستقصاء واستجلاب الحبة والدانق، وربما يسعى في قتل نفسه، بسبب معارضة خصمه، فليستعمل الإنسان نفسه فيما خلق له، ولا يغير جبلّتها فيكون مستعملاً الماء لإيقاد النار، والنار لدفع العطش، قد خسر ودسيها، وكان عليه

أن يقفلها، ومع ذلك جعل الله لك برحمته الواسعة مندوحة، وهي باب التوبة والاستغفار.

قال رسول الله ﷺ: «**طوبى لمن وجد في صحيفة عمله يوم القيامة تحت كل ذنب استغفر الله**»[1]، قال الصادق عليه السلام: «**إذا أكثر العبد الاستغفار رفعت صحيفتة وهي تتلألأ**»[2]، وعنه عليه السلام قال: «**كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مجلس وان خف، حتى يستغفر الله خمساً وعشرين مرة**»[3]، وقال سلام الله عليه: «**ان المؤمن ليذكره الله الذنب بعد بضعة وعشرين سنة، حتى يستغفر الله منه، فيغفر له**» قال رسول الله ﷺ: «**قول لا إله الا الله والاستغفار خير العبادة**»[4] كما قال الله سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾.[5] أقول: لا تنسى طريقة الاستغفار من قول أمير المؤمنين عليه السلام، أولها: الندم، الثاني: العزم على ترك العود، الثالث: أداء حقوق الناس، الرابع: إذابة اللحم الذي نبت من الحرام، وينبت لحم جديد، الخامس: أداء الفرائض المضيعة، السادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقتها حلاوة المعصية، ثم يقول استغفر الله.[6]

وفي توصية رسول الله ﷺ لمعاذ: «**يا معاذ اني محدّثك بحديث إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيّعته انقطعت حجّتك عند الله، يا معاذ انّ الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السّموات والأرض، فجعل لكلّ سماء من السبعة ملكاً بوّاباً، فيصعد**

١ـ وسائل الشيعة، للشيخ حرالعاملي، ج ١٦، ص ٦٩.

٢ـ الكافي، للشيخ الكليني، ج ٢، ص ٥٠٤ ووسائل الشيعة، للحر العاملي، ج ٧، ص ١٧٦ ومكارم الأخلاق، للشيخ الطبرسي، ص ٣١٣.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ نفس المصدر، ص ٥٠٥.

٥ـ سورة محمد: ١٩.

٦ـ جواهر الكلام، للشيخ محمد حسن النجفي، ج ٧، ص ١٩٨.

عليه الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى، له نور كنور الشمس حتّى إذا طلعت به الملائكة إلى السّماء الدنيا زكته وكثرته، فيقول الملك الموكّل للحفظة: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربّي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يتجاوزني، انه كان يغتاب الناس، وكذلك إلى السماء الثانية، ملك الفخر، يردّه، وهكذا إلى السّماء الثالثة، فيردّه ملك التكبّر، وكذلك إلى الرابعة، فيردّه ملك العجب، وكذلك إلى السماء الخامسة، فيردّه ملك الحسد، وكذلك إلى السماء السادسة، فيردّه ملك الرحمة، وكذلك إلى السماء السابعة، بعمله من صلاة وصوم وفقه واجتهاد وورع، لها دويّ كدويّ النحل، وضوء كضوء الشمس، معها ثلاثة آلاف، ملك فيقول لهم الملك الموكّل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واقفلوا على قلبه، أنا أحجب عن ربّي كلّ عمل لم يرد به ربّي، انّه كان يعمل لغير الله، انه أراد به رفعة عند الناس، وذكراً عند العلماء، وصيتاً في المدائن، أمرني ربي أن لا ادع عمله يجاوزني إلى غيري، وكلّ عمل لم يكن لله خالصاً فهو رياء»؛ قال النبيﷺ: «ويصعد الحفظة بعمل من زكاة وصوم وصلاة وحج وعمرة وخلق حسن وذكر لله، ويشيعه ملائكة السموات حتى يقطعون الحجب كلّها إلى الله عز وجل، فيقفون بين يديه ليشهدوا له بالعمل الصالح المخلص لله، فيقول الله: أنتم الحفظة على عمل عبدي وانا الرقيب على قلبه، انّه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري، فعليه لعنتي، فيقول الملائكة كلّهم: عليه لعنتك ولعنتنا، فتلعنه السّموات السبع ومن فيهنّ»، قال معاذ، قلت: يا رسول الله، كيف لي بالنجاة والخلوص، قال: «اقتد بي وعليك باليقين، وان كان في عملك تقصير، وحافظ على لسانك من الوقيعة ــ أي الغيبة ــ في إخوانك من حملة القرآن، ولا تزك نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا بعمل الآخرة، ولا تمزق الناس فيمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار، ولا تراء بعملك الناس».[1]

١ــ عدة الداعي ونجاح الساعي، لابن فهدالحلي، ص ٢٢٩.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

أي في شك من القرآن الذي نزلناه على محمد ﷺ في كونه وحياً منزلاً من عند الله، والتنزيل النزول على سبيل التدريج، فاتوا، جواب الشرط وهو امر تعجيز ﴿بِسُورَةٍ﴾ وحدّ السورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر، أقلّها ثلاث آيات وإنّما سميت سورة لكونها أقوى من الآية مأخوذة من سورة الأسد، أي قوته، هذا ان كانت واوها اصلية وان كانت منقلبة عن همزة فهي مأخوذة من السؤر، الذي بقيّة الشيء، فالسورة قطعة مفرزة ما فيه من غيرها.

﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي مثل القرآن في البيان الغريب والمعنى الجامع النافع وعلو الطبعة في النظم والتركيب أي ائتوا بمثل ما أتى هو، إن كنتم تزعمون انّه كلام البشر إذ أنتم وهو سواء في الجوهر واللسان والخلقة وليس هو أولى منكم بالاختلاق منكم.

تأمّل في إبداع هذه الآية: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وقد أجمع الفصحاء على أنّ هذه الآية اشتملت على اثنين وعشرين نوعاً من البديع مع انّها سبعة عشر لفظة: ١ـ المناسبة بين ابلعي واقلعي ٢ـ الاستعارة ٣ـ الطباق بين الأرض والسماء ٤ـ المجاز ٥ـ الإرداف ٦ـ التمثيل ٧ـ التعليل ٨ـ صحة التقسيم ٩ـ الاحتراس ١٠ـ حسن النسق ١١ـ المساواة ١٢ـ ائتلاف اللفظ مع المعنى ١٣ـ الإيجاز، فإنّه امر ونهي واخبر ونادى وأهلك وأبقى وأسعد وأشقى وقصّ من الأنبياء ما لو شرح لاحتاجت إلى الظواهر باخصر لفظ وأبلغ معنى ١٤ـ التسهيم ١٥ـ التهذيب، لأن مفرداته موصوفة بصفات الحسن

كل لفظة سهلة المخارج سليمة عن التنافر بعيدة عن التباعد وعقادة التركيب ١٦ـ حسن البيان ١٧ـ الاعتراض، وهو قوله: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ ١٨ـ الكناية، فإنّه لم يصرّح بمن غاض الماء ولا بمن قضى الأمر وسوى السفينة وأتى على سبيل الكناية لأنّ تلك الأمور العظام لا تأتي إلّا من ذي قدرة لا يغالب فلا مجال لذهاب الوهم إلى غيره تعالى ١٩ـ التعريض ٢٠ـ التمكين ٢١ـ الانسجام ٢٢ـ الإبداع.

أقول: انّ الفصيح التكلّم يعرف انّ هذه الصنائع في سبع عشرة لفظة في غاية الإعجاز، مثلا المساواة، هي ان اللفظ لا يزيد على معناها وهذه غاية الفصاحة، لأنّ المعاني الدقيقة يحتاج بألفاظ كثيرة حتى يستخرج ذلك المعنى من تلك الألفاظ المتكثّرة فحينئذٍ إذا كان اللفظ لا يتكثّر وأفاد المعنى [فهو] غاية الفصاحة.

﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾: جمع شهيد بمعنى الحاضر والناصر ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بادعوا أي ادعوا متجاوزين الله من حضركم كائناً من كان للاستظهار في معارضة القرآن أو المراد الحاضرين في مشاهدكم وانديتكم من رؤسائكم وفصحائكم وأشرافكم الذين تفزعون إليهم في الملمّات والمهمّات ليعينوكم في الإتيان بمثله وقيل ان الظرف متعلق بشهدائكم والمراد بالشهداء الأصنام ودون بمعنى التجاوز أي ادعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة وزعمتم انهم يشهدون لكم يوم القيمة انكم على الحق متجاوزين الله في اتخاذها.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّ محمداً ﷺ يقوله من تلقاء نفسه وجواب ان محذوف أي ما فعلوا كذلك من الإتيان بمثله.

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾

فإن لم تفعلوا ما أمرتم من الإتيان بالمثل بعد ما بذلتم سعيكم ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ فيما يستقبل أبداً فإنّه معجزة النبيﷺ اعتراض بين الشرط والجواب وقد وقع الأمر حيث أخبر بعدم وقوعه ولو عارضوه بشيء يدانيه في الجملة لتناقله الرّواة خلفاً عن سلف.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا﴾: ولمّا لم تؤمنوا به صرتم من أهل النّار فاتّقوها واتركوا العناد واحذروا النار التي حطبها وهو ما يوقد به النار ﴿ٱلنَّاسُ﴾: أي العصاة ﴿وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ أي حجارة الكبريت وإنّما جعل حطبها منها لسرعة التهابها وبطوء خمودها وقبح رائحتها ولصوقها بالبدن أو المراد من الحجارة الأصنام التي عبدوها ونحتوها من الحجارة وإنّما جعل التعذيب بها ليتحقّقوا انهم عذّبوا بعبادتها وليست نار الجحيم كلّها توقد بالناس والحجارة بل هي نيران شتّى منها نار بهذه الصفة.

﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾: وهيئت للذين كفروا بما نزلناه وفيه دلالة على ان النار مخلوقة موجودة الآن خلافاً للمعتزلة وفي الآية إشارة إلى ان ثمرة الأخذ بالقرآن والقبول به وبمحمدﷺ هو النجاة من النار التي وقودها الناس والحجارة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾

البشارة: الخبر السار الذي يظهر به أثر السرور، أي فرّح يا محمد قلوب الذين آمنوا بأنّ القرآن منزل من الله، مثل قوله: بشر المشائين إلى المساجد في ظلم الليالي بالنور التام يوم القيامة.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وفعلوا الفعلات الصالحات وهي كل ما كان لله تعالى حسب ما أمر به وفي عطف العمل على الإيمان دلالة على تغايرهما واشعار بأنّ مدار الاستحقاق مجموع الأمرين فإنّ الإيمان أساس والعمل الصالح كالبناء عليه ولا غناء بأساس لا بناء عليه وطلب الجنة بلا عمل حال السفهاء.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ بساتين فيها أشجار مثمرة، قيل: الجنة ما فيه النخيل والفردوس ما فيه الكرم، كذا قال الفراء، ولفرط التفاف أغصان أشجارها وتسترها سميت جنة كأنها ستره، والجنان ثمان (دار الجلال) كلّها من نور، مدائنها وقصورها وبيوتها وأوانيها وأبوابها ودرجها وغرفها وأعاليها وأسافلها وخيامها وحليها، و(دار القرار) كلها من المرجان، و(دار السلام) كلها من الياقوت الأحمر، و(جنة عدن) من الزبرجد وهي قصبة الجنة وهي مشرفة على الجنان كلها و(باب جنة عدن) مصراعان من زمرد وياقوت ما بين المصراعين كما بين المشرق والمغرب و(جنة المأوى) من الذهب الأحمر، و(جنة الخلد) من الفضة، و(جنة الفردوس) من اللؤلؤ كلها وحيطانها لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت ولبنة من زبرجد وملاطها وما يجعل ما بين اللبنتين مكان الطين المسك وقصورها الياقوت وغرفها اللؤلؤ ومصاريعها الذهب وأرضها الفضة وحصباؤها المرجان وترابها المسك ونباتها الزعفران والعنبر و(جنة النعيم) من الزمرد كلها وفي الخبر: «**أن المؤمن إذا دخل الجنة رأى سبعين ألف حديقة في كل حديقة سبعون ألف شجرة، على كل شجرة سبعون ألف ورقة، وعلى كل ورقة مكتوب لا إله الا الله محمد رسول الله علي ولي الله، أمة مذنبة، ورب**

غفور، كل ورقة عرضها من مشرق الشمس إلى مغربها».[١]

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾: والأنهار جمع نهر بسكون الهاء وفتحها وهو المجرى الواسع وعن مسروق انّ أنهار الجنّة تجري من غير أخدود وشقّ في الأرض وأنزه البساتين وأكرمها منظراً ما كانت أشجارها مظلّلة والأنهار في خلالها مطرّدة والأنهار أربعة الخمر والعسل واللبن والماء فإذا شربوا من نهر الماء يجدون حيوة ثم انهم لا يموتون وإذا شربوا من اللبن يحصل في أبدانهم تربية ثم انهم لا ينقصون وإذا شربوا من نهر العسل يجدون شفاء وصحة ثم انهم لا يسقمون وإذا شربوا من نهر الخمر يجدون طرباً وفرحاً ثم انهم لا يحزنون.

روي: انّه كتب عرضاً على ساق العرش (بسم الله الرحمن الرحيم) فعين الماء تنبع من ميم بسم، وعين اللبن تنبع من هاء الله، وعين الخمر تنبع من ميم الرحمن، وعين العسل تنبع من ميم الرحيم، هذا منبع الأنهار، وأمّا مصبّها فكلّها تصب في الكوثر، وهوَ حوض النبي، وهو في الجنة اليوم وينتقل يوم القيامة إلى العرصات لسقي المؤمنين ثم ينتقل إلى الجنّة، ويسقى أهل الجنّة أيضاً من عين الكافور، وعين الزنجبيل، وعين السلسبيل، وعين الرحيق، ومزاجه من تسنيم بواسطة الملائكة ويسقيهم الله الشراب الطهور بلا واسطة، كما قال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[٢].

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا﴾: أي متى أطعموا من الجنّة ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ ليس المراد بالثّمرة التفّاحة الواحدة أو الرمانة الفذة وإنّما المراد نوع من أنواع الثمار ومن الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية لأن الرزق قد ابتدئ من

١ـ انظر: روضة الواعظين، للفتال النيسابوري، ص ٥٠٥.

٢ـ سورة الإنسان: ٢١.

الجنّات ومن الجنّات قد ابتدئ من ثمرة.

﴿رِزْقًا﴾ مفعول رزقوا وهو ما ينتفع به الحيوان طعاما.

﴿قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي هذا مثل الذي رزقنا من قبل هذا في الدنيا ولما استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته وإنّما جعل ثمر الجنّة كثمر الدنيا لتميل النفس إليه حين تراه فإنّ الطباع مائلة إلى المألوف متنفّرة عن غير المعروف كأنهم قالوا هذا عين ما رزقناه في الدنيا مثلا انّ هذه الرّمانة مثل الرّمانة التي أكلناها في الدنيا فمن أين لها من اللّذّة والطيب هذه اللذة وهذا البيان لفرط استعجابهم واستغرابهم ممّا يجدون من اللذّة مع اتحادهما في الشكل واللون ولا يقدح فيه ما روي عن ابن عباس انّه قال ليس في الجنّة من أطعمة الدنيا إلّا الاسم فإنّ ذلك لبيان كمال التفاوت بينهما من حسن اللذّة والهيئة لا لبيان ان لا تشابه بينهما أصلاً كيف لا واطلاق الأسماء منوط بالاتحاد النوعي قطعاً وقيل معنى قوله هذا الذي رزقنا من قبل انّ ثمار الجنّة إذا اجتنيت من أشجارها عاد مكانها مثلها فيشتبه عليهم فيقولون هذا الذي رزقنا من قبل، قاله يحيى ابن كثير وأبو عبيدة، والقول الأول قال به ابن عبّاس واختاره الشيخ أبو جعفر الطوسي.

﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾: على البناء للمجهول أي جيئوا بذلك الرزق، والمراد جنس الرزق متشابها أي متشابه في الجودة، خيار لا رذل فيه، متساوي في الفضل، كقول الشّاعر:[1]

من تلق منهم فقل لاقيت سيّدهم   مثل النجوم التي يسري بها الساري

وقيل المعنى متشابهاً في الصورة واللون مختلفاً في الطعم، والقول الآخر في الآية ان التشابه في كل ما أتوا به من حيث الموافقة بالمسكن يوافق

١ـ هو العرندس، من بني بكر بن كلاب.

الساكن والخادم يوافق المخدوم والمسكن يوافق الفرش وكذلك جميع ما يليق به.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قيل انّها حور العين وقيل هن من نساء الدنيا مهذبة من الأحوال المستقذرة كالحيض والنفاس والبول والغائط والصداع والولادة وجميع الأدناس وكلمة مطهّرة أبلغ من طاهرة وإشعار بأنّ مطهّرات طهّرهن الله قال الحسن هن عجائزكم العمش الغمص الرمص طهرن من الأقذار والآثام وعن ابن عبّاس عن النبي ﷺ «**خلق الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الإدفر ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب أي الأبيض ومن عنقها إلى رأسها من الكافور إذا أقبلت يتلألأ نور وجهها كما يتلألأ نور الشّمس لأهل الدنيا**».

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: أي في الجنّة دائمون يبقون ببقاء الله لا انقطاع ولا نفاد لأنّ النعمة تتمّ بالبقاء والخلود كما تنتقص بالزوال والفناء، والخلود هو الدوام من وقت مبتدء ولذا لا يقال في حق الله خالد، قال عكرمة أهل الجنة ولد ثلاث وثلاثين سنة رجالهم ونساؤهم وقامتهم ستون ذراعاً على قامة أبيهم آدم ﷺ شباب جرد مرد مكحلون، عليهم سبعون حلّة، تتلون كل حلّة في كل ساعة سبعين لوناً، لا يبترنون ولا يمتخطون، يزدادون كل يوم جمالاً وحسناً، كما يزداد أهل الدنيا هرماً وضعفاً، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

وجه تعلّق الآية بما قبلها، أنّه لما جاء في القرآن ذكر النحل والذباب والعنكبوت والنمل، أورد المنافقون والكفار إنّ مثل هذه الأشياء لا يليق ان يذكر في القرآن، وكلام الفصحاء، وذلك يقدح في فصاحة القرآن فضلاً عن كونه معجزاً، فأجاب الله عن شبهتهم بأن ذكرها مشتملاً على حكم بالغة، ولذلك ضرب الأمثال بالنار والظلمات والرعد والبرق ليس بقبيح، حتى يستحي أن يضرب بها المثل، فنزلت الآية دفعاً لمقالهم، المعنى.

اعلم: ان الحياء تغيير وكيفية يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، يقال حي الرجل كما خشي ونسى، فاستحال هذا المعنى على الله سبحانه لأنه تغير يلحق البدن وكيفية حاصلة، وذلك لا يعقل الا إلى الجسم فيجب تأويله وهو انّ هذا الكلام جاء على سبيل أطباق الجواب على السؤال والشبهة التي أوردوها، حيث قالوا: أما يستحيى ربّ محمّد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت؟ فردّ سبحانه كلامهم على طبق إيرادهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾، الآيه.

ووجه آخر في الكلام، وهو أن كل صفة تطلق للعبد إذا وصف الله تعالى بذلك فهو محمول على نهايات الأعراض، لا على بدايات الأعراض، مثاله ان الحياء له مبدأ ومنتهى فالمبدأ هو التغيير الجسماني والمنتهى ترك ذلك الفعل الذي ينسب فاعله إلى القبيح، فإذا ورد الحياء في حق الله ليس المراد ذلك الخوف الذي هو مبدأ الحياء ومقدمته، بل ترك الفعل الذي هو منتهاه، وكذلك استعمال الغضب في حقه فإن مبدأ الغضب غليان دم القلب وشهوة الانتقام وله غاية وهو إنزال العقوبة بالمغضوب عليه، فإذا وصف الله بالغضب فليس المراد ذلك المبدأ، أعني شهوة الانتقام، بل المراد إنزال العقاب وهو المنتهي، فهذا هو القانون الكلي في نسبة هذه الأوصاف إلى

جنابه تعالى، وقيل: وجه آخر في معنى لا يستحي، أي لا يخشى أن يضرب مثلاً، ويستعمل الخشية بمعنى الحياء مثل هذا المورد، كما استعمل الخشية في معنى الحياء حيث قال: وتخشى الناس والله أحق أن تخشيه، أي تستحيي الناس والله أحق ان تستحييه، فالاستحياء بمعنى الخشية في هذه الآية، كما ان الخشية بمعنى الاستحياء في تلك الآية[1] واستعمال المثل تفهيم المراد وتقريب الذهن إلى المعنى، امر مستحسن شايع في العرب والعجم ولا استنكاف فيه وبالجملة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ﴾ أي لا يخشى أن يضرب مثلاً يوضحه به لعباده المؤمنين بما هو المثل، يعني أيّ مثل كان، وكلمة ـ ما ـ في الآية لزيادة الإبهام والشيوع في النكرة، سواء كان المثل صغيراً أو كبيراً ﴿بَعُوضَةٗ﴾ وتقدير الآية لا يستحيى أن يضرب مثلاً بعوضة فيكون بعوضة مفعولاً ثانياً ليضرب وضرب بمعنى جعل، او يكون ـ ما ـ نكرة، مفسرة ببعوضة، فيكون بعوضة بدلاً من ما ومعنى، ما، شيء، فحينئذٍ يفسر شيئاً بعوضة، وقال الفراء إنّ معناه إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً، ما بين بعوضة إلى ما فوقها والمثل يؤتى به لفهم المخاطب. سواء كان صغيراً كالبعوضة، أو جليلاً كالفيل وقد ورد في كلام العرب والعجم فقالوا في التمثيل: أجرأ من الذباب، واسمع من القراد، تزعم العرب انّ القراد يسمع الهمس الخفي، من مناسم الإبل، على مسافة سبع ليال، أو سبعة أميال، وفي المثل: فلان أعمر من القراد، وذلك انها تعيش سبعمائة سنة. وأجرأ من الذباب، لأنه يقع على أنف الملك، وجفن الأسد، فإذا ذبّ ودفع. آب ورجع، ولذلك سمّي بالذباب وفي المثل يقال: هو أجمع من ذرة يزعمون انها تدخر قوت سبع سنين، فانظر أيها المتأمل، كيف خلق الله

١ـ راجع: التبيان، ج ١، ص ١١٢.

الذباب والبعوض مع صغر حجمهما، كل آلة وعضو أعطاه الفيل القوي الكبير، بزيادة جناحين وأعطى البعوض والذباب جرأة، أظهرها في طيرانهما، في وجوه الناس، مع مبالغة الناس في ذبهما ودفعهما بالمذبه، وكيف ركب الجبن في الأسد واظهر ذلك الجبن فيه بتباعده عن مساكن الناس، وطرقهم، وأمكنتهم، ولو تجاسر الأسد، تجاسر الذباب والبعوض، لهلك الناس، فجعل بقدرته في الضعيف التجاسر والجرأة، وفي القوى الجبن وأعجب من هذين الأمرين، عجزك عن هذا الضعيف، وقدرتك على ذلك الكبير.

حكي انّه خطب المأمون ذات يوم، فوقع ذباب على عينه، فطرده، فعاد مراراً حتّى عجز وقطع الخطبة، فلمّا صلّى، احضر أبا هذيل شيخ الاعتزال، فقال له: لم خلق الله الذباب؟ قال الشيخ: ليذل به الجبابرة، قال: صدقت.[1] وفي خلق الذباب وأمثاله حكم ومصالح، قال وكيع: لو لا الريح والذباب لانتنت الدنيا، فسبحان القادر الذي ليس خلق العرش مع عظمته عليه أعسر، ولا خلق البعوضة عليه أيسر، وأنت أيّها الإنسان العاصي، إذا كان جزعك من هذا البعوض في الدنيا وعجزك عنه، فكيف حالك إذا تسلّطت عليك الحيّات والعقارب في لظى؟! اعلم انّه لمّا ثبت بضرورة العقل والعيان الحسّي، انّ لنا خالقاً حكيماً، لزم معرفة ان الموجودات، لم تخلق عبثاً وإنّما خلقوا ليعرفوا خالقهم، فيصيبوا بتلك المعرفة السعادة الدائمة والفيض الدائم وهذه المعرفة والعبادة تتوقف على بعث الرسل وإنزال الكتب، كي يحصل هذا الغرض من الحكيم ويعرفوا ما يصلحهم وما يفسدهم والّا لاختل النظام الأصلح، الواجب رعايته في مقام الحكمة، وبطل الغرض وذلك لا يليق بالحكيم القادر، فوجب وجود الحجّة للناس وقد قام الاتفاق من جميع المذاهب والأديان انّه آتى

١ـ انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج ٦، ص ٢٦٤.

رجل اسمه محمّدﷺ وادّعى النبوّة وأتى بكتاب، مجموع فيه جميع ما يحتاجونه، من النظام الأتمّ وتحدّى بذلك الكتاب، الآيتان بمثله، لفظاً ومعنى، حكماً وحكمة، ثم انّه استقر في سنَة الله وطريقته، من لدن آدم في جميع الأعصار، على نصب الحجة، من رسول، أو وصيّ، لئلا تبطل الحكمة ولا يفوت الغرض، والعلّة الباعثة، لوجوب الدعوة النبويّة، هي الباعثة لوجوب وجود وصيّ، يرشد إلى بقاء دعوة النبي ومع القطع بعدم وجود وصيّ عن المسيح، نقطع بوجوب وجود النبي، إتماماً للحجة ومعلوم بالبداهة، انّ في هذا الزمان، لا يكفي وجود المسيح، في السماء الرابعة، كما لا يمكن الاكتفاء بوجوده تعالى عن البعثة، فلو قيل انّ شريعة عيسى باقية، إلى هذا العصر، فالجواب انه لو كانت شريعته باقية، لوصل إلينا من طرف أوصيائه، لمعرفة مصالح الأمّة ولم يجتمعوا أمّته على الشرك، لأنّ أمّته متفقون على القول بالتثليث، والحلول والاتحاد، كما صرحوا به في الأناجيل، المجعولة، المحرفة المشتملة على أنحاء الكفر والشرك والارتداد ولم يبق عندهم شيء مما جاء به المسيح ولو كان لمسيح، حافظا لدينهم، لم يجمعوا على الباطل، ثمّ ان المسيح، باعتقاد النصارى، مصلوب مقتول وباعتقادنا انّه رفع إلى السماء، ولأجل عدم كونه متصرفاً، في الشرعيات وعدم قيامه بمصالح العباد، بمنزلة النبيّ الميّت، فلا يكتفى به، في إتمام الحجّة، فالعلّة الباعثة لوجوب الدعوة من الأنبياء، هي الباعثة، لوجوب وجود الوصي، يرشد إلى بقاء تلك الدعوة، في عصرنا، فمع القطع بعدم وجود وصيّ عن المسيح، في آخر الزمان نقطع بوجود البعثة النبويّة الحقية الكاملة المحمّدية، إتماما للحجّة، وهذه الحجة منحصرة في محمّد وعترته المعصومين عليهم الصلاة والسلام.

وبوجه آخر نقول: كما انّ سائر الصفات، يستعلم من الأفعال والأقوال

والحركات والسكنات، كذلك الصدق والحق والعصمة وسائر كمالات الأنبياء والأوصياء يستفاد من ملاحظة حالاتهم وسيرتهم وأقوالهم ومن تتبّع وتأمل بعين الإنصاف، في أوصافهم وشئونهم، لا يبقى له ريب ولا شبهة، في حقانيتهم ويستعلم أوصافهم من التسامع والتواتر من اتصافهم بتلك الصفات الملائمة للنبوّة والوصاية، كما انّ العادل، يعرف بالمعاشرة التامة فانظر إلى ما ظهر عنه ومنه وبه ﷺ من سيرته وأحواله والعلوم الكاملة والحكم الربانية، التي اندرست من أجلها، الحكمة التي كانت متداولة بين الحكماء واليونانيّين واتفق العقلاء، على هجران كتبهم، لعدم حاجتهم، إلى تلك الكتب والحكم، بعد ظهور القرآن، في هذه الأمة المرحومة، كما لا حاجة في الاستصباح بالسراج، عند طلوع الشمس، مع وضوح انّه ما حضر عند معلّم، في مقام التحصيل، بل كان يتيماً، ما بين قوم، لا يعرفون شيئاً، من الحكم والآداب، فهذه الحكمة، الربانية والتربية الإلهية، من أعظم المعجزات، الدالة على صدقه، وتماميّة هذه الشريعة وناسخيّته، لجميع الأديان فعلم انّ هذا الأمر، خارج عن الطبع البشري والحكم البالغة، المستفادة من كلماته، وأفعاله، من أعظم الشواهد على نبوّته وحقيّة دينه.

والحاصل: قد ورد كثير من الأمثال، في الإنجيل، فقد مثّل سبحانه، غل الصدر، في الإنجيل بالنخالة، قال: (لا تكونوا كمنخل، يخرج منه الدقيق الطيب، ويمسك النخالة، كذلك أنتم، تخرج الحكمة من أفواهكم وتبقون الغلّ في صدوركم)[1] وكذلك مثل سبحانه، مخاطبة السفهاء، باثارة الزنابير، قال: (لا تثيروا الزنابير، فتلدغكم، فكذلك لا تخاطبوا السفهاء، فيشتموكم)[2]

١ـ تفسير كنزالدقائق، ج ١، ص ١٩٤. وأيضاً تفسير الرازي، ج ٢، ص ١٤٤.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

وقال في الإنجيل: (لا تدّخروا ذخائركم حيث السوس والأرضة، فتفسدها ولا في البرية، حيث اللصوص، والسموم، فيسرقها اللصوص ويحرقها السموم ولكن ادّخروا ذخائركم عند الله).

وجاء في الإنجيل: (مثل ملكوت السماء، كمثل رجل، زرع في قريته حنطة جيدة نقية، فلمّا نام الناس، جاء عدوّه، فزرع الزوان وهو ـ بفتح الزاي وضمها ـ حبّ، مرّ، يخالط البر، فقال الزراع لمولاهم: يا سيدنا، أليس حنطة جيدة، زرعت في قريتك؟ قال بلى، قالوا: فمن أين هذا الزوان؟ قال: غفلتم عن عدوّكم وسامحتموه، فاخلط في زرعكم، فالزارع، الإنسان والقرية، العالم والحنطة، الطاعة والزوان، المعاصي.[1]

أقول لا يجوز لأحد ـ من المسلمين ـ مطالعة كتاب الإنجيل والتورية، الّا إذا كان مقصوده الاحتجاج على النصارى واليهود، بسبب إثبات أحقية القرآن، خصوصاً إذا كان قليل المؤنة في العلم، فإنّ فيها التحريف والأكاذيب المحكيّة، من لسان المسيح عن قول الله، فمنها ما في الأناجيل الأربعة، من الاختلافات في نسب المسيح، مع انّ الإنجيل المنزل من الله كان منحصراً في واحد، ومنها ما في الإنجيل، من انّ المسيح، صنع خمراً وأعطاها لأمّه مريم، مرسلاً إيّاها والخمر لأهل المجلس. ومنها ما في الإنجيل، من انّ الأبن في الأب حلّ، والأب في الأبن، وهذا يستلزم تضاد الحال والمحل ومناف لمراتب التوحيد، ومنها ما في التوراة من انّ نوحاً، شرب الخمر، بعد خروجه من السفينة ومنها أيضاً في التوراة، من انّ لوطاً، شرب الخمر وزنا بابنتيه، ومنها ما في التورية، من انّ هارون، امر بصنع العجل، فمع هذه القبائح، الّتي دونوها وسموها، الإنجيل والتورية ونسبوا الأفعال القبيحة، إلى الأنبياء، كيف

١ـ راجع: تفسير الرازي، ج ٢، ص ١٣٣.

يكون حال أمّة، ينسبون إلى أنبيائهم، ما يأنف الفاسق، المتجاهر من مثل هذه الأمور وليس ذلك الا الإلحاد أو تفسيقا لأهل الوحي وأشدّ حمقاً من أولئك، بعض أهل السنّة حيث كتبوا هذه الأكاذيب، في مصنفاتهم، واعتقدوها وسموا كتابهم، بخطيئة الأنبياء.

والحاصل: ان الله سبحانه، مثّل الأمثال، في هذه الآيات، لأن ينبّه بذلك المؤمنين على لطيف صنعه ليقرّوا بوحدانيته، وكمال قدرته وحكمته، ليهتدوا.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالقرآن وبمحمدﷺ ﴿فَيَعۡلَمُونَ﴾ اي: التمثّل ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: الثابت الذي لا يسوغ إنكاره ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ فيفكرون ويوقنون ان الله خالق هذه الأشياء فيؤمنون به ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المشركون واليهود ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ اي: لإعراضهم عن طريق الاستدلال، وإنكارهم، وجحودهم ماذا أراد الله، بهذا المثل واي شيء أراد، بهذا المثل الخسيس، فلمّا حذف الألف واللام في المثل نصب على الحال، أو التميز، فأجابهم الله بقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا﴾ فيه وجهان، قال الفراء انّه حكاية عن قولهم، ومن بقية كلامهم حيث قالوا: ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضلّ به كثيراً ويهدى به كثيراً ثم قال الله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وهذا وجه حسن، استحسنه الطبرسي، والوجه الآخر، انه كلامه تعالى وإذا كان كلامه تعالى، فمعنى قوله يضل به كثيراً، انّ الكفار يكذّبونه، وينكرونه، ويقولون: ليس هو من عند الله، فيضلّون بسببه، فإذا حصل الضلال بسببه، أضيف إليه، وكذلك لمّا حصلت الهداية بسببه أضيف، فمعنى الإضلال، على هذا، تشديد الامتحان الذي، يكون عنده، الضلال، لأنّ المحنة، إذا اشتدت على الممتحن، فضلّ عندها، سميت إضلالاً.

وإذا سهلت، فاهتدى عندها، سميت هداية.[١]

وحاصل المعنى: ان الله يمتحن بهذه الأمثال، عباده، فيضل بها قوم كثير. لإنكارهم ويهدي بها قوم كثير، لقبولهم ومثله قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾.[٢]

أي ضلوا عندها، وهذا كما يقال للرجل، إذا أدخل الفضة، النار، ليظهر فسادها، من صلاحها، فظهر فسادها، أفسدت فضّتك وهو لم يفعل فيها.

وإنّما يراد انّ فسادهم، ظهر عند امتحانه، وقريب من ذلك، قولهم، فلان أضل ناقته، ولا يريدون انّه أضلها، وإنّما يريدون، من هذا الكلام، انها ضلّت عنه، لا من غيره، ويمكن أن يكون، الإضلال، بمعنى التخلية، على وجه العقوبة، ومنع الألطاف، التي تنعل بالمؤمنين، جزاء على إيمانهم، وهذا كما يقال، لمن لا يصلح سيفه أفسدت سيفك، أريد به، انّك لم تحدث فيه الإصلاح في كل وقت بالصيقل، وقد يكون الإضلال، بمعنى الإهلاك والعذاب والتدمير.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾[٤]، اي: هلكنا، فعلى هذا يكون المعنى، ان الله يهلك ويعذب بالكفر به كثيرا، بأن يضلّهم عن الثواب وطريق الجنة، فبسببه يهلكوا، ويهدي إلى الثواب وطريق الجنة، بالإيمان به كثيرا، وهذا القول، عن أبي علي الجبائي، ويدل على ذلك، قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.[٥] انتهى بيان وجوه المعنى، في الإضلال من كلام علمائنا.

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ١٣٦.

٢ـ سورة ابراهيم: ٣٦.

٣ـ سورة القمر: ٤٧.

٤ـ سورة السجده: ١٠.

٥ـ سورة البقره: ٢٦.

لكن علماء العامة، المعتزلة منهم قالوا: بأسناد الإضلال إليه تعالى، اي: خلق الضلال مبني على انّ جميع الأشياء، مخلوقة له تعالى، وان كانت أفعال العباد، من حيث الكسب، مستندة إليهم.[١]

وامّا الأشاعرة، فتفسيرهم وعبائرهم في مثل موضوع الضلال والهداية، غير قابل للذكر، بسبب غلوّهم في الجبر.

قال الطبرسي: وكلّ ما في القرآن من الإضلال المنسوب إليه تعالى، فهو بمعنى المذكور، من الوجوه ولا يجوز أن ينسب إلى الله تعالى، إضلال، اوّلا لإضلال قبله، ولا يكون الإضلال من فعله، بل إضلاله، سبحانه، تبعا، لضلال المكلّف، واما الإضلال الذي يضاف إلى الشيطان، مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾[٢] وقوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ وكذلك إضافة الإضلال، إلى السامري، وهو أن يكون، بمعنى التلبيس والتغليط والتشكيك والإيقاع في الفساد، ممّا يؤدى الي التظليم، فذلك في حق الله، غير جائز، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا! انتهى بيان الإضلال.

وامّا الهداية في القرآن، يطلق على وجوه:

فتارة، بمعنى الدلالة، والإرشاد، يقال هداه الطريق، والى الطريق، إذا دلّه عليه وهذا الوجه، عام لجميع المكلّفين، فإنّه سبحانه، أهدى كلّ مكلّف وأرشده إلى الحق، على لسان رسله وكتبه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾[٣] وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾[٤] وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ

١ـ راجع: تفسير أبي السعود، ج ١، ص ٧٥.

٢ـ سورة يس: ٦٢.

٣ـ سورة النجم: ٢٣.

٤ـ سورة الانسان: ٣.

فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[1]

وتارة المراد بالهداية: زيادة الألطاف، التي بها، نثبت على الهدى، ومنه قوله. ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾، أي شرح صدورهم وثبّتها.

وتارة تكون الهداية: بمعنى الإثابة، مثل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾[2] ومعلوم، ان الهداية، التي تكون بعد القتل، هي الإثابة لا محالة، لأنه ليس بعد الموت تكليف.

ورابعها: الحكم بالهداية، كقوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾[3] وهذه الوجوه الثلاثة خاصّة بالمؤمنين، لإيمانهم.

وخامسها: أن تكون الهداية، بمعنى جعل الإنسان، أي بخلق الهداية فيه، كما يجعل الشيء، متحركاً، بخلق الحركة، والله يجعل، العلوم الضرورية، في القلوب فذلك هداية منه، وهذا المعنى الخامس، عام لجميع العقلاء كالوجه الأول.

وامّا الهداية التي، كلّف الله العبّاد فعلها، كالإيمان به، وأنبيائه، وغير ذلك، فإنّها من فعل العباد، وان كان قد أنعم عليهم بدلالتهم على ذلك، لكنّهم يستحقون على فعلهم المدح والثواب، كما انّ الكافر بفعله يستحق الهوان والعذاب، والهداية تسكن في قلب فارغ من الدنيا، نسئل الله ان لا يحرمنا من الطافه بسوء أفعالنا.

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

١ـ سورة فصلت: ١٧.

٢ـ سورة محمّد: ٥.

٣ـ سورة الكهف: ١٧.

ثم وصف الله أحوال المنافقين الموصوفين في الآية السابقة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾ النقض، فك التركيب، والنسخ، واستعمال النقض، في إبطال العهد، من حيث تسمية العهد، بالحبل، على سبيل الاستعارة، لما فيه من علاقة الوصلة بين المتعاهدين. قيل: عهد الله ثلاثة، **الأول**: ما أخذه على ذرية آدم، بأن تقرّوا بربوبيّته. **والثاني**: ما أخذه على الأنبياء، بأن أقيموا الدين، ولا تفرقوا فيه، والثالث، على العلماء، بأن يبينوا الحق ولا يكتموه[1][2].

﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي بعد الوثيقة وتوكيده بالقبول، والضمير، راجع إلى العهد أوالي الله، اي: بعد توثيق الله، ذلك العهد، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وقيل: المراد في الآية، كفار أهل الكتاب، وعهد الله الذي نقضوه، هو ما أخذ عليهم في التورية من اتباع محمدﷺ، والتصديق بما جاء به، ونقضهم لذلك، تركهم وجحودهم به بعد معرفته وكتمانهم ذلك، عن الناس، ومغالطتهم، على الناس، بعد ان بينه الله، في كتابهم وأمرهم ان لا يكتمونه، فكتموا ونقضوا العهد.

﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ اي: يقطعون، ما امر الله، بوصله، وهو يشمل كلّ قطيعة، لا يرضى الله، قطعه، كقطع الرحم، وموالاة المؤمنين، وإيقاع الفتنة والفساد بين المسلمين، والتفرقة بين الأنبياء والكتب، في تصديق البعض وإنكار البعض.

قال: صاحب كشف الغطاء، العجب، ثم العجب، من قوم يعترفون بنبوة

١ـ انظر، تفسير أبي السعود، ج ١، ص ٧٦.

٢ـ أشار المفسر في حديثه إلى بيت شعر بالفارسية أوردناه مع الترجمة وهو:

در روز الست بلى گفتى امروز ببستر لا خفتى

المعنى: قد قلت (بلى) يوم قال تعالى: (الست بربكم)، واليوم ترقد في فراش (لا) = (اللامبالاة) والغفلة.

موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام وغيرهما وينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وآله فإنهم ان ادعوا، عدم حجيّة المعجزات، لزمهم إنكار جميع النبوّات. فينتفي الوسائط، في إثبات الشرائع، بيننا وبين رب السموات، وان ادعوا، نفي المعجزات: من نبينا. فما بالهم، لا ينفون المعجزات، بالنسبة إلى أنبيائهم، مع تقدم عهدهم، وزيادة بعدهم وزمانهم، فإنّ إنكار الاخبار، بالنسبة إلى ما تقادم عهده، وطالت سلسلته. اقرب من إنكاره، بالنسبة إلى القريب.[1]

وكلّ رفض خير. فهو قطيعة، بل تعاطي الشر، أيضاً، فإنه يقطع الوصلة، فيما بين الله، والعبد.

وفي الحديث: «**إذا اظهر الناس، العلم، وضيّعوا العمل، وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا الأرحام، لعنهم الله، عند ذلك، فاصمّهم وأعمى أبصارهم**» انتهى.[2]

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: بالمنع عن الإيمان، والاستهزاء بالحق، وقطع الوصل، التي عليها يدور فلك نظام العالم، وصلاحه، وقيل: أراد كلّ معصية. تعدّى ضررها، إلى غير فاعلها، والأولى حمله على العموم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: المغبونون. بالعقوبة في الآخرة مكان المثوبة في الجنّة لأنّهم استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح وعقابها بثوابها.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

الاستفهام إنكاري لا بمعنى إنكار الوقوع، بل بمعنى إنكار الواقع،

١ـ كشف الغطاء، للشيخ جعفر الكاشف الغطاء، ج ٢، ص ٣٨٩.

٢ـ ثواب الاعمال، للشيخ الصدوق، ص ٢٤٢.

واستبعاده، والتعجيب منه لأنّ التعجب من الله، يكون على وجه التعجيب، كأنه يقول: الا تتعجبون انّهم يكفرون بالله، ومعهم ما يصرفهم عن الكفر إلى الإيمان، من الدلائل.

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾: والحال انكم كنتم أجساماً، لا حيوة لها، عناصراً، وأغذية، ونطفاً، ومضغاً، وقبل هذه الحالات كنتم أعداماً، ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ بخلق الأرواح ونفخها فيكم، في أرحام أمهاتكم وهذا البيان إلزام لهم بالبعث، فكما انّ الأحياء أمكن لهم بعد أن كانوا أمواتاً، كذلك يمكن حصوله بعد أن يموتوا، وحاصل المعنى انكم لم تكونوا أشياء فخلقكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم يوم القيامة.

وقيل انّ المعنى كنتم نطفا في أصلاب آبائكم، وبطون أمهاتكم، والنطفة موات، فأخرجكم في الدنيا أحياء، ثمّ يميتكم، ثمّ يحييكم في القبر للمسألة، ثمّ يحييكم ويبعثكم يوم الحشر للمجازاة على الأعمال، وسمّي الحشر رجوعاً إلى الله، لأنّ رجوع أمركم إليه وفي هذه الآية، دلالة على انّه لم يرد من عباده الكفر ولا خلقه، لأنّه لو أراد منهم أو خلقه فيهم لم يجز أن يضيفه إليهم، بقوله كيف تكفرون بالله، كما لا يجوز أن يقال لهم، كيف كنتم طوالاً، أو قصاراً، أو ذكراً أو أنثى، ممّا هو فعله فيهم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للسؤال في القبور فيحيى حتى يسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين ويقال له: من ربّك ومن نبيّك وما دينك، ويدل كلمة، ثم، التي للتعقيب على انّه لم يرد به حيوة البعث، فإن تلك الحيوة يومئذ، بالرجوع إلى الله، بالحساب، بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

لما استعظم المشركون أمر الإعادة، عرّفهم الله خلق السموات والأرض ليدلّهم بذلك على قدرته على الإعادة: أي قدّر خلقها لانتفاعكم بها في دنياكم ودينكم.

وتمسّك بعض الجهلة المتصوفة، من أهل الإباحة بهذه الآية، وحملوا اللام في لكم على الإطلاق والإباحة، وقالوا لا حظر ولا نهي وهذا منهم كفر صريح، ومخالف لتمام كتب الله ورسله. وقد نهى الله، وامر وأباح وحظر ووعد، وأوعد وبشرّ وهدّد والنصوص ظاهرة، والدلائل متظاهرة، والأخبار متظافرة، فمن حمل هذه الآية، على الإباحة المطلقة، فقد انسلخ من الدين بالكليّة.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل فيه وجوه:

أحدها: وهو الأقرب، قصد إلى خلقها بإرادته ومشيّته، قصداً سويّاً بلا صارف يلويه ولا عاطف يثنيه، فسوّاها، وهذا كقول القائل: كان الأمير يدبر أمر الشام، ثمّ استوى إلى الحجاز: أي تَحوّل تدبيره إليهم.

وثانيها: انّه بمعنى استولى على السماء كما قال لتستووا على ظهورها: أي تقهروه، فيكون المعنى: ثمّ استوى إلى السماء في تفرّده بملكها، ولم يجعلها كالأرض ملكاً لخلقه.

وثالثها: ما روي عن أحمد بن يحيى بن تغلب: انّه سئل عن معنى الاستواء في صفة الله، فقال الاستواء، الإقبال على الشيء، يقال فلان كان مقبلاً على فلان ثم استوى إليّ يكلمنّي.[1]

أقول: هذا المعنى، هو المعنى الأول الّذي ذكره الطبرسي وهذا المعنى الثالث، أيضاً ذكره الطبرسي، مع انّ الإقبال والقصد متساويان، أو متلازمان ولا

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ١٤٢.

يظن ظانّ انّ بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ تناقض، لأنّ الدحو، البسط. روي انّ الله خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر: أي الحجر ملئ الكف عليها دخان يلتزق بها، ثم أصعد الدخان، وخلق منه السموات وأمسك الفهر في موضعه ثم بسط منه الأرض وقال أوّل ما خلق الله، جوهرة طولها وعرضها مسيرة ألف سنة في مسيرة عشرة آلاف سنة، فنظر إليها بالهيبة فذابت واضطربت، ثم ثار منها دخان، فارتفع واجتمع زبد فقام فوق الماء، فجعل الزبد أرضاً والدخان سماء فالسماء من دخان خلقت، وبريح ارتفعت وبأشارة تفرقت، وبلا عماد قامت، وبنفخة تكسرت[١] ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ اي: أتمهن، وقوّمهنّ مصونات عن العوج والفطور، والضمير فيه مبهم فسر بقوله: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ منصوب على التميز، نحو ربّه رجلاً. قال سلمان الفارسي: هي سبع، الاسم الأولى رفيع وهي من زمردة واسم الثانية، ارقلون، وهي من فضة بيضاء والثالثة قيدوم وهي من ياقوتة حمراء والرابعة ما عون وهي من درة بيضاء والخامسة دبقاء وهي من ذهب أحمر والسادسة وقناء وهي من ياقوتة صفراء والسابعة عروباء وهي من نور يتلألأ.[٢]

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه تعليل كأنه قال لكونه عالماً بكنه الأشياء كلّها، خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع وفي الآية دلالة على انّ الأصل في الأشياء، الإباحة لأنّه سبحانه ذكر انّه خلق ما في الأرض لمنفعة العباد.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

١ـ تفسير كنز الدقائق، للميرزا محمد المشهدي، ج ١، ص ٢١٥.

٢ـ الدر المنثور، ج ١، ص ٤٤.

﴿وَإِذْ﴾: مفعول اذكر مقدرة: أي اذكر لهم وأخبر وقت ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ قيل الخطاب لجميع الملائكة، وقال ابن عباس: الخطاب لسكنة الأرض بعد الجان من الملائكة لا جميع الملائكة[١]: والملائكة جمع ملك، والتاء لتأكيد الجماعة، وسموا بها، فإنّهم وسائط ورسل بين الله والخلق، واختلف في اشتقاقه: قيل من الألوكة وهي الرسالة، قال الخليل الألوك الرسالة، وهي المألكة على مفعله، مأخوذ من ألك الفرس اللجام[٢]، وقيل: إنّما سمّيت الرسالة الوكا، لأنها تمضغ وتؤلك في الفم تألك الشكيم واللجام، فالملائكة، وزنها معافلة مقلوبة، ووزن ملأك، معفل مقلوب، مألك مفعل.

وقال بعض: الكلمة مهموزة، وألقيت حركة الهمزة، على اللام وحذفت الهمزة فقيل ملك وقال أبو عبيدة: انّ أصله لأك، إذا أرسل، فملأك مفعل وملائكة مفاعلة غير مقلوبة، والميم في هذه الصور زائدة، لكن ذهب ابن كيسان، ان الميم أصليّة، وانّه من الملك، وان وزن ملاك، فعال، مثل شمال، وملائكه فعائلة، والهمزة زائدة، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يدل: على انّ جميع الملائكة ليسوا برسل، فعلى هذا يكون اسم جنس والملائكة عند أهل الإسلام وأكثر المسلمين، أنوار وأجسام لطيفة، قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، والدليل على هذا، ان الأنبياء كانوا يرونهم.

روي في شرح كثرة الملائكة، انّ بني آدم عشر الجن، وهما، عشر حيوانات البر، والكلّ عشر الطيور، والكلّ عشر حيوانات البحر، وهؤلاء كلّهم، عشر ملائكة السماء الدنيا، وكلّ هؤلاء، عشر ملائكة السماء الثانية،

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ١٤٧.

٢ـ المحاسن، لأحمد بن محمد البرقي، ج ٢، ص ٤٣٢، ورواه المجلسي في البحار، ج ٦٣، ص ٣٧١.

وهكذا إلى السماء السابعة، ثم كلّ أولئك في مقابلة الكرسي، نزر قليل، ثم جميع هؤلاء، عشر ملائكة سرادق، واحدى سرادقات العرش، التي عددها ستمائة ألف، طول كلّ سرادق وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، لا يكون لها، عنده، قدر محسوس وما منه من مقدار شبر، الّا وفيه ملك، ساجد، أو راكع، أو قائم.(١)

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: الجعل، والخلق، والفعل، والأحداث، نظائر، الّا انّ الجعل قد يتعلّق بالشيء، لا على سبيل الإيجاد، بخلاف الفعل، والأحداث يقول جعلته متحركاً، وحقيقة الجعل تغيير الشيء عمّا كان عليه، وحقيقة الفعل والأحداث الإيجاد، انّي جاعل، أي مصيّر قيل: ان الله خلق السماء والأرض وخلق الملائكة والجن فاسكن الملائكة، السماء، واسكن الجن، الأرض، والجنّ هم بنوا الجان، وهو أبو الجنّ كآدم أبو البشر. وخلق الله الجان، من لهب، من نار، لا دخان لها، بين السماء والأرض، قيل: الصواعق تنزل منها، ثمّ لمّا سكنوا فيها، كثر نسلهم، وذلك قبل آدم بسنين متطاولة، قيل بألفي عام.

قال الحقي: «في روح البيان» بستين ألف سنة، فعمروا دهراً طويلاً، في الأرض، مقدار سبعة آلاف سنة، ثمّ ظهر فيهم، الحسد والبغي، فأفسدوا وقتلوا، فبعث الله إليهم، ملائكة سماء الدنيا، وامرّ عليهم إبليس، فهزموا الجنّ وأخرجوهم من الأرض إلى جزائر البحور، وشعوب الجبال، وسكنوا الأرض، وأعطى الله إبليس، ملك الأرض، وملك السماء الدنيا، وخزانة الجنّة، وكان له جناحان، من زمرد اخضر، وكان يعبد الله، تارة في الأرض، وتارة في السماء، وتارة في الجنّة، فدخله العجب، فقال في نفسه، ما أعطاني الله هذا الملك، الّا

١ـ بحار الأنوار، ج ٥٦، ص ٢٤١.

لأنّي أكرم الملائكة عليه.[1]

وإنّما عبّر سبحانه (خليفة) أراد بالخليفة آدم، لأنّه خليفته في أرضه، يحكم بالحق وكان سبحانه قد أعلم ملائكته انّه يكون من ذريته من يفسد فيها، عن ابن عباس.

وقيل: إنّما سمّى الله آدم خليفة لأنّه جعل آدم وذريّته خلفاء للملائكة، لأنّ الملائكة كانوا من سكّان الأرض، وقيل: خليفة عن الجنّ الذين أفسدوا وقتلوا وأخرجوا، فجعل آدم بدلهم، وقيل: عنى بالخليفة ولد آدم، يتخلّف بعضهم، بعضاً، وهم خلّفوا آدم، في إقامة الحق، وعمارة الأرض.[2]

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ استيناف لبيان ما قالته الملائكة، قالوا أتجعل في الأرض ﴿مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ كما أفسدت الجن، وفائدة التكرار في الظرف تأكيد الاستبعاد، ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ ظلماً كما فعل بنوا الجانّ أو لأنّ الله أخبرهم بانّه سيكون من ذرّية هذه الخليفة من يعصي ويسفك الدماء، وإنّما قالت الملائكة هذا الكلام، على سبيل الاستعلام، على وجه المصلحة والحكمة، لا على وجه الإنكار.

﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي والحال أنا ننزهك، عن كل ما لا يليق بشأنك، مشتغلين بحمدك، والتسبيح نفي ما لا يليق، والتقديس إثبات ما يليق به، والسبّوح هو المستحقّ للتنزيه، والقدوس المستحق للتطهير، والقدس السطل الذي يتطهر به قال الله في جوابهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من الحكمة، والمصلحة باستخلاف آدم، وانّ من ذريّته الطائع، والعاصي، فيظهر الفضل والعدل واوّل شيء أظهره الله بنور قدرته من ظلمة

١ـ انظر: تفسير البغوي، ج ١، ص ٦٠.

٢ـ التبيان في تفسير القرآن، ج ١، ص ١٣١.

العدم، كان نور محمد ﷺ، كما قال ﷺ: «**أوّل ما خلق الله نوري ثم خلق العالم بما فيه من نوره**»[1]، بعضه من بعض، فلمّا ظهرت الأنوار من وجود نوره، سمي نوراً، وكلّما كان أقرب إلى الاختراع، كان أولى باسم النور، كما ان عالم الأرواح، أقرب إلى الاختراع من عالم الأجسام، فلمّا كان نور النبي ﷺ أقرب نظر في فائدة خلقه، كان أولى باسم النور، ولهذا كان يقول ﷺ: «**أنا من الله والمؤمنون منّي**»[2]. قال ﷺ: «**كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام وكان يسبّح ذلك النور ويسبح الملائكة بتسبيحه فلما خلق الله آدم القى ذلك النور في صلبه ولولاه لما خلق الله آدم ولا العرش، فليس كلّ مخلوق يطّلع على غيب الخالق**»[3].

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**انّ الملائكة سألت الله** ـ ولم يكن جميعهم، بل بعضهم ـ **أن يجعل الخليفة منهم وقالوا نحن نقدّسك، ونطيعك** ـ ولا نعصيك كغيرنا ـ **قال: فلما أجيبوا بقوله: اني اعلم ما لا تعلمون، علموا انّهم تجاوزوا عن حدّهم، فلاذوا بالعرش استغفاراً**[4]، **يقولون لبيك، ذا المعارج لبّيك، وسألوه التوبة، فأمرهم أن يطوفوا بالضراح، وهو البيت المعمور، فمكثوا به سبع سنين، يستغفرون الله بما قالوا، ثمّ تاب عليهم من بعد ذلك، ورضى عنهم، فكان هذا اصل الطواف، ثم جعل الله البيت الحرام، حذاء البيت المعمور، توبة لمن أذنب من بني آدم وطهورا**» وفي «العلل» عن الصادق عليه السلام: «**فحجبهم عن نوره سبعة آلاف عام، فرحمهم وتاب عليهم**»[5].

١ـ رواه القمي في تفسيره، ج ١، ص ١٧

٢ـ تذكرة الموضوعات، محمّد طاهر بن الهندي الفتني، ص ٨٦.

٣ـ كشف الخفاء ومزيل الألباس، لاسماعيل العجلوني، ج ١، ص ٢٦٦.

٤ـ تفسير التبيان، للشيخ الطوسي، ج ١، ص ١٣٦.

٥ـ علل الشرايع، الشيخ الصدوق، ج ٢، ص ٤٠٧ والحدائق الناضرة، البحراني، ج ١٦، ص ١١٠

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾

اي: علم الله آدم معاني الأسماء، والمراد معانيها، إذ الأسماء بلا معان لا فائدة فيها، وفي المجمع والعياشي عن الصادقعليه السلام انهعليه السلام سئل ماذا علمه؟ قال: «**علّمه الأرضين، والجبال، والشعاب، والأودية**»، ثمّ نظر إلى بساط تحته، فقال: «**وهذا البساط ممّا علّمه**»[١]، وفي تفسير الامام، عن السجادعليه السلام «**علّمه أسماء كلشيء، وأسماء أنبياء الله وأوليائه، وعتاة أعدائه**»[٢]، فيكون المعنى، وعلّم آدم أصحاب الأسماء، يعني المسمّيات، فإن قيل انّه كان في المسمّيات، وأصحاب الأسماء ما لا يكون عاقلا، فلم قال عرضهم ولم يقل عرضها، لأنّه لمّا كان في جملتها الأنبياء والائمة والملائكة، والجن، والإنس، وهم العقلاء، فغلب الأكمل لأنّه جرت عادة أهل اللسان، والعرب بتغليب الكامل على الناقص. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، انّه تعالى علّمه جميع الصناعات وعمارة الأرضين، والأطعمة، والأدوية، واستخراج المعادن، وغرس الأشجار، ومنافعها وجميع ما يتعلق بأمور الدين والدنيا، وهذا القول، هو الحديث المنقول عن الصادقعليه السلام الذي ذكره العياشي وفي كيفيّة تعليم الله، آدم الأسماء، فقيل علّمه بأن أودع قلبه معرفة الأسماء والمسمّيات، وفتق لسانه بها، وعرّفه خواص الأشياء وهوان الفرس يصلح لما ذا، والحمار لما ذا، فكان آدم يتكلّم بتلك الأسماء، ويعرف المعاني واللغات، وكان ذلك معجزة له، لكونه خارقاً للعادة، واختلف في كيفيّة العرض على الملائكة، فقيل إنّما عرضها بأن خلق معاني الأسماء التي علّمها آدم، حتى شاهدتها الملائكة،

١ـ تفسير مجمع البيان، للطبرسي، ج ١، ص ١٥٢.

٢ـ التفسير الصافي، للمولي الفيض الكاشاني، ج ١، ص ١١١.

وقيل صوّر في قلوبهم هذه الأشياء، فصارت كأنّهم شاهدوها، وقيل عرض عليهم من كل جنس واحداً نموذجاً يتعرّف منه أحوال البقية.

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: إظهاراً لعجزهم، وبيانا بأنّ آدمعليه السلام أصلح لإمارة الأرض، وعمارتها، إلى ما يهتدى الملائكة إليه وتبكيتا لهم عن إقامة ما علّقوا به رجائهم، من أمر الخلافة. فإن التصرف والتدبير، بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ومقادير الحقوق، بما لا يكاد يتحقّق ويمكن.

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: أي في زعمكم انكم أحقاء بالخلافة ممَن استخلفته، فإنّ أدنى مراتب الاستحقاق، هو الوقوف على العلم بأسماء ما في الأرض، وجواب الشرط محذوف لدلالة الكلام: أي إن كنتم صادقين فيما ظننتم، فأخبروا بهذه الأسماء، وذلك لأنّه خطر ببالهم انّه لم يخلق الله خلقاً الّا وهم أعلم منه، وأفضل في سائر أنواع العلم، فخوطبوا بهذا الخطاب. فإن قيل، كيف أمرهم الله وكلّفهم بأن يخبروا بما لا يعلمون، فالجواب انّ الأمر مشروط بالعلم لا مطلقا، كما يقول العالم للمتعلم ما تقول في كذا، ويعلم انّه لا يحسن الجواب، وليس غرضه الجواب بل غرضه، أن ينبّهه على عدم علمه، فإذا تنبه المتعلّم، على انّه لا يمكنه الجواب، أجابه حينئذٍ، فيكون جوابه بهذا الترتيب أوقع في قلبه واثبت، فالأمر بقوله انبئوني، للتنبيه لا للتكليف.

قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

استيناف واقع موقع الجواب، كأنّه قيل فماذا قالت الملائكة حينئذٍ، هل خرجوا من عهدة ما كلّفوه، فقالوا سبحانك لا علم لنا، قيل، سبحان، علم للتسبيح، ولا يكاد يستعمل الّا مضافا، وقد يجيء غير مضاف على الشذوذ، وغير منصرف للتعريف، والألف والنون المزيدتين، وقيل مصدر منكر، لا

اسم، كغفران، ومعناه على الأول: نسبّحك عمّا لا يليق، وعلى الثاني: تنزهت عن ذلك تنزها، وهي كلمة تقدم على التوبة، والمراد الاعتذار، قال موسى عليه السلام سبحانك تبت إليك[1]، وقال يونس عليه السلام سبحانك اني كنت من الظالمين.

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾: إشعاراً بأنّ سؤالهم، لم يكن اعتراضاً، ولا قدرة لنا على ما هو خارج عن دائرة استعدادنا، وانّما علمنا، ما علّمتناه، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه خافية ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: المحكم في مبتدعاته سئل أبو يوسف القاضي عن مسألة، فقال لا أدري، فقالوا له: ترتزق من بيت المال كل يوم كذا وكذا، ثم تقول لا أدري، فقال انّما أرتزق بقدر علمي، ولو أعطيت بقدر جهلي، لم يسعني مال الدنيا وحكى انّ رجلاً عالماً، سئل عن مسألة، وهو فوق المنبر، فقال لا أدري، فقيل له ليس المنبر موضع الجهّال، فقال انّما علوت بقدر علمي، ولو علوت بقدر جهلي لبلغت السماء.

قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

ثمّ خاطب الله سبحانه، فقال يا آدم، اخبر الملائكة بأسمائهم، يعني أسمائهم الذي عرضهم عليهم، وقد مضى بيانه، ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ روى انّه رفع على منبر وأمر أن ينبئ الملائكة بالأسماء، فلما انبأهم بها وهم جلوس بين يديه وذكر منفعة كلشيء وخواصّه، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والاستفهام للتقرير أي قد قلت لكم انّي أعلم ما غاب فيهما ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ وتظهرون من قولكم، حيث قلتم، أتجعل فيها من يفسد الآيه.

١ـ عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، ج ٢، ص ١٧٩.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تسترون حيث زعمتم لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منّا. وهو تعريض بمعاتبهم على ترك الأولى من السؤال، وفي الآية، دلالة صريحة، بأنّ العلم شرط في الخلافة، بل العمدة فيها، وانّ آدم. تفضّل على الملائكة بالعلم. فالأعلم أفضل. لقوله هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وليت شعري. كيف قدموا المفضول على الفاضل. مع ذلك العلم الجم، ولو لم يكن له من الفضائل الّا القضايا التي صدرت من أحكامه التي لا تعدّ، مثل صاحب الأرغفة، والحالف ان لا يفكّ قيد غلّ عبده الّا أن يتصدّق بوزنه فضّة، ومثل جواب الأعرابي حين سأله، فقال: انّي رأيت شاة فأولدها كلب ولداً. فما حكم ذلك في الحل، فقال‌عليه‌السلام: «**اعتبره في الأكل، فإن أكل لحماً فكلب، وان أكل علفاً فشاة**»، فقال الأعرابي: رأيته يفعل تارة هذا، وتارة هذا، فقال‌عليه‌السلام: «اعتبره **في الشرب، فإن كرع فهو شاة، وان ولغ فكلب**»، فقال الأعرابي: رأيته يلغ مرة، ويكرع مرة فقال‌عليه‌السلام: «**في المشي مع الماشية، فإن تأخر عنها فكلب، وان تقدّم أو توسّط فهو شاة**» فقال الأعرابي: وجدته مرّة هكذا ومرّة هكذا، فقال‌عليه‌السلام: «**اعتبره في الجلوس، فإن برك، فشاة وان أقعى فكلب**»، قال: انّه يفعل مرّة هكذا ومرّة هكذا، فقال‌عليه‌السلام: «**اذبحه فإن وجدت له كرشاً فهو شاة وان وجدت له أمعاء فكلب**»، فبهت الأعرابي وكيف لا وهم عيبة علم الله ووجهه.[1]

روي في عدّة كتب كالقمي، والعياشي، «والبرهان»، و«نور الثقلين»، وغير ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾

قال‌عليه‌السلام: «**انّ في العرش تمثال جميع ما خلقه الله في البرّ والبحر**»[2]، فتبصر

١ـ شرح إحقاق الحق، ج ١٧، ص ٤٩١.

٢ـ تفسير نور الثقلين. الشيخ الحويزي، ج ٣، ص ٧.

في هذا الحديث كي تعلم، إحاطة مرتبتهم، صلوات الله عليهم، على العرش، بل العرش المعنوي هو حقيقتهم المقدسة المحيطة، على العرش الجسماني، فهم، مطلعون على تمثال جميع ما خلقه الله ولا شك، أنّهم نقطة العلم السارية في جميع الحروف الامكانيّة وهو النقطة تحت الباء وألف الابتداء في الآلاء.

في معاني الأخبار وغيره أنّه جاء يهودي إلى النبي ﷺ وقال: ما معنى حروف الهجاء، وما فائدتها، قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «اجبه». فقال علي عليه السلام: **«ما من حرف من حروف الهجاء الّا وله اسم من أسماء الله تعالى. امّا الالف: فالله الذي لا إله الّا هو. والباء: باق بعد فناء خلقه، والتاء توّاب الّذي يقبل التوبة عن عباده، والثاء: الثابت الكائن الذي ثبت الذين أمنوا بالقول الثابت، الجيم: جلّ ثناؤه، الحاء: حليم حكيم، الخاء: خبير بأفعال عباده، الدال: ديّان يوم الدين، الذال: ذو الجلال والإكرام الراء: رؤف بعباده، الزاء: زين المعبودين، السين: سميع بصير، الشين: شاكر لعباده المؤمنين، الصاد: صادق الوعد، الضاد: الضار النافع، الطاء: الطاهر، الظاء: المظهر للآيات، العين: عالم بالأمور، الغين: غياث المستغيثين، الفاء: فالق الحب والنوى، القاف قادر على خلقه الكاف: كاف لم يكن له كفوء، اللام: لطيف بعباده، الميم: مالك الملك، النون: نور السموات من نور عرشه، الواو: واحد احد لم يلد ولم يولد، الهاء: هاد لخلقه، اللاّ: لا إله الاّ هو، الياء: يد الله باسطة بالعطاء»**.[1]

قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[2] قال ابن عباس: رب الأرض إمام الأرض.[3] وفي الزيارة: وأشرقت الأرض بنوركم، وقوله عليه السلام: الصورة الإنسانية هي أكبر حجج الله على خلقه، إشارة إلى مرتبة المظهرية

١ـ معاني الأخبار، للشيخ الصدوق، ص ٤٤.

٢ـ سورة الزمر: ٦٩.

٣ـ تفسير نور الثقلين، للشيخ الحويزي، ج ٤، ص ٥٠٣.

الجامعة، وتعبير الربية بمعنى الواسطة في الفيوضات الرحمانية، وليس المراد من ذلك الربّ الحقيقي، بل الربّ هنا بمعنى الوليّ والهادي والمرشد والأب والمربي واطلاق ذلك كلّه على الوليّ المطلق صحيح من باب الاشتراك المعنوي وهم في الممكنات بمنزلة القطب من الرحى، والماء الذي به حياة كلّشيء، وخزانة الجود، وماء الوجود، ومجرى الفيوضات، قال ﷺ: «**بنا عرف الله ولو لانا ما عرف الله، وبنا عبد الله ولو لا نا ما عبد الله**»[١]، وإليه الإشارة بقوله، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ روى الصدوق في توحيده عنه قال: «**نحن وجه الله الّذي لا يهلك**»[٢] وان كبر عليك هذا المقال فأقول انّ حقيقة نورانيّتهم محيطة بسائر الأنوار الامكانيّة، كإحاطة النفس والقلب في بدن الإنسان.

واعلم انّ الاعتقاد بإحاطة علومهم لجميع الممكنات ليس مستلزماً للتشبيه المنافي للتنزيه والتقديس، فإنّ علمه تعالى قديم، أزليّ سرمديّ، متّحد مع ذاته تعالى، وعلمهم صلوات الله عليهم حادث فقير، إلى الله، حصلت بتعليم الله إيّاهم متّصف بجميع لوازم الإمكان: محتاج في وجوده وبقائه إلى الواجب، والنسبة بين الواجب والممكن تباين وعلى هذا البيان فالقول بالعلم الحضوري للنبيّ والائمة في مقامهم النورانيّة وباعتبار حقائقهم المقدّسة ليس مستلزماً لشيء من الشرك والتشبيه لكن جماعة من الشيعة فصّلوا بين مرتبتهم النورانية والجسمانية، فقالوا بالعلم الحضوري في الأولى، والحصولي في الثانية، وأهل النظر والتحقيق من العلماء قالوا انّ علمهم حصولي، يعني انّما يعلمون الممكنات كلّها بتعليم الله إيّاهم، وإحاطه علومهم بالجميع على ترتيب الحصول، وليس لازماً لذواتهم المقدّسة، وليس العلم

١ـ التوحيد، للشيخ الصدوق، ص ١٥٢.

٢ـ المصدر السابق، ص ١٥٠.

متّحداً، مع حقائقهم على سبيل الحضور حتى يكون حضوريّاً، واستدلّ القائلون، بالعلم الحضوري، ببراهين عديدة.

أحدها: انّهم حقيقة الوجود الامكاني، والعقل الأوّل، والفيض المقدّس، وخزّان الله في أرضه وسمائه على علمه، وهذه المراتب مساوقة لمفهوم العلم، إذ العقل مقابل وضدّ للجهل حيثما يستفاد من الأحاديث الواردة في العقل، فظلمة الجهل ضدّ لحقيقته، والوجود المنبسط هو النّور لأنّه الظاهر في نفسه، والوجود المنبسط هو الواسطة في جميع الفيوضات، ومجرى للرحمة الواسعة الرحمانيّة والرحيميّة.

الثاني: انّهم النور ونور الأنوار الّذي نوّرت منه الأنوار باعتبار العلل الثلاثة المادّية والصوريّة والغائبة، والنور مساوق للعلم وليست حقيقتهم مركّبة من العلم والجهل، كي تتركب من النّور والظلمة وظلمة الجهل ضد لحقيقة النور، فساحتهم منزّهة من الجهل.

الثالث: انّهم الصادر الأول فمرتبتهم محيطة باللوح المحفوظ، واحاطتهم على ذلك دليل على الإحاطة العلميّة إذ العالي مطّلع على ما دونه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[1]، وهذا مفسّر بعليّ عليه السلام والكتاب كناية عن اللوح المحفوظ وقد صحّ تنزيههم عن السهو والنسيان فكلّما علّمهم الله في العالم الأول من العلوم الربانيّة، والفيوضات السبحانيّة من علومهم واطلاعاتهم المحيطة باللوح المحفوظ فهي بأسرها باقية في حقائقهم إلى السرمد لا يغفلون، ولا ينسون، ولا يجهلون، وهم عين الله الناظرة، منزهون، ومقدّسون عن شائبة العمى المستلزم للجهل المعنوي.

١ـ سورة الزخرف: ٤.

في الحديث: «**أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر**»[١] فصح انّهم القلم الأعلى، وبحقيقتهم حصل الانتقاش في اللوح المحفوظ، والإحاطة بالعالي يستلزم لإحاطته بما دونه وقد صحّ بالبرهان والسمع، انّ لهم الولاية الكليّة، إلى كافّة الممكنات، وهذه الولاية محيطة بامّ الكتاب واللوح مشتمل على تمام العلوم.

الحاصل، فالعلم أشرف جوهر لكن بشرط العمل والانتفاع بثمرته، في الحديث روى أبو ذرّ «**حضور مجلس العلم أفضل من صلاة ألف ركعة، وعيادة ألف مريض، وشهود ألف جنازة**». فقيل أو من قراءة القرآن، قال وهل ينفع القرآن الّا بالعلم، ويكفيك ما في هذا الحديث الشريف من فضيلة العلم والعالم، قال ﷺ «**النظر إلى وجه الوالد عبادة، والنظر إلى الكعبة المكرّمة عبادة، والنظر في المصحف عبادة، والنظر إلى وجه العالم عبادة، من زار عالماً فكأنّما زارني، ومن صافح عالماً فكأنّما صافحني، ومن جالس عالماً فكأنّما جالسني، ومن جالسني في الدنيا، أجلسه الله معي يوم القيامة**»[٢] وفي الحديث «**من أراد ان ينظر الى عتقاء الله من النار، فلينظر إلى المتعلّمين، فو الّذي نفس محمّد بيده ما من متعلّم يختلف إلى باب العالم الّا يكتب الله له بكلّ قدم عبادة سنة، ويبنى له بكلّ قدم مدينة بالجنّة، ويمشي على الأرض، والأرض تستغفر له، ويمسي ويصبح مغفوراً له**»[٣]، وبالعكس في الخبر الصحيح حكاية عن الله: «**من عادى لي وليّاً، فقد بارزني بالحرب**»[٤]، **وانّي لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث لشبله**»، وفي «التأويلات النجميّة» وانّما كان آدم مخصوصاً بعلم الأسماء، لأنّه خلاصة العالم، وكان روحه بذر شجرة العالم

١ـ انظر: كشف الخفاء، للعجلوني، ج ١، ص ٢٦٥.

٢ـ مستدرك الوسائل، ج ١٧، ص ٣٠٠. ورواه العجلوني في كشف الخفاء، ج ١، ص ٢٥٣

٣ـ كشف الخفاء، للعجلوني، ج ٢، ص ٢٢٢.

٤ـ السنن الكبري، لأحمد بن الحسين البيهقي، ج ٣، ص ٣٤٦.

وشخصه ثمرة شجرة العالم، وكان في كلّ جزء من أجزاء الشجرة له منفعة، ومضرّة ومصلحة، ومفسدة، فسمّي كلّشيء من تلك الأجزاء باسم ملائم تلك المنفعة والمضرّة بعلم علّمه الله، وهذا ما كان الله علّم آدم والملائكة لا يعلمون. **أقول**: انّما صار روحه بذر شجرة العالم وفضّل بهذه الفضيلة الّتى ما فضّل بها الملائكة من تعليم الأسماء باعتبار الثمرة الّتي كان في علم الله أن تحصل من تلك الشجرة، ومسمّيات حاصلة من تلك الأسماء، وهي الثمرة المحمديّة المخاطبة بـ(**لولاك لما خلقت الأفلاك**)، ولذلك شرّفه بهذا التشريف فاتّصف بسبب ذلك النّور المستور في صلبه هذا المقام العالي، وكان من كمال حال آدم انّ تمام أسماء الله أو أكثرها جاءت على منفعته فضلاً عن أسماء غيره تعالى، وبيان ذلك انّه لمّا كان مخلوقاً، كان الله خالقاً له، ولمّا كان مرزوقاً كان الله رازقاً، ولمّا كان عبداً كان الله معبوداً، ولمّا كان عاصياً كان الله غفّاراً، ولما كان تائباً كان الله توّاباً، ولمّا كان متنفعاً كان الله نافعا، ولمّا كان متضرّراً كان الله ضاراً، ولمّا كان مظلوماً كان الله منتقما فعلى هذا قسّ البواقي.

قال السيّد المرتضى إن قيل من أين علمت الملائكة صحّة قول آدم، ومطابقة الأسماء المسميّات وهي لم تكن عالمة بذلك من قبل والكلام يقتضي انّهم لمّا انبأهم آدم بالأسماء علموا صحّتها، فالجواب انّه جعل الله العلم الضروري بصحّة الأسماء ومطابقاتها للمسمّيات امّا عن طريق إلى العلم، أو ابتداء بلا طريق، فعلموا بذلك صحّة قوله لهم، وامّا علم الملائكة بانّه نبيّ فذلك ليس بالعلم الضروريّ، حصل لهم، بل حصل لهم بالاستدلال.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

ثمّ بيّن تعالى: ما أتاه آدم من الإجلال فقال واذكر يا محمّدﷺ وقت

قولنا، للملائكة لجميعهم لقوله فسجد الملائكة كلّهم أجمعون ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ أي خرّوا له، والسجود في الأصل تذلّل مع تطامن، فالمسجود له في الحقيقة، هو الله، فجعل الله آدم قبلة سجودهم تفخيماً لشأنه، وهو المرويّ عن ائمّتنا وجماعة مثل قتادة، وعليّ بن عيسى وعيسى بن الرماني، واستدلّوا بهذه الآية على انّ الأنبياء أفضل من الملائكة، لأنّه لا يجوز تقديم المفضول على الفاضل، وقال الجبائي، وأبو القاسم البلخي، وجماعة انّه تعالى جعله قبلة للملائكة فأمرهم بالسجود إلى قبلتهم[1]، واختلف في انّ الأمر، للملائكة بالسجود: قيل: كان بخطاب من الله للملائكة ولإبليس وقيل بوحي من الله إلى من بعثه من رسل الملائكة وهل كان لجميع الملائكة حيثما ذكر وقال قوم: انّ الأمر كان خاصّاً لطائفة من الملائكة كانوا مع إبليس، أولئك الّذين طهّر الله الأرض من الجانّ، ثم اختلف في إبليس، هل كان من الملائكة أم من الجنّ، فذهب قوم انّه كان من الملائكة، وهو المرويّ عن ابن عبّاس، وابن مسعود، وقتادة، واختاره الشيخ السعيد أبو جعفر الطوسي، قال وهو المرويّ عن أبي عبد الله والظاهر في تفسيرنا، ثم اختلف من قال انّه من الملائكة، فمنهم من قال انّه كان سلطان سماء الدنيا، وسلطان الأرض، ومنهم من قال انّه كان خازناً على الجنان، ومنهم من قال انّه يتردّد ما بين السماء والأرض[2]، وقال الشيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن نعمان: انّه كان من الجنّ، ولم يكن من الملائكة، قال: وقد جاءت الأخبار متواترة، عن ائمّة الهدى، وهو مذهب الإماميّة، وهو المرويّ عن الحسن البصري وعليّ بن عيسى الرماني والبلخي وجماعة واحتجّوا على صحّة هذا القول بوجوه.

١ـ انظر: مجمع البيان، للطبرسي، ج ١، ص ١٦٢. والتبيان، للطوسي، ج ١، ص ١٥٠.

٢ـ بحار الأنوار، للمجلسي، ج ١١، ص ١٤٤.

الأوّل: قوله: (الّا إبليس كان من الجنّ) ومن اطلق عليه لفظ الجنّ، لم يجز له ان يعني به الّا الجنّ المعروف، وكلّ ما في القرآن من ذكر الجنّ مع الانس يدلّ عليه.

والثاني: قوله: (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) فنفى المعصية عنهم نفياً عامّا.

والثالث: إنّ إبليس له نسل وذريّة، قال الله: (أ فتتّخذونه وذريّته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ) والملائكة روحانيّون، خلقوا من الريح على قول، ومن النور على قول بعض، لا يتناسلون ولا يطعمون، ولا يشربون، وقالوا انّ استثناء الله منهم لأنّه كان مأموراً بالسجود معهم، فلمّا دخل معهم في الأمر، جاز إخراجه بالاستثناء، وقيل انّ الاستثناء هنا منقطع، وعن جميل بن درّاج عن أبي عبد الله‌عليه السلام، قال سألته عن إبليس أكان من الملائكة أو كان يلي شيئاً من أمر السماء، فقال: «**لم يكن من الملائكة، ولم يكن يلي شيئاً من أمر السماء، وكان من الجنّ، وكانت الملائكة ترى انّه منها، وكان الله يعلم به ويأمره، فلما أمر بالسجود لآدم كان منه الذي كان**»، كذا رواه العياشي في تفسيره وامّا من قال: إنّه من الملائكة فإنّه إحتجّ بانّه لو كان من غير الملائكة، لما كان ملوماً بترك السجود، فإنّ الأمر انّما يتناول الملائكة، دون غيرهم، فالجواب: إنّه يمكن أن يكون مأمورا بالسجود وما كان من الملائكة[1]، ويزيد هذا القول بيانا قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[2] ولا ملازمة بين كونه ملكاً ومأموراً بالسجود فما كان ملكاً، لكنّه كان مأموراً بالسجود، وكان مخاطباً ولم يكن في جملتهم، والدليل على كونه مخاطبا قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ ولمّا أجاب

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ١٦٣. وأيضاً رواه العياشي في تفسيره، ج ١، ص ٣٣.
٢ـ سورة الأعراف: ١١.

بقوله خلقتني من نار وخلقته من طين، بل كان يجيب انك ما أمرتني بالسجود، والخطاب في الآية للملائكة وخصّو بالذكر لأنّهم أكثر، وأجاب القائلون بانّه من الملائكة عن الاحتجاج الأول بأنّ قوله من الجنّ بأنّ الجنّ جنس من الملائكة لاجتنانهم عن العيون، وعن الثاني وهو قوله لا يعصون الله ما أمرهم بانّه صفة لخزنة النيران لا لجميع الملائكة[١]، ولا يوجب عصمة لغيرهم، وعن الثالث بانّه يجوز أن يكون الله ركّب في إبليس شهوة النكاح تغليظاً عليه في التكليف وإن لم يكن لسائر الملائكة، أو بعد أن أهبطه الله إلى الأرض تَغيّرت بنيته، وأمّا أنّ الملائكة خلقوا من النور، والجنّ من النار، والنار والنور سواء[٢].

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ أبى واستكبر اللعين عن السجود، وإبليس، قيل اسم أعجميّ، لا ينصرف للعلمية والعجمة، وقيل انه عربيَ مشتق من الإبلاس، ووزنه إفعيل، وله نظائر في لغة العرب كإذميل للشفرة وإعريض للطلع، وإضريح لصبغ أحمر، وسيف إصليب، ماض كثير الفرند، وثوب إضريج مشبع الصبغ، وقيل انّه اسم كان أعجميّ فعرّب وسبيله سبيل إنجيل في انّه معرّب غير مشتق ومنصوب على الاستثناء المتّصل من الكلام الموجب، أو المنقطع على اختلاف القول في المسألة.

الاستثناء من المحسّنات البديعيّة لكن ليس كلّ استثناء بل يشترط فيه اشتماله على معنى يزيد على معنى الاستثناء اللغوي والّا لم يكن من البديع، مثل قوله تعالى فسجد الملائكة، فإن في هذا الكلام معنى زائد على معنى الاستثناء اللغوي وهو تعظيم أمر الكبيرة الّتي ارتكبها اللعين، من خرق اجماع

١ـ بحارالأنوار، ج ٦٠، ص ٢٨٧.

٢ـ تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ١٦٤.

الملائكة المؤكدين بلفظ كلّ وأجمع وذلك مثل قولك امر الأمير بالمثول بين يديه فامتثل أمره جميع الناس من وزير وأمير الّا فلاناً، فأنت ترى ما في هذا التعبير معصية هذا العاصي، وليس كذلك قولك امر الأمير بكذا فعصى فلان.

قال ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور ومن شأن النور الانقياد والطاعة، واوّل من سجد جبرئيل، فأكرم بإنزال الوحي على النبيّين، ثمّ ميكائيل، ثم إسرافيل ثمّ عزرائيل، ثمّ ساير الملائكة**»، وقيل: أوّل من سجد إسرافيل فرفع رأسه، وقد ظهر كلّ القرآن مكتوباً على جبهته كرامة له على سبقه إلى الائتمار، والفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ لإفادة مسارعتهم إلى الامتثال الّا إبليس مرّ شرحه فما سجد وانقاد طبعه الناري، وعن الحافظ: انّ الجن والملائكة جنس واحد، فمن طهر منهم فهو ملك، ومن خبث فهو شيطان ومن كان بين بين فهو جنّ.

﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾: أي تعظّم واظهر كبره، والتكبّر أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره، والاستكبار طلب ذلك بالتتبّع وبالتزيّن بالباطل وبما ليس له، فامتنع اللعين، ولم يتوجّه إلى آدم، بل ولاه ظهره وانتصب هكذا إلى ان سجدوا وبقوا في السجود مائة سنة، وقيل خمسمائة سنة ورفعوا رؤسهم وهو قائم معرض لم يندم من الامتناع ولم يعزم على الأتباع فلمّا رأوه عدل وامتنع ولم يسجد، وهم وفّقوا للسجود. سجدوا لله تعالى، فصار لهم سجدتان، سجدة للأمر، وسجدة لله شكرا، وإبليس ينظر ما فعلوه، قيل: غيّر الله خلقه وهيئته، فصار أقبح من كل قبيح، وقيل: جعل ممسوخاً على مثال الخنازير، ووجهه كالقردة والممسوخ وان كان لا يكون له نسل ولا يبقى، لكنّه لمّا سئل النظرة وأنظر صار له نسل، وفي الخبر، قيل له من قبل الحق: اسجد لقبر آدم، أقبل توبتك، واغفر معصيتك، فقال: ما سجدت لجثته وقالبه، فكيف أسجد لقبره؟ وفي الخبر، قال الحقي في تفسيره: انّ الله تعالى يخرجه على رأس

مائة ألف سنة من النار، ويخرج آدم من الجنّة ويأمره بالسجود لآدم، فيأبى ثم يردّ إلى النار، ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: في علم الله أو صار منهم باستقباحه امر الله إيّاه بالسجود لآدم وانّما قال سبحانه: (من الكافرين) ولم يكن حينئذٍ كافر غيره لأنّه كان في علم الله أن يكون بعده كفّارا وانّ الذي علم الله من حاله انّه يتوفّى على الكفر هو الكافر على الحقيقة إذ العبرة بالخواتم وان كان بحكم الحال مؤمنا، في العيون عن أمير المؤمنين عليه السلام: «انّه أوّل من كفر وانشأ الكفر»[١] وعن الصادق عليه السلام: «الاستكبار هو أوّل معصية عصى الله به»، قال عليه السلام: «فقال إبليس رب اعفني عن السجود لآدم وانا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل، فقال عزّ وجل: لا حاجة لي في عبادتك انّما عبادتي من حيث أريد لا من حيث تريد»[٢]، في الصافي، قال علي بن الحسين عليه السلام: حدّثني أبي عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يا عباد الله انّ آدم لمّا رأى النور ساطعا من صلبه إذ كان الله قد نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره رأى النور ولم يتبيّن الأشباح. فقال: يا ربّ ما هذه الأنوار، فقال تعالى: أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع عرشي إلى ظهرك ولذلك أمرت الملائكة بالسجود لك إذ كنت وعاء لتلك الأشباح، فقال آدم: لو بينتها لي، فقال الله: انظر إلى ذروة العرش، فنظر آدم ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم على ذروة العرش فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا الّتي في ظهره كما ينطبع وجه الإنسان في المرآة الصافية فرأى أشباحنا، فقال: ما هذه الأشباح يا ربّ، قال: يا آدم أفضل خلائقي وبريّاتي هذا محمّد وانا الحميد المحمود في فعالي، شققت له اسماً من اسمي، وهذا عليّ وانا العليّ العظيم شققت له اسماً من اسمي، وهذه فاطمة وانا فاطر السموات والأرض فاطم أعدائي من رحمتي يوم فصل قضائي وفاطم أوليائي عمّا يضرّهم ويشينهم، فشققت لها

١ـ عيون أخبار الرضا، للصدوق، ج ٢، ص ٢٢١.

٢ـ بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٤١، ورواه الفيض في تفسيره، ج ١، ص ١١٦.

اسماً من اسمي، وهذا الحسن والحسين وانا المحسن والمجمل شققت اسميهما من اسمي، هؤلاء خيار خليقتي، وكرام بريّتي، بهم آخذ وبهم اعطي، وبهم أعاقب وبهم أثيب، فتوسل يا آدم بهم اليّ، وإذا دهتك داهية فاجعلهم إليّ شفعائك فانّي آليت على نفسي قسماً حقّا أن لا أخيّب بهم آملاً، ولا أردّ بهم سائلاً»[١] انتهى الحديث.

فحقيقة الفيض والسعادة من أوّل وجود الممكنات وإيجادهم، طاعتهم، وحقيقة الشقاوة مخالفتهم، فهم اصل الشجرة الطيّبة، وسدرة المنتهى، ومرجع الكلّ إليهم، والهداية، بهم، وفيهم، ومنهم، وإليهم، وعنهم، وهذا معنى الزيارة، (إن ذكر الخير كنتم اوله وأصله ومعدنه) وكلّما كثرت الإطاعة قربت منهم، وبالعكس.

قال صدر الدين الباغنوي: يا هذا اجعل دنياك وقاية لآخرتك ولا تجعل آخرتك وقاية لدنياك، يا هذا كلّ محنة إلى زوال، وكلّ نعمة إلى انتقال، مال لا ينفعك وبال، وعلم لا يصلحك ضلال.

قال يحيى الرازي: الليل طويل فلا تقصره بالنوم، والنهار مضيء فلا تظلمه بالذنوب، قيل لبشر الحافي لم لا تنام بالليل، قال انّي سليم، والسليم لا ينام وما دمت مطيعاً لهواك لا تحتاج إلى أزر فلو كانت في الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ففي صدرك أكثر، والنفس هي الصنم الأكبر.[٢]

ولا أقول لك قم الليل الّا قليلاً، بل نم الليل الّا قليلا، ما هذه النسبة

١ـ التفسير الصافي، للفيض الكاشاني، ج ١، ص ١١٥. ورواه المجلسي في البحار، ج ١١، ص ١٥٠.

٢ـ لقى أشار المفسر في حديثه هذا إلى النموذج التالي من الأدب الفارسي:

مـادر بتـهـا بـت نـفـس شـمـاسـت   زانكه آن بت مار واين بت اژدهاست

المعنى: أعظم الأصنام هو (النفس الانسانية) التي بين جنباتكم، فذاك الصنم كالحية وهذا كالأفعي (أكثر خطورة وتأثيراً) [قال رسول الله ﷺ : «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»]

الكاذبة تدّعي انّك شيعة عليّ‌عليه السلام ولا تتأسّى به مطلقا، وان كان لو بذلت جهدك كلّ المجهود لا تحتذي حذو عبيده فضلاً عن ذاته الشريفة، فإنّه الامام المبين الّذي بأحرفه يظهر المضمر، وهو مظهر الأسماء فإنّ حروف الهجاء الّتي خزانة الكلمة والاسم صفاته‌عليه السلام فاول الحروف، الألف: هو الأمر عن الله بالعدل والإحسان، والباء: هو الباقر لعلوم الدين، والتاء: التالي لسور القرآن، والثاء: الثاقب لحجاب الشيطان والباطل، والجيم: الجامع لأحكام القرآن، والحاء: الحاكم بين الخلق من الإنس والجانّ والخاء: الخلي من المعصية والعيب والنقصان، والدال: الدليل لأهل الإيمان، والذال: الذاكر ربّه في السّر والإعلان، والراء: الراهب ربّه في الليالي إذا اشتدّت الظلمات، والزاء: الزائد في الفضل بلا نقصان، والسين: الساتر لعورات العريان، والشين: الشاكر لمنّ الواحد المنّان، والصاد: الصابر يوم الضرب والطعان، والضاد: الضارب بحسامه رؤس أهل الشرك والطغيان، والطاء: الطالب بحق الله غير متوان، والظاء: الظاهر كلمة الحق على أهل الخسران، والعين: العالي علمه على أهل الزمان، والغين: الغالب بنصر الله للشجعان، والفاء: الفارق بين أهل الحق والبطلان، والقاف: القوي الأركان، والكاف: الكامل بلا نقصان، واللام: اللازم لأوامر الرحمن، والميم: المتزوّج بخير النسوان، والنون: النامي ذكره في القرآن، والواو: الوليّ لمن والاه بالإيمان، والهاء: الهادي إلى الحق لمن طلب البيان، والياء: اليسر السهل لمن طلب منه الإحسان.

وبالجملة فالحقّ أحقّ أن يتّبع، ولا تتبّع الهوى فيضلّك عن سبيل الله، وقد جعل الله الهداية في متابعته كما انّ الغواية في مخالفته، ولا تنقص الكيل والميزان من عبادتك، فإنّ بعض الناس استحوذ عليهم الهوى، فوقع في خاطرهم من الشبهات الفاسدة مثل أن يقول انّ الله غني عن العالمين، ولا

يتفاوت بشأنه تعالى الطاعة والمعصية، لكنّي محتاج إلى الطاعة، وعن الاحتراز عن المعصية، قال الله سبحانه: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾[1]، وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾[2] فمثل هذا الأحمق مثل المريض الّذي يأمره الطبيب بالدواء والاحتماء، والمريض يتكاهل في الدواء ولا يحتمي، ويقول: إذا لم أشرب الدواء ولا أحتمي لا يترتب على الطبيب ضرّ، ولا يحصل له نفع، نعم لا يترتّب على الطبيب امر لكنّك تموت من مرضك وأيضاً طائفة أخرى من الحمقاء يتجاوزون من حدود الله معتمدين بقولهم انّ الله كريم رحيم، هلّا يقول انّ الله شديد العقاب، اما يرى انّ الخلق مادام لا يزرعون ولا يحصدون، ولا يتعبون، لا يأكلون فإنّ الله كريم، فلم لا يعطيهم من غير حصاد، وبذر، وتعب وأيضاً طائفة أخرى من الحمقاء اغترّوا بالتقدير في الأزل، وعطّلوا العمل ويقولون السعيد سعيد في بطن أمّه والشقيّ شقيّ في بطن أمّه فاذن لا يتغيّر الحال بالطاعة والمعصية، اما سمعوا انّ النّبيﷺ قال: «اعملوا وكلّ ميسّر لما خلق له»، وكلّ هذه الترهات من حبائل الشيطان، وطلب الراحة من النفس الخبيثة، والنفاق، الكامن في القلب، قال الله لعيسى: «ليكن لسانك وقلبك واحداً في السرّ والعلانية»، قال الصادق‌عليه‌السلام: قال رسول اللهﷺ: «ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق»[3]، فاستسلم مخلصاً للأمر، فإنّه العلم النافع، واعمل خالصاً، ودع هذه الفضوليّات والتصرفات فربّ علوم لا تنفع، واعمال لا ترفع، ليس لأهلها منها الّا كدّ القرائح وكدح الجوارح، وذلك لعدم الخلوص، لن ينال الله أعطاف تتهافت،

١ـ سورة فاطر: ١٨

٢ـ سورة فصلت: ٤٦.

٣ـ الكافي، للكليني، ج ٢ ص ٣٩٦.

ولا أطراف تتماوت، وليكن يناله قلب مشفق من النار يتلظّى، وشوق إلى الجنّة يتشظّى وعمل بالخلوص والامتثال مشفوع، وعن النقائص مدفوع، والمرء بأكبريه، عمله وإيمانه، ربّ معروف بالمكارم والمساعي وهو عند الله أهل المكاره والمساوي، وموصوف بالحلم الراسي والعلم الراسخ وهو منها على أميال وفراسخ، لأنّه يملأ عينه من زينة الحيوة الدنيا، وتقرّ عينه برؤيتها وإقبالها، والعبادة فيها حكم ومصالح لا يعلمها الّا من أمر بها، منها انّها طهرة للقلوب عن أحداث الذنوب واشتغال النفس بها عمّا فيه ضرر في الدين والنظم، وبها يكمل صلاح المعاد، ومعرفتك لخالقك بالوحدانية، وبنبيّك بالرسالة، ووصيّه بالخلافة، كل هذه نافعة لك، لأنّ العبد إذا لم يعرف مولاه واسمه ورسمه، ممّن يطلب رزقه ومسكنه، والاسم ما دلّ على الذات الموصوفة بصفة مبيّنة سواء كان لفظاً أو حقيقة من الحقائق الموجودة في الأعيان فإنّ الدلالة كما تكون بالألفاظ، كذلك تكون بالذوات، من غير فرق بينهما بل كلّ موجود من الأعيان بمنزلة كلام، ودليل صادر عنه تعالى، دالّ على معرفته بالربوبيّة، ولسان ناطق بوحدانيّته، كما انّ احتياجك شاهد، دالّ، ناطق بعبوديتك، ولما كانت النفوس جاهلة وقاصرة عن درك هذا المعنى، خلق في عالم الأنوار ابتداء نفوساً وذوات مقدسة عن الجهل، كانوا يسبّحون الله ويقدّسونه، فجعلهم سبلاً للخلق لمعرفته، ثم أدرجهم في عالم الهيكل النوراني العلوي، كي يعرفون الخلق خالقهم بسببهم، لأنّ الله لا يعرّف من نحو ذاته لاحد، والّا لكان مدركاً، ومحاطاً، وهو علامة الحدوث وانّما تعرّف إلى عباده، بما وصف به نفسه.

ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «معرفتي بالنورانيّة معرفة الله، ومعرفة الله

معرفتي بالنورانيّة»[1]، فحصرﷺ معرفة الله، في معرفته، وكما انّ لفظ كلمة لا إله الّا الله، يدلّ على التّوحيد باللفظ، كذلك الهيكل النوراني، دالّ على توحيده تعالى بالعين، وهذا التقرير معنى حديث حذيفة قال رسول اللهﷺ: **«يا حذيفة انّ حجّة الله عليكم بعدي علي بن أبي طالب، الكفر به كفر بالله والشرك به شرك بالله والشك فيه شك في الله والإلحاد عنه الحاد في الله»**[2]، الحديث على ما في «الأمالي» لشيخ الصدوق قال: في شرح قولهﷺ الكفر به كفر بالله إلخ ما هذا لفظه كأنّي بالمتكلّفين يرتكبون المجاز في توجيهه لأنّهم يثبتون كفرين، أحدهما غير الاخر، وليس كذلك بل الكفر واحد، والحاصل، افهم معنى قولهﷺ: **«معرفتي بالنورانية معرفة الله»**، ليس المراد انّك تعرفه انّهﷺ ختن رسول الله، أو انّه قلع باب خيبر، أو انّه كان يصلّي بالليل ألف ركعة بل انّه من الله خليفة على الخلق، فإذا خالفت ذرّة من أمره، فقد خالفت الله، تأمّل كيف نصحك بكلمة جامعة لجميع الخير مانعة من جميع الشر، وهي الزهد في الدنيا لأنّ العبادة والعبوديّة، لا تحصل الّا بالفراغة، فلو يتصوّر إنسان، انّه يتمكّن من الجمع بينهما، هيهات، فقد ضرب في حديد بارد، ويكون مثاله مثال العابد الذي تعبّد تحت شجرة، خضرة، عظيمة، كثيرة الأغصان، كلّما توجّه في محرابه للصّلاة، وقد اجتمعت عصافير كثيرة، وبلابل وصوّتت، وشوّشت صلاته، وهو يطردها بعصاه، فيطردها ويرجع إلى محرابه، فترجع العصافير، إلى أن أخذ مارساً فقطعها، فاستراح، وهكذا حال الدنيا، فاقلع شجرة محبة الدنيا حتّى تتمكّن من إقامة وظيفة عبوديّتك، والّا فلا، وإذا استولت بك السلامة، فجدّد ذكر العطب، وإذا اطمئن بك الأمن استشعر

١ـ بحار الأنوار، المجلسي، ج ٢٦، ص ١.

٢ـ الحدائق الناضرة، المحقق البحراني، ج ٥، ص ١٨٢.

الخوف، وإذا أحببت نفسك فلا تجعلنّ لها في الإساءة إليها سبيلا، والتزم بكلمة التقوى حتّى يصبك من عمل قليل خير كثير.

اما سمعت حديثا رواه الكفعمي عن النبي صلى الله عليه وآله انّه قال لعليّ عليه السلام: «ما فعلت البارحة»، فقال عليه السلام: «صلّيت ألف ركعة قبل أن أنام»، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله «وكيف ذالك»، فقال علي عليه السلام: «سمعتك يا رسول الله تقول: من قال عند منامه ثلاثاً (يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزّته) فقد صلّى ألف ركعة»، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «صدقت يا عليّ»[1] أقول: بشرط الولاية، وجميع الطاعات مرهونة تحت نطاق الولاية.

في الوافي عن الصادق عليه السلام قال: «انّ الله تعالى خلقنا من علّيين وخلق أرواحنا من فوق ذلك! وخلق أرواح شيعتنا من علّيين، وخلق أجسادهم من دون ذلك، فمن أجل تلك القرابة بيننا وبينهم تحنّ قلوبهم إلينا».[2]

في أمالي الطوسي عن الباقر عليه السلام: «ما أثبت الله حبّ علي بن أبي طالب في قلب أحد فزلّت له قدم الّا ثبت له قدم أخرى»[3]، أقول انّ كلّنا يزعم انّه يحبّ عليّا لكنّ الأمر ليس بالدعوى ولكل امر حقيقة، وعلامة محبّته صادقاً، أن يكون المحبّ متطهّراً بطهارات ثلاث: صغيرة، وكبيرة، ووسطى.

فالصغرى: غسل البدن الشهادي بالماء العنصري عن الخبث والحدث.

والوسطى: غسل الخاطر واللسان بماء الذكر التلقيني من خبث الشرك الخفي، وحدث الظلمة الطبيعي.

والكبرى: عبارة عن غسل القلب عن التعلق من تلويثات الدنيا، فهذه

١ـ بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ١٧٨. وأيضاً رواه النوري في المستدرك، ج ٥، ص ٤٩.

٢ـ الكافي، ج ١، ص ٣٨٩، وعلل الشرائع، ج ١، ص ١١٧.

٣ـ الأمالي، الشيخ الطوسي، ص ١٣٣.

المراتب الثلاث، آداب غسل المحبّ، كما انّه ينبغي ان يتوضّأ خمسة وضوء.

الأول: وضوء القلب عن المكر والخدعة والحسد والكبر والعداوة.

والثاني: وضوء اللسان عن الكذب والغيبة والزور والبهتان.

والثالث: وضوء البطن عن الحرام والشبهة، قال الله: (كلوا من الطيّبات).

والرابع: وضوء الطهر عن لبس الحرام قال الله: (وريشاً ولباس التقوى ذلك خير).

والخامس: وضوء الظاهر قال الله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ فحينئذٍ وقيت نفسك عما يضرك، ودخلت في حزب التقوى، وصرت من تبعة عليّ عليه السلام، وألزمتك كلمة التقوى، ولا تصلح النفس، ولا ينجلي عنها غشوات العمى، الّا بهذه الآداب والتكاليف، وما من شيء يقرّب العبد من الله، ويبعّد من الطاغوت الّا وقد أمركم به الشرع، ونهاكم عنه حتّى آداب بطنك وأكلك، قال عليه السلام: **«كلوا انصاف البطون»**، قال علماء الأخلاق لا تطعم ولا تشرب حتّى تشتاق النفس إليهما، وان تناولت منهما شيئاً فلتبق من شهوتك لهما، وأدّب لسانك أن تصمت عن كلّ كلمة لا يعنيك، ولا تتكلّم بكلمة الّا أن تقطع بعدم ضرر تلك الكلمة، وبدّل كلامك بذكر الله، ولا تنساه، فانّك ان ذكرته ذكرك، ومن ذكره لا يذلّ ولا يخزى وكن عند أمره ونهيه كالميّت بين يدي المغسل هذا في الحال وامّا المال أن لا ترى لنفسك بما خوّلك الله ملكاً فانّك لو صرت كذلك، هان عليك الدنيا بما فيها، وعامل الناس كما تحبّ ان يعاملوك، وقلّل معاريفك بل تنكّر ما عرفت فإنّ اعلم طبقات الناس ذئاب في ثياب، واوّل مفاسد المخالطة انّ أغلب طبقات الناس أبناء الدنيا الّا القليل من الأقلّ من الألف واحد، فإذا خالطت معهم تستكسب من طباعهم، والطبع مكتسب من كلّ مصحوب،

فتنهمك شيئاً فشيئاً في الدنيا فيضيع دينك، ولو تصوّرت انّك تقدر أن تجمع راحة الدنيا ولذّة النفس مع سعادة الآخرة، فهذا أمر لم يخلقه الله، والجمع غير ممكن، ولعلّك بحمقك زعمت انّ أيّام ظهور الحجّة تستريح من التعب ويطيب عيشك، فتستلذّ يومئذ من الدنيا لأنّك سمعت الحديث انّ في دولته الحقّة يحملون الزكاة في القرى على رؤسهم فلا يجدون من يستحقّه وما عرفت معنى الحديث، فذلك لا لأجل اقبال الدنيا عليهم، قال المحدّث النوري في النجم الثاقب: انّ السبب كثرة قناعة المؤمنين، والاقتصاد على قدر الضرورة، من المأكول، والملبوس، والمسكن والنكاح، فلا يحتاجون إلى الزائد عن قدر الحاجة، فلا يشتغلون في تحصيل كثرة المال والعقار، وذلك لأنّه مناف مع الغرض من ظهوره عليه السلام لأنّه انّما يأتي ليدعوا الناس إلى الله، فيكمل علمهم، وعملهم، وحاشاه غير الزهد، كما في غيبة النعماني عن الصادق عليه السلام قال: **«فطلبون خروج القائم فو الله إذا خرج لا يلبس الّا الخشن ولا يأكل الّا الجشب أو من غير إدام وليس له شغل الّا السيف»**، وفي رواية أخرى: ذكر عند الرضا عليه السلام خروج الحجّة، فقال عليه السلام: **«اليوم أنتم في الراحة وإذا خرج ليس الّا الدّم والعرق والقوم على متون الخيل»**؛ وفي رواية أخرى عن معلى بن خنيس، قال: قلت للصادق عليه السلام: ان كان يتمّ هذا الأمر لكم كنّا في الراحة معكم، قال عليه السلام: **«لو كان الأمر يردّ إلينا، ما كان عيشنا الّا عيش رسول الله وعليّ صلوات الله عليهما»**[1] فكن من أهل الهداية بأن ترشد ضالّاً، أو من أهل الاهتداء بأن تقبل نصح ناصح في دينك، تكن من أهل الحكمة ومن أهل القبول، قال الله: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2]، ومقرّ الحكمة، قلب

١ـ بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٣٤٠.

٢ـ سورة البقرة: ٢٦٩.

فارغ من محبّة الدنيا، ولا تسكن في بطن مملوّ من الحرام، ولا تكن من الذين قضوا بالغفلة أعوامهم وشهورهم ونبذوا الحق وراء ظهورهم، إذا وجدوا زخارف الدنيا نشطوا وتحلّوا، وإذا تلوت لهم آية من القرآن ولّوا.

فانتبه يا نائم، أنسيت تاريخ عمرك، اما ترى في المرآة وجهك وقد جفّت غصون المورقات، أزعمت أن يعود العمر، وكيف للإنسان راحة وفرح وهو لا يدرى انّ يوم القيمة حيث يقول الله هؤلاء في الجنّة وهؤلاء في النار وهو لا يدري من أيّ الفريقين، أو حين يقال، وامتازوا اليوم أيّها المجرمون؟ فلا تحملك القدرة اليوم على تناول ما ليس لك، والشهوة في ارتكاب باطل، والراحة في العدول عن حقّ، فأخرج الفضل من مالك، ليوم لا ينفع مال ولا بنون وأمسك الفضل من قولك، قال الصادق‌عليه‌السلام: قال رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله: **«من لم يحسب كلامه من عمله كثرت خطاياه وحضر عذابه»**[1]، وذلك لأنّ اللسان له تصرّف في كلّ موجود وموهوم ومعدوم وله يد، في العقليّات، والخيالات، والمسموعات، والمشمومات، والمبصرات، والمذوقات والملموسات فيجتمع عليه من كلّ وجه خطيئة فتكثر خطاياه، وامّا غير اللسان فخطاياه محصورة قليلة مثل انّ السمع فقط خطيئته من المسموعات، والبصر من المبصرات، قال أمير المؤمنين‌عليه‌السلام: **«من كثر كلامه، كثر خطاؤه ومن كثر خطاؤه، قلّ حياؤه ومن قلّ حياؤه، قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه، مات قلبه، ومن مات قلبه، دخل النار»**[2] اما تعلم انّ أوّل منازل الآخرة، القبر، وهو لك بمنزلة المهد للطفل، وهو روضة دار، أو حفرة نار، فما تلقاه من الكرامة فيه بواسطة الإيمان والعمل، وما تلقاه من العقاب بواسطة التقصير في العبادات والحقوق، فأوثق نفسك بقيد التقوى، ولا

١ـ الكافي، ج٢، ص ١١٥.

٢ـ شرح أصول الكافي، ج ٨، ص ٣٢٤.

تغتر بكثرة الأسباب وطول الأمل، وكل رزقك باسنانك قبل أن تضرس، وأدر بالحق لسانك قبل أن تخرس، واستقم قبل أن يصير الظهر حنيّة والمنية منيّة.

فلذلك حين زلّت منه الزلّة، دعا الله تعالى بهم، فيتوب عليه وغفرت له، وهذا كان سبب فضيلة آدم على الملك، وسجودهم إيّاه، فاعترفوا بالعجز والقصور، وقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ لما قد بان لهم من فضل آدم وعلمه وما أودع فيه من الحكمة والأنوار الطّيبة، فصغر حالهم عند أنفسهم، فغرقوا في بحر العجز وفوّضوا العلم إلى الله، وقالوا: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال الفيض: وانّما لم يعرفوا حقائق الأشياء كلّها لاختلافها وتباينها وهم وحدانيّة الصفة إذ ليس في جبلّتهم خلط وتركيب ولهذا لا يفعل كلّ صنف منهم الّا فعلاً واحداً، فالراكع منهم، راكع أبداً، والساجد منهم ساجد أبداً، والقائم منهم كذلك، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ ولهذا ليس لهم تنافس وتباغض إلى أمثالهم مثال الحواس، فإنّ البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات، ولا الشّم يزاحمهما، ولا هما يزاحمان الشّم، والذوق، فلا جرم مجبولون على الطاعة، يسبّحون الليل والنهار لا يفترون، فكلّ صنف منهم، مظهر لاسم واحد من الأسماء الإلهيّة لا يتعدّاه وفاقهم آدم بمظهريّته الشاملة. انتهى كلامه.(١)

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

قيل: انّ الله تعالى اخرج إبليس، عند كفره، وأبعده عن الجنّة، وبعد إخراجه قال يا آدم اسكن، أي لازم الإقامة، واتخذها سكنا، واستقرّ الجنّة

١ـ تفسير الصافي، ج ١، ص ١١٤.

وزوجك حواء، يقال للمرء الزوج، والزوجة، والزوج أفصح، وانّما لم يخاطبها اولا تنبيها على انّه المقصود بالحكم والمعطوف عليه تبع له.

﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ هي دار الثواب، خلافاً لبعض المعتزلة حيث قالوا: المراد بالجنّة هنا، بستان كان في أرض فلسطين، أو بين فارس وكرمان، خلقه الله امتحاناً لآدم، واوّلوا الهبوط بالانتقال منه إلى أرض الهند، كما في قوله تعالى: مصرا، وقال أبو هاشم هي جنّة من جنان السّماء، غير جنّة الخلد، لأن جنّة الخلد أكلها دائم، ولا تكليف فيها، واستدل بعضهم على انّها لم تكن جنّة الخلد، فقوله حكاية عن إبليس، هل ادلّك على شجرة الخلد، فلو كانت جنّة الخلد لكان آدم عالماً بذلك ولم يحتج إلى دلالته، ولم يخرج منها، وهذا الكلام ليس بمحكم لأنّ ذلك انّما يكون إذا استقرّ أهل الجنّة فيها للثواب لا يخرج منها، فأمّا قبل ذلك فما ثبت وانّما كان وسوسة إبليس لعلّ من خارج الجنّة من حيث يسمعان كلامه، واختلفوا في خلقة حواء، هل كانت قبل دخول الجنّة أو بعده، ويدلّ على الأول ما روي عن ابن عباس انّه: بعث الله جنداً من الملائكة، فحملوا آدم وحواء على سرير من الذهب مكلّل بالياقوت واللؤلؤ والزمرّد وعلى آدم منطقة مكلّلة بالدّر والياقوت حتّى أدخلوهما الجنّة، ويدلّ على الثاني ما روي عن ابن مسعود: انّه لمّا خلق الله الجنّة وأسكن آدم فيها، بقي فيها وحده، فألقى الله عليه النوم، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه، من الجانب الأيسر، ووضع مكانه لحماً، وخلق منه حواء[1]، ومن الناس من يقول لا يجوز هذا، لأنّه يكون نقصاناً منه ولا يجوز [أن] ينقص الأنبياء، لكن هذا الكلام ليس بشيء لو كان واقعاً لأنّه جعلها سكنه، وأزال بها وحشته وحزنه، فلمّا استيقظ آدم من نومه، وجدها عند رأسه قاعدة، فسألها من أنت؟ فقالت:

١ـ مواهب الجليل، للحطاب الرعيني، ج ٨، ص ٦٢١.

انّي امرأة، فقال ولم خلقت؟ قالت: لتسكن اليّ، وأسكن إليك، فقالت الملائكة: يا آدم ما اسمها؟ قال: حوّاء، قالوا: ولم؟ قال: لأنّها خلقت من حيّ، أو لأنّها اصل حيّ أو لأنّها كانت في ذقنها حوّة، أي حمرة مائلة إلى السواد، وسمّيت مرأة لأنّها خلقت من المرء، كما انّ آدم سمّى بآدم لأنّه خلق من أديم الأرض[1]، وعاشت بعد آدم سبع سنين وسبعة أشهر، وعمرها تسع مائة سنة، وسبع وتسعون سنة، واعلم انّ الله خلق واحداً من اصل دون امّ وهو حوّاء، وآخر من امّ دون أب وهو عيسى، وآخر من أب وأمّ وهو أولاد آدم، وآخر من غير أب وأمّ وهو آدم.

سبحان من أظهر من عجائب صنعه ما يتحيّر العقول، في كتاب (السماء والعالم) قال السيّد ابن طاووس: وجدت في صحف إدريس من نسخة عتيقة في حديث مشهور، وهو خلق الله آدم على صورته، ما هذا لفظه من حديث طويل، وهو: فخلق الله آدم على صورته الّتي صوّرها في اللوح المحفوظ، قال السيّد بن طاووس: فاسقط بعض المسلمين، بعض هذا الكلام وقال: انّ الله خلق آدم على صورته، فاعتقد التجسّم، فاحتاج المسلمون إلى التأويلات في الحديث، ولو نقله بتمام الحديث استغنى عن التأويل[2] وانّ الله خلق حواء لأمر تقتضيه الحكمة، ليدفع آدم وحشته بها لكونها من جنسه، وليبقي الذريّة على ممرّ الأزمان، إلى ساعة القيام، فإنّ بقائها سبب لبعثه الأنبياء، وتشريع الشرائع، ونتيجة الأمر معرفة الله، وفي الزوجيّة منافع كثيرة دينيّة ودنيويّة وأخرويّة، قيل: (فضل المتأهّل على العزب كفضل المجاهد على القاعد) وقالوا: انّ يحيى قد تزوّج لنيل الفضل، وإقامة السنّة، ولكن لم يجامع لكون

١ـ شرح الأزهار، للإمام أحمد المرتضى، ج ٢، ص ١١٥.

٢ـ سعد السعود، لسيدبن طاووس، ص ٣٤.

ذلك عزيمة في تلك الشريعة، ولذلك مدحه الله بكونه حصوراً.

وفي الحديث «ركعة من المتأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب».[1] قال الحقيّ في روح البيان: هذا كلّه لكون التزوج سبباً لبقاء النسل، وحفظاً من الزنى، والترغيب في النكاح يجرى إلى ما يجاوز المائة الأولى من الألف الثاني، كما قال ﷺ: «إذا أتى على أمّتي مائه وثمانون سنة بعد الالف فقد حلّت العزوبة والعزلة والترهّب على رؤس الجبال»[2] وذلك لأنّ الخلق في المأتين أهل الحرب والقتل فتربية جرد حينئذٍ خير من تربية ولد وأن تلد المرأة حيّة، خير من أن تلد الولد.

﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ اي: من ثمار الجنّة اكلا ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً رافها من غير تقدير ولا تقتير، والأمر امر إباحة، وقيل امر تكليف، قاله قتادة.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: أي مكان من الجنّة أردتما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ بالأكل، والشجرة منصوب على انّه بدل من اسم الإشارة أو نعت له بتأويلها بمشتق: أي هذه الحاضرة من الشجر، وعلّق النهي بالقربان منها، مبالغة في المنع عن الأكل، ولزوم الاجتناب عنها، والمراد بها: البرّ والسنبلة، عن ابن عباس وقيل: (هي الكرمة) عن ابن مسعود، وقيل: هي التينة، وقيل: هي شجرة الكافور.[3]

وقيل: غير ذلك، والمراد بالسنبلة، الحنطة، وهو أقرب عند الصوفية، لأنّ النوع الإنسانيّ ظهر في دور السنبلة وكان عليها من كلّ لون، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزبد، وأشدّ بياضاً من الثلج، كلّ حبّة من حنطتها

١ـ انظر: تحرير الأحكام، للحلي، ج ٢، ص ٢.

٢ـ التحصين، لابن ظهورالحلي، ص ٤ ومستدرك الوسائل، ج١١، ص ٣٨٧، ح ١٩.

٣ـ بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٦٥.

مثل كلية البقر، وقد جعلها الله رزق أولاده في الدنيا فلمّا تناول هو السنبلة، ابتلى أولاده بحرث السنبلة.

قال الرازي: قوله ﴿وَلَا تَقۡرَبَا﴾ انّ هذا نهي تحريم، أو نهي تنزيه، فيه خلاف[١]، فقال قائلون هذه الصيغة لنهي التنزيه، وذلك لأنّ هذه الصيغة وردت تارة في التنزيه وأخرى في التحريم والأصل عدم الاشتراك، فلا بدّ من جعل اللفظ حقيقة في القدر المشترك بين القسمين، وما ذلك الّا أن يجعل حقيقة في ترجيح جانب الترك على جانب الفعل من غير أن يكون دلالة على المنع من الفعل، أو على الإطلاق فيه، لكنّ الإطلاق فيه كان ثابتاً بحكم الأصل فإنّ الأصل في المنافع، الإباحة، فإذا ضممنا مدلول اللفظ إلى هذا الأصل صار المجموع دليلاً على التنزيه، قالوا: وهذا هو الأولى بالمقام لأنّه حينئذٍ يرجع أمر آدم إلى ترك الأولى، ومعلوم انّ كلّ مذهب يفضي إلى عصمة الأنبياء كان أولى بالقبول، وقال بعض: انّ هذا النهي تحريم، واحتجّوا بدلائل ضعيفة، مثل أن قالوا: إنّ قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، مثل قوله ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ وقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقالوا: لو إنّ هذا النهى نهى تنزيه لما استحقّ آدم بفعله الإخراج من الجنّة، والجواب عن الأول: إنّ النهي وإن كان في الأصل للتنزيه، ولكنّه قد يحمل على التحريم لدلالة منفصلة، وعن الثاني إنّ قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فتظلما أنفسكما بفعل ما الأولى بكما تركه، لأنّكما إذا فعلتما ذلك، أخرجتما من الجنّة الّتي لو كنتما فيها لا تظمئان ولا تجوعان، وعن الثالث إنّه: لا نسلّم إنّ الإخراج كان لهذا السبب.

أقول: إنّ جملة من الناس بسبب فرعونيّتهم وكفرهم، يحسدون ذوي

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ٤٤.

النعمة حيث أنّهم فاقدوا تلك النعم، فيريدوا أن يستروا قبائحهم وهي لا تستتر فينسبون قبيحة إلى غيرهم حتّى إذا أرادوا أن يشاركوهم في الرتبة لا تكون قبائحهم مانعة عن المشاركة ويأبى الله الّا أن يتمّ نوره فمنهم الحشويّة الذين يجوّزون الكبائر، على جهة العمد للأنبياء، ومنهم من لا يجوّز عليهم الكبائر، لكنّه يتجوّز عليهم الصغائر، على جهة العمد، الّا ما ينفر كالكذب والتطفيف وأمثالها وهذا قول أكثر المعتزلة، وقال بعضهم إنّه لا يقع منهم الذنب، الّا على السهو والخطاء ولكنّهم مأخوذون بما يقع منهم على هذه الجهة، وإن كان ذلك موضوعاً عن اُمّتهم، وذلك لأنّ معرفتهم أقوى ودلائلهم أكثر وإنّهم يقدرون من التحفّظ على ما لا يقدر عليه غيرهم، وهذه الأقوال كلّها سخيفة، والقول الصحيح والمذهب الحقّ إنّه لا يقع منهم الذنب، لا الكبيرة ولا الصغيرة لا على سبيل القصد، ولا على سبيل السهو والخطاء ولا على سبيل التأويل، لأنّه لو صدر الذنب عنهم، لكانوا أقلّ درجة من الأمّة.

الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[1] وبتقدير إقدامه على المعصية والفسق وجب حينئذٍ أن لا يكون النبيّ مقبول الشهادة لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[2] لكنّه مقبول الشهادة، والّا كان أقلّ حالا من عدول الأمّة، ولا معنى للنبوّة والرسالة، الّا أنّه يشهد على الله بأنّه شرع هذا الحكم وذاك، وأيضاً فهو يوم القيمة شاهد على الكلّ لقوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[3] وأيضاً فبتقدير إقدامه

١ـ سورة الأحزاب: ٣٠.

٢ـ سورة الحجرات: ٦.

٣ـ سورة البقرة: ١٤٣.

على المعصية يجب زجره عنها، فلم يكن إيذائه محرّما، لكنّه محرّم لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[1] والدليل الأقوى من الكلّ، أنّ محمّداً ﷺ لو أتى بالمعصية، لوجب علينا الاقتداء به فيها لقوله فاتّبعوني، فيفضي إلى الجمع، بين الحرمة والوجوب، وهو محال، وإذا ثبت ذلك في حقّ محمّد ﷺ ثبت أيضاً في سائر الأنبياء ضرورة، أنّه لا قائل بالفرق، ثمّ إنّه وقع الاختلاف في وقت العصمة فمنهم من قال إنّ وقت عصمتهم، وقت بلوغهم، ولم يجوّزوا ارتكاب الكفر والمعصية منهم قبل النبوّة، وهو قول أكثر المعتزلة، ومنهم من ذهب إلى أنّ ذلك لا يجوز وقت النبوّة وأمّا قبل النبوّة فجائز وهو قول أكثر أصحاب السنّة والجماعة، وهذا القول فاسد، والصحيح إنّهم مهذّبون معصومون من وقت مولدهم وهو قول الإماميّة، وكيف يجوز أن يكون ﷺ معصوماً من حين بعثته ونبوّته، وأمّا قبل ذلك فلا، وهو يقول:

«كنت نبيّا وآدم بين الماء والطين»، ولأنّ الله تعالى قال في حقّهم: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[2] وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[3] فهذه الآيات دالّة على كونهم موصوفين بالخيريّة والاصطفاء، وهو تعالى لا يختار من هو شأنه المعصية، ولا يصطفي الّا الماحض الخير، وذلك ينافي صدور الذنب، انتهى.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ اي: إن تقربا هذه الشجرة تكونا من الظالمين، قيل: إستحقاق اللوم بالنهي التنزيهي، من قبيل حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

١ـ سورة الأحزاب: ٥٧.

٢ـ سورة ص: ٤٧.

٣ـ سورة الحج: ٧٥.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

أي: أذهب آدم وحواء، وأبعدهما عن الجنّة، والإزلال: الإزلاق، والزلّة بالفتح: الخطاء والزوال عن الصواب وقد حصلت الزلّة لهما بالوسوسة والغرور، وفي كيفيّة وصول إبليس إلى آدم حتّى وسوس لهما بعد أن أخرج من الجنّة، قيل: إنّه لم يكن ممنوعاً من الدنو منهما، بل منع من الدخول على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة، ولم يمنع من الدخول للوسوسة، إبتلاء لآدم وحواء، وقيل: إنّه يكلّمهما من الأرض بكلام عرفاه وفهماه منه، وقيل انّه دخل جانب الشدق من الحيّة، والقول الأول أصحّ لأنّه لو يقدر أن يدخل في شدق الحيّة ويدخل الجنّة يقدر أن يصير حيّة، وكذلك الوسوسة كلام خفيّ، والخطاب من الأرض بحيث سمعاه مناف مع معنى الوسوسة.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾: من النعيم والكرامة، وطريق وسوسته، بقوله:

﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[1] فصدّقه هو وزوجته، وسئل أبو مدين عن خروج آدم من الجنّة على وجه الأرض، ولِمَ تغذّى بأكل الشجرة بعد النهي، فقال: لو كان أبونا يعلم انّه يخرج من صلبه مثل محمّد ﷺ لكان يأكل عرق الشجرة فكيف ثمرها ليسارع في الخروج على وجه الأرض ليظهر الكمال المحمّدي والجمال الأحمدي ﷺ.

وفي صدور الزلّة قال جماعة: انّها صدرت عنه ناسياً، لا عامداً، واحتجّوا عليه بقوله تعالى ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[2] ومثّلوه بالصائم،

١ـ سورة الأعراف: ٢٠.

٢ـ سورة طه: ١١٥.

فيشتغل بأمر يستغرقه، فيصير ساهياً عن الصوم، ويأكل في أثناء ذلك السهو، قال الرازي: وهذا باطل لأنّ قوله تعالى:

﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾[١]، وقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[٢]، يدلّ على انه كان ذاكراً حال الإقدام، ورواية ابن عباس يدلّ على أنّ آدم تعمّد لأنّه قال: لمّا أكلا منها ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾[٣]، خرج آدم، فتعلّقت بآدم شجرة من شجر الجنّة فحبسته، فناداه الله: فرار منّي، فقال: بل حياء منك، فقال له: أما كان فيما منحتك من الجنّة مندوحة عمّا حرّمت عليك، قال: بلى ولكنّي وعزّتك ما كنت أرى أنّ أحداً يحلف بك كاذبا، فقال وعزّتي لأهبطنّك منها ثمّ لا تنال العيش الّا كدًا، وردّ بعضٌ تعمّد آدم في الأكل، وقال: كان على وجه النسيان كما في الآية ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[٤]، وقالوا: وما روي عن ابن عباس في الحديث المذكور فهو مرويّ بالآحاد فكيف يعارض القرآن، وكيف نسلّم أنّ آدم وحوّاء قبلا من إبليس ذلك الكلام، لأن اللعين القى إليهما سوء الظّن بالله، ودعاهما إلى ترك التسليم لأمره، ومثول الأمر بأن يعتقدا فيه كون إبليس ناصحاً لهما، وإنّ الله قد غشّهما، ولا شكّ مثل هذه الأشياء أقبح من أكل الشجرة، ثمّ إنّ آدم كان عالماً ببغضه إيّاه لمسألة السجود والحسد له، فكيف يقبل من مثل هذا العدوّ، فإن قيل: إذا كان الأمر كذلك، كيف [يصح] مثل هذا العتاب قالوا: إنّما حصل على ترك التحفّظ من أسباب النسيان، ولعلّ هذا الضرب من السهو موضوع عن الأمّة، وقد كان يجوز أن يؤاخذوا به ولا

١ـ سورة الأعراف: ٢٠.

٢ـ سورة الأعراف: ٢١.

٣ـ سورة طه: ١٢١.

٤ـ سورة طه: ١١٥.

يكون بموضوع عن الأنبياء لعظم خطرهم، ومثلوه بقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1] وأشدّ الناس بلاء الأنبياء ثمّ، الأولياء، ثمّ الأمثل، فالأمثل، قالوا: ولقد كان على النّبي ﷺ من التشديدات في التكليف ما لم يكن على غيره (انتهى كلامهم)[2] والحاصل إنّ الجواب في الكلمات من أهل الطبقات، أنّ النهي في الآية محمول إلى التنزيه، والأمور المترتّبة بعد الأكل من مقتضيات الحكمة والّا لا يسع هذا المختصر بيان مختلفات الكلام وأسئلتهم وأجوبتهم.

﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾: من قال إنّ جنّة آدم في السماء فسرّ الهبوط بالنزول، من العلو إلى السفل، ومن قال إنّها كانت في الأرض فسّره بالتحوّل من موضع إلى غيره كقوله: إهبطوا مصراً، والخطاب بالجمع، خاطب آدم وحوّاء وإبليس، لأنّ إبليس ولو كان قبل ذلك مخرجاً من الجنّة، لكن ما كان إبليس ممنوعاً من الدنوّ إلى آدم إمتحاناً، فالخطاب شملهم جميعاً، أو لأنّهم قد اجتمعوا في الهبوط، وإن كانت أوقاتهم متفرّقة، وقيل إنّه أراد آدم، وحوّاء، وذريّتهما، لأنهما لمّا كانا أصل الذريّة، جعلا كأنّهم الإنس كلّهم، والحكم عمّهم وإن لم تكن الذريّة موجودين، وقيل: أقلّ الجمع اثنان، فخوطبا بالجمع، قال الطبرسي ولم يكن إهباطهما إلى الأرض على وجه العقوبة، لأنّ الدليل قد دلّ على أنّ الأنبياء لا يجوز عليهم القبائح على حال ومن أجاز العقاب على الأنبياء فقد أساء عليهم الثناء، وأعظم الفرية على الله، وإنّما أهبطه ليكون خليفة الله في أرضه، وهذه منقبة عظيمة، وإنّ المصلحة قد تغيّرت بتناوله الشجرة، فاقتضت حكمته ابتلاء آدم بالتكليف والمشقّة، وسلبه

١ـ سورة الأحزاب: ٣٢.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٣، ص ١٣.

إيّاه من ثياب الجنّة، لأنّ إنعامه عليه بذلك ابتداء كان على وجه التفضّل، فله أن يمنع ذلك بتشديد الامتحان والبلوى، وهو تعالى بحسب المصلحة، يسقم بعد الصّحة، ويفقر بعد الإغناء، ويعقّب المحنة بعد المنحة، وله أن يفعل ما يشاء، ثمّ إنّه تعالى إذا سلبه ثياب النعمة من الجنّة، ألبسه خلعة الخلافة الإلهيّة.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني: آدم وذرّيته، وإبليس وذرّيته، فعداوة آدم له إيمان، وعداوة إبليس له كفر، وقوله بعضكم لبعض عدوّ حال استغنى فيها عن الواو بالضمير، أي متعادين بعضكم لبعض، وليس في الآية أمر بالتعادي، بل أمر بالهبوط وإخبار بحصول العداوة، وإنّما أسّس إبليس العداوة حيث استكبر وحسد آدم، فالعداوة حصلت بفعله اللعين، ولو أنّ آدم أمر بعداوته بعد عداوة إبليس إيّاه، حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1] والعدوّ يصلح للواحد والجمع.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: موضع قرار، واستمتاع إلى حين، قيل: إلى فناء الآجال، وحصول الموت، أو المراد مدّة الحيوة، والقبر، إلى يوم القيمة. وقوله إلى حين، ليعلم آدم أنه غير باق فيها، ولمّا هبطوا وقع آدم بأرض الهند على جبل سرانديب، ولذلك طابت رائحة أشجار تلك الأودية لما معه من علاقة الجنّة، ووقعت حوّاء بجدّه، وبينهما سبعمائة فرسخ، والحيّة بسجستان أو بأصفهان، بناء على صحّة الحيّة، والطاووس بمرج الهند، وإبليس بسدّ يأجوج ومأجوج، فبعد الهبوط ابتلي آدم بالحرث والكسب، وحوّاء بالحيض والحبل والطلق ونقصان العقل، وجعل الله قوائم الحيّة في جوفها وجعل قوتها التراب، وقبح رجلي الطاووس، وجعل إبليس

١ـ سورة فاطر: ٦.

بأقبح صورة، وأفضح حالة، وكان مكث آدم وحوّاء في الجنّة، من وقت الظهر إلى وقت العصر من يوم من أيّام الآخرة، وكلّ يوم من أيّام الآخرة كألف سنة من أيّام الدنيا.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾

التلقّي: نظير التلقّن، تلقّنت منه أي أخذت وقبلت منه، وأصله من لقيت خيرا، أي: قبل وأخذ، وتناول آدم على سبيل الطاعة من ربّه كلمات واستقبلها بالقبول، وعلى قراءة من قرء فتلقّى آدم كلمات لا يكون معنى التلقّي، القبول، بل معناه إنّ الكلمات تداركته بالنجاة والرحمة، واختلف في الكلمات ما هي، فقيل: هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية.

وفي الكافي عن أحد [الصادقين]عليهما السلام: «انّ الكلماته لا إله الّا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوء وظلمت نفسي فاغفر لي وأنت خير الغافرين، لا إله الّا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوء وظلمت نفسي فتب عليّ انك أنت التوّاب الرحيم»[١]، وفي رواية «بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين»[٢]، وفي رواية أخرى «بحقّ محمّد وآل محمّد صلاة الله عليهم أجمعين»[٣]، وفي تفسير الإمام: «لمّا زلّت من آدم الخطيئة واعتذر إلى ربّه قال: يا ربّ تب علي، وأقبل معذرتي وأعدني إلى مرتبتي، وارفع لديك درجتي، فلقد تبيّن نقص الخطيئة وذلّها بأعضائي وسائر بدني، قال الله: يا آدم أما تذكر أمري إيّاك بأن تدعوني بمحمّد وآله صلى الله عليه وآله عند شدائدك ودواهيك وفي النوازل تبهظك، قال آدم: بلى، قال الله: فبهم أي بمحمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين خصوصاً فادعني أجبك إلى ملتمسك وأزدك فوق مرادك، فقال آدم: يا

١ـ الكافي، ج ٨، ص ٣٠٤.

٢ـ الأمالي، للصدوق، ص ١٣٥.

٣ـ الكافي، ج ٢، ص ٥٥٠.

ربّ وقد بلغ عندك من محلّهم انّك بالتوسّل بهم تقبل توبتي وتغفر خطيئتي وانا الّذي أسجدت له ملائكتك، وأبحته جنّتك، وزوّجته حوّاء أمتك، وأخدمته كرام ملائكتك، قال الله: يا آدم انّما أمرت الملائكة بتعظيمك بالسجود لك، إذ كنت وعاء لهذه الأنوار ولو كنت سألتني بهم قبل خطيئتك أن أعصمك منها وأن أفطنك لدواعي عدوّك إبليس حتّى تحترز منه، لكنت قد جعلت ذلك ولكنّ المعلوم في سابق علمي يجرى موافقا لعلمي، ولكنّ فالآن فبهم أدعني لأجبك، فعند ذلك قال آدم: اللهم بجاه محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والطيّبين من آلهم لمّا تفضّلت بقبول توبتي وغفران ذنوبي وزلّتي، وإعادتي من كراماتك إلى مرتبتي، فقال الله: قد قبلت توبتك، وأقبلت برضواني عليك، وصرفت آلائي ونعمائي إليك، وأعدتك إلى مرتبتك من كراماتي، ووفّرت نصيبك من رحماتي فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.(١)

وقد صحّ بالبرهان والقرآن، أفضليّة وجود محمّد وأوصيائه صلوات الله عليهم وإنّهم هم العلّة الغائية لجميع المخلوقات، وتقدّم وجودهم في العوالم الستّة من: الأنوار والعقول والأرواح والذّر والطينة وهذا العالم الدنيوي.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«أنا الّذي ولايتي ولاية الله»**(٢)، وقال عليه السلام: **«معرفتي بالنورانية معرفة الله، ومعرفة الله معرفتي»**(٣)، فهم أحقّ بوسائط الفيض من الله على العباد من كلّ خلق خلقه الله تعالى، فاحتاج آدم عليه السلام إلى التوسّل بأنوارهم فإنّ حقائقهم المقدّسة جامعة للمراتب النورانيّة والبشريّة، واوّل الدرجات الإمكانيّة، وفاق فضلهم فضل العالمين، وعن ابن مسعود: إنّ أحبّ الكلام إلى

١ـ بحارالأنوار، ج ١١، ص ١٩٢، ورواه الفيض في تفسيره، ج ١، ص ١٢٠.

٢ـ الكافي، ج ٨، ص ٢٧.

٣ـ بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١.

الله تعالى، ما قال أبونا آدمعليه السلام حين اقترف الخطيئة: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا إله الاّ أنت ظلمت نفسي فاغفر لي انه لا يغفر الذنوب الاّ أنت.(١)

قال الحقّي في روح البيان: وعن النبيصلى الله عليه وآله «إنّ آدم قال بحقّ محمّد أن تغفر لي، قال الله وكيف عرفت محمّداً، قال لمّا خلقتني، ونفخت فيّ الروح، فتحت عيني، فرأيت على ساق العرش، لا إله الاّ الله، محمّد رسول الله، فعلمت أنّه أكرم الخلق عليك حتى قرنت اسمه باسمك، فقال الله نعم وغفر له بشفاعته»(٢)، أو الكلمات هي قول آدمعليه السلام عند هبوطه من الجنّة: يا ربّ الم تخلقني بيدك من غير واسطة؟ قال: بلى، قال يا ربّ: الم تسكنّي جنّتك؟ قال: بلى، قال: الم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: أرأيت إن أصلحت ورجعت وتبت، أراجعني أنت إلى الجنّة؟ قال: نعملا، فالكلمات هي العهود الإنسانيّة والمواثيق الآدميّة، والمناجاة الربّانية، من الخليفة إلى حضرت الحقّ تعالى، فتاب آدم إلى الله بالرجوع والاعتراف بذنبه وخطاه وسهوه، وقيل الكلمات: سبحان الله، والحمد لله ولا إله الّا الله، والله أكبر.(٣)

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾: أي فرجع الربّ عليه بالرحمة وقبول التوبة ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: أي كثير القبول للتوبة. يقبل مرّة بعد أخرى، ومعنى فتاب عليه: فتاب عليهما وانّما لم يقل عليهما للتغليب كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾(٤).

ومعنى التوبة: الرجوع فإذا وصف به العبد كان رجوعاً عن المعصية

١ـ المجموع في شرح المهذب، للنووي، ص ١٧.

٢ـ ينابيع المودة لذوي القربي، للقندوزي، ج ٢، ص ٣٣٦.

٣ـ مستدرك الحاكم، للحاكم النيسابوري، ج ٢، ص ٥٤٥.

٤ـ سورة التوبة: ٦٢.

إلى الطاعة، وإذا وصف به الباري أريد به الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة قال ابن عباس: بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنّة مائتي سنة، ولم يأكلا ولم يشربا، أربعين يوماً ولم يقترب آدم حوّاء مائة سنة[1]، قال شهر ابن حوشب: بلغني إنّ آدم لمّا هبط إلى الأرض مكث ثلاثمائة سنة، لا يرفع رأسه، حياء من الله تعالى، قالوا: لو أنّ دموع أهل الأرض جمعت، لكانت دموع داود أكثر حيث أصاب الخطيئة، والمراد بالخطيئة ترك الأولى، ولو أنّ دموع داود ودموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم أكثر، فإذا كان [هذا] حال من اقترف دون صغيرة وهو ترك الأولى، فكيف حال من انغمس في بحر العصيان والكبائر، ومع ذلك فقد جعل الله برحمته لهذا الدرن والوسخ صابوناً يزيله بشرط الرجوع والإصلاح بالعمل الصالح فإنّه يمحو الخطيئات وإنّه تعالى يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء.

قال الغزاليّ: التوبة يتحقّق في ثلاثة أمور، علم، وحال، وعمل، أمّا العلم: فهو معرفة ما في الذنب من الضرر وكونه حجاباً بين العبد ورحمة الرّب، فإذا عرف ذلك معرفة محقّقة حصل له من هذه المعرفة تألمّ القلب بسبب فوات هذا المحبوب، فإذا كان فواته بفعل من جهته تأسّف، فذلك التأسّف يسمّى ندماً، وذلك التأسّف والندم له تعلّق بالماضي والحال والمستقبل، أمّا تعلّقه بالحال فيترك الذنب الّذي كان ملابساً له، وأمّا بالمستقبل فالعزم على ترك ذلك الفعل المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر، وأمّا بالماضي فيتلافى ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر، فالعلم والندم والقصد المتعلّق بالترك في الحال والاستقبال، وتدارك ما فات بالقضاء والجبران معان مترتّبة في الحصول ويصدق اسم التوبة على مجموعها، وقد

١ـ تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٣، ص ٢٦٩.

يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، ويجعل العلم السابق كالمقدمة، والترك كالثمرة[١]، وبهذا الاعتبار قال ﷺ: **«الندم توبة إذ لا ينفك الندم عن علم أوجبه، وعن عزم يتبعه»**، وقيل: لا بدّ في التوبة من ترك ذلك الذنب، ومن الندم على ما سبق، ومن العزم على عدم العود إلى مثله، ومن الإشفاق فيما بين ذلك كلّه لأنّه مأمور بالتوبة، ولا سبيل له إلى القطع بانّه أتى بالتوبة كما لزمه فيكون خائفا، قال الله تعالى: ﴿وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾[٢]، في البحار قال النبي ﷺ: **«الا أخبركم بدائكم ودوائكم؟ دائكم الذنوب، ودوائكم الاستغفار»**[٣]، لكن اعلم أنّ المرض إذا لم يعالج سريعاً، يصعب دفعه عن البدن ولعلّ إذا طال لم يقبل العلاج، ولا ينفع الدرياق، كذلك الذنوب إذا كثرت يمرض الروح ولا يقبل العلاج ويهلك صاحبه، وأنت سمعت أمر التوبة وقبولها، لكن تتسامح فيها وتؤخّرها وقد اغتررت برجاء كاذب، فإنّ من رجى شيئاً تقدّم إليه لا أن يتأخّر ويقول أنا راج، فما أشبه حالك بالمداح السكران، نعم كما يحصل للبدن أمراض طارئة وتدفعها بالأدوية، يحصل أيضاً من الذنوب للروح أمراض فعالجها سريعاً كي لا يفسد.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«التوبة اسم جامع لمعان ستة، أوّلهنّ الندم على ما مضى، الثاني، العزم على الترك في المستقبل، الثالث أداء كلّ فريضة ضيّعتها فيما بينك وبين الله، الرابع، أداء المظالم إلى المخلوقين في أموالهم وأعراضهم، الخامس، إذابة كلّ لحم ودم نبت من الحرام، السادس، إذاقة البدن ألم الطاعات، كما ذاق حلاوة المعصية»**[٤] فإنّ هذه التوبة أجمع المسلمون على سقوط العقاب عندها

١ـ شرح أصول الكافي، ج ١٠، ص ١٦٧.

٢ـ سورة الزمر: ٩.

٣ـ راجع: جامع أحاديث الشيعة، ج ١٤، ص ٣٣٢.

٤ـ جواهر الكلام، ج ٧، ص ١٩٨.

واختلفوا فيما عداها، وكلّ معصية لله فإنّه تجب التوبة منها لكونها قبيحة، وعند الإماميّة تصح التوبة إذا كانت عن ترك المندوب ويكون ذلك على وجه الرجوع إلى فعله وعلى هذا يحمل توبة الأنبياء في جميع ما نطق به القرآن، قال الطبرسي: وإسقاط العقاب عند التوبة تفضّل من الله[1]، غير واجب عليه عندنا، لكن عند جميع المعتزلة واجب، وقد وعد الله بذلك، وإن كان تفضّلاً، علمنا إنّه لا يخلف الميعاد، وأمّا التوبة عن قبيح مع الإقامة على قبيح آخر يعلم أو يعتقد قبحه، فعند أكثر المتكلّمين هي صحيحة، وعند أبي هاشم وأصحابه لا تصح واختلفوا في التوبة عند ظهور اشراط الساعة وعلاماتها هل تصحّ أم لا، فقال الأكثرون: يحجب عنها عند الآيات كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله: **«انّه قال بادروا بالأعمال ستاً، طلوع الشمس من مغربها، والدجّال، والدخان، ودابّة الأرض وخويصة أحدكم ـ يعني الموت ـ وامر العامّة ـ يعني القيامة ـ »**[2]، فالعبد لا بدّ وأن يكون مشتغلاً بالتوبة في كلّ حين وأوان.

روي أنّ رجلاً سأل أمير المؤمنين علياً عليه السلام عن الرجل يذنب ثمّ يستغفر، ثمّ يذنب ثمّ يستغفر، ثمّ يذنب ثمّ يستغفر، فقال أمير المؤمنين: **«يستغفر أبداً حتّى يكون الشيطان هو الخاسر، فيقول لا طاقة لي معه»**، قال صلى الله عليه وآله: **«توبوا إلى ربّكم فانّي أتوب إليه في كلّ يوم مائة مرّة»**، وقال صلى الله عليه وآله: **«إنّه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم مأة مرّة»**[3] وتاب وآب بمعنى رجع، والغين شيء يغشى القلب فيغطّيه بعض التغطية وهو كالغيم الرقيق الّذي يعرض في الجوّ فلا يحجب عين الشمس ولكن يمنع كمال ضوئها وذكروا لهذا الحديث

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٩٦.

٢ـ بحارالأنوار، ج ٦، ص ٢٩٦.

٣ـ كنزالعمال، المتقي الهندي، ج ١، ص ٤٧٦.

تأويلات. قال الرازي:

أحدها: إنّ الله أطلع نبيّه على ما يكون في أمّته من بعده من الخلاف وما يصيبهم فكان إذا ذكر ذلك وجد غيناً في قلبه فاستغفر لأمّته.

وثانيها: إنّهﷺ كان ينتقل من حالة إلى حالة أرفع من الأولى فكان الاستغفار لذلك.

وثالثها: إنّ الغين عبارة عن السكر الّذي كان يلحقه في طريق المعرفة والمحبّة حتّى يصير فانياً عن نفسه بالكلية فإذا عاد إلى الصحو، كان الاستغفار من ذلك الصحو، وهذا المعنى تأويل أهل الحقيقة.

ورابعها: وهو معنى أهل الظاهر إنّ القلب لا ينفك عن الخطرات والخواطر وأنواع الميل والإرادات فكان يستعين بالرّبّ في دفع تلك الخواطر، انتهى.[1]

وسئل ابن مسعود عن توبة النصوح قال: هو أن يهجر الذنب، ويعزم على أن لا يعود إليه أبداً[2] روي أنّ جبرئيل سمع إبراهيم وهو يقول، يا كريم العفو، فقال جبرئيل أو تدري ما كريم العفو، فقال لا يا جبرئيل، قال أن يعفو عن السيّئة ويكتبها حسنة[3]، أقول وهذا البيان مشروط بالتوبة عن السيّئة لا مطلقاً، وفي المفاتيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبيﷺ: **«كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً. فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على راهب، فأتاه، فقال: إنّه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل للقاتل من توبة، فقال: لا، فقتله، فكمل المائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على رجل عالم فأتاه فقال: إنّه قتل مائة نفس، فهل**

١ـ تفسير الرازي، ج ٣، ص ٢٣.

٢ـ بحارالأنوار، المجلسي، ج ٦، ص ٢٢.

٣ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج ٦، ص ٢٤١.

لي من توبة. فقال نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة. إنطلق إلى أرض كذا وكذا، فإنّ بها ناساً يعبدون الله، فاعبده معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنّها أرض سوء. فانطلق حتّى أتى نصف الطريق، فأتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنّه لم يعمل خيراً قط. فأتاه ملك في صورة آدميّ وتوسّط بينهم، فقال قيسوا ما بين الأرضين فالى أيّهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض الّتي أراد وقصد فقبضته ملائكة الرحمة»، رواه مسلم، انتهى.[1]

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾

إستيناف مبنيّ عن سؤال ينصحب عليه الكلام، كأنّه قيل فما وقع بعد قبول توبته، فقيل: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ من الجنّة ﴿جَمِيعًا﴾ وفي تكرير الهبوط فقيل: الهبوط الأول، من الجنّة إلى السماء وهذا الهبوط من السماء إلى الأرض، وقيل: التكرير للتأكيد والخطاب لآدم وحوّاء وذريّتهما باعتبار ما يكون، وقيل: الخطاب لآدم وحوّاء، وإبليس والحيّة، والطاووس، والمراد إهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يستدعي اجتماعهم على الهبوط في زمان واحد، وكرّر الأمر بالهبوط إيذاناً بتحقّقه لا محالة ودفعاً لما وقع في امنيّته عليه السلام من استتباع قبول التوبة للعفو عن الهبوط ولأنّ الأمر الثاني بالهبوط، مشعر بالتكليف والابتلاء بالعبادة، والثواب، والعقاب، ولذلك اقترن الهبوط الثاني بإيتاء الهدى المؤدّي إلى النجاة، وما فيه من وعيد العقاب، فليس بمقصود من التكليف قصداً اوليّاً بل إنّما هو دائر على سوء اختيار المكلّفين.

١ـ صحيح مسلم، ج ٨، ص ١٠٢.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾: الفاء لترتيب ما بعد الهبوط، وإن، شرطيّة، ودخلت، ما، ليصحّ دخول نون التأكيد في الفعل، ولو أسقطت، ما، لم يجز دخول النون، كقولك زيد ليأتينّك ولو قلت بغير لام لم يجز، فدخول، ما، هنا، كدخول اللام هناك، والمعنى أن ياتينّكم ﴿مِّنِّي هُدًى﴾ فيدخل في الهدى كلّ دلالة وبيان، فيشمل دليل العقل وكلّ كلام ينزل من الله، والحقّ إنّ المراد من الهدى، الأنبياء، فحينئذٍ المخاطب آدم وذريّته، أي إن أتاكم رشد وبيان شريعة برسول أبعثه إليكم، وكتاب أنزله عليكم وجواب الشرط هو الشرط مع جوابه.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ اقتدى بشريعتي، وكرّر لفظ الهدى ولم يأت بالضمير بأن يقول فمن تبعه لأنّه أراد بالثاني أعمّ من الأوّل، وهو ما أتى به الرسل واقتضاه العقل السليم بمتابعة الرسل من الأدلّة الآفاقيّة والأنفسيّة.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ آمنين عن الفزع الأكبر.

من الآيات الدالة على عدم التفويض المطلق، وعلى عدم الجبر قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾[1] الآية، وكلّ هذه العبارات قاضية ببطلان الجبر والتفويض، وإثبات الأمر بين الأمرين فإنّ قوله: ﴿هُدًى﴾، يدلّ على بطلان التفويض المطلق، إذ مع كون الهداية من الله، مفتقرة إلى الواجب في وجودها وبقائها والممكن يحتاج إلى المؤثّر كما قال: «لو لا إنّا نزداد لا نفدنا أو لينفد ما عندنا»[2]،

١ـ سورة البقرة: ٢ ـ ٣.

٢ـ بصائر الدرجات، محمّد بن الحسن الصفار، ص ٤١٣.

والحاصل إنّ إيصال الفيض من خزانة الأمر وعالم المشيّة، وهذا البيان مبطل للتفويض.

وأمّا ما يبطل الجبر فهو قوله: (للمتّقين)، إذ التقوى لا يتحقّق الّا بالاختيار والمدح المستفاد من الآية أيضاً لا يصدق على التقوى الغير الاختياري لأنّ نسبة الفعل إلى المتّقين يدلّ على اختيارهم في ذلك، والّا لم يصحّ استناد الإيمان بالعباد، ومع ملاحظة مجموع ذلك يستنبط معنى الأمر بين الأمرين، ومعرفة ذلك يتوقّف على معرفة حقيقة المشيّة والارادة، والاذن، والأجل، والقضاء والقدر، والاستطاعة، والتوفيق والخذلان والسعادة والشقاوة، وغير ذلك مما يتعلّق بهاتين المسألتين.

تحقيق شريف، وهو انّه قد ثبت بالبراهين أنّ الأئمّة كانوا عالمين بجميع ما كان وما يكون وإنّهم بمنزلة الزّيت في المشية، ولا يجوز عليهم السهو والنسيان، وقد صحّ أيضاً إنّ إلقاء النفس إلى التهلكة غير جائز عقلاً وشرعاً، فكيف أقدموا على إهلاك أنفسهم، ولدفع هذا الإشكال وجوه:

الأول: إنّ إلقاء النفس إلى التهلكة، حكم ظاهريّ وليس من المستقلات العقليّة الغير القابلة للتخصيص، ولذا ترى إنّ الجهاد والدفاع واجبان وإن إستلزما الضرر، وذلك من جهة رعاية المصلحة القويّة الراجحة على مفسدة إهلاك النفس، كما إنّ التمكين من القصاص والحدّ واجب شرعاً، والعقل لا يحيط بالمصالح الواقعيّة، وإنّما الملازمة بين حكمي الشرع والعقل ظاهريّة فالوجوب والتحريم ظاهريّان ثابتان ما لم يحكم الشرع بخلافهما، فحينئذٍ مع علمهم بقضاء الحكمة البالغة المتعلّقة بالشهادة وتعلّق القضاء الحتميّ الموجب للمصلحة لا مناص لهم من تحمّله كي تجري تقادير الله.

الثاني: إنّ تلك القواعد مثل حرمة إلقاء النفس إلى التهلكة أو الضرر

وما أشبه ذلك، من القواعد القابلة للتخصيص وهي من قبيل المقتضي فلو زاحمها المصلحة القويّة الراجحة على ذلك يقتضي التكليف ملاحظة الرجحان كما هي القاعدة في جريان قاعدة التزاحم في سائر المقامات.

الثالث: إنّ رضاهم وتكليفهم تابع لرضى الله، ولا يشاؤون الّا أن يشاء الله، فعلمهم ليس مانعاً من جريان قضاء الله، وإرادته، وأجله، وكتابه، عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، الا ترى إنّهم كانوا يحفظون أنفسهم عن الضرر والهلكة في عامّة المقامات وربما دعوا الله سبحانه في دفعه ويدفعه عنهم لما علموا أنّ ذلك ليس محتوماً عليهم، وربما يسعون في سلوك مسالك الضرر لعلمهم بأنّ الله قد كان قدّر ذلك عليهم، وقضاه، ولا بدّ أن يجري، وعلموا أنّ ذلك التقدير مبنيّ على الحكم والمصالح.

الرابع: إنّ ذلك ليس ضرراً، بل بمنزلة المعاوضة الرابحة، قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾[1]، وإنّما هي تبديل الفاني بالحيوة الباقية، الا ترى إنّ أداء الخمس والزكاة وأشباههما ليس ضررا، بل تبديل بنفع عظيم، والى هذا المعنى أشار عليّ عليه السلام بقوله: «**فزت وربّ الكعبة**»، وقال عليه السلام: «**ليس هذا موضع الصبر إنّما هو موضع البشرى**» انتهى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ذكر سبحانه، قسيم، فمن تبع هداي، أي: ومن لم يتبع، وإيراد الموصول بصيغة الجمع للإشعار بكثرة الكفرة، أي: والذين كفروا برسلنا المرسلة إليهم ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ المنزلة عليهم، وكفروا جنانا، وكذّبوا لساناً، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ملازموها،

١ـ سورة التوبه: ١١١.

وملابسوها، فسمّوا بالأصحاب لاتصالهم بها وبقائهم فيها ﴿هُمْ فِيهَا﴾ أي في النار ﴿خَالِدُونَ﴾ دائمون، والجملة في حيّز النصب على الحاليّة، وفي هاتين الآيتين دلالة على أنّ الجنّة في جهة عالية، دلّ عليه إهبطوا منها، وإنّ متّبع الهدى مأمون العاقبة، لقوله فلا خوف، وإنّ عذاب النار دائم، والكافر مخلّد فيه، وإنّ غيره لا يخلّد فيه، بمفهوم قولة تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فإنّه يفيد الحصر.

حكي: إنّ مالك بن دينار مرّ يوماً على صبيّ وهو يلعب بالتراب، يضحك تارة ويبكي أخرى، قال مالك: فهممت أن أسلّم عليه، فامتنعت نفسي تكبّرا، فقلت: يا نفس كان النّبيﷺ يسلّم على الصغار والكبار، فسلّمت عليه، فقال: وعليك السلام يا مالك، فقلت: من أين عرفتني ولم تكن رأيتني، فقال: حيث التفت روحي بروحك في عالم الملكوت، عرّف بيني وبينك الحيّ الّذي لا يموت، فقلت ما الفرق بين العقل والنفس، قال: نفسك الّتي منعتك عن السلام، وعقلك الّذي بعثك عليه، فقلت: ما بالك تلعب بهذا التراب، فقال: لأنّا منه خلقنا وإليه نعود، فقلت: أراك تضحك تارة وتبكي أخرى، قال: نعم، إذا ذكرت عذاب ربّي بكيت، وإذا ذكرت رحمته ضحكت، فقلت: يا ولدي أيّ ذنب لك حتى تبكي، فقال: يا مالك لا تقل هذا فانّي رأيت أمّي لا توقد الحطب الكبار الّا ومعه الحطب الصّغار، ونقل مثل هذه الحكاية يعني الفقرة الاخيرة منها عن يحيى بن زكريّا.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الابن، والولد، والنسل، والذريّة متقاربة المعاني، الّا أنّ الابن للذكر، والولد يقع على الذكر والأنثى، والنسل والذريّة يقع على

الجميع، والابن أصله من البناء، وهو وضع الشيء على الشيء والأبن مبنيّ على الأب، لأنّ الابن فرع الأب، فبني عليه، والبنوّة مصدر الأبن وإن كان من الياء كالفتوّة مصدر الفتى، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل، وإسرا معناه العبد، وإيل: الله، بلغة العبرانيّة، فمعناه عبد الله، وكذلك جبرئيل وميكائيل، ولمّا ذكر إنعاماته العامّة بذكر دلائل التوحيد وما شرّف به آدمعليه السلام عقّبها بذكر الإنعامات الخاصّة على أسلاف اليهود الذين في عهد محمّدﷺ والخطاب مع جماعة اليهود الذين كانوا بالمدينة من ولد يعقوب وحولها من بني قريضة والنضير وهم كانوا من أولاد يعقوب، وتخصيص هذه الطائفة بالذكر لما أنّهم أكثر الناس كفراً بنعمة الله.

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾: الذكر بضم الذال بالقلب خاصّة بمعنى الحفظ الّذي يضادّ النسيان، والذكر بكسر الذال، يقع على الذكر باللسان، أي احفظوا بالجنان، واشكروا باللسان نعمتي، والنعمة إسم جنس بمعنى الجمع ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ﴾ بها ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ وفيه إشعار بانّهم قد نسوها بالكلّية ولم يخطروها بالبال، وأهملوا شكرها ﴿وَأَوۡفُواْ﴾ أتمّوا ولا تتركوا ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾ الّذي قبلتم: وهو ما عهده إليهم في التورية من اتّباع محمّدﷺ، والعهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً فحالاً ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾: أتمّم جزائكم بحسن الإثابة ودخول الجنّة، والعهد يضاف إلى المعاهد، وهو هنا مضاف إلى المفعول، كما إنّ العهد الأول مضاف إلى الفاعل، فإنّ الله قد عهد إليهم وإلينا بالإيمان والعمل الصالح، بنصب الدلائل وإرسال الرسل ووعد للكلّ بالثواب على الحسنات، فاوّل مراتب العهد منّا، هو الإتيان بكلمتي الشهادة، وآخرها الاستغراق في بحر التوحيد بحيث نغفل عن أنفسنا، فضلاً عن غيرنا، ومنه تعالى حقن المال والدم في الدنيا، والفوز باللقاء الدائم في الآخرة ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾: أي

إرهبوني فيما تأتون وتذرون خصوصاً في نقض العهد. وحذف الياء في فارهبون تخفيفا لموافقة رؤس الآي كأنّه قيل: إن كنتم ترهبون شيئاً فارهبوني، والآية متضمّنة على وجوب الشكر، والوفاء بالعهد، وأن لا يخاف العبد الّا الله للحصر المستفاد من تقديم إيّاي، والتضمّن للوعد بقوله: أوف، والوعيد بقوله: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ والنعم الّتي أنعمها على أسلافهم معلومة، مثل: إنجائهم من فرعون، وكثرة الأنبياء منهم، وإنجائهم من الغرق، وإنزال المنّ والسلوى عليهم وكون الملك فيهم ومنهم في زمن سليمان وغير ذلك.

وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

ثمّ قال مخاطباً لليهود ﴿وَءَامِنُواْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ أي القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي حال كون القرآن مصدّقاً للتوراة، لأنّ القرآن نازل حسبما نُعت في التوراة، فإنّ إيمانهم بما معهم ممّا يقتضي الإيمان بالقرآن.

قال الرازي: قد أثبت في التوراة وفي الكتب المتقدّمة من وصف محمّدﷺ وكتابه، والبشارة بمقدمه مثل ما جاء في الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة: (**انّ هاجر لمّا غضبت عليها سارة، تراءى لها ملك فقال لها: يا هاجر، أنّى تريدين، ومن أين أقبلت، قالت: اهرب من سيّدتي سارة، فقال لها: ارجعي إلى سيّدتك واخفضي لها، فإن الله سيكثر زرعك وذرّيتك، وستحبلين وتلدين ابناً وتسمّيه إسماعيل من أجل انّ الله سمع تبتلك وخشوعك وهو يكون عين الناس، ويكون يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع**)، ومعلوم انّ إسماعيل وولده لم يكونوا متصرّفين في معظم الأمم، ولا كانوا مخالطين للكلّ على سبيل الاستيلاء بحيث يكون يده فوق الجميع، وانّهم كانوا قبل الإسلام

محصورين في البادية ولا يتجاسرون على الدخول في أوائل العراق وأوائل الشام، الّا على خوف، وليس يجوز أيضاً للملك أن يبشّر من قبل الله بالظلم والجور بناء على انّ من أولاد إسماعيل من العرب كان فيهم مستولين بالغلبة والجاهليّة، فلو لم يكن النبىﷺ ذلك المبشّر، لكانت هذه المخالطة منهم للأمم، ومن الأمم منهم، معصية لله وخروجاً عن طاعة الله إلى طاعة الشيطان، والملك يتعالى من أن يبشّر بما هذا سبيله، فتحقّق انّ المراد من بشارة الملك وجود محمّدﷺ الّذي من نسل إسماعيل.

وأيضاً جاء في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس: (انّ الرّب إلهكم يقيم لكم نبيّاً مثلي من بينكم، ومن إخوانكم)، وفي هذا الفصل: (انّ الربّ تعالى قال لموسى: انّي مقيم لهم نبيّاً مثلك من بين إخوانهم، وايّما رجل لم يسمع كلماتي الّتي يؤدّيها عنّي ذلك الرّجل باسمي أنا أنتقم منه)، وهذا الكلام يدلّ على انّ النّبي الّذي يقيمه الله ليس من بني إسرائيل، كما انّ من قال لبني هاشم انّه سيكون من إخوانكم امام، فهم من هذا الكلام انّه لا يكون من بني هاشم، ثمّ انّ يعقوب هو إسرائيل ولم يكن له أخ الّا العيص: ولم يكن للعيص ولد من الأنبياء سوى أيّوب، وانّه كان قبل موسى، فلا يجوز أن يكون موسى مبشّراً به، وأمّا إسماعيل فإنّه كان أخاً لإسحاق والد يعقوب، ثمّ إنّ كلّ نبيّ بعث بعد موسى، كان من بني إسرائيل، فالنّبيﷺ ما كان منهم لكنّه كان من إخوانهم لأنّه من ولد إسماعيل الّذي هو أخو إسحق، فإن قيل: قوله من بينكم يمنع من أن يكون المراد محمّداًﷺ لأنّه لم يقم من بين بني إسرائيل، قلنا بلى: قد قام من بينهم لأنّه ظهر بالحجاز فبعث بمكّة، وهاجر إلى المدينة، وبها تكامل أمره، وقد كان حول المدينة بلاد اليهود، كخيبر، وبني قينقاع، والنضير، وغيرهم، والحجاز يقارب الشام وجمهور اليهود كانوا إذ ذاك، هناك، فإذا قام

محمّدﷺ بالحجاز، فقد قام من بينهم، وأيضاً فإنّه إذا كان من إخوانهم، فقد قام من بينهم، فإنّه ليس ببعيد منهم، وقال في الفصل العشرين من هذا السفر: (إنّ الرّب تعالى جاء في طور سيناء، وطلع لنا من ساعير وظهر من جبال فاران، وصفّ عن يمينه عدوان القدّيسين، فمنحهم العزّ، وحبّبهم إلى الشعوب، ودعا لجميع قدّيسيه بالبركة) ووجه الاستدلال إنّ جبل فاران هو بالحجاز لأنّه مذكور في التوراة: (إنّ إسماعيلعليه السلام تعلّم الرومي في بريّة فاران)، ومعلوم إنّه إنّما سكن بمكّة، إذا ثبت هذا فقوله فمنحهم العزّ لا يجوز أن يكون المراد إسماعيلعليه السلام لأنّه لم يحصل عقيب سكنى إسماعيل هناك عزّ ولا اجتمع هناك ربوات المقدّسين، فوجب حمله على محمّدﷺ، قال الرازي: وفي كتاب حبقوق بيان ما قلنا، وهو: (جاء الله من طور سيناء والقدس من جبل فاران، لو انكشفت السماء من بهاء محمّدﷺ وامتلأت الأرض من حمده، يكون شعاع منظره مثل النور، يحفظ بلده بعزّه، تسير المنايا أمامه ويصحب سباع الطير أجناده، قام فمسح الأرض، وتأمل الأمم، وبحث عنها، فتضعضعت الجبال القديمة، واتضعت الروابي الدهريّة، وتزعزعت ستور أهل مدين، ركبت الخيول، وعلوت مراكب الانقياد والغوث وستنزع في قسيك إغراقاً ونزعاً، وترتوي السهام بأمرك يا محمّد ارتواء وتخور الأرض بالأنهار ولقد رأتك الجبال فارتاعت، وانحرف عنك شؤبوب السّيل ونفرت المهاري نفيراً ورعباً، ورفعت أيديها وجلاً وفرقاً، وتوقّفت الشمس والقمر عن مجراهما، وسارت العساكر في برق سهامك ولمعان بيانك، تدوخ الأرض غضباً، وتدوس الأمم زجراً، لأنك ظهرت بخلاص أمّتك وإنقاذ تراب آبائك)، هكذا نقل عن ابن رزين الطبري.

قال الرازي: وأمّا النصارى، فقال أبو الحسين في كتاب الغرر: (قد رأيت في نفولها وظهر من جبال فاران لقد تقطّعت السماء من بهاء محمّد المحمود، وترتوي السهام بأمرك المحمود، لأنك ظهرت بخلاص أمّتك، وإنقاذ مسيحك).

فظهر من هذا الكلام إنّ قوله تعالى في التوراة: ظهر الرّب من جبال فاران ليس معناه ظهور النار منه، كما زعمه اليهود لأنّهم يقولون إنّ النار لمّا ظهرت من طور سيناء ظهرت أيضاً من ساعير نار ومن جبل فاران، وهم لايقاع الشكوك في محمّدﷺ أوّلوا هذه العبارة بظهور النار في جبل فاران، فظهر ممّا نقل أبو الحسين عن نقول النصارى إنّه ليس معناه ظهور النار منه ولو كان ظهر منه النار على قول اليهود بل معناه ظهور شخص موصوف بهذه الصفات، وما ذاك الّا رسولنا محمّدﷺ لأنّه كيف يوصف الله بأنّه يركب الخيول، وجاء في كتاب أشعياء في الفصل الثاني والعشرين منه: (**قومي فازهري مصاحبك** ـ يريد مكّة ـ **فقد دنا وقتك، وكرامة الله طالعة عليك، فقد تجلّل الأرض الظلام، وغطى على الأمم الضباب، والربّ يشرق عليك إشراقاً ويظهر** كرامته **عليك، تسير الأمم إلى نورك والملوك إلى ضوء طلوعك، وارفعي بصرك إلى ما حولك، وتأمّلي فإنّهم مستجمعون عندك، ويحجّونك ويأتيك ولدك من بلاد بعيدة لأنّك أمّ القرى فأولاد ساير البلاد كأنّهم أولاد مكّة يميل إليك ذخائر البحر، ويحجّ إليك عساكر الأمم، ويساق إليك كباش مدين، ويأتيك أهل سبا، ويتحدّثون بنعم الله، وتسير إليك أغنام فاران، ويرفع إلى مذبحي ما يرضيني، وأحدث حينئذ لبيت محمدتي حمدا**)، ووجه الاستدلال إنّ هذه الصفات كلّها موجودة لمكّة، فإنّه قد حجّ إليها عساكر الأمم، ومال إليها ذخائر البحر، وقوله: وأحدث لبيت محمدتي حمداً: معناه انّ العرب كانت تلبّي قبل الإسلام فتقول: (**لبّيك لا شريك لك الّا شريك هو لك، تملكه وما ملك**)، ثم صار في الإسلام: (**لبّيك اللهم لبّيك لا شريك لك لبّيك**)، فهذا هو الحمد الّذي حدّده الله لبيت محمدته.

روى السمان في تفسيره في السفر الأول من التوراة: (**انّ الله تعالى أوحى إلى إبراهيم**عليه السلام **قد أجبت دعائك في إسماعيل**عليه السلام **وباركت عليه، فكبّرته وعظّمته جدّاً،**

وسيلد اثني عشر عظيماً وأجعله لأمّة عظيمة)، والاستدلال به انّه لم يكن في ولد إسماعيل عليه السلام من كان لأمّة عظيمة غير نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله، وامّا دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فكان لرسولنا لمّا فرغا من بناء الكعبة، فهو قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ولهذا كان يقول صلى الله عليه وآله: «أنا دعوة إبراهيم عليه السلام وبشارة عيسى عليه السلام، وهو قوله ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾»، قال المسيح للحواريّين: (أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحقّ الّذي لا يتكلّم من قبل نفسه) والفارقليط معناه الّذي يميّز بين الحقّ والباطل وقيل: معناه الشافع المشفّع وهذه الكلمة فاروقليط وفاروق المميّز، وليط معناه التحقيق في الأمر.

فائدة: ولو قيل، لو كان الأمر كما قلتم، فكيف يجوز من جماعتهم جحد هذا الأمر، فالجواب: انّ هذا العلم كان نصّاً خفيّاً لا جليّاً في أغلب آياته، فجاز إيقاع الشكوك والشبهات فيه، ودواعي إيقاع الشبهات كانت لأهلها كثيرةً، وأيضاً انّ هذا العلم كان حاصلاً عند العلماء بكتبهم، لكن لم يكن لهم العدد الكثير، فجاز منهم كتمانه، انتهى.

﴿وَآمِنُوا﴾ يا بني إسرائيل ﴿بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من كتاب ورسول تجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل، أي حال كون القرآن مصدّقاً للتوراة، ومذكور في القرآن انّ موسى وعيسى حقّ، وانّ التوراة والإنجيل حقّ، فكان الإيمان بالقرآن مؤكّداً للإيمان بالتوراة والإنجيل، هذا أحد الوجهين في تفسير مصدّقاً لما معكم، والوجه الثاني: انّه حصلت البشارة بمحمّد صلى الله عليه وآله وبالقرآن في التوراة والإنجيل، فالإيمان بمحمّد صلى الله عليه وآله والقرآن، إيمان وتصديق للتوراة والإنجيل، وتكذيب محمّد صلى الله عليه وآله والقرآن، تكذيب للتوراة والإنجيل، والوجه الثاني أنسب.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، فإنّ وزر المقتدي يكون على المبتدي، فإن قيل كيف قال أوّل كافر وقد سبقهم مشركو العرب: أي لا تكونوا أوّل كافر به من أهل الكتاب، وقيل وجه آخر وهو انّ هذا تعريض لهم بانّه كان يجب أن يكونوا أوّل من يؤمن، لمعرفتهم بخبر نزول القرآن، لأنّهم كانوا هم المبشّرون بمحمّدﷺ وبكتابه، فلمّا بعث كان أمرهم على العكس، لقوله: فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا وقيل: ولا تكونوا مثل أوّل كافر به، وقيل الضمير راجع إلى كتابهم، يعني لا تكونوا أوّل من كذّب كتابه، لأنّ تكذيب محمّدﷺ تكذيب التوراة، لأنّ فيه بشارة محمّدﷺ فتكذيبه تكذيب كتابهم، وقيل وجه آخر: أي لا تكونوا أوّل من جحد مع المعرفة، لأنّ كفر قريش وغيره في الغالب مع الجهل، لامع المعرفة، بخلاف أهل الكتاب، فإنّ فيهم علماء، نحارير، أحبار، وفيهم من يستفتح بمقدمه الشريف، ويبشّر بزمانه.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى﴾: أي لا تأخذوا لأنفسكم بدلاً منها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الحظوظ الدنيويّة، وكانت عامّتهم يعطون الأحبار وعلمائهم، من زروعهم وثمارهم ويهدون إليهم الهدايا والرشى على تحريفهم الكلم، وتسهيلهم لهم ما صعب عليهم من الشرائع والحدود، وكان ملوكهم يجرون عليهم الرواتب والأموال ليكتموا ويحرّفوا. حكي انّ كعب بن الأشرف قال لأحبار اليهود وهم جماعة: ما تقولون في محمّدﷺ قالوا: انّه نبيّ، قال لهم كان لكم عندي صلة وعطيّة لو قلتم غير هذا، قالوا أجبناك من غير تفكّر، فأمهلنا نتفكّر وننظر في التوراة، فخرجوا وبدّلوا نعت النبيّ، ثم رجعوا وقالوا غير قول الأوّل، فأعطى كلّ واحد منهم صاعاً شعيراً وأربعة أذرع من الكرباس، فهو القليل الّذي ذكره الله في هذه الآية.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾: بالإيمان والإعراض عن حطام الدنيا، واعاده لأنّ معنى الأول اخشوني في نقض العهد، وهذا معناه في كتمان نعت النبيّ ﷺ.

وفي الآية دلالة على تحريم أخذ الرشى في الدين، لأنّه لا يخلو امّا أن يكون أمراً يجب إظهاره أو يحرم إظهاره، فالأخذ على مخالفة كلا الوجهين حرام، وهذا الخطاب يتوجّه أيضاً إلى علماء السوء من هذه الأمّة إذا اختاروا الدنيا على الدين، فتدخل فيه الشهادات، والقضايا، والفتاوى، وغير ذلك.

وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾: أي لا تخلطوا الحقّ المنزل، بالباطل الّذي تخترعونه، وتكتبونه، حتّى لا يميّز بينهما، وتجعلوا الحقّ ملتبساً بسبب الباطل الذي تكتبونه في خلاله، وتأوّلونه بغير ما هو صحيح.

﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾: بإضمار لا، وهو نهى عن الكتمان، في إظهار الحقّ.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: حال كونكم عالمين بأنكم، لابسون، كاتمون، والخطاب وان كانت خاصّة ببني إسرائيل، فهي تتناول من فعل فعلهم، من تغيير حقّ وإبطاله، فمن أخذ رشوة على تغيير حق وإبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما علمه، وقد تعيّن ووجب عليه ادائه، حتّى يأخذ عليه اجراً، فقد دخل في مقتضى الآية، قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعنّ أحدكم هيبة أحد، ان يقول، أو يقوم بالحقّ حيث كان»[1]، وقيل: معنى قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أي وأنتم تعلمون ما نزّل ببني إسرائيل، حين عصوا، من المسخ وغيره، مثل كفّار أهل المائدة، ولعنهم عيسى عليه السلام، فمسخوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل، ما فيهم، امراة، ولا صبيّ، وعمدة السبب، انّهم اصطلحوا على الكفّ عن نهي المنكر، كما قال الله: كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، اي: لا ينهى بعضهم

١ـ النصائح الكافية، لعقيل، ص ١٤٣.

بعضاً عن قبيح يعلمونه، في الحديث: قال النبي ﷺ: «**يحشر يوم القيمة أناس من أمّتي، من قبورهم إلى الله على صورة القردة والخنازير، وذلك بما داهنوا أهل المعاصي، وكفّوا عن نهيهم، وهم يستطيعون، او، وأنتم تعلمون البعث والجزاء**».[1]

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾

الصلاة عند أكثر أهل اللغة، الدعاء، وقيل، أصلها اللزوم، فكان معنى الصلاة في الأصل ملازمة العبادة على وجه أمر الله به، وفي اصطلاح الشرع، اسم لهذه الهيئة المخصوصة بآدابها ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: خطاب لبني إسرائيل، اي، أدّوها، وأقبلوها، واعتقدوا وجوبها، وافعلوها كصلوة المسلمين، فإنّ غيرها، كلا صلاة، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: كزكاة المسلمين، على ما بيّنه النبيّ ﷺ لكم، وهذا حكم جميع ما ورد في القرآن من الأحكام مجملا، فإنّ بيانه موكول إلى النبيّ، كما قال [تعالى]: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[2]، فلذلك أمرهم بالصلوة، والزكاة، على طريق الإجمال، وأحال في التفصيل إلى بيانه، ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: وانّما خصّ الركوع بالذكر، وهو من افعال الصلاة بعد قوله وأقيموا الصلاة لأحد وجوه:

الأوّل: انّ الخطاب لليهود، ولم يكن في صلاتهم ركوع، وكان الأحسن ذكر المختصّ، دون المشترك

وثانيها: انّه عبّر بالركوع عن الصلاة بقول القائل فرغت من ركوعي، أي صلاتي، وانّما قيل للركوع الصلاة، لأنّ الركوع أوّل ما يشاهد من الأفعال الّتي يستدلّ بها على انّ الإنسان يصلّي فكأنّه كرّر ذكر الصلاة والأمر بها تأكيدا، وإشارة إلى الصلاة الشرعيّة أي صلّوا مع هؤلاء المسلمين الراكعين، حتّى

١ـ أنظر: لسان الميزان، لابن حجر، ج ١، ص ٣١٥.

٢ـ سورة الحشر: ٧.

تكون الصلاة متخصّصة بالصلوة المتقرّرة في شرع محمّد ﷺ، لا صلاتهم.

وثالثها: انّه حثّ على صلاة الجماعة، فإنّ صلاة الجماعة، تفضّل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر النفوس في التعبّد، فإنّ الصلاة، كالغزو، والمحراب كمحلّ الحرب، ولا بدّ للقتال مع العدوّ، من صفوف الجماعة، فالجماعة قوّة قال النبيّ ﷺ: **«ما اجتمع من المسلمين في جماعة، أربعون رجلاً، الّا وفيهم رجل، مغفور له، فالله تعالى أكرم من أن يغفر له، ويردّ الباقي خائبين»**، وفي الحديث: ما أفرض الله على خلقه، بعد التوحيد، فرضاً أحبّ إليه من الصلاة، ولو كان شيء أحبّ إليه من الصلاة، لتعبّد به ملائكته، فمنهم راكع، وساجد وقائم.[1]

فكان من شأن المصلي، أن يبالغ في الحضور، فكان السلف، لو شغلهم في الصلاة ذكر مال، يتصدّقون به تكفيرا، ولا ينظر الله تعالى إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه، وبعد قبول العبد التوحيد، وهو الركن الأعظم، كلّف بالصلوة، ثمّ بالزكوة لأنّ فيها إصلاح النفس، بإزالة شحّها، وإصلاح الغير، بقوام معيشته، وإيصال حقّه اليه: و**«الصلاة قربان كل تقي»**[2]، وخير موضوع، فاجتهد في هذا العمل، ودع الكسالة، حتّى توثّق نفسك بقيد التقوى، فإن تكن رأيت أحوال السابقين المتداركين ليومهم الآتي، كيف تحمّلوا المشقّات، خوفاً من التقصير، والحرمان، من ذخيرة المعاد فقد سمعت بأحوالهم، قال محمّد التستري: (رأيت كهلاً اجهدته العبادة في الطواف، واصفرّ لونه، وبيده عصا، وهو يطوف معتمداً بعصاه، قال: فسألت عنه، من أين أنت؟ قال: من أقصى بلاد خراسان، من نواحي المشرق، فقلت له: في كم قطعت هذه المسافة؟ قال: خرجت من بلدي، ولم يكن في رأسي

١ـ إعانة الطالبين، للبكري الدمياطي، ج ١، ص ٢٨٣.

٢ـ الكافي، ج ٣، ص ٢٦٥.

ولحيتي شيب، فقلت هذه والله الطاعة، فضحك، وأنشأ يقول:

زر من هويت وان شتّت بك الدار   انّ المحب لمن يهواه زوّار[1]

واعلم انّ خراب الدين، بشهوتين الفرج والبطن، والأولى هي الكبرى، فإن كنت تحبّ الدين، فاحكم الحصنين، ومعلوم انّ الدنيا والآخرة ضرتان ولك إليهما كرّتان، لكن إحداهما حرّة خريدة، والأخرى أمة مريدة، فاجعل للحرّة يومين، فإنّ لها قسمين وللامة قسما، فاضعف نصيبك من العقبي، ولا تنس إن لم تقدر، نصيبك من الدنيا، واحفظ القسمة العادلة، ولا تكن ممّن يحبّون العاجلة، فالويل ثم الويل أن تميلوا كل الميل، والآخرة خير لك من الأولى وأنت عنها مسؤلاً، فإن خفت على دينك فطلّق الدنيا فإنّها زائدة، قال تعالى: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾[2].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: وهي عبارة عن الأفعال المخصوصة، بناء على ثبوت الحقيقة الشرعيّة، أو الحقيقة المتشرّعة، أو المجاز المشهور، والمراد خصوص الصحيح، إذ الفاسد لا يخرج عن عهدة التكليف، ولا مدح له، وهي بعد التوحيد أصل العبادة والعبوديّة، وبوجه آخر تنطبق الصلاة مع حقيقة الولاية من وجوه كثيرة:

منها: انّ الصلاة، كمال العبودية، وتمام مراتب العبوديّة، مندرجة في الولاية، بل لا تتحقّق الّا بها.

ومنها: انّ الصلاة ذكر الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]، وهم أهل الذكر، ومذكّر، وذاكر.

١ـ أنشد مجنون بني عامر، ورواه الشعراني في العهود المحمدية، ص ٤٧٣ والشيخ الأميني في ألغدير، ج ٥، ص ١٢٣.

٢ـ سورة النساء: ٣.

١ـ سورة طه: ١٤.

ومنها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1]، وولايتهم، تنهى عن الكفر والشرك، وعن المعاصي، بل عن مطلق الذنب، لأنّها كفّارة للذنوب كما في الحديث: «حبّ عليّ حسنة لا يضرّ معها سيّئة»[2].

ومنها: انّ الصلاة، بمعنى الرحمة، وهم معدنها، واصل الرّحمة.

ومنها: «انّ الصلاة قربان كل تقي»[3]، وهم الوسيلة بين الله، وبين عباده الأتقياء، في مقام القرب، لأنّهم أبواب الله الّتي لا يؤتى إلّا منها، وبهم يسلك إلى الله.

ومنها: انّ الصلاة، تشتمل على أسرار التوحيد، والمعارف الربّانية، وفي الزيارة وأحكمتم توحيده.

ومنها: انّ الصلاة أفضل من سائر العبادات، وولاية محمّد وآله أفضل الولايات.

ومنها: انّ الصلاة عمود الدّين، إن قبلت قبل ما سواها، والولاية أيضاً كذلك.

ومنها: انّ الصلاة شافعة للمصلّين يوم القيمة، والوليّ أيضاً شفيع الخلائق، والحاصل: انّ تمام الفضائل المأثورة الثابتة، للصلاة، فهي بعينها جارية، وثابتة للإمام والولاية، ولهذا أوّلوا الصلاة، أهل التفسير، بأمير المؤمنين، والمتّقين مفسّر بشيعتهم، فإنّهم الّذين أقاموا امر الولاية، وبالجملة، فكلّ خير خلقه الله، انّما يفيض إليهم أوّلا، ثمّ بهم، وعنهم إلى من سواهم، لأنّهم مساكن بركة الله، حتّى الأرزاق، ولهم الولاية على ميكائيل الّذي هو

١ـ سورة العنكبوت: ٤٥.

٢ـ المناقب، الفصل السادس، ص ٣٥. ورواه السيد شهاب أحمد في (توضيح الدلائل في تصحيح الفضائل)، ص ٣٦٨.

٣ـ الكافي، ج ٣، ص ٢٦٥.

الواسطة في قسمة الأرزاق، وفي قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾[1]: ففي الحديث، «السّماء، أمير المؤمنين، والطارق، ما يطرق فيه من العلوم البدائية»، وبهذا الاعتبار، انّ الرزق نزل بواسطته، لأنّه الواسطة في كافّة الفيوضات، والرزق من الفيوضات، لكن خالق الرزق، والفيض، ومقدّره، هو الله، ولا رازق، ولا معطي إلّا الله، الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.[2]

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾: الهمزة للتوبيخ والتعجيب، والخطاب لعلماء اليهود، والمراد بالناس سفلتهم ﴿بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾: والبرّ، التوسّع في الخير، من البرّ الّذي هو الفضاء الواسع، والمراد في الآية، الإيمان بنبوّة محمّدﷺ، وذلك لأنهم كانوا يقولون لفقرائهم، وأقربائهم من المسلمين، اثبتوا على ما أنتم عليه من الإيمان بمحمّدﷺ، وهم لا يؤمنون، ويّحبّهم الله على ما كانوا يفعلون من امر الناس بالإيمان بمحمّدﷺ وترك أنفسهم عنه، وقال أبو مسلم: كانوا يأمرون العرب بالإيمان به إذا بعث، فلمّا بعث أنكروا، وقال قتادة: كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وهم يخالفونه.[3]

وروى أنس بن مالك قال: قال رسول اللهﷺ : «**مررت ليلة أسري بي على أناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هم خطباء من أهل الدنيا، ممّن كانوا يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم**»[1] وقال بعضهم: المراد أتأمرون الناس بالصدقة، وتتركونها أنتم، وإذا أتتكم الصدقة

١ـ سورة الطارق: ١.

٢ـ انظر: تفسير القمي، ج ٢، ص ٤١٥، والبرهان للبحراني، ج ٤، ص ٤٤٨، رقم ٣.

٣ـ مجمع البيان، ج ١، ص ١٩٢.

١ـ تفسير نور الثقلين، للحويزي، ج ١، ص ٧٥.

لتفرّقوها على المساكين ختنتم فيها ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: والحال أنتم تتلون وتقرءون التوراة، الناطقة بنعوته ﷺ، أو الامتناع عن مثل هذه القبائح، الكتاب وعاء مليء علما، وظرف حشي ظرفاً، إن شئت كان أعي من باقل ولو أردت أبلغ من سحبان وائل، والكتاب نعم الظهر والعدّة، ونعم الكنز والعقدة، وهو الأنيس في الوحدة، والجليس الّذي لا يغويك، والصديق الّذي لا يغريك، ومتى رأيت يا فتى بستاناً تجمّل في ردن، وروضة تقلّب في حجر، ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء، ناسك، فاتك وساكت، ناطق، طبيب اعرابيّ، فارسيّ يونانيّ قديم، مولد، ميّت، حيّ، ولولاه لبطل العلم والفكر، وغلب سلطان النسيان على جنود الذكر، الكتاب معقل العقلاء، إليه يلجئون، وبستانهم فيها يتنزّهون ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وتعرفون بعقلكم انّه قبيح منكم، والعقل في الأصل، المنع والإمساك، ومنه العقال الّذي يشدّ به وظيف البعير إلى ذراعيه، لحبسه عن الحراك، سمّي به النور الروحاني الّذي به تدرك النفس الإنسانية، العلوم الضروريّة والنظريّة، لأنّه يحبس عن تعاطي ما يقبح، ويعقل على ما يحسن، ومحلّه الدماغ عند بعض، وعند البعض محلّه القلب، وعند البعض هو نور منبسط في بدن الآدميّ، قال المولى إسماعيل الحقّي، في تفسيره «روح البيان»: إنّ هذا التوبيخ والإنكار في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾، ليس على أمر الناس بالبرّ، بل لترك العمل به، فمدار الإنكار، جملة تنسون أنفسكم، دون أتأمرون الناس، فلا يستقيم قول من لا يجوز الأمر بالمعروف، لمن لا يعمل به، لهذه الآية، بل يجب العمل به، ويجب الأمر به، وهذا لأنّه إذا أمر به مع أنّه لا يعمل به، فقد ترك واجباً، وإذا لم يأمر به فقد ترك واجبين، فالأمر بالمعروف، معروف، ولكن قلّما نفعت موعظة من لم يعظ نفسه، ومن نهى غيره، فليكن أشدّ الناس انتهاء عنه، وهذه الآية

ناعية على من يعظ غيره، ولا يعظ نفسه سوء صنيعه، وعدم تأثّره، والمراد، حثّ الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحقّ، وتقيم غيرها، لا انّ الفاسق ممنوع عن الأمر بالمعروف والمواعظ الشافية، فإنّ الإخلال بأحد المأمورين، لا يوجب الإخلال بالآخر.

حكي: انّه كان عالم من العلماء، قويّ التصرف في القلوب، مؤثّر الكلام، وربّما يموت من أهل مجلسه واحد واثنان، من شدة تأثير وعظه، وكان في بلده عجوز لها ابن صالح رقيق القلب، سريع الانفعال، وكانت تحرز عليه، وتمنعه من حضور مجلس الواعظ، فحضره على حين غفلة منها، فوقع من امر الله ما وقع، ثم انّ العجوز لقيت الواعظ يوماً في الطريق، فقالت:

أ تهدي الأنام ولا تهتـدي   الا انّ ذلـــك لا ينفـــع

فيا حجر الشحذ حتّى متى   تسـنّ الحديـد ولا تقطـع

فلمّا سمعها الواعظ، شهق شهقة، فخرّ مغشيّاً عليه، فحملوه إلى بيته فتوفّي!! قال الأوزاعي: شكت النواويس إلى الله، ما تجده من جيف الكفّار، فأوحى الله إليها، بطون علماء السوء، أنتن ممّا أنتم فيه، انتهى.

أقول: انّ الواعظ سواء كان عاملاً، أو غير عامل، لا بدّ منه أن يلاحظ هذه النكتة الدقيقة، وهي انّه يثبت للمستعين جهلا، ولنفسه فضلاً عليهم، وهو محض كبر وعجب، وحيل النفس والشيطان كثيرة، وهذا الأمر يهلكه.

وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾

قيل: الخطاب لليهود، وكان حبّ الرياسة وأخذ الأموال يمنعهم عن اتّباع النبيّ، فأمرهم الله بأن استعينوا على الوفاء بعهدي الّذي عاهدتكم عليه من طاعتي، بالصبر على ما أنتم عليه من ضيق المعاش، الّذي كنتم تأخذون

عن عوامكم بسببه، وروي عن ائمّتنا عليهم السلام انّ المراد بالصبر، الصوم، فيكون فائدة الاستعانة، كسر سورة النفس والشره، كما قال صلى الله عليه وآله: **«الصوم وجاء، وفائدة الاستعانة»**.

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ الاستعانة بالصلوة، انّه يتلى فيها ما يرغب فيما عند الله، ويزهد في الدنيا وحبّ المال والجاه، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[١]، وكان النبي صلى الله عليه وآله إذا حزنه امر، استعان بالصلوة والصوم.[٢]

حكي: انّ ابن عباس نعي له بنت، وهو في سفر فاسترجع، وقال: (عورة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجراً ساقه الله، ثمّ تنحّى عن الطريق، وصلّى ثم أتى راحلته، وهو يقرء: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ ومن قال إنّ الخطاب للمسلمين، قال: المراد، استعينوا على مشقّة التكليف بالصبر أي بحبس النفس على الطاعات وبالصلوة، وليس في أفعال القلوب أعظم من الصبر، ولا في أفعال الجوارح أعظم من الصلاة، فأمر الله سبحانه بالاستعانة والاستمداد بهما[٣].

وروي عن الصادق عليه السلام انّه قال: **«ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه غمّ من غموم الدنيا ان يتوضّأ ثمّ يدخل المسجد، فيركع ركعتين، يدعو الله فيها، اما سمعت الله يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.»**[٤]

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾: أي انّ الاستعانة بهما لكبيرة ثقيلة كقوله ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[١] الّا على الخائفين

١ـ سورة العنكبوت: ٤٥

٢ـ مجمع البيان، ج ٨٨، ص ٣٤١، ورواه المجلسي في البحار، ج ٨٨، ص ٣٤١.

٣ـ لم نعثر عليه فيما بأيدينا من المصادر.

٤ـ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ١٣٩.

١ـ سورة الشورى: ١٣.

والخاشعين، والخشوع بالجوارح، والخضوع بالقلب، وقيل الخشوع بالبصر، والخضوع بسائر الأعضاء، وانّما لم يستثقل عليهم لأنّهم يستغرقون في مناجاة ربّهم، فلا يدركون ما يجري عليهم من المشاقّ والتعب، ولذلك قالﷺ: «قرّة عيني الصّلوة ـ أو في ـ الصلاة»[1]، لأنّ اشتغاله بالصلوة، كان راحة له، وبعض قال: الضمير راجع إلى الصلاة، لأنّها الأغلب، الأفضل، وقيل: انّ المراد الاثنان، وان كان اللفظ واحد، مثل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2].

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٤٦)

الظنّ، يكون بمعنى اليقين وبمعنى الشك الراجح، فهو من الأضداد، كالرجاء، يكون أمناً وخوفاً، وهنا بمعنى اليقين، والظنّ ما قوي عند الظانّ كون المظنون على ما ظنّه، مع احتماله على خلافه، وبالاحتمال ينفصل عن العلم، وبالقوّة ينفصل عن الشك.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ في موضع الجرّ صفة للخاشعين.

﴿أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي الخاشعين يوقنون انّهم ملاقوا ما وعد ربّهم.

وقيل: انّ الظنّ في الآية، بمعنى الظنّ غير اليقين، والمعنى: انّهم يظنّون انقضاء آجالهم، وسرعة موتهم، وأنهم ملاقوا ربّهم بذنوبهم، ولشدّة إشفاقهم من ذنوبهم، يكونون على وجل وحذر، ولا يركنون إلى الدنيا، والمراد من اللقاء ليس لقاء الرؤية، بل لقاء ما يسرّه ويضرّه.

﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فإن قيل: انّهم ما كانوا قطّ في الآخرة، فيعودوا ويرجعوا إليها، فالمراد انّهم بالإعادة راجعون في الآخرة، وقيل يرجعون

١ـ الحبل المتين، للبهائي العاملي، ص ١٥٤

٢ـ سورة التوبة: ٣٤.

بالموت كما كانوا في الحال المتقدّمة على حياتهم لأنهم كانوا أمواتاً وأعداماً ابتداءً، فأحيوا ثمّ يموتون، فيرجعون بحال الأول أمواتاً كما كانوا، أو المعنى انّهم يرجعون إلى موضع لا يملك لهم أحد ضراً ولا نفعاً، لأنّهم في حال حياتهم قد يملك عليهم الأمر والحكم، ورجوعهم إلى المحشر وحكمه رجوع إليه تعالى.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ﴾: أي اشكروا ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ﴾ بها ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ بإنزال المنّ والسلوى، وتظليل الغمام، وتفجير الماء من الحجر وغيرها، وذكر النعم على الآباء إلزام الشكر على الأبناء، فإنّهم يشرّفون بشرفهم، ولذلك خاطبهم بقوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي فضّلت آبائكم على عالمي زمانهم بما منحتهم من العلم والإيمان، والعمل الصالح، وجعلتهم أنبياء وملوكا مقسطين، وهذا كما قال في حقّ مريم: ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، أي نساء زمانك فالاستغراق في العالمين عرفيّ لا حقيقيّ.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾

وكان اليهود يقولون نحن من أولاد الأنبياء، والله يقبل شفاعتهم فينا، فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليهم، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: واخشوا يا بني إسرائيل، ﴿يَوۡمٗا﴾ يوم القيمة، أي حساب ذلك اليوم، فهو من ذكر المحلّ وارادة الحال ﴿لَّا تَجۡزِي﴾ لا تؤدي ولا تغني، والعائد محذوف ﴿نَفۡسٌ﴾ مؤمنة ﴿عَن

١ـ سورة آل عمران: ٤٢.

نَفۡسٍ﴾ كافرة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ ما من الحقوق الّتي لزمت عليها، وإيراده شيئاً منكّرا مع تنكير النفس، للتعميم والاقناط الكلّي.

﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا﴾ أي من النفس الأولى المؤمنة ﴿شَفَٰعَةٞ﴾ ان شفعت للنفس الثانية الكافرة عند الله، لتخليصها من عذابه، والشفاعة مصدر الشافع، والشفيع مأخوذ من الشفع، لأنّه يشفع نفسه بمن يشفع له في طلب مراده، ولا شفاعة في حقّ الكافر بخلاف المؤمن، قال النبي ﷺ: **«ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من امّتي، فمن كذّب بها لم ينلها».**[1]

والآيات الواردة في نفي الشفاعة، خاصّة بالكفّار ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا﴾ أي من المشفوع لها، وهي النفس الثانية الكافرة ﴿عَدۡلٞ﴾ أي فداء من مال، أو رجل مكانها، أو توبة تنجو بها من النار، والعدل بالفتح مثل الشيء من خلاف جنسه، وبالكسر مثله من جنسه، وسمّي به الفدية لأنّها تماثله وتساويه ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾: ولا يمنعون من عذاب الله، ومن أيدي المعذّبين، فلا نافع ولا دافع ولا شافع.

وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾

﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم﴾ أي اذكروا وقت تنجيتنا إيّاكم أي آبائكم، فانّ، تنجيتهم، تنجية لأعقابهم والنجو: المكان المرتفع من الأرض لأنّ من صار إليه، يخلص، ثمّ سمّي كلّ فائز ناجياً بخروجه من ضيق إلى سعة.

﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾: وأتباعه، وفرعون لقب لملك العمالقة، ككسرى لملك الفرس، وقيصر لملك الروم، وتبّع لملك اليمن، والعمالقة، الجبابرة،

١ـ بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٠.

وهم أولاد، عمليق بن لاوذ، ابن آدم، بن سام، بن نوح، سكّان الشام، سمّوا بالجبابرة، وملوك مصر منهم سمّوا بالفراعنة ولقّبوه، يقال: تفرعن الرّجل إذا عتا وتمرّد، وفرعون موسى، هو الوليد بن مصعب بن الريّان، وكان من القبط، وعمّر أكثر من أربعمائة سنة، وقيل انّه كان عطّاراً أصفهانيّاً، ركبته الديون، فأفلس فاضطرّ إلى الخروج، فدخل مصر فرأى في ظاهرها حملاً من البطّيخ بدرهم، فتوجّه إلى السوق، فرأى يبيعون بطّيخة بدرهم، فقال في نفسه ان تيسّر لي أداء الديون فهذا طريقه، فخرج إلى السواد فاشترى حملاً بدرهم فتوجّه به إلى السوق، فكلّ من لقيه من المكاسين أخذ بطيخة فدخل السوق وما معه إلّا بطيخة فباعها بدرهم، ومضى بوجهه، ورأى أهل البلد متروكين سدى، لا يتعاطى أحد سياستهم، وكان قد وقع بمصر وباء عظيم، فتوجّه نحو المقابر، فرأى ميّتاً يدفن فتعرّض لأوليائه، فقال: أنا أمير المقابر، فلا أدعكم تدفنونه حتّى تعطوني خمسة دراهم، فدفعوها إليه ومضى لآخر وآخر حتّى احرز في مقدار ثلاثة أشهر مالاً عظيماً، ولم يتعرّض له أحد قطّ، إلى أن تعرّض يوماً لأولياء ميت، فطلب منهم ما كان يطلب من غيرهم، فأبوا ذلك فقالوا من نصبك هذا المنصب، فذهبوا به إلى فرعون فقال: من أنت، ومن أقامك بهذا المقام، قال لم يقمني أحد وإنّما فعلت ما فعلت، ليحضرني أحد إلى مجلسك، فأنبّهك على اختلال حال ملكك، وقد جمعت بهذا الطريق هذا المقدار العظيم من المال، فأحضره ودفعه إلى فرعون، فقال: ولّني أمورك ترني أميناً كافيا، فولّاه إيّاها، فسار بهم سيرة حسنة، فانتظمت مصالح العسكر، واستقامت أحوال الرعيّة، ولبث فيهم دهراً طويلا، وترأى أمره في العدل والصلاح، فلمّا مات فرعون أقاموه مقامه، فكان من أمره ما كان، وكان فرعون يوسف اسمه الرّيان، وبينهما أكثر من أربعمائة سنة.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: أي يبغونكم ويكلّفونكم، وقيل يؤلونكم سوء العذاب، وسامه خسفاً إذا أولاه ذلّا، وقيل معناه يعذّبونكم، وأصل الباب السوم الّذي هو إرسال الإبل في الرعي، أو من سام السلعة إذا طلبها، فمعناه الطلب، وتقدير الكلام، نجّيناكم مسوّمين منهم أقبح العذاب، كقولك رأيت زيداً يضربه عمرو، أي رأيته حال كونه مضروباً لعمرو.

قال وهب بن منبه: كانوا أصنافا في أعمال فرعون، فصنف يبنون، وصنف يحرثون وصنف يخدمون، فذوو القوة ينحتون السواري من الجبال، حتّى قرحت أيديهم وأعناقهم ودبّرت ظهورهم من قطعها ونقلها، وطائفة يضربون اللبن ويطبخونها للآجر وكذلك والضعفة من الناس يضرب عليهم الحراج ضريبة، ويؤدّونها كلّ يوم، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدّي ضريبته، غلّت يمينه إلى عنقه شهراً، والنساء يغزلن الكتّان وينسجن[1] وقيل: يفسّر قوله يسومونكم سوء العذاب، قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾: كأنّه قيل ما حقيقة سوء العذاب الّذي يبغونه لهم، فأجيب بأنّه يذبحون أبناءكم، والتشديد للتكثير، كما يقال فتّحت الأبواب، والمراد من الأبناء، الذكور خاصّة، وإن كان الإسم يقع عليهما في غير هذا الموضع، كالبنين في قوله: يا بني إسرائيل، وكانوا يذبّحون الغلمان لا غير، وكذا الصغار دون الكبار.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾: ويستبقون بناتكم، وذلك انّ فرعون رأى في منامه كأنّ نارا أقبلت من بيت المقدّس، فأحاطت بمصر، وأخرجت كلّ قبطيّ بها، ولم تتعرّض لبني إسرائيل، فهاله ذلك، وسأل الكهنة والسحرة عن الرؤيا، فقالوا يولد في بني إسرائيل غلام يكون على يده هلاكك، وزوال ملكك، فأمر فرعون بقتل كلّ غلام يولد في بني إسرائيل، وجمع القوابل فقال لهنّ: لا

١ـ انظر: تاريخ الطبري، ج ١، ص ٢٧٢.

يسقط على أيديكنّ غلام يولد في بني إسرائيل الّا قتل، فكنّ يفعلن ذلك، حتّى قتل في طلب موسى اثنى عشر ألف صبيّ، وتسعون ألف وليد، ثمّ اسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل، فدخل رؤس القبط على فرعون، وقالوا انّ الموت وقع في بني إسرائيل، فتذبح صغارهم، ويموت كبارهم، فيوشك أن يقع العمل بنا، فأمر فرعون أن يذبحوا سنة، ويتركوا سنة، فولد هارون في السنة التي لا يذبح فيها، وولد موسى في السنة الّتي يذبحون فيها، وقد شمر فرعون عن ساق الاجتهاد وحسر عن ذراع العناد، فأراد أن يسبق القضاء، هيهات ويأبى الله الّا ان يتمّ نوره.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾: إشارة إلى التذبيح والاستحياء، ﴿بَلَآءٌ﴾: محنة وبليّة، لأنّ الأعمال الشاقّة وذبح الأولاد والاسترقاق ممّا يشقّ على الإنسان، غاية، لا سيّما بعد ذبح الولد ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: يحتمل أن يكون من الله هذا الامتحان، بأن خلّى بينكم وبين فرعون، حتى فعل هذه الأفاعيل، فيكون هذا الامتحان لمحنته لكم، ويحتمل ان يكون الإشارة في قوله وفي ذلكم، إلى التخلّص من فرعون، فيكون نعمة ومنحة عظيمة من الله عليكم لا محنة، والبلاء، الاختبار، والله تعالى يختبر عباده، تارة بالمنافع، وتارة بالمضارّ، ليشكروا ويصبروا، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾[1]، وسنّة الله تعالى استدعاء العباد بعبادته، بسعة الأرزاق، ودوام المعافاة ليرجعوا إليه بنعمته، ويشكروه بالطاعة ولزوم الإيمان، فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسرّاء والضرّاء لعلّهم يرجعون.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ﴾: واذكروا يا بني إسرائيل وقت تفريقنا وتفصيلنا

١ـ سورة الأنبياء: ٣٥.

بسبب انجائكم، فالباء للسببيّة، وقيل بمعنى اللام لقوله تعالى ذلك بأنّ الله هو الحقّ، أي لأنّ الله ﴿ٱلْبَحْرَ﴾: هو بحر القلزم من بحار فارس، أو بحر يقال له اساف، حتّى حصل اثنى عشر مسلكاً بعدد أسباط بني إسرائيل، والسبط ولد الولد، وهم أولاد يعقوب، ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾: من الغرق، بإخراجكم إلى الساحل، وفرقنا بين المائين، فوقع بين كلّ فريقين من البحر، سبط من الأسباط يسلكون طريقاً يابساً، بسبب هبوب الريح دفعة ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: يريد فرعون وقومه للعلم بدخوله فيهم، وكونه أولى به منهم، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: بابصاركم انفراق البحر لكم، وانطباقه على آل فرعون حين رمى موتاهم البحر إلى الساحل.

روي: انّه لمّا دنا هلاك فرعون، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل من مصر ليلاً، فأمرهم أن يخرجوا وأن يستعيروا الحلي من القبط، وأمر أن لا يناد أحد صاحبه، وأن يسرجوا في بيوتهم إلى الصبح، ومن خرج لطخ بابه بكف من دم، ليعلم انّه قد خرج، فخرجوا ليلاً، وهم ستمائة ألف وعشرون ألف مقاتل، لا يعدون فيهم ابن العشرين لصغره، ولا ابن الستّين لكبره، والقبط لا يعلمون بذلك، وكان قد وقع في القبط موت فجعلوا يدفنونهم، وشغلوا عن طلبهم، فلمّا أراد بنو إسرائيل السير، ضرب عليهم التيه، فلم يدروا أين يذهبون، فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل، وسألهم عن ذلك، فقالوا: ان يوسف لمّا حضره الموت، أخذ على اخوته عهدا أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم، فلذلك انسدّ عليهم الطريق، فسألهم عن موضع قبره، فلم يعلمه أحد غير عجوز، قالت لو دللت على قبره أتعطيني كلّما سألتك، فأبى عليها موسى وقال: حتى اسئل ربّي، فأمره الله بإيتاء سؤلها، فقالت: اني عجوز كبيرة، لا أستطيع المشي، فاحملني وأخرجني من مصر،

هذا في الدّنيا وامّا في الآخرة فأسئلك أن لا تنزل غرفة إلا نزلتها معك، قال موسى: نعم، قالت: انّه في جوف الماء في النيل، فادع الله أن يجيز عنه الماء، فدعا الله أن يؤخر طلوع الفجر إلى أن يفرغ موسى من أمر يوسف، فحفر ذلك الموضع، واستخرجه في صندوق من صنوبر، وسبب ان قبره كان جوف النيل لأمر يطول شرحه، والمجمل منه استبراك أهل مصر بماء النيل، بمجاورة الماء قبره، حتى تعم البركة الفقير والغني، والقريب والبعيد من صعيد مصر، فاستخرج تابوت يوسف من قعر النيل، وحمله ودفنه في أرض الشام، ففتح لهم الطريق، ثم ساروا، فكان هارون أمام بني إسرائيل، وموسى على ساقتهم، فلمّا علم بذلك فرعون جمع قومه، وخرج في طلب بني إسرائيل، وعلى مقدّمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف جواد ذكر ليس فيه رمكة، على رأس كلّ واحد منه بيضة، وفي يده حربة، فسارت بنو إسرائيل حتى وصلوا إلى البحر، فأدركهم فرعون حين أشرقت الشمس، فقال فرعون في أصحاب موسى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾[1][2]، فلمّا نظر أصحاب موسى إليهم، بقوا متحيّرين، فقالوا لموسى: أنّا لمدركون يا موسى ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾[3] اليوم نهلك، فإنّ البحر أمامنا، ان دخلناه غرقنا، وفرعون خلفنا، ان أدركنا قتلنا، كيف نصنع، وأين ما وعدتنا، قال موسى: كلّا انّ معي ربّي سيهدين، فأوحى الله إلى موسى، أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فلم يطعه، وأوحى الله إليه ان كنّه فضربه، وقال: انفلق يا أبا خالد، فانفلق فصار فيه اثنا عشر طريقاً، كلّ طريق كالجبل العظيم، فكان لكلّ سبط

١ـ شرذمة: جماعة قليلة من الناس.

٢ـ سورة الشعراء: ٢٦.

٣ـ سورة الأعراف: ١٢٩.

طريق يأخذون فيه، فخاضت بنو إسرائيل البحر، ولا يرى بعضهم بعضاً، فقالوا ما لنا لا نرى إخواننا، وقال: كلّ سبط قد قتل إخواننا، قال موسى: سيروا فإنّهم على طريق مثل طريقكم، قالوا: لا نرضى حتّى نراهم، فقال موسى: اللهم أعنّي على أخلاقهم السيّئة، فأوحى الله إلى موسى أشر بعصاك يمنة ويسرة فصار فيها كويّ ينظر بعضهم بعضاً، ويسمع بعضهم بعضاً، فساروا حتّى خرجوا من البحر.

فلمّا جاز آخر قوم موسى، هجم فرعون على البحر، فرآه منفلقاً، قال لقومه: انظروا إلى البحر، انفلق من هيبتي حتى أدرك عبيدي الّذين أبقوا، فهاب قومه أن يدخلوه وقيل له: إن كنت صادقاً فادخل البحر كما دخل موسى، وكان فرعون على حصان أدهم، ولم يكن في قوم فرعون فرس أنثى، فجاء جبرئيل على أنثى وديق، وهي التي تشتهي الفحل وتقدمه إلى البحر، فاقتحم أدهم فرعون خلفها البحر ودخله ولم يتملك فرعون من أمره شيئاً، وهو لا يرى فرس جبرئيل وتبعته الخيول، وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يسوقهم حتى لا يشذّ رجل منهم، حتّى خاضوا كلّهم البحر، ودخل آخر قوم فرعون، وجاز آخر قوم موسى، وهمّ أولهم بالخروج، فأمر الله البحر أن يأخذهم، فانطبق البحر على قوم فرعون فأغرقوا، فنادى فرعون: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[1]، القصة وقالت بنو إسرائيل الآن يدركنا فرعون، فيقتلنا، فلقط منهم البحر ستمائة وعشر ألفاً الذين عليهم الحديد، ولفظ البحر جثّة فرعون، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾[1]، وهو كأنّه ثور أحمر فبعد هذه المعجزة العظيمة، ما مضى وقت

١ـ سورة يونس: ٩٠.

١ـ سورة يونس: ٩٢.

حتى اتخذوا العجل إلهاً بعد الإنجاء، ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبيائهم، فهذه معاملتهم مع ربّهم، ثم بدلوا التوراة وافتروا على الله وكتبوا التحريفات واشتروا به ثمناً قليلاً وكفروا بنبوة محمّدﷺ مع علمهم بصدقه، فيا لها من عصابة ما أعصاها وطائفة ما أطغاها.

وكان يوم الإنجاء والإغراق، يوم عاشوراء ولذا كان اليهود يصومونه ويتّخذونه عيدا، وقيل: وكان رسول الله يصومه، فلمّا فرض صوم رمضان في المدينة، ترك صيام يوم عاشوراء.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾

واذكروا يا بني إسرائيل، وقت وعدنا، وصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثي، أو على أصلها، فإنّ الوعد وإن كان من الله تعالى، فقبوله كان من موسى، فقبول الوعد، شبه الوعد، أو أن الله تعالى وعده الوحي، وموسى وعد المجيء للميقات إلى الطور ﴿مُوسَىٰٓ﴾: مفعول أول لواعدنا، مو، بالعبرانية، الماء، وشى، بمعنى الشجر فقلبت شين المعجمة، سينا في العربيّة وانّما سمّى به لأنّ أمّه جعلته في التّابوت، حين خافت عليه، وألقته في البحر، فدفعته أمواج البحر، حتى أدخلته بين أشجار، عند بيت فرعون، فخرجت جواري آسية، امرأة فرعون يغسلن، فوجدن التابوت، فأخذنه، فسمي باسم المكان الذي أصيب به وهو الماء والشجر، ونسبه موسى، بن عمران، ابن يصهر، بن فاهث، ابن لاوي، ابن يعقوب (إسرائيل الله) ابن إسحق، بن إبراهيم الخليل؊.

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: على حذف المضاف، أمره الله تعالى بصوم ثلثين وهو ذوالقعدة ثم زاد عليه عشراً من ذي الحجة وعبّر عنها بالليالي، لأنّها غرر الشهور، وشهور العرب، وضعت عليها سير القمر ولذلك وقع التاريخ بها، فالليالي، أوّل الشهور، والأيّام تبع لها، أو لأنّ الظلمة أقدم من الضوء.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾: وهو ولد البقرة، بتسويل السامري، إلهاً ومعبوداً.

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: أي من بعد مضيّه من الميقات ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾: بإشراككم ووضع عبادة الله، في غير موضعها، قال ابن عباس: (كان السامري رجلاً صائغاً من أهل باجرمى، اسمه ميحا وقيل: موسى بن ظفر، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حبّ عبادة البقر في نفسه، وكان أظهر الإسلام في بني إسرائيل، فلمّا قصد موسى عليه السلام إلى الميقات خلّف هارون في بني إسرائيل، قال هارون لقومه: قد حملتم أوزاراً من زينة القوم، يعني آل فرعون، فتطهروا منها، فإنّها نجس وكانوا استعاروا من القبط حليّا، فقال هارون: طهّروا أنفسكم منها، فإنّها نجسة وأوقد لهم ناراً، فقال اقذفوا بما كان معكم فيها، فجعلوا يأتون بما كان معهم، من تلك الأمتعة والحلّي، فيقذفون به فيها، قال: وكان السامريّ، رأى أثر فرس جبرئيل، فأخذ تراباً من تراب حافره، ثم أقبل على النار وقال لهارون: يا نبي الله ألقي ما في يدي، قال نعم وهو لا يدري ما في يده، ويظنّ انّ ما في يده ممّا يجيئ به غيره من الحليّ والأمتعة، فقذف فيها وقال: كن عجلاً جسداً له خوار! فكان البلاء والفتنة! فقال: هذا إلهكم وإله موسى، فعكفوا عليه! فاحبّوه حبّاً لم يحبّوا مثله شيئاً قطّ)[1]!!

قال ابن عباس: فكان البلاء ولم يزد على هذا، قال الحسن: صار العجل لحماً ودما، وقال غيره: لا يجوز ذلك، لأنّه من معجزات الأنبياء، ومن وافق الحسن، قال: انّ القبضة من أثر الملك، كان الله قد جرى العادة بأنّها إذا طرحت على أيّ صورة، كانت حيّيت، فليس ذلك بمعجزة، إذ سبيل السامري فيه سبيل غيره، ومن لم يجز انقلابه حيّاً، تأوّل الخوار، على ان السامري صاغ عجلاً وجعل فيه خروقاً، يدخل فيه الريح، فيخرج منه صوت كالخوار،

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٢١٣.

ودعاهم إلى عبادته، فأجابوه! وعبدوه! عن علي الجبائي.[١]

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾

اي: محونا جريمتكم، حين تبتم من بعد الاتخاذ، الذي هو متناه في القبح ولم نعاجلكم بالعذاب والإهلاك، بل أمهلناكم إلى مجيء موسى، فينبّهكم بكفّارة ذنوبكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: لكي تشكروا نعمة العفو وتستمرّوا بعد ذلك على الطاعة.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾

اي: واذكروا وقت أعطائنا موسى، الكتاب، وهو التوراة والفرقان، قال ابن عباس: انّ المراد به التوراة أيضاً، وانّما عطف عليه لاختلاف اللفظين، مثل قولهم: والفى قولها كذبا ومينا: والمين هو الكذب وقيل: الكتاب، التوراة، والفرقان، انفراق البحر، أو الفرق بين موسى وأصحابه المؤمنين، وبين فرعون وأصحابه الكافرين، أو الفرقان: بعض التوراة، الذي فيه الحلال والحرام، وذلك انّه لمّا رجع موسى ووجدهم على عبادة العجل، ألقى الألواح، فرفع من جملتها ستة أجزاء، وبقي جزء واحد، وهو الحلال والحرام وما يحتاجون وأحرق العجل وذراه في البحر، فشربوا من مائه حبّا للعجل، فظهرت على شفاههم صفرة، ورمث بطونهم، فتابوا، ولم تقبل توبتهم، دون ان يقتلوا أنفسهم. وذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾

١ـ المصدر السابق نفسه.

واذكروا يا بني إسرائيل ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ وقت قوله لقومه، الذين عبدوا العجل ﴿يَٰقَوْمِ﴾ اي: يا قومي والإضافة للشفقة ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ وضررتم أنفسكم بإيجاب العقوبة عليها بسبب ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ معبودا، قالوا أي شيء نصنع، قال: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ فاعزموا على التوبة، والفاء للسببيّة، لأنّ الظلم سبب للتوبة، فارجعوا إلى خالقكم ومن خلقكم بريئاً من العيوب والنقصان وأنتم من الجهالة والغباوة، بحيث تركتم عبادة مثل هذا الخالق وعبدتم البقر، الذي هو مثل في الغباوة، وانّ من لم يعرف حقوق منعمه، حقيق بأن تستردّ النعمة منه، ولذلك أمروا بالقتل وفكّ التركيب وانفصال نعمة الحياة فقالوا كيف نتوب؟ قال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ اي: ليقتل البريء، المجرم، فأوحى الله إلى موسى انّ توبة المرتد لا تتم إلّا بالقتل ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ اي: التوبة والقتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ انفع لكم عند الله، لأنّ القتل وصلة إلى الحياة الأبديّة وطهرة من الشّرك.[1]

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ اي: ففعلتم ما أمرتم به، فتاب عليكم وقبل توبتكم وانّما قال عليكم مع ان الضمير لاسلافهم، لما انّ هذا الأمر من النعم العظيمة وأريد التذكير بها للمخاطبين بأنّ هذه النعمة شملتكم، لأنّه رفع ذلك الأمر عنهم قبل فنائهم بالكليّة فلو لم يرفع القتل عن آبائهم، لما وجد الأبناء، فحسن الخطاب.

ومعنى اقتلوا أنفسكم: لأنّ المؤمنين كنفس واحدة، أو يكون معناه استسلموا للقتل وجعل استسلامهم للقتل، قتلاً منهم لأنفسهم، على وجه

١ـ استشهد المفسر ببيت شعر بالفارسية نورده مع الترجمه:

انفصالى اتصالش در عقب   اتصال منفصل باشد تعب

المعنى: كل انفصال يتبعه إتصال (كي يتكامل ولا يتلاشي)، وتوصيل ما هو منفصل يكون صعباً ومتعبا.

التوسع، روي انّ موسى، أمرهم أن يقوموا صفّين، فاغتسلوا ولبسوا أكفانهم وجاء هارون باثنى عشر ألفاً ممّن لم يعبدوا العجل ومعهم الشفار المرهفة وكانوا يقتلونهم، فلمّا قتلوا سبعين ألف قتيل وكان موسى وهارون، واقفين، يدعوان الله ويتضرّعان إليه وهم يقتل بعضهم بعضاً، حتى نزل الوحي، برفع القتل وقبلت توبة من بقي[1] قال ابن جريج: (السبب في أمرهم بقتل أنفسهم، انّ الله علم انّ ناساً منهم، ممّن لم يعبد العجل، لم ينكروا عليهم، مع علمهم بأنّ العجل باطل، فلذلك ابتلاهم بأن يقتل بعضهم، بعضاً، وإنّما امتحنهم الله، بهذه المحنة، لكفرهم بعد الآيات العظام).[2]

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ اي: قابل التوبة عن عباده، مرّة بعد أخرى، أو معناه: قابل التوبة عن الذنوب العظام، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: إذا تبتم وفي هذه الآية دلالة، على انّه، يجوز أن يشترط في التوبة سوى النّدم ما لا يصحّ التوبة، إلّا به، كما أمروا بالقتل، أقول: لما وصلت إلى نقل بيان هذه الآية، رأيت جماعة ضالّة، من أمّة محمّدﷺ عدلوا عن دينه وهم أشقى من أولئك اليهود، لأنّهم رضوا بقتل أنفسهم، في قبول توبتهم، وبذلوا بأعز ما عندهم وهو النفس ولا يرغب الواحد منّا في التوبة بما هو أسهل من توبتهم بدرجات، فهم أقدموا وتابعوا مع هذا الحكم الشديد. ونحن ولينا مدبرين وجسرنا معرضين، مع هذه السهولة، في حكم توبتنا، فإن قلت انّهم كفروا، فرضوا في توبتهم، بقتل أنفسهم، ليتخلّصوا من العذاب الدائم، بخلاف الأمّة المرحومة.

فالجواب: أنّ القرآن مشحون بما أوعد الله فيه على الكبائر، بالنّار، هب إن لم تكفر، لم تكن مخلّداً، لكن كيف تتحمل عذاب أحقاب من الزمان،

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٢١٨.

٢ـ المصدر السابق، ص ٢١٩.

على أنّ ملكات بعض المعاصي الخبيثة، يوجب ذهاب الإيمان، وليس إيماني وإيمانك سدّ اسكندر ومآرب ومع ذلك، فقد خرب سدّ مآرب فارة، وانّما يكفي في ذهاب إيماني وإيمانك خطرة واحدة، مع الثبات والترديد، على تلك الواحدة، وهذا كلّه إذا كانت المعاصي من جنس الفسوق، امّا إذا كانت المعصية مستلزمة لذهاب الإيمان والإسلام وتشييد الكفر، بل يكون ذلك الأمر وتلك المعصية علّة موجبة لتعطيل أحكام القرآن ودروسها المقدم على مثل هذه الأمور، يقال له فاسق، أم يقال له مضلّ، ويرتدّ عن الإسلام، ثمّ انّه هل يكفي في حقّه مجرّد الندم، أم عليه ردّ ما أفسده بإقدامه، ومعلوم انّ تكليف الإصلاح والرد متوقف على القدرة والإمكان، وهو لا يمكنه.

فالجواب: راجع إلى مسألة الامتناع بالاختيار، لا ينافي الاختيار وعلى كلّ التقادير، فلا بدّ وان المرتكب في مثل هذه الأمور، لا أقلّ أن يرجع عن هذه المسالك الخبيثة ولا يكفيه الرجوع باستنكاره في القلب، بل لا بدّ وأن يظهر إنكاره ويبيّن قبحه، حتى يكون متداركاً في الجملة ويصحّ عليه صحة السلب، في دخوله في العنوان وإلّا لما كان تائباً، لأنّ التدارك، لا بدّ منه في التوبة، ثم انّ الرد والإصلاح في مثل هذه الأمور، التي توجب نسخ القرآن وضعف الإسلام، بل نفي الإسلام مسبب عنها، هل يشترط فيه الأمن من الضرر، للذي أحدث مثل هذه الأمور، أم لا، كما اشترط هذا الشرط في المعارف والمنكرات مطلقا، ثم لو سلّمنا انّ الأمن من الضرر، في مثل هذه الأمور، التي توجب نسخ القرآن، أو الزام النّاس بالعمل بغيره، كالمشروطيّة مثلا، هل هو جار في تمام طبقات الناس، من غير فرق بين الجاهل والعالم، بحيث لا يجب على العالم إنكاره، حيث لم يأمن الضرر على نفسه، لم يخصص هذا العالم وأمثاله بتخصيصات في الحكم، لمقتضيات مصالح

الإسلام؟ فالمسألة غامضة جداً، خصوصاً إذا كان العالم، مطاعاً في الإسلام ومستبصرا في الفساد، فإذا لم يأمن الضرر على نفسه، أو قطع وجود الضرر على نفسه، فهل هذا الحكم يعمّه، بحيث تكون نفسه محفوظة، والقرآن ضائعاً، أم انّ التخصيص، يخرجه عن هذا الحكم، أو عليه بأن يبذل مهجته في دين الله.

وقد حيّرني سكوت بعض العارفين بأمور المبتدعة ولا يمكن أن يتصوّر انّهم توقّفوا في أدلّة التعادل والتراجيح، بين حفظ نفوسهم والإسلام، مع انّ القاعدة في التزاحم، ملاحظة الرجحان، فلا بدّ أن أقول: ان السر في هذا الأمر قد اختفى عليك أيّها الجاهل، في حيرتك، إلى أن يذهب جلّ القرآن ويضيع عنوان الإسلام، وبالجملة: فتب إلى ربك، أيّها العاصي وأيّها الكافر، فانّك قد وقعت في زمان، يسهل عليك التوبة، هذا إذا كان المقدم على هذا الأمر، غير عالم بفساده ويكون في دعواه صادقاً، بأن أراد أن يكون خلالاً، فصار نباذاً، لكن لو كان عالماً بمفسدته، أنّى يكون له التوبة، وهيهات كما يفصح عن هذا الحكم، حديث ذلك العالم الإسرائيلي، ولا تكن شراً من اليهود، فإنّ اليهود لمّا أمرهم موسى، بالقتل قبلوا قوله وقالوا: نصبر لأمر الله، فجلسوا مخبتين، مذعنين وقيل لهم: من حلّ حياته، أو مدّ طرفه إلى قاتله، أو اتقاه بيده أو رجله، فهو ملعون، مردود توبته، فقبلوا، فاصلت القوم عليهم السيوف والخناجر وحملوا عليهم وضربوهم بها وكان الرجل، يرى ابنه وأباه وأخاه وقرينه وجاره، فلم يمكنهم المضيّ لأمر الله، قالوا يا موسى، كيف نفعل؟! فأرسل الله سبحانه، سحابة سوداء، لا يبصر بعضهم بعضاً، فكانوا يقتلونهم إلى المساء، فلمّا كثر القتل دعا موسى وهارون وبكيا وقالا: (يا ربّ هلكت بنو إسرائيل، البقيّة البقيّة فكشف الله السحابة ونزلت التوبة وأمرهم أن

يكفّوا عن القتل، فقتل منهم سبعون ألفاً، فكان من قتل شهيداً ومن بقي مغفوراً.

وروي: انّ الأمر بالقتل، من الأغلال التي كانت عليهم وهي من التكاليف الشاقّة عليهم من لزوم الغلّ في أعناقهم، كقطع الأعضاء الخاطئة ومثل عدم جواز صلاتهم في غير المساجد وعدم التطهير بغير الماء ومنع الطيّبات عنهم بالذنوب وكون الزكاة، ربع مالهم وكتابة ذنب الليل، على أبوابهم بالصبح.

وقد روى: انّ بني إسرائيل، إذا قاموا، يصلّون، لبسوا المسوح وغلّوا أيديهم إلى أعناقهم وربّما ثقب الرجل ترقونه وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى سارية المسجد وحبس نفسه على العبادة[1]، فهذه الأغلال، التي كانت عليهم وقد رفعها الله، عن هذه الأمّة تكريماً للنبي ﷺ وأعظم جميع نعم الله، على هذه الأمّة المرحومة، بعد نعمة محمّد ﷺ، نعمة التوبة، التي أنعم الله بها عليهم، ولها مراتب، فأقلّ مرتبتها ترك المنهيات والقيام بالواجبات وقضاء الفوائت وردّ الحقوق والاستحلال من المظالم والندم على ما جرى والعزم على عدم العود، قال أهل المعنى: انّ لكلّ قوم عجلاً يعبدونه من دون الله، فقوم يعبدون عجل الدراهم والدنانير، وقوم يعبدون عجل الكبر والحسد، وقوم يعبدون عجل الجاه، وقوم يعبدون عجل الهوى وهذا القسم الأخير، رئيس الأقسام الثلاثة الأول وكلها مندرجة في هذا الأخير.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

١ـ شرح أصول الكافي، ج ٨، ص ٥٦.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ اي: واذكروا يا بني إسرائيل، وقت قول السبعين من اسلافكم الذين اختارهم موسى، حين ذهبوا معه إلى الطور، للاعتذار عن عبادة العجل وهم غير السبعين الذين اختارهم موسى، أول مرّة، حين أراد الانطلاق إلى الطور، بعد غرق فرعون، لإتيان التوراة وذلك لأنهم قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾: ولن نصدّقك، لأجل قولك ودعوتك، على أنّ هذا كتاب الله وانك سمعت كلامه ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ اي: عياناً لا ساتر بيننا وبينه، كالجهر في الوضوح والانكشاف، لأنّ الجهر في المسموعات والمعاينة في المبصرات، ونصبها على المصدرية أي نرى الله مجاهراً بفتح الهاء، أو نرى الله مجاهرين، على انّه حال من الفاعل، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: هي نار محرقة، فيها صوت نازلة من السماء وهي أمر هائل، مميت أو مزيل للعقل والفهم، تكون صوتاً، أو ناراً وغير ذلك وانّما أحدثت الصاعقة، لسؤالهم ما هو مستحيل على الله، لفرط العناد والتعنت، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ الصاعقة النازلة وقيل: معنى جهرة، صفة لخطابهم لموسى انّهم جهروا بهذا القول الفاسد وأعلنوه والمعنى الأول أقوى.

ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

وكانت تلك لهم، كالسكتة لغيرهم ولما كانت تلك الموتة، قبل انقضاء آجالهم، أحياهم ليستوفوا بقيّة آجالهم وأرزاقهم ولو ماتوا بآجالهم، لم يبعثوا إلى يوم القيمة وذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ أي أحييناكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ بتلك الصاعقة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الحياة، بالتوحيد والطاعة وتشكرون وقت مشاهدتكم بأس الله بالصاعقة، فلا تعودون إلى اقتراح مثل هذه الأمور، بعد ظهور المعجزات، وأصل القضيّة انّ موسى عليه السلام لمّا رجع من الطور إلى قومه ورأى قومه، ما هم عليه من عبادة العجل، وقال

لأخيه والسامري ما قال، وأحرق العجل وندم القوم على ما فعلوا، امر الله موسى ان يأتيه في ناس من إسرائيل، يعتذرون من عبادة العجل، فاختار موسى سبعين من قومه، من خيارهم، فلمّا خرجوا إلى الطور، قالوا لموسى، سل ربّنا، حتّى يسمعنا كلامه، فسأل موسى ذلك فأجابه الله، ولمّا دنا من الجبل، وقع عليه عمود من الغمام وتغشّى الجبل كلّه، ودنا من موسى ذلك الغمام، حتى دخل فيه وقال للقوم، ادخلوا، فكلّم الله موسى، يأمره وينهاه وكلّما كلّمه تعالى، أوقع على جبهة موسى، نوراً، ساطعاً، لا يستطيع أحد من السبعين، النظر إليه وسمعوا كلامه تعالى، مع موسى، افعل ولا تفعل، فعند ذلك طمعوا في الرؤية وقالوا، ما قالوا، فأخذتهم الصاعقة، فخرّوا صعقين، ميّتين، يوماً وليلة، فلمّا ماتوا، جعل موسى، يبكي ويتضرّع، رافعاً يديه، يدعو ويقول: يا إلهي، اخترت من بني إسرائيل، سبعين رجلاً، ليكونوا شهودا، بقبول توبتهم وماذا أقول لهم، إذا أتيتهم وقد أهلكت، لو شئت أهلكتهم قبل هذا اليوم مع أصحاب العجل، أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا؟ فلم يزل، يناشد ربّه، حتّى أحياهم الله وطلب توبة بني إسرائيل، من عبادة العجل، فقال الله لا، الّا أن يقتلوا أنفسهم، قالوا انّ موسى، سأل الرؤية، في المرّة الأولى، في الطور ولم يمت، لأنّ صعقته، لم يكن موتاً ولكن غشيته غشية، بدليل قوله تعالى: فلمّا أفاق، وسأل قومه في المرّة الثانية، حين خرجوا، للاعتذار وماتوا، وذلك لأنّ سؤالهم سؤال افتراء وتكذيب، وسؤال موسى كان عن لسانهم، أو عن اشتياق واسترشاد.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ اي: ومن أنعامنا عليكم، يا بني إسرائيل،

ان ظللنا عليكم وجعلنا الغمام، ظلّة عليكم وهذا جرى في التيه، بين المصر والشّام، فإنّهم حين خرجوا من مصر وجاوزوا البحر، وقعوا في صحراء لا أبنية فيها، أمر الله بدخول مدينة الجبّارين وقتالهم، فقبلوا، فلمّا قربوا منها، سمعوا بأنّ أهلها جبّارون، أشدّاء، قامة أحدهم سبعمائة ذراع، ونحوها، فامتنعوا وقالوا لموسى: اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون، فعاقبهم الله، بأن يتيهوا في الأرض، أربعين سنة وكانت المفازة والتيه، اثني عشر فرسخاً، فأصابهم، حرّ شديد وجوع مفرط، فشكوا إلى موسى، فرحمهم الله، فأنزل عليهم عمودا من نور يدلى لهم، من السماء، فيسير معهم، بالليل يضيئ لهم، مكان القمر، إذا لم يكن قمر وأرسل غماماً ابيض رقيقا، أطيب من غمام المطر، يظلّهم من حرّ الشمس، في النهار وسمي السحاب غماماً، لأنّه يغمّ السماء ويسترها والغم، حزن يستر القلب.

ثمّ سألوا، موسى الطّعام، فدعا ربّه، فاستجاب له وهو قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ اي: الترنجبين، كان أبيض، مثل الثلج، كالشهد المعجون بالسمن وقيل: (المنّ الذي يعرفه الناس، يسقط على الشجرة، عن ابن عباس) وقيل: (انّه الخبز المرقق، عن وهب، وقيل: المنّ جميع ما أنعم الله ومنّ به، على عباده، من غير تعب ولا زرع، ومنه قوله: الكماة من المنّ، وماؤها شفاء للعين)[1] قالوا: يا موسى، قتلنا هذا المنّ، بحلاوته، فادع لنا ربّك، أن يطعمنا اللّحم، فأنزل الله عليهم، السّلوى، وذلك قوله: ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ هو السماني كانت تحشره عليهم، رياح الجنوب، وكانت الريح تقطع حلوقها وتشق بطونها وتملط شعورها وريشها وكانت الشمس تنضجها، فكانوا يأكلونها مع المنّ، لكنّ أكثر المفسّرين، على أنّهم يأخذونها، فيذبحونها،

١ـ بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٦٦.

فكان ينزل عليهم المنّ، نزول الثلج، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وتأتيهم السلوى فيأخذ كلّ إنسان منهم كفايته إلى الغد، إلّا يوم الجمعة، يأخذ ليومين، لأنّه لم يكن ينزل يوم السبت، لأنّه كان يوم عبادة، فإنْ أخذ أكثر من ذلك، دود وفسد ﴿كُلُوا﴾ اي: قلنا لهم كلوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾: حلالات ﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾: من المنّ والسلوى ولا ترفعوا منه، شيئاً، ادّخاراً ولا تعصوا أمري، فرفعوا وجعلوا اللحم قديدا، مخافة أن ينفد ولو لم يرفعوا، لدام عليهم ذلك، والطيب ما لا يعاقه الطبع ولا يكرهه الشرع ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: وما بخسوا بحقّنا ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾: بأن كفروا بالنعم الجليلة، وباستيجابهم العذاب وقطع مادة الرزق، الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة ومشقّة، في الدنيا ولا حساب في العقبى.

قال النبي ﷺ: **«لو لا بنوا إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخبز اللحم»**[1].

والحاصل: فبعد أن أدّبهم الله، بسوط الغربة، في وادي التيه، أدركهم بالرحمة، في وسط الكربة وأكرمهم بالأنعام وظلّلهم بالغمام ومنّ عليهم بالمنّ وسلّاهم بالسلوى، فلا شعورهم كانت تطول ولا أظفارهم كانت تنبت ولا ثيابهم كانت تخلق، أو تدرن، بل كانت تنمو صغارها، حسب نموّ الصغار والصبيان ولا شعاع الشمس ينبسط، وكذلك سنّة الله تعالى، بمن حال بينه وبين اختياره بكون ما اختاره خيرا له، ممّا اختاره العبد لنفسه، ومعذلك ما ازدادوا بشؤم هواهم، إلّا الوقوع في البلوى، كما يحكى عنه قوله: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ الآية، قال أهل التحقيق، من علماء الأخلاق، في كتاب «التنوير»: وما أدخلك الله فيه، تولى اعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك، وكلك إليه والكاملون من أهل السلوك، كانوا يخافون من النعمة، حذرا من أن تكون

١ـ صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٧٩. ورواه السيوطي في الجامع الصغير، ج ٢، ص ٤٤٣.

نعمة الاستدراج، أو محنة، فمن ذلك، كان بعضهم، يسير في البادية، وقد أصابه العطش، فانتهى إلى بئر، فارتفع الماء، إلى رأس البئر، فرفع رأسه إلى السماء وقال: اعلم انّك قادر ولكن لا اطيق هذا، فلو قيضت لي بعض الاعراب، يصقعني صقعات ويسقيني شربة ماء، كان خيرا لي.

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

ذكر سبحانه في الآيات السابقة، نعمه الدنيوية عليهم، كتظليل الغمام، وإنزال المنّ والسلوى وذكر في هذه الآية، النعمة الدينية عليهم، فقال: واذكروا يا بني إسرائيل ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ قولنا، لآبائكم، بعد ما أنفذتم، من التيه ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ واختلف في القرية، قال جماعة مثل قتادة وأبي مسلم والربيع: انّها بيت المقدس واستدلّوا عليه، بقوله في المائدة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1] وقيل: انّها مصر وقال ابن عباس وجماعة: انّها أريحا وهي قرية قريبة من بيت المقدس[2] وقالوا:

لا يجوز أن تكون القرية، بيت المقدس، لأنّ الفاء في قوله: فبدّل الذين ظلموا قولا، يقتضي التعقيب، فوجب أن يكون ذلك التبديل وقع منهم عقيب الأمر بالدخول في حيوة موسى، وموسى مات في التيه ولم يدخل بيت المقدس، فحينئذٍ ليس المراد من هذه القرية، بيت المقدس، وأجاب الأوّلون بأنّه، ليس في هذه الآية، انّا قلنا لهم ادخلوا هذه القرية، على لسان موسى، أو على لسان يوشع، فيمكن أن يكون على لسان يوشع، فيزول الأشكال.

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾: الأمر للإباحة، أي أكلاً واسعاً هنيئاً

١ـ انظر: التبيان، ج ١، ص ٢٦٢.

٢ـ انظر: مجمع البيان، ج ١، ص ٢٢٩.

وأبحنا لكم، فتعيشوا منها، أنّى شئتم بلا مشقّة ولا منع ودخولهم على وجه السكونة والدوام، لقوله في سورة الأعراف: اسكنوا هذه.

﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾ أي: باباً من أبواب القرية، وكان لها سبعة أبواب والمراد من الباب، الثاني ويعرف اليوم، بباب حطّة، أو باب القبّة، التي يتعبّد موسى وهارون ويصليان مع بني إسرائيل إليها ﴿سُجَّدٗا﴾ أي ركّعاً منحنين، ناكسي رؤسكم بالتواضع، على أن يكون المراد به، معناه الحقيقي وقيل: المراد من السجود، نفس السجود، الذي هو الصاق الوجه، بالأرض، على أن يكون المراد به معناه الشرعي، قال الرازي: (وهذا بعيد، لأنّ الظاهر، يقتضي وجوب الدخول حال السجود، فيمتنع ذلك، والمعنى الأول، أولى وأقرب).

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾: قرء الحطة بالرفع، خبر لمبتدأ محذوف، اي: مسألتنا، من الله، حطّ ذنوبنا ومغفرتنا وقرء بالنصب، اي: الهنا حطّ عنّا، ذنوبنا، حطّة.

وقيل: معناه، أمرنا حطّة، اي: أمرنا، أن نحطّ رحالنا، في هذه القرية ونقيم بها وقيل: أريد بالحطّة، كلمة الشهادة، اي: قولوها وهي الحاطّة للذنوب، لكن الأكثرين، على انّ، معنى قوله، وقولوا حطّة، امر من الله، بأن يستغفروا ويطلبوا من الله، حطّ ذنوبهم وهذه المعاني، كلّها يصحّ، أن يترجم عنه بحطّة، لأنّها دواعي المغفرة وحطّ الذنوب، روي عن الباقر عليه السلام، انّه قال: «**نحن باب حطّتكم**»[1]، انّ عليّا، باب حطّة، التي من دخل، في ولايته، أمن ونجى، قال الصادق عليه السلام: «**نحن الأوّلون ونحن الآخرون**» وفي الحديث[2]: «**انّ عليّاً، الأوّل والآخر**»، اي: مرجع الأولياء بدءاً وختماً وانّ له الولاية الكليّة، في الدنيا والآخرة، وانّه أول الخلق شرفاً ورتبة وإياب الخلق إليه، لأنّه الواسطة في

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٢٢.

٢ـ مدينة المعاجز، ج ٣، ص ٢٣٧.

جميع الفيوضات وهذا معنى حديث النبي ﷺ «يا جابر أول ما خلق الله نور نبيك»[١] وعلي ؑ نفس الرسول.

قال علي ؑ: «أنا الأول، أنا الآخر، أنا الظاهر، أنا الباطن» وفي معنى هذا الحديث وجوه: الأول انه ؑ أول من آمن بالنبي ﷺ في عالم الغيب والشهادة من عالم الأنوار والمثال والأرواح والنفوس وعالم الذرّ الأول والناسوت، فإنّه ؑ أول من دعي، وأجاب وأول من أجاب نداء جدّه إبراهيم حين اذّن للناس بالحج، وأيضاً أول الأولياء وآخرهم رتبةً ووجوداً، وتمام الأنبياء والأولياء انّما خلقوا من أشعّة أنوار محمّد ﷺ.[٢]

وعن الصادق ؑ عن آبائه قال رسول الله ﷺ: «يا علي أنت منّي بمنزلة هبة الله من آدم وبمنزلة سام من نوح وبمنزلة إسحاق من إبراهيم وبمنزلة هارون من موسى وبمنزلة شمعون من عيسى، الّا انه لا نبيّ بعدي، يا علي أنت وصيي وخليفتي، فمن جحد وصيّتك وخلافتك فليس منّي ولست منه وأنا خصمه يوم القيامة، يا علي أنت أفضل أمّتي فضلاً وأقدمهم سلماً، وأكثرهم علماً وأوفرهم حلماً وأشجعهم قلبا وأسخاهم كفاً، يا علي أنت الامام والأمير بعدي والوزير ومالك في أمّتي من نظير، يا علي أنت قسيم الجنّة والنار، بمحبتك يعرف الأبرار من الفجّار، ويميز بين الأخيار والأشرار وبين المؤمنين والكفّار».[١]

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾: أصله خطائي، أبدلت الياء الزائدة همزة لوقوعها بعد الالف، فاجتمعت همزتان وأبدلت الثانية ياء، ثم قلبت ألفاً، وكانت الهمزة بين ألفين، فأبدلت ياء، فصار خطايا، مثل بقايا. مجزوم بجواب

١ـ بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٢٤.

٢ـ مناقب آل ابي طالب، ابن شهر آشوب، ج ٢، ص ٢٠٥.

١ـ الأمالي، للصدوق، ص ١٠١. وروضة الواعظين، للفتال، ص ١٠٢.

الأمر. اي: ان فعلتم وأتيتم بما أمرتم به، من الدعاء وطلب المغفرة والجود، لا نجازيكم بذنوبكم، ونعفو عنكم وهم الذين عبدوا العجل ثم تابوا.

﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: ثواباً من فضلنا، وهم الذين لم يعبدوا العجل، والمحسن من أحسن لنفسه ولغيره.

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أي الذين ظلموا أنفسهم وغيّروا ما أمروا به، من التوبة والاستغفار ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: قولا آخر بما لا خير فيه. روي انّهم قالوا مكان حطة، حنطة، وقيل: قالوا بالنبطية ـ وهي لغتهم ـ حطا سمقاتا، يعنون حنطة حمراء، استخفافاً بأمر الله، قال بعض أهل التفسير: (طوطئ لهم الباب ليخفضوا رؤسهم فأبوا أن يدخلوه سجداً، فدخلوا يزحفون على أستاههم مدبرين، مخالفة في الفعل، كما بدّلوا القول، وقالوا: ما شاء موسى أن يلعب بنا، الّا لعب حطّة حطّة، أيّ شيء حطة[1].

قال ابن عباس: (انّهم أمروا بخصوص هذه اللفظة، مع انّ هذه اللفظة عربيّة وهم ما كانوا يتكلّمون بالعربيّة). وقال الآخرون: (المراد أن يقولوا قولاً دالاً على الخضوع والذلّة والتوبة، مثل هذه اللفظة، حتى انّهم لو قالوا مكان قولهم: اللهمّ إنّا نستغفرك ونتوب إليك، لكان المقصود حاصلا، لأنّ المقصود من التوبة بالقلب وباللسان، فالقلب: الندم، واللسان: فذكر لفظ يدلّ على حصول الندم في القلب وذلك لا يتوقف على ذكر لفظة معيّنة.)

﴿فَأَنزَلْنَا﴾ عقيب ذلك ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: وغيّروا ما أمروا به ولم

١ـ الأمالي، الصدوق، ص ١٠١. وروضة الواعظين، للفتال، ص ١٠٢.الدر المنثور،جلال الدين السيوطي، ج ١، ص ٧١.

يقل عليهم لأنّ منهم المحسنين ﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذابا، فويل للمبدّل، وقد بدّلت مصحفاً بطنبور، وعسلاً بزنبور. أما سمعت قول ابن عباس حيث قال: ضمن الله لمن أتبع القرآن أن لا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.[١] أما سمعت قول الله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[٢] فحينئذٍ كيف بدلت الجلدة، بموجبات الحلاوة، من كتاب الله في الزنا والخمر. ولم بدل المعروف بالمنكر والمنكر بالمعروف. فإن قلت: لا، فلم تؤاخذني إذا وبّخت الزانية، ولا تؤاخذها. وهل التبديل غير هذا. فإن تعذرت بالاقتضاء، فذلك لو سلّم، ففي ما لا يمكن غير المقتضي بمعنى المفعول وامّا فيما يمكن، فليس ذلك إلا خروجاً من الدين، هذا في الحدود وامّا في الحقوق، فعليك بمراجعة كتاب القضاء والشهادات حتى يتبين لك الأمر من فساد محاكماتك. وأول فسادها، أنّ ما يؤخذ ويسترد من الحقوق بحكمك، فكأنما أخذ بحكم الجبت والطاغوت، إذا لم يقع التراضي بين المتخاصمين، لأنك لست أهلاً للحكم. وأما مجلسك العالي، فيا لله والشورى. وقد جعلت أصله المتأصل وامّ كتابه، الأكثريّة!! فهل كانت مادّة من أمور الدين أو الدنيا أهملها الله في كتابه وسنّته، حتّى جعلت حكم تلك المادّة برأيي ورأيك، وانّي استغفر الله ممّا طغى به القلم.

والرجز في الأصل ما يعاف ويستكره، وكذلك الرجس. والمراد في الآية، الطّاعون. روي انّه مات في ساعة واحدة، منهم أربعة وعشرون ألفاً، ودام حتّى بلغ سبعين ألفاً[١] وفي الحديث: الطاعون رجز، أرسل على بني

١ـ تفسير جوامع الجامع، ج ٢، ص ٥٠٦،و المصنف، لابن أبي شيبة الكوفي، ج ٨، ص ١٩٧.

٢ـ سورة الإسراء: ٩.

١ـ أنظر: التبيان، ج ١، ص ٢٦٨.

إسرائيل، أو على من بدّل، فإذا سمعتم انّ الطاعون بأرض، فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها.

قال النبيﷺ: **«الطاعون شهادة لأمّتي المؤمنين ورحمة لهم ورجس على الكافرين»**.[1] ومن مات من الطاعون، مات شهيداً، ويأمن فتنة القبر، وكذا المبطون، والاستسقاء داخل في المبطون. وعقله لا يزال حاضراً إلى حين موته، وكذلك صاحب السلّ وكذا الغريق، وكذا من يهدم عليه، وصاحب ذات الجنب، والحرق، والمرأة الجمعاء[2]، وهي من تموت حاملاً، جامعاً ولدها.

وفي الحديث: **«إذا بخس الكيل حبس القطر وإذا كثر الزنى، كثر الموت والقتل، وإذا كثر الكذب، كثر الهرج»**[3] والحكمة، انّ الزنى إهلاك النفس، لأنّ ولد الزناء هالك حكماً، فلذلك وقع الجزاء بالموت الذريع، لأنّ الجزاء من جنس العمل، كما انّ بخس المكيال، يجازى بحبس القطر الذي هو سبب لنقص أرزاقهم. وكذلك الكذب سبب التفرق والعداوة بين الناس ولهذا يجازى بالهرج الذي هو الفتنة. وانما تعم البلاء أينما وقعت، لتكون عقوبة على اخوان الشياطين، وشهادة ورحمة للمؤمنين.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ اي: اذكروا يا بني إسرائيل، وقت الذي

١ـ أنظر: الطبقات الكبري، لابن سعد، ج ٧، ص ٧٠.

٢ـ شرح صحيح مسلم، للنووي، ج ١٣، ص ٦٢.

٣ـ مستدرك الحاكم، للحاكم النيسابوري، ج ٤، ص ٥٠٣.

سأل موسى السقيا لأجل قومه. وكان ذلك في التيه، حين استولى عليهم العطش الشديد، فاستغاثوا بموسى، فدعا موسى ربّه أن يسقيهم ﴿فَقُلْنَا﴾ له بالوحي ان ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ﴾ وكانت من آس الجنّة، طولها عشرة أذرع، على طول موسى ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً. حملها آدم من الجنّة، فتوارثها الأنبياء، حتى وصلت إلى شعيب، فأعطاها موسى.

﴿ٱلْحَجَرَ﴾: اللّام للعهد، والإشارة إلى معهود. فقد روي انّه كان حجراً طوريّاً، حمله معه. وكان حفيفاً مربعا، له أربعة أوجه، في كلّ وجه ثلاث أعين أو هو الحجر الذي فرّ بثوبه، حين وضع ثوبه عليه ليغتسل وبرأه الله ممّا رموه به من الادرة، فأشار إليه جبرئيل أن ارفعه، فإنّ لله فيه قدرة ولك فيه معجزة.

قال النبي ﷺ: «**كان بنو إسرائيل ينظر بعضهم إلى سوأة بعض، ولكن موسى يغتسل وحده، فوضع ثوبه على حجر، ففرّ الحجر بثوبه، فخرج موسى بأثره، يقول ثوبي يا حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى، فقالوا: والله ما بموسى أدرة**»[1] وهي بالضم، نفخة بالخصية. وامّا للجنس، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر. وهو الأظهر في الحجّة، وأبين على القدرة، فإنّ إخراج الماء، بضرب من العصا من الحجر، أي حجر كان، ادلّ على ثبوت نبوّة موسى من إخراج الماء من حجر معهود، لاحتمال أن يذهب إلى تلك الخاصيّة، في ذلك الحجر المعيّن، كخاصيّة جذب الحديد في حجر المغناطيس.

﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾: والانفجار ـ الانسكاب والانبجاس ـ الترشح ﴿مِنْهُ﴾ اي: من ذلك الحجر ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: ماء عذبا، على عدد الأسباط، لكلّ سبط عين. وكان يضربه بعصاه إذا نزل فيتفجر. ويضربه إذا ارتحل فييبس

١ـ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابوري، ج ٧، ص ٩٩.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ أي كلّ سبط من الأسباط الاثنى عشر ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي عينهم الخاصّة بهم والمشرب، المصدر والمكان. والحكمة في ذلك، انّ الأسباط كانت بينهم عصبيّة ومباهاة. وكلّ سبط منهم لا يتزوّج من سبط آخر وكلّ سبط أراد تكثير نفسه، فجعل الله لكلّ سبط مشرباً لكيلا يقع بينهم جدال وخصومة. وكانوا ستمائة ألف. وسعة المعسكر، اثنى عشر ميلاً.

ومن أنكر أمثال هذه المعجزات، فلغاية جهله بالله وقدرته، فإنّه لمّا أمكن أن يكون من الأحجار، ما يجذب الحديد، لم يمنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض، أو لجذب الهواء من الجوانب ويجعله ماءاً بقوة التبريد. ومعنى المعجزة أن تكون خارجة عن العاديّات والأسباب، كما ظهر أعجب منها من انفجار الماء من يد نبيّنا، من بين أصابعه، من لحم ودم ﴿كُلُوا﴾: أي قلنا لهم أو قيل لهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: العثى، أشدّ الفساد، لأنّ الفساد قد يكون ظاهره فساداً لكن باطنه ليس بفساد، وأمّا العثى، الفساد القبيح ظاهراً وباطناً. أي لا تتمادوا في الفساد، حال كونكم مفسدين.

وقد استسقى نبيّنا ﷺ، روي عن جندبه: (انّ أعرابيّاً دخل عليه ﷺ يوم الجمعة، وقال: يا رسول الله ملكت الكراع والمواشي، وأجدبت الأرض، فادع الله أن يسقينا، فرفع يديه، ودعا متذلّلاً، متواضعاً، متخشعاً قال أنس: والسماء كأنّها زجاجة، ليس فيها قزعة، فنشأت سحابة ومطرت إلى الجمعة القابلة).[1] وترك الدعاء لكشف الضرّ مذموم عند أهل الطريقة، لأنّه كالمقاومة مع الله، ودعوى التحمّل لمشاقّه. قال ابن الفارض:

١ـ تذكرة الفقهاء، ج ١، ص ١٦٧.

و يحسن إظهار التجلد للعدى و يقبح غير العجز عند الأحبة[1]

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «للدعاء شروط: الأول: همّ مجموع. والثاني: إخلاص السريرة والثالث معرفة المسؤول والرابع الإنصاف في المسألة».[2]

روى انّ موسى عليه السلام مرّ برجل ساجد يبكي ويتضرع، فقال موسى: (يا ربّ، لو كانت حاجة هذا العبد بيدي، لقضيتها، فأوحى الله اليه: يا موسى انّه يدعوني وقلبه متعلق ومشغول بغنمه، فلو سجد حتى ينقطع صلبه وشق عيناه، لم استجب له حتى يتحوّل عمّا ابغض إلى ما أحب).[3]

قال النبي صلى الله عليه وآله: «انّ العبد ليرفع يديه الى الله ومطعمه حرام وملبسه حرام فكيف يستجاب له وهذه حاله»[4] قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لو انّ الناس إذا زالت عنهم النعم، وحلّت بهم النقم، فزعوا إلى الله بصدق نيّاتهم، ووله من نفوسهم، لردّ عليهم كل شارد، ولأصلح لهم كلّ فاسد، ولكنّهم أخلّوا بشكر النعم، فسلبوها وان الله يعطي بشرط الشكر لها والقيام فيها بحقوقها»[5]، فإذا أخلّ بالشكر، كان لله التغيير والتقتير. والله ما نزع الله من قوم نعماؤه، إلّا بذنوب اجترحوها، فقيّدوها بالطاعة واقرب الناس إلى الإجابة، الطائع المضطرّ، الذي لا بدّ له ممّا سأله، خصوصاً عند نفاد الصبر.

واعلم، انّ كرمه وجوده لا يتعدّيان حكمته، قال الله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[1]، سبحان من عطائه

١ـ التحفة السنية، للجزائري، ص ٤٤. (المخطوط)

٢ـ شجرة طوبى، للحائري، ج ٢، ص ٣٨٤.

٣ـ الكافي، ج ٨، ص ١٢٩.

٤ـ شجرة طوبى، ج ٢، ص ٣٨٤.

٥ـ تحف العقول، للحراني، ص ١١٤.

١ـ سورة مؤمنون: ٧١.

كرم، ومنعه عدل وفضل، ولا ييأس العبد من تأخير الإجابة، فيقصر في الدعاء. وقد كان بين إجابة موسى وهارون في فرعون، أربعين سنة، من حين قال لهما: قد أجيبت دعوتكما.[1] قال الصادق عليه السلام: «**آداب الدعاء تبدأ وتذكر نعمه عندك، ثم تشكره، ثم تصلي على النبي صلى الله عليه وآله، ثم تذكر ذنوبك خائفاً، ثم تستغفروا الله منها، ثمّ تطلب حاجتك**».[2]

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾: تذكير جناية أخرى لاسلافهم، وكفرانهم بنعمة الله. خاطبهم تنزيلاً لهم مكان آبائهم، لما بينهم من الاتحاد في الطريقة. وكان هذا القول منهم في التيه، حين سئموا من أكل المن والسلوى، لأنهم تذكروا عيشهم الأول بمصر، لأنهم كانوا أهل فلاحة، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عادتهم، فقالوا: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾: وكنوا عن المن والسلوى بطعام واحد، وهما اثنان، لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر، فيصيران طعاماً واحداً، أو أريد بالواحد، نفي التبدّل والاختلاف ولو كان على مائدة ألوان عديده، يداوم عليها، فقال لا يأكل فلان الّا طعاما واحداً ﴿فَٱدْعُ لَنَا

ـــــــــــــــــــ

١ـ البداية والنهاية، لابن كثير، ج ١، ص ٣١٦.

٢ـ شرح أصول الكافي، ج ١٠، ص ٢٦٠.

﴿رَبَّكَ﴾ أي سله ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾: ويظهر لأجلنا، والجزم لجواب الأمر أي أن تدع لنا ربّك، يخرج لنا ﴿مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ و(من) تبعيضية و(ما) موصلة ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾ والبقل ما نبت الأرض، من الخضر. والمراد أصناف البقول، التي تأكلها الناس كالكراث والنعناع والكرفس وأشباهها ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ من أنواع الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ قيل: هو الحنطة، لأنّ ذكر العدس، يدلّ على أنّه المراد، لأنّه من جنسه، وقيل هو الثوم، لأنّ ذكر البصل يدلّ على انّه هو المراد، فإنّه من جنسه.

قال ابن التمجيد[1]: وحمله على الثوم أوفق من الحنطة ﴿وَعَدَسِهَا﴾: حبّ معروف يستوي كيله ووزنه ﴿وَبَصَلِهَا﴾: بقل معروف، تطيب به القدور، ﴿قَالَ﴾: استيناف وقع عن سؤال مقدّر، كأنّه قيل: فماذا قال الله لهم أو موسى، فقيل إنكاراً عليهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ أي أتأخذون وتختارون لأنفسكم، ﴿ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أي أدون مرتبة إذا قرأ ادنأ مهموزا. وإذا قرأنا قصراً، أي اقرب وأحط منزلة ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾: أي بمقابلة ما هو خير، كما انّ خيرية المن والسّلوى في اللذاذة وسقوط المشقّة بالنسبة إلى العدس والبصل واضحة ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ وانزلوا من التيه، إن كنتم تريدون هذه الأشياء ﴿مِصْرًا﴾ من الأمصار، لأنّكم في البريّة ولا فيها ما تطلبون، وانّما يوجد ذلك في الأمصار وليس المراد بمصر، مصر فرعون، لقوله: يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة وإذا وجب عليهم دخول تلك الأرض، لكن قال الحسن والربيع: أراد مصر فرعون، الّذي خرجوا منه قال أبو مسلم: أراد بيت المقدس

١ـ ابن التمجيد: مصلح الدين مصطفي بن ابراهيم الرومي الحنفي، المعروف بابن التمجيد، كان معلماً للسلطان ابي الفتح محمد خان العثماني ومفسراً ومن علماء الدولة العثماني (المتوفي سنة ٨٨٦ ق).

﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ والمصر البلد العظيم، من مصر الشيء: أي قطعه، سمّي به لانقطاعه عن الفضاء، بالعمارة وانّما صرف، لسكون وسطه، كهند ونوح، أو لتأويله بالبلد دون المدينة ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ والهوان ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾: أي الفقر: أي جعلنا محيطتين بهم، إحاطة القبّة بمن ضربت عليه، أو المعنى بتعبير الضرب، انّه الصقنا بهم وجعلنا ضربة لازب لا تنفك عنهم، مجازاة على كفرانهم كما يضرب الطين على الحائط، فهو استعارة بالكناية. فترى أكثر اليهود وان كانوا مياسير كأنّهم فقراء ﴿وَبَاءُو﴾: أي رجعوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيم كائن ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ استحقوه ولزمهم ذلك. وإطلاق الغضب في حق الله، المراد لازم الغضب، وهو العقوبة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي البوء بالغضب العظيم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب انّ اليهود ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ على الاستمرار ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ والمعجزات الساطعة على موسى، مما عدّ ولم يعدّ، وكذّبوا بالقرآن وبمحمّدﷺ وأنكروا صفته، وكفروا بعيسى والإنجيل ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ كشعيب وزكريا ويحيىعليهم السلام وفائدة التقييد مع انّ قتل الأنبياء يستحيل أن يكون بحق، للإيذان بأنّ ذلك عندهم أيضاً بغير الحق.

قال ابن عباس: (لم يقتل قطّ من الأنبياء، إلّا من لم يؤمر بقتال. وذلك القتل كرامة لهم وليس بخذلان لهم).[1] وكلّ امر بقتال، نصر. فظهر أن لا تعارض بين قوله: ويقتلون النبيّين بغير الحقّ، وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ مع انّه يجوز أن يراد، به النصرة بالحجة والبرهان، لا بالسيف والسنان ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي ما ذكر من العذاب والبوء بالغضب والذلة ﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: أي

١ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج ١، ص ٤٣٢.

فعلت لهم ما فعلت، بعصيانهم أمري وتجاوزهم عن حدودي. وقوله ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ فهو تأكيد بتكرير الشيء بغير اللفظ الأول، وبيان استمرارهم في العصيان.

وفي الآية الكريمة دليل وبيان على جواز أكل الطيّبات والمطاعم المستلذات وكان النبيﷺ يحبّ الحلوى والعسل ويشرب الماء البارد. والعدس والزيت طعام الصالحين. في الحديث: «**عليكم بالعدس، فإنّه مبارك مقدس وانّه يرقق القلب ويكثر الدمعة، بارك فيه سبعون نبياً، آخرهم عيسى بن مريم**»[1] ﷺ، ولو لم يكن فيه فضيلة غير انّ ضيافة إبراهيم الخليل من مأدبته لا تخلو منه، لكان فيه كفاية وهو يخفف البدن فيخف للعبادة، ولا تثور منه الشّهوات ولهذا السّبب كان رغبة الأنبياء فيه أكثر من غيره.

وكذلك في الآية دلالة على إباحة أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة. في الحديث: «**من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقربن مسجدنا، فإنّ الملائكة تتأذى ممّا يتأذى منه بنو آدم**»[2] والمراد بالملائكة، الحاضرون مواضع العبادات، لا الملازمون للإنسان في جميع الأوقات. ويمكن ان الملازمين أيضاً يتأذّون، فلا وجه للتخصيص قالﷺ: «**ان كنتم لا بدّ لكم من أكلها، فاميتوها طبخاً**»، وانما كره النبيﷺ أكل الثوم والبصل وغيره، لما انّه يأتيه الوحي ويناجي الله، ولكن رخص للسائر حتى قيل: آخر ما اكله النبيﷺ البصل، إيذانا لأمته بإباحته. التذييل يؤتى به لتأكيد معنى الجملة السّابقة، مثل جاء الحق الآية، على انّه أراد استمرار كفرهم، قال الشاعر:

١ـ عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٤٥. ورواه المجلسي في البحار، ج ١٤، ص ٢٥٤

٢ـ صحيح، أخرجه مسلم، ج ٢، ص ٨٠. وكذا النسائي، ج ١، ص ١١٦. والترمذي، ج ٢، ص ٣٣٢.

لله لذة عيش بالحبيب مضت فلم تدم لي وغير الله لم يدم

والتذييل، تكرار الشيء بغير اللفظ الأول للتأكيد والثبوت، كما انّ هذا المعنى في الاعتراض، لكن في الاعتراض ثبوت تأكيد ومعان أخر، مثل التنزيه، مثل ويجعلون لله البنات ـ سبحانه ـ ولهم ما يشتهون. والنكتة: تنزيه الله عن هذه النسبة القبيحة. وأيضاً فائدة الاعتراض، التنبيه كقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾[1]، فقوله: حملته إلى قوله في عامين. معترضة إيجابا وتأكيداً للوصيّة بالوالدين. ومن فائدة الاعتراض. الاستعطاف، كقول المتنبّي:

وخفوق قلبي لو رأيت لهيبه يا جنّتي لرأيت فيه جهنّما

استعطاف في قوله يا جنتي، وطباق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: اختلفوا في هؤلاء المؤمنين في هذه الآية، قيل: المراد منهم، الذين آمنوا بعيسى، ثم لم يتهودوا ولم ينتصروا ولم يصبئوا، وانتظروا خروج محمّد ﷺ. وقيل: هم طلاب الدين، منهم حبيب النجار وقيس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل والبراء الشنى وأبو ذرّ الغفاري وسلمان الفارسي وأصحابه النصارى الذين كان قد تنصّر على أيديهم، قبل مبعث الرسول ﷺ. وكانوا قد اخبروه بانّه سيبعث، وانّهم يؤمنون به إن أدركوه. وقيل: هم مؤمنوا الأمم الماضية. وقيل: المراد المنافقون الذين

ـــــــــــــــ

١ـ سورة لقمان: ١٤.

آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم بقرينة انتظامهم في سلك الكفرة، وانّما عبّر عنهم بذلك، دون تصريح عنوان النفاق، للإشعار بأنّ تلك المرتبة وان عبّر عنها بالإيمان، لا تجديهم نفعاً أصلاً، فعلى هذا يكون معنى الآية: انّ الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم من المنافقين واليهود والنصارى، إذا آمنوا بعد النفاق، واسلموا بعد العناد كان لهم أجرهم عند ربّهم، كمن آمن في أول استدعائه إلى الإيمان من غير نفاق. وذلك انّ قوماً من المسلمين قالوا: انّ من أسلم بعد نفاقه وعناده، كان ثوابه أنقص وأجره أقلّ، فأخبر الله بهذه الآية انّهم سواء في الأجر والثواب.

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾: أي صاروا يهوديًا وبقوا على دين اليهودية. واختلف في اشتقاق هذا الاسم، قيل: عربيّ، من هاد، إذا تاب ورجع سموّ بذلك حين تابوا عن عبادة العجل وخصّوا به، لما كانت توبتهم توبة هائلة، وامّا لأنّهم سمّوا للنسبة إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب. وقيل سمّوا بهذا الاسم، لأنّهم إذا جاءهم رسول أو نبيّ، هادوا إلى ملكهم، فدلوه عليه، فيقتلونه.

﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾: جمع نصران، مثل ندامى جمع ندمان، سمّوا بذلك لأنّهم نصروا المسيح، أو لأنّهم كانوا معه في قرية، يقال لها ناصرة، فسمّوا باسمها.

﴿وَالصَّابِئِينَ﴾: من صبأ. إذا خرج من الدين. وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الكواكب والملائكة، فكانوا كعبدة الأصنام وإن كانوا يقرؤن الزبور وفي روضة العلماء: انّه جاء أعرابي إلى النبيﷺ، فقال: لم يسمّى الصابئون، فقالﷺ: **«لأنهم إذا جاءهم رسول أو نبيّ، أخذوه وعمدوا إلى قدر عظيم فاغلوه حتى إذا كان يحمى صبوه على رأسه حتى ينفسخ».**

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: أي من آمن منهم إيماناً خالصاً

بالمبدإ والمعاد، ﴿وَعَمِلَ﴾ عملا ﴿صَٰلِحًا﴾ مرضيًا عند الله ﴿فَلَهُمْ﴾ بمقابلة تلك. والفاء للسببيّة ﴿أَجْرُهُمْ﴾ الموعود لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي مالك أمرهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على جملة فلهم أجرهم. أي لا خوف عليهم، حين يخاف الكفار، العقاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يحزن المقصّرون على تضييع العمر، لأنّهم تداركوا ما فات منهم ونهوا النفس عن الهوى. أولئك على هدى من ربّهم وهذه الهداية من النعم التكوينيّة، أعني الفطري الذي فطر الناس عليها. والفطري الذي يتعلق به التكليف في العوالم الستة: ثلاثة منها في عالم الغيب، وهو عالم العقل والروح والمثال. وثلاثة في عالم الشهادة، وهو عالم الذرّ والطينة والخلق.

في الحديث: **«إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه، فلا يسمع بمعروف الّا عرفه ولا بمنكر الّا أنكره».**[1] والمراد من ذلك، مقام المعاينة ومرتبة الشهود القلبي، فإنّ للإنسان قوة درّاكة ينتقش فيها حقايق الأشياء، كما في المرآة، إذا كانت صافية، لكنّ القلب المتلبّس بالغواشي والعلائق، محروم عن عالم المشاهدة وهو في عماه. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. والنفس إذا فنت في الطاعة، تكون إرادتها تابعة لرضى الله وترتبط بالفيض، ونور إمامه وحجّته، كما قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[2]، كأنّه يرى الامام بالعين القلبيّة ويستمدّ منه، وإن غاب عنه في عالم الحسّ وهذا المقام أعلى المقامات، قريب من العلم اللدني. ولا يحصل الّا للخواصّ من الشيعة ـ رزقنا الله بفضله ـ ولا يحصل هذا المقام، مع حبّ الدنيا ويحصل لأهل الخوف والخشية.

۱ـ مستدرك الوسائل، ج ٥، ص ۲۹۷.

۲ـ سورة الأنعام: ۱۲۲

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾: تذكير جناية أخرى، لأسلاف بني إسرائيل أي اذكروا يا بني إسرائيل وقت أخذنا بعهد آبائكم، بالعمل على ما في التوراة وذلك قبل التيه، حين خرجوا مع موسى من مصر، ونجوا من الغرق ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾: كأنّه ظلّة حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق. والطور الجبل بالسريانية. وذلك انّ موسى جاءهم بالألواح، فرأوا ما فيها من الإجبار والتكاليف الشاقّة، فكبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبرئيل، فقلع الجبل من أصله ورفعه وظلّله فوقهم. وقال لهم موسى: «**ان قبلتم وإلّا القي عليكم**»، فلمّا رأوا، ان لا مهرب لهم منها، قبلوا وسجدوا وجعلوا يلاحظون الجبل ـ وهم سجود ـ لئلا ينزل عليهم. فصارت عادة في اليهود، لا يسجدون الا هم على إنصاف وجوههم. ويقولون: بهذا السجود رفع عنّا العذاب، ثمّ رفع الجبل، فألجئوا إلى قبوله كارهين، الّا من عصمه الله من العناد، فإنّه قبله طائعاً، مختارا، ومنهم آمنوا كرهاً وسجدوا وقلوبهم غير مطمئنّة. وهذا الإلجاء جائز، كالمحاربة مع الكفار وامّا قوله لا إكراه في الدين وأمثاله، فمنسوخ بآية السيف والقتال. ومن الميثاق الذي أخذ منهم، العمل بالتوراة، ومن أحكام التوراة، بيان ما فيه من نبوّة محمّد ﷺ ووصيّة عليّ عليه السلام والطيّبين من أولاده، وأن يؤدوا هذا الأمر إلى اخلافهم قرناً بعد قرن، فأبوا قبول ذلك واستكبروا وذلك قوله: ثمّ تولّيتم من بعد ذلك الآية ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾: أي قلنا لهم خذوا ما آتيناكم من الكتاب بجدّ وعزيمة ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾: واحفظوا ما في الكتاب، ولا تنسوه، ولا تغلفوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: لكي تكونوا متقين.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾: أي ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء. قال القفال: تولّوا بأمور كثيرة، فحرّفوا التوراة، وتركوا العمل بها، وقتلوا الأنبياء، وكفروا بهم، وعصوا أمرهم. ولعل فيها ما اختص به بعضهم دون بعض ومنها ما عمله أوائلهم ومنها ما فعله متأخروهم. ولم يزالوا في التيه، مع مشاهدتهم الأعاجيب ليلاً ونهاراً، يخالفون موسى ويعترضون عليه ويلقونه بكلّ أذى، ويجاهرون بالمعاصي في معسكرهم ذلك، حتّى لقد خسف ببعضهم، وأحرقت النار بعضهم، وعوقبوا بالطاعون. وكل هذا مذكور في تراجم التوراة، ثم فعل متأخروهم ما لا خفاء به ـ وكفروا بالمسيح ـ وهمّوا بقتله والقرآن والجملة معروفة.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾: من إمهالكم وتأخير العذاب عنكم، ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: لكنتم من الهالكين، فدلّ هذا القول على انّهم خرجوا من هذا الخسران، لأنّ الله تفضّل عليهم بالإمهال حتى تابوا. وقيل في معنى الآية: انّ الكلام ثمّ عند قوله: ثم توليتم من بعد ذلك، ثم قيل: فلو لا فضل الله رجوعاً بالكلام إلى اوّله، فيكون معنى الآية: لو لا لطف الله بكم، برفع الجبل فوقكم، لدمتم على ردّكم وإنكاركم قبول التوراة، وكنتم كافرين، فلطف بكم بذلك، حتى تبتم وقبلتم وفزتم بسبب التفضل على التوبة والإيمان.[1]

١ـ أورد المفسر في بيانه أبياتاً بالفارسية نوردها مع الترجمه:

مركب توبه عجائب مركب است　　بر فلك تازد بيك لحظه ز پست

چون برآرند از پشيمانى انين　　عرش لرزد از انين المذنبين

فان كنت في لباس الفسوق، فبدّل لباسك بلباس التقوى، وكن من الطبقة الرابعة فإنّ الناس على أربع طبقات:

اولها: سعيد بالنفس والروح، وهم الأنبياء والمعصومون.

والثانية: شقيّ بالنفس والروح، وهم الكفّار والمصرّون على الكبائر.

والثالثة: شقي بالنفس في لباس السعادة، على سبيل العارية، مثل بلعم وبرصيصا وابراهه وبعض ما تراه في عصرك.

والرابعة: سعيد بالنفس في لباس الشقاوة كبلال وصهيب والتائبين الراجعين عن هوى النفس. ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾. والعبد المذنب شأنه انّه مع التوبة لا يفارقه الخوف. ولو كان في أي طبقة، فخوف المذنبين من العقوبات. وخوف العابدين من فوات الشروط وعدم القبول وخوف العالمين من الشرك الخفي في الطاعات وخوف العارفين من الهيبة والتعظيم. وهذا أشدّ الخوف لأنّه لا يزول أبداً، وباقي الأنواع إذا قوبلت بالرحمة سكنت في الجملة. ورأس مال المذنب، الخوف، وهو سدّ محكم من معاصي الله، إذا كان صادقاً. ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. واعلم انّ في جميع ما أمرك المشرّع ﷺ فوائد لا تحصى، حتى في كيفيّة مشيك ونومك وأكلك، مثل ان أمرك بقلّة الأكل. ومن الفوائد منها، قلّة الحدث ودوام الطهارة وخفّة النفس للعبادة وقلّة التعب للمؤنة وصفاء القلب وتيقّظ الفطنة وذهاب التخمة[1] وغنى عن الأدوية وبقاء الصحّة وزيادة نور البصر وتقوية

→

جمله ماضيها از اين نيكو شوند　　زهر پارينه از اين گردد چو قند

المعنى: سبيل التوبة والرجوع عن الذنوب مدهش وعجيب، حيث يرتقي صاحبها بلحظة إلى المعالي والأفلاك من الحضيض * حين يعلوا (من شدة الندم) أنين التائبين، يهتز العرش من أنين المذنبين * فتصبح كل السيئات حسنات، وتتبدل المرارات القاتلة (الصعوبات) حلوة طيبة.

١ـ التخمة: من التخّم: داء يصيب الإنسان من أكل الطعام الثقيل أو من امتلاء المعدة.

الكبد وطرد الكسل وتنقية الجسد وهكذا هلمّ جرا، مثل الجهر بالتكبيرة ورفع اليدين حتى ينتقل إلى الصلاة. فلازم الخوف واليقين، تكن من المتقين. ولا تقنع فقط بالفريضة، بل أتبعها بالسنّة. وأفضل القرب، الفريضة، وبعدها سنّة مستفيضة. فكما لا تورق الجذل بدون الفنن، لا يكمل الفرض بدون السنن. ازدد لجوعة القيامة من رواتب الفرائض، واجعل إدامها وفاكهتها النوافل، فإنّ الفرض كالقوت والنفل كالحلاوة. ونعم ذلك الحمل ونعمت هذه الحلاوة. ذلك حتم مقضيّ وهذا أدب مرضيّ، فمن لزم جادة الفرض والنفل، ملك حظائر الجنان أو أكثرها، وورد سلسبيلها وكوثرها.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾

خطاب لمعاصري النبيﷺ من اليهود ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾: وبالله قد عرفتم يا بني إسرائيل ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا﴾ وتجاوزا الحد ظلماً منكم أي أسلافكم ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ في يوم السبت وجاوزوا ما حدّ لهم فيه من التجرّد للعبادة واشتغلوا بالصيد. وأصل السبت، القطع، لأنّ اليهود أمروا بأن يقطعوا الأعمال ويشتغلوا بعبادة الله ويسمّى النوم سباتاً، لأنّه يقطع الحركات الاختيارية. وحاصل الكلام: انكم تعلمون ما أصابهم من العقوبة، فاحذروا كيلا يصبكم مثل ما أصابهم.

والقصة فيه: انّهم كانوا في زمن داودﷺ بأرض يقال لها (أيلة) بين المدينة والشام، على ساحل بحر القلزم، حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت، فكان إذا دخل السبت، لم يبق حوت في البحر الّا اجتمع هناك، امّا ابتلاء لأولئك القوم، وامّا لزيارة السمكة التي كان في بطنها يونس، ففي كلّ سبت يجتمعن لزيارتها وتخرجن خراطيمهن من الماء، بحيث لا يرى الماء

من كثرتها. وإذا مضى السبت، تفرقن ولزمن مقل البحر، فعمد رجال من أهل تلك القرية فحفروا الحياض حول البحر، وشرعوا منه إليها الأنهار، فإذا كانت عشية الجمعة، فتحوا تلك الأنهار، فأقبل الموج بالحيتان إلى الحياض، فلا يقدرون على الخروج، لبعد عمقها وقلّة مائها، فإذا كان يوم الأحد يصطادونها، فأخذوا وأكلوا وملحوا وباعوا، فكثرت أموالهم، ففعلوا ذلك زمانا، أربعين سنة أو سبعين، لم تنزل عليهم عقوبة. وكانوا يتخوفون العقوبة فلمّا لم يعاقبوا، استبشروا وتجرئوا على الذنب. وقالوا ما نرى الذنب إلّا قد أجل لنا. ثم استنّ الأبناء، سنّة الآباء، فلمّا فعلوا ذلك صار أهل القرية وكانوا نحواً من سبعين ألفاً، ثلاثة أصناف، صنف أمسك ونهى، وصنف امسك ولم ينه، وصنف انتهك الحرمة. وكان الناهون اثنى عشر ألفاً، فنهوهم عن ذلك، وقالوا يا قوم انكم عصيتم ربّكم وخالفتم سنّة نبيّكم، فانتهوا عن هذا العمل، قبل أن ينزل عليكم البلاء، فلم يتّعظوا وأبوا قبول نصحهم، فعاقب الله بالمسخ الطائفتين، الممسكة الغير ناهية والعاصية.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾: جمع قردة، كالديكة جمع ديك، فحول الله صورهم إلى صورة قردة، من غير امتناع ولا لبث ﴿خَاسِئِينَ﴾: والخسئ: الصغار والطرد وذلك انّ المجرمين لمّا أبوا قبول النصح، قال الناهون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار وصيّروها بذلك ثنتين، فلعنهم داود، فمسخوا ليلاً، فلمّا أصبح الناهون، أتوا أبوابها فإذا هي مغلقة، لا يسمع منها صوت، ولا يعلو منها دخان، فتسوروا الحيطان، ودخلوا فرأوهم قد صار الشبّان قردة، والشيوخ خنازير، لها اذناب، يتعاوون، فعرفت القردة أنسابهم من الإنس، ولم يعرف الإنس أنسابهم من القردة فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس، فتشمّ ثيابه وتبكي فيقول: الم ننهكم من ذلك، فكانوا يشيرون

برءوسهم، ان، نعم. ولم يكن ابتداء القردة من هؤلاء، بل كان جنس القردة قبلهم. وماتوا بعد ثلاثة أيّام، ولم يتوالدوا. والقردة التي في الدنيا، هي نسل القردة التي كانت قبلهم.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾: أي صيّرنا مسخة تلك الأمة، عبرة تنكل وتمنع من اعتبر بها ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾: من أن يقدم على مثل صنيعهم، لما بين يديها وما بعدها من القرون، لأنّ مسختهم ذكرت في كتب الأولين، فاعتبروا بها. وكذلك اعتبر من بلغته من الآخرين، فاستعبر ما بين يديها للزمان الحال وما خلفها للمستقبل ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: وموعظة لكلّ متقي سمعها. ومعلوم انّ من لم يعرف قدر الإحسان ويكافئ المنعم بالكفران، يردّ من عزّة الوصال، إلى ذلّ الهجران ولا ينبغي أن يغترّ من لا يعاقب بمثل هذه العقوبات، من الخسف والمسخ وأمثالهما، فإن الاستدراج وعقوبة القلوب أشدّ، وأشدّ من عقوبات النفوس والأجساد. قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾[1]، الآية. ولا شكّ انّ مسخ القلب عين الحرمان. وعلامة مسخ القلب، أكل مال الحرام، وعدم المبالات به، وان لا يجد ممسوخ القلب حلاوة الطاعة، ولا يخاف من المعصية، ولا يعتبر بموت أحد، كذا ذكر في كتاب زهرة الرياض: قال عوف بن عبد الله: من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه. ومن أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس. ومن أصلح سريرته، أصلح الله علانيته. وصلاح أربعة في أربعة:

الصبيان في المكاتب وخدمة الأساتيد للصنعة. وصلاح القطاع في السجن. وصلاح النساء في البيوت. وصلاح الكهول في المساجد.

١ـ سورة أنعام: ١١٠.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾: توبيخ آخر لا خلاف بني إسرائيل، بتذكير جنايات صدرت من أسلافهم، حتى ينتهوا، فقال: واذكروا قول موسى لأسلافكم وأجدادكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾: هي الأنثى من نوع الثور، أو واحد البقر، ذكراً كان أو أنثى، وأصله من الشقّ، سميت به لأنّها تبقر وتشق الأرض للحراثة.

قال صاحب تفسير «روح البيان»: وذلك انّه كان في بني إسرائيل شيخ موسر، فقتله بنو عمّه، طمعاً في ميراثه، فطرحوه على باب المدينة، أو حملوه إلى قرية أخرى والقوه بفنائها، ثمّ جاءوا يطالبون بديته، وجاءوا بناس يدّعون عليهم القتل، فسألهم موسى فجحدوا، فاشتبه أمر القتيل على موسى. وكان ذلك قبل نزول الإمامة في التوراة، فسألوا موسى أن يدعوا الله ليبيّن لهم بدعائه، فدعا، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها، فيحيى، فيخبرهم بقاتله، قال أمير المؤمنينعليه السلام: **«لا بأس بفكاهة يخرج بها الإنسان من حدّ العبوس»**.[1]

ثمّ انّ القوم علموا ذبح البقرة، عزم وجد، فاستوضعوها؟

قال النبيصلى الله عليه وآله: **«ولو انهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها، لاجتزت عنهم»**.[1]

﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾: أي قالوا لموسى: أتجعلنا مكان هزء وسخريّة وتستهزئ بنا، نسألك عن أمر القتيل، فتأمرنا بذبح البقرة، ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: لأنّ الهزء في تبليغ أمر الله، جهل

١ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ٢٠، ص ٣٣٩.

١ـ أحكام القرآن، للجصاص، ج ١، ص ٤٠.

وسفه واستهزاء بأمر الدين كبيرة. وصاحبه مستحق للوعيد وليس المزاح من الاستهزاء.

ولكنّهم استوضعوها، فشدّد عليهم الأمر وكانت تحته حكمة وهي: انّه كان في بني إسرائيل رجل صالح، له ابن طفل، وله عجلة أتى بها إلى غيضة. وقال: اللهم انّي أستودعك هذه العجلة لابني حتى يكبر. ومات الرجل، فصارت العجلة في الغيضة عواناً، أي بين المسنة والشابّة. وكانت تهرب من كلّ من رآها، فلمّا كبر الابن، كان بارّاً بوالدته وكان يقسم الليل أثلاثا، فيصلّي ثلثاً وينام ثلثاً ويجلس عند رأس أمّه ثلثاً، فإذا أصبح انطلق، فاحتطب على ظهره، فيأتي به إلى السوق، فيبيعه بما شاء الله، ثم يتصدّق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي والدته ثلثه، فقالت له أمّه يوماً: انّ أباك قد ورثّك عجلة استودعها الله في غيضة كذا فانطلق وادع إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردّها عليك، وعلامتها انّك إذا نظرت إليها يخيل إليك انّ شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت تسمى البقرة المذهّبة لصفرتها، فأتى الفتى الغيضة، فرآها ترعى، فصاح بها وقال: اعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب، فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه، فقبض على عنقها يقودها، فتكلّمت البقرة باذن الله، وقالت: أيّها الفتى البارّ لوالدته اركبني فإنّ ذلك أهون عليك، فقال الفتى: انّ أمّي لم تأمر بذلك ولكن قالت خذ بعنقها، فقالت البقرة بإله بني إسرائيل لو ركبتني ما كنت تقدر عليّ أبداً، فانطلق، فانّك ان أمرت بالجبل، أن ينقلع من أصله وينطلق معك لفعل لبرّك بأمّك. فسار الفتى بها إلى أمّه. فقالت له أمّه: انّك فقير لا مال لك ويشقّ عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل، فانطلق، فبع هذه البقرة. قال: بكم أبيعها، قالت بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي ـ وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير ـ فانطلق بها إلى السوق،

فبعث الله ملكاً ليرى خلقه قدرته، وليختبر الفتى، كيف برّه بأمّه وكان الله به خبيراً، فقال له الملك: بكم تبيع هذه البقرة، قال بثلاثة دنانير واشترط عليك رضى والدتي، فقال الملك: لك ستّة دنانير ولا تستأمر والدتك، فقال الفتى: لو أعطيتني وزنها ذهباً، لم آخذها الّا برضى امّي، فردّها إلى أمّه وأخبرها بالثمن، فقالت: ارجع فبعها بستة على رضى مني، فانطلق بها إلى السوق، فأتى الملك، فقال الملك استأمرت أمّك، فقال الفتى: انّها أمرتني أن لا أنقصها من ستّة على أن أستأمرها، فقال الملك: انّي أعطيك اثني عشر على أن لا تستأمرها، فأبى الفتى، ورجع إلى أمّه وأخبرها بذلك، فقالت: انّ الذي يأتيك، ملك بصورة آدميّ ليختبرك، فإذا أتى، فقل له: أتأمر أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ ففعل فقال له الملك: اذهب إلى أمّك وقل لها أمسكي هذه البقرة، فإنّ موسى بن عمران يشتريها منك، لقتيل يقتل في بني إسرائيل، فلا تبيعوها إلّا بملء مسكها ذهبا، فامسكوها وقدّر الله على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها، فما زالوا يستوصفونها حتّى وصف لهم تلك البقرة بعينها، مكافأة على برّه بوالدته.[1]

قيل: والوجه في تعيين البقرة دون غيرها من البهائم، انّهم كانوا يعبدون البقر والعجاجيل وحبّب ذلك لهم كما قال سبحانه: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ ثمّ تابوا وعادوا إلى طاعة الله، فأراد الله أن يمتحنهم بذبح ما حبّب إليهم، ليظهر منهم حقيقة التوبة وانقلاع ما كان منهم في قلوبهم وكان أفضل قرابينهم حينئذٍ البقر، قيل: وقد مضى من أول هذا الأمر، إلى الامتثال، ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ لغلاء ثمنها، وذلك قوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وقال الفيض في الصافي: في قصّة القتل والبقرة، انّهم لمّا قتلوا القتيل وطرحوا جثّته

١ـ بحارالأنوار، ج ١٣، ص ٢٧٥.

في محلّة سبط من أسباط بني إسرائيل، ألزم موسى أهل القبيلة بأمر الله، أن يحلف خمسون من أماثلهم، بالله القويّ الشديد، إله بني إسرائيل، مفضّل محمد وآله الطيبين صلوات الله عليهم، على البرايا أجمعين: انّا ما قتلناه ولا علمنا له قاتلا، فإن حلفوا بذلك غرموا دية المقتول وان نكلوا نصبوا على القاتل، أو أقرّ القاتل، فيقاد منه، فإن لم يفعلوا حبسوا في مجلس ضنك إلى أن يحلفوا ويقرّوا أو يشهدوا على القاتل، فقالوا: يا نبيّ الله، ما وفت أيماننا أموالنا ولا أموالنا أيماننا. قال موسى: لا، هذا حكم الله وكان السبب ان امرأة حسناء، ذات جمال وفضل بارع ونسب شريف كثر خطابها وكان لها بنو أعمام ثلاثة فرضيت بأفضلهم علماً وأرادت التزويج به، فاشتدّ حسد ابني عمّه الآخرين له وغبطاه عليها لإيثارها إيّاه، فعمدا إلى ابن عمّه المرضي، فأخذاه إلى دعوتها، ثمّ قتلاه وحملاه إلى محلّة تشتمل على أكثر قبيلة من بني إسرائيل، فألقياه بين أظهرهم ليلا، فلمّا أصبحوا وجدوا القتيل هناك، فعرف حاله، فجاء ابنا عمه القاتلان له فمزقا على أنفسهما ثيابهما وحثيا التراب على رؤسهما واستعديا عليهم، فاحضرهم موسى وسألهم، فأنكروا أن يكونوا قتلوه وعلموا قاتله، فقال موسى: حكم الله ما عرفتموه فالتزموه، فقالوا يا موسى: أيّ نفع في أيماننا إذا لم تدرأ منّا الغرامة الثقيلة، أم أيّ نفع في غرامتنا إذا لم تدرأ عنّا الإيمان، فقال موسى كلّ النفع في طاعة الله والائتمار بأمره والانتهاء عمّا نهى عنه، فقالوا: يا نبي الله، غرم ثقيل ولا جناية علينا وأيمان غليظة ولا حق في رقابنا. لو أنّ الله عرفنا قاتله بعينه وكفانا مؤنته، فادع لنا ربّك أن يبيّن لنا هذا القاتل لينزل به ما يستحقّه من العذاب وينكشف أمره، فقال موسى: انّ الله قد بيّن ما حكم به في هذا، فليس لنا أن نقترح عليه غير ما حكم، الا ترون انّه لمّا حرّم العمل يوم السبت وحرّم لحم الحمل، لم

يكن لنا أن نقترح عليه، أن يغيّر ما حكم به علينا، فأوحى الله إليه يا موسى: أجبهم إلى ما اقترحوه وسلني أن أبيّن لهم القاتل ليقتل ويسلم غيره من التهمة، فانّي أريد بإجابتهم إلى ما اقترحوا توسعة الرزق على رجل من خيار امّتك، دينه الصلوات على محمّد وآله الطيبين والتفضيل لمحمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام على سائر البرايا، اغنيه في الدنيا، في هذه القضيّة ليكون بعض ثوابه على تعظيمه لمحمّد صلى الله عليه وآله[1] وكيف لا وقد عظم عين العالم بل العوالم كما في تفسير الديلمي عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾[2]: **«قال العينان رسول الله صلى الله عليه وآله واللسان أمير المؤمنين عليه السلام والشفتان الحسن والحسين عليهما السلام»**[3] وبيان قوله: (العينان رسول الله).

أنّ فيه عين النبوّة والولاية والعين الدنيويّة والأخرويّة ويرى من قدّامه وخلفه، أو يعاين الملك والملكوت، أو الظاهر والباطن ومراتب الغيب والشهادة وعالم الخلق والأمر، فينظر صلى الله عليه وآله بإحدى عينيه المعنويّة إلى الربّ لقبول الفيوضات وبعينه الأخرى إلى الخلق للفيضان، وبالجملة فمن توجه إلى عين العالم فلا بدّ من أن يظهر أثراته إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة أو كليهما إذا اقتضت المصلحة، وجميع آثار الخيريّة في العالم من هذه العين وكم صدرت المعجزات، من ظاهر بدنه وجسده العنصري، فضلاً عن عالمه النوري فمن جبهته كان النور ساطعاً في الّليل وعيناه صلى الله عليه وآله يرى من خلف وأذنه صلى الله عليه وآله تسمع الصوت في النوم كما في اليقظة ولسانه خاطب الضب: من انا، فقال الضب: أنت رسول الله. أصابعه جريان الماء منها وشق القمر وجلاه.

١ـ تفسير الصافي، ج ١، ص ١٤٣.

٢ـ سورة البلد: ٨ـ٩.

٣ـ كنزالفوائد، ص ٣٨٨. ورواه المجلسي في البحار، ج ٢٤، ص ٢٨٠.

صبّ فضالة غسالتها في البئر وفيضان الماء حين اشتكى جابر لعاب فمه، تفل في عين عليّ. عورته مختونا ولد. بدنه ليس له ظلّ. نفث نفسه اشفاء المرضى. شعره لا يحترق بالنار. الحاصل فقال موسى: يا ربّ بيّن لنا قاتله، فأوحى الله إلى موسى: قل لبني إسرائيل: ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة فيضربوا بعضها بالمقتول، فيحيى، أفتسلمون لربّ العالمين ذلك والّا فكفّوا المسألة والتزموا ظاهر حكمي. فذلك ما حكى الله في قوله: وإذ قال موسى لقومه. والقميّ عن الصادق انّ رجلاً من بني إسرائيل وعلمائهم خطب امرأة منهم فأنعمت له وخطبها ابن عمّ لذلك الرجل وكان فاسقاً فردوه فحسد ابن عمّه الذي أنعموا له، فرصده وقتله غيلة، ثمّ حمله إلى موسى، فقال: يا نبي الله، هذا ابن عمّي قد قتل، فقال من قتله، فقال له لا أدري وكان القتل في بني إسرائيل عظيماً جداً، فعظم قتل ذلك الرجل على موسى، فاجتمع إليه بنو إسرائيل: فقالوا أما ترى يا نبي الله وكان في بني إسرائيل رجل له بقرة، وكان له ابن بارّ، وكان عند ابنه سلعة. فجاء قوم يطلبون سلعته. وكان مفتاح بيته في تلك الحال تحت رأس أبيه وهو نائم. فكره ابنه أن ينغص عليه نومه، فانصرف القوم ولم يشتروا سلعته، فلمّا انتبه أبوه، فقال يا بنيّ: ما صنعت في سلعتك. قال: هي قائمة لم أبعها، لأن المفتاح كان تحت رأسك، فكرهت أن أزعجك من رقدتك وانغص عليك نومك. فقال أبوه: قد جعلت هذه البقرة لك عوضاً عمّا فاتك من ربح سلعتك، وشكر الله للابن ما فعل بأبيه، فأمر الله موسى، أن يأمر بني إسرائيل بذبح تلك البقرة بعينها، ليظهر قاتل ذلك الرجل الصالح، فلمّا اجتمع بنو إسرائيل أمرهم الله بذبح البقرة.(١)

إيقاظ: فحياة الروح بذبح بقرة النفس وشهواتها، فارجع إلى ربّك

١ـ تفسير القمي، ج ١، ص ٤٩. ورواه الحويزي في تفسيره، ج ١، ص ١٤.

بالتوبة والطاعة ولا تيأس، يعود عليك بالرحمة، فإنّه غفور رحيم. انّ الخضر فارق موسى بأن عاوده في السؤال ثلاث مرات وقال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ وأنت عاودت الذنب أكثر من ثلاثين ألف مرّة والله سبحانه لم يقل لك هذا فراق بيني وبينك بشرط ان ترجع إليه حقيقة. انّه تعالى نهى عن حبس المعسر في السجن لعجزه عن الأداء، فقال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ فكيف يحبس المذنب التائب في سجن النار، فجاهد في سبيل ربّك بالرجوع والطاعة. والعبد وإن كان عاصيا إذا تقدم إلى الحق شبراً، تقدم الحق إليه ذراعاً، وبذلك الشبر ينفتح في زاوية قلبه روزنة من النور، ثمّ بالعمل يكثر ذلك النور شيئاً فشيئاً، فينفتح عينا قلبه، فلا يسمع بمعروف الّا عرفه وقبله ولا بمنكر الّا أنكره إلى أن يئول أمره بمرتبة الشهود القلبي الكشفي، فإنّ للإنسان قوّة درّاكة ينتقش فيها حقايق الأشياء، كما في المرآة إذا كانت صافية وهذه القوّة في كلّ إنسان وغير مختصّ بالمؤمن، بل للفاسق أيضاً هذه القوّة مكمونة، لكنّ القلب الملتبس بالغواشي والعلائق والشهوات محروم عن هذا المعنى وهو في عمى، لكن إذا زالت هذه العوائق وفنيت النفس وهواها في الطاعة يرى الفيض بعين قلبه، بل يرى الامام بالعين القلبيّة ويستمدّ منه، كما قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[1]، بحيث يقرب من العلم اللدني وهذا هو المقام الرابع من ترتيبات الهداية، فإنّ المقام الأول إعطاء القوى المدركة، كما قال سبحانه: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2]، والمقام الثاني من الهداية، نصب الدلائل والبراهين، كما قال:

١ـ سورة الأنعام: ١٢٢.

٢ـ سورة طه: ٥٠.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[1] والمقام الثالث دعوة الناس إلى ما ينفعهم من العلم والعمل بواسطة الرسل والكتب، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[2]، والمقام الرابع كشف الأستار والأسرار على الضمائر بواسطة الإلهام والحدس والوحي وغيرها، كما قال:﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[3]

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

فلمّا توجّهوا للامتثال ﴿قَالُوا۟﴾ يا موسى ﴿ٱدْعُ لَنَا﴾ سل لأجلنا ﴿رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا﴾ ويوضح ويعرف من البين والفراق ﴿مَا هِىَ﴾ ما مبتداء وهي خبره وقد سألوا عن حالها وصفتها، لأنه قرع أسماعهم ما لم يعهدوه من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميتاً فيحيى، كقولك: ما زيد وشأنه فيقال طبيب ﴿قَالَ﴾ موسى بعد ما دعا ربّه وأتاه الوحي ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي أنّ الله تعالى: ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾ أي البقرة المامور بذبحها ﴿بَقَرَةٌ لَّا﴾ هي ﴿فَارِضٌ﴾ أي مسنّة من الفرض وهو القطع كأنّها قطعت سنّها وبلغت آخره ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ أي فتية

١ـ سورة البلد: ١٠.

٢ـ سورة الأنبياء: ٧٣.

٣ـ سورة العنكبوت: ٦٩.

صغيرة ولم يؤنث البكر والفارض، لأنهما كالحائض في الاختصاص بالأنثى ﴿عَوَانٌ﴾ أي نصف ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الفارض والبكر ﴿فَافْعَلُوا﴾ امر من جهة موسى ﴿مَا تُؤْمَرُونَ﴾ به من ذبح البقرة.

﴿قَالُوا﴾ كأنه قيل ماذا صنعوا بعد هذا البيان والأمر المكرّر، فقيل قالوا ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ من الألوان حتّى تتبين لنا البقرة واللون عرض مشاهد يتعاقب على بعض الجواهر ﴿قَالَ﴾ موسى بعد المناجاة إلى الله ومجيء الوحى ﴿إِنَّهُ﴾ الله تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾ والصفرة لون بين البياض والسواد وهي الصفرة المعروفة وليس المراد هنا السواد كما في قوله: كأنّه جمالة صفر، أي سود والتعبير في قوله صفر وأراد به السواد لما انها في مقدّماته ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ مبتداء وخبر والجملة صفة للبقرة والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها وبريقها، فيقال في التأكيد أصفر فاقع وأسود حالك أي صفراء شديدة الصفرة، قيل: كانت صفراء الكل حتّى القرن والظلف ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ إليها، يعجبهم حسنها وصفاء لونها ويفرح قلوبهم للطافة شكلها ولونها.

قال أمير المؤمنين: «من لبس نعلاً صفراء قلّ همّه»[1]، لأنّ الله يقول: تسر الناظرين ونهى جماعة عن لبس النعال السود، لأنّها تهمّ، وقيل إنّ الخفّ الأحمر خفّ فرعون والخفّ الأبيض خفّ وزيره هامان.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أسائمة هي، أم عاملة، تكرير للسؤال واستكشاف زائد، ليزدادوا بياناً لوصفها وفي الحديث: «أعظم الناس

١ـ تفسير كنزالدقائق، ج ١، ص ٢٧١، نقلاً عن تفسير غرائب القرآن، ورغائب الفرقان في هامش تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٣١١.

جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم لأجل مسألته».[1]

﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾: أي جنس البقر الموصوف والصفرة كثيرة، فاشتبه علينا أيّها تذبح، فذكر البقر لإرادة الجنس، أو لأنّ كلّ جمع حروفه أقلّ من واحده، جاز تذكيره وتأنيثه، ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾: لذبح البقرة.

وفي الحديث: «لو لم يستثنوا ما بيّنت لهم إلى آخر الأبد»[2] ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى: ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ﴾ مذلّلة ذلّلها العمل بيّنة الذل من شدّة النصب والتعب ولم يقل: ذلولة لأنّ فعولاً إذا كان وصفاً لم تدخله الهاء كصبور ﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي تقلبها للزراعة وهي صفة ذلول: أي لم يذلّلها العمل بإثارة الأرض بأظلافها ﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ أي لم تكن بستانية يسقى عليها بالسواقي، كأنّه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية. ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ أي سالمة وبريّة من العيوب وقيل مسلمة من الشبه، ليس لها لون مخالف لونها وقيل سليمة من آثار العمل لأنّ ما كان من العوامل لا يخلو من آثار العمل في قوائمه وبدنه، قال الحسن: انّها كانت وحشيّة ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾: ولا وضح فيها يخالف لون جلدها، من وشي الثوب وهو استعمال ألوان الغزل في نسجه ﴿قَالُواْ﴾: عند ما سمعوا هذه النعوت ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾: أي هذا الوقت بنى لتضمّنه معنى الإشارة ﴿جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي ظهر لنا الحق الآن وما بقي في أمرها إشكال وهي بقرة فلان. قال بعض أهل التفسير، مثل أبي منصور الحازم: انّ البقرة كانت ذكراً لأنّ إثارة الأرض وسقي الحرث من عمل الذكران. والضمائر الراجعة إليها على التأنيث، فللفظها كما في قوله: ﴿وَقَالَت

١ـ لم نعثر عليه فيما بأيدينا من المصادر.

٢ـ نورالثقلين، ج ١، ص ٨٩، الرقم ٢٤٣.

طَآئِفَةٌ﴾ والتاء للتوحيد، لا للتأنيث ويمكن أن يكون أهل ذلك الزمان يحرثون بالأنثى ﴿فَذَبَحُوهَا﴾: الفاء فصيحة، أي فحصلوا البقرة الموصوفة بأن وجدوها عند الفتى، فاشتروها بملء مسكه ذهبا، فذبحوها ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ والجملة حال من فاعل، ذبحوا أي فذبحوها، والحال انّهم في التوقّف والبطوء، لثقل غرامة ثمن البقرة. واختلفوا في البعض الذي ضرب به القتيل، فقيل لسانها وقيل فخذها اليمنى وقيل ذنبها وقيل غيرها.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّٰرَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّٰرَءْتُمْ فِيهَا﴾ هذا مؤخّر لفظا، مقدّم معنى، لأنّه أوّل القصّة، اي: واذكروا وقت قتلكم النفس وهي عاميل بن شراحيل وأتيتم موسى وسألتموه، فقال لكم: انّ الله يأمركم. الآية، فقدّم المؤخّر وأخّر المقدّم ونحو ذا كثير في القرآن والشعر، مثل قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا﴾ تقديره، أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجا، قال الشاعر:

إنّ الفرزدق صخرة ملمومة   طالت فليس ينالها الأوعالا

ـ أي طالت الأوعال ـ وقيل: إنّ الآية قد تعلّقت بما هو متأخّر في الحقيقة وتقدير الكلام فذبحوها وما كادوا، ولأجل انّكم قتلتم نفساً فتدافعتم فيها أمرناكم بأن تضربوه ببعضها ليكشف أمره وأضيف القتل إلى اليهود المعاصرين لرسول الله على عادة العرب، في خطاب الأبناء والأحفاد بخطاب الأسلاف والأجداد وخطاب العشيرة لواحد يقال: فعلت بنو تميم، وإن كان الفاعل واحداً، وفيه وجه آخر وهو أن يكون الخطاب لمن كان في زمن

موسى وتقديره وقلنا لهم.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي كلّ واحد دفع قتل النفس عن نفسه والضمير في قوله فيها، راجع إلى النفس، أو إلى القتلة، أي اختلفتم، لأنّ قوله قتلتم، تدلّ على المصدر، لكن عودها إلى النفس أولى.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهر ما كنتم تسترون من القتل أو مخرج من غامض أسراركم ومطلع ما كان آباؤكم يكتمونه وأنتم تكتمونه والخطاب لليهود في زمن النبيﷺ واستعمل مخرج في الكلام مع انّه في معنى الماضي لأنّه على سبيل الحكاية، فحكى ما كان مستقبلاً في وقت التدارؤ، كما حكى الحاضر في قوله: باسط ذراعيه.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾: فضربوه فحيي ولعلّ السرّ في هذا الأمر بهذا الترتيب مع انّه قادر على أن يحييه بأقل من طرفة العين، لإغناء ذلك الفتى البار بوالده وأمر الله بتقديم هذه القربة تعليماً لكلّ من غمض عليه أمر من الأمور، أن يتقدّم نوعاً من القرب، قبل أن يسأل الله كشف ذلك عنه، ليكون اقرب إلى الإجابة.

﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ على إرادة القول، أي وقلنا كذلك، فالخطاب في كذلك للحاضرين عند حياة القتيل، أي مثل ذلك الأحياء العجيب، يحيي الله الموتى يوم القيامة، أو الخطاب لمنكري البعث، من مشركي العرب، في زمان النبيﷺ والحاضرين عند نزول الآية الكريمة، فلا حاجة حينئذٍ على تقدير القول، بل تنتهي الحكاية عند قوله ببعضها.

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾: أي دلائله الدالّة على أنّه على كل شيء قدير.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي لكي تكمل عقولكم وتعلموا انّ من قدر على إحياء نفس واحدة، قدر على إحياء الأنفس كلّها وتعلمون انّ المؤثّر، هو الله،

لا الأسباب فهو تعالى إذا أراد، يجعل الأثر في الأسباب، ولو لم يكن لها تأثيرات أبداً، فإنّ الموتين الحاصلين في الجسمين لا يعقل أن يتولّد منهما حياة، جلّت قدرته تعالى.

قال بعض أهل المعرفة: انّما جعل الله إحياء المقتول في ذبح البقرة، تنبيهاً لعبيده، انّ من أراد منهم إحياء قلبه، لم يتأتّ له الّا باماتة نفسه، فمن ذبحها بأنواع العبادات والرياضات المشروعة وأعظمها الورع من المحرّمات والشبهات، احيى الله قلبه بأنوار المشاهدات، فمن مات بالطبيعة، يحيى بالحقيقة ويجب علينا أن نتقيّد بإحياء نفوسنا بالحياة الحقيقيّة، لا الحياة البقريّة، فإنّ المنظر الإلهي انّما هو القلوب والأعمال، لا القصور والأموال.

كما ورد في الحديث: **«إنّ الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم، بل إلى قلوبكم وأعمالكم»**[١] والعاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت وما يعقل ذلك الّا العالمون وايّاك ان تغترّ في دنياك بساعة سرور أدركته، أو بسرير ملكته ولو كان ذلك السرير والسرور أيّام عمرك، فإنّه بالنسبة إلى عمرك. في الآخرة أقلّ من ساعة وقد مثّلوا للدنيا بالمياس، امّا يكون ضيقاً حرجاً، أو واسعاً منفرجاً، ان ضاق فمرحباً بالحفا وان رحب فموجب الصقع على القفا، الضيق يفرّج الكعوب والعرقوب[١] والرحب يغيّر الذيول والجيوب، انظر إليها بعين الاعتبار وطالعها فإنّها صحيفة أبنائك وخالعها فهي حليلة آبائك واغتنم فؤادك الفاحم قبل أن يبيض واحذر من جدار يريد أن ينقض، امنيّة جوفاء، ووارمة عجفاء يؤذيك اعباؤها ولا بدّ فيك عباؤها، لا يغرنك قطفها النضيج، فهو غيث أعجب الكفّار نباته ثمّ يهيج، هب انّك صرفت عمرك في تحصيل الدنيا

١ـ لم نعثر عليه فيما بأيدينا من المصادر.

١ـ العرقوب: عصب غليظ فوق عقب الإنسان.

وملكت الدنيا بأسرها، فهل تبقى لك أو تبقى لها وبعد أن ملكتها، مثلك معها، مثل الفارة والجمل، فأخذت الفارة بخطامها إلى جحرها، فلمّا وقف الجمل إلى باب بيتها، نادى بلسان حالها: امّا أن تتّخذي داراً تليق بمحبوبك، أو محبوباً يليق بدارك، فيا أقل من الطائر، فإنّ الأنثى متى ما علمت انها حملت، نقلت العيدان لبناء العش قبل الوضع وأنت ما مهّدت لقبرك فراشاً وضيّعت أيّام فرصتك بالملاهي والمعاصي، أو بالمباحات التي لا طائل لك فيها، اما سمعت قول الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]، فيا أيّها المغرور، من أين لك هذا الاطمينان، كأنّك ما عصيت الله قط!! بلى، التفرج إلى هذه المتنزّهات والسينمايات اذهب عن قلبك الخوف، بدّلت زيارة المقابر الموجبة للتنبّه، بموجبات الغفلة وكان السلف إذا رجعوا من زيارة المقابر، يستعدّون للتزوّد وهم كالحيارى قال بعض السلف: رأيت شابّاً راجعاً من الجبانة وصعد على سفح جبل وعليه آثار الغلق ودموعه جارية، فقلت من أنت ومن أين، فقال الشاب: آبق من مولاه، فقلت: يعود العبد الآبق فيعتذر، فقال: العذر يحتاج إلى حجّة ولا حجّة للمفرّط، قلت: فيتعلّق بشفيع، فقال: كلّ الشفعاء يخافون منه، قلت: من مولاك، قال: ربّاني صغيراً فعصيته كبيراً، فوا سوأتاه من حسن صنيعه وقبح فعلي، ثم صاح ووقع فمات!! فخرجت عجوز، فقلت لها: أقيم عندك أعينك على غسله وتجهيزه، فقالت: خلّه ذليلاً بين يدي قاتله، عسى أن يراه بغير معين، فيرحمه. والعجب انّ واحدنا يصلّي خمسين سنة وهو يقول في كلّ يوم: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو باق على طريق الفساد، مع انّ الصلاة صلة بين العبد والربّ وأنت منقطع عنه ومالك من هذه الصلة عائد وهاك نصيحة وهاك مثالاً آخر للدنيا، فإنّها نهر

١ـ سورة فصلت: ٤٠.

طالوت وانّ الله مبتليكم به، فمن شرب منه فليس منّي الّا من اغترف وقنع بكفّ عنه واقتصر بسدّ جوعته وستر عورته، ففاز ونجى ومن لم يقنع فالأمر صعب جدّاً، كما انّ جيش طالوت ما قنعوا وهلكوا، فإنّ مراتب النفس أربعة: النفس النامية النباتية والنفس الحسيّة الحيوانيّة والنفس الناطقة القدسيّة والنفس الكليّة الإلهيّة وهذه الاخيرة الكاملة وهي بقاء في فناء ونعيم في شقاء وعزّ في ذلّ وصبر في بلاء وفقر في غناء ومعلوم انّ هذه الملكات صعب جدّاً وهيهات وأين الثريا من يد المتناول!

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤)

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾: خطاب لأهل عصر النبيّ من الأحبار وأهل الكتاب وثم في الآية لاستبعاد القسوة، من بعد ذكر ما يوجب لين القلوب ورقّتها والقساوة ذهاب اللّين والرأفة عن القلب والصلابة في كلشيء. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: أي من بعد سماع ما ذكر مما ورد باسلافكم، من إحياء القتيل ومسخ القردة والخنازير ورفع الجبل والقوارع الّتي من عظمتها تميع الجبال والصخور، ﴿فَهِيَ﴾: أي القلوب، ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾: في شدّتها وقسوتها والفاء لتفريع مشابهتها لها في القساوة، كقولك: احمرّ خدّك فهو كالورد ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ منها ﴿قَسْوَةً﴾: تميز. و﴿أَوْ﴾ يجوز أن يكون بمعنى التخيير: أي إن شئتم فاجعلوها أشدّ منها مثل الحديد، فأنتم مصيبون في ذلك وانّما لم تحمل على معنى أصلها وهو الترديد، لما انّ ذلك على الله محال، أو يكون بمعنى بل، قال الشاعر:

فو الله ما أدري أسلمى تغولت أم النّوم أم كلّ إليّ حبيب

اي: بل كلّ وانّما أتى بكلمة ﴿أَشَدُّ﴾ مع انّ فعل القسوة ممّا يخرج منه افعل التفضيل وفعل التعجّب، لكونه أبين على فرط القسوة من لفظ أقسى.

اعلم انّ اللّفظ كالصورة، والمعنى كالروح، فإن اتّفقا وقع الكمال في الكلام ولذا قد يؤتى في شعر واحد بكلمة مكرّرة وهي حسنها وبالعكس، مثل قول المعري:

الرّسل أحمد أوصافاً وأحمدهم في الوصف أحمدنا

وفي الآية صنعة الجمع مع التفريق.

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾: بيان لقساوة قلوبهم ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ﴾ واللام للتأكيد:

أي الحجر يتفجّر ويتفتّح ﴿مِنْهُ﴾: راجع إلى ما، أي انّ بعض الأحجار يتفجّر منه ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمع نهر وهو المجرى الواسع ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾: من الحجارة ﴿لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ ويتصدّع ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾: والمراد بالشقوق، العيون الّتي تخرج من الشقوق والإصداع، دون الأنهار ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾. أي يتردّى وينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: وهنا مجاز عن انقيادها لأمر الله وقلوب هؤلاء اليهود ومن سلك مسلكهم لا تنقاد ولا تلين ولا تخشع ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ بساه وذاهل ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: قالت المعتزلة: خشية الحجر وجه المثل، يعني لو كان له عقل لفعل ذلك ومذهب أهل السنّة: انّ الجحر وان كان جماداً لكنّ الله يلهمه، فيخشى بالهامه، فإنّ لله تعالى علما في الجمادات وسائر الحيوانات، سوى العقلاء لا يقف عليه غيره، فلها صلاة وتسبيح وخشية، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن

شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1] وقال: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ فيجب على المرء، الإيمان به ويجعل علمه إلى الله ويؤيّد هذا المعنى ان النبيّ ﷺ كان على ثبيرة والكفّار يطلبونه، فقال الجبل: انزل عنّي فانّي أخاف أن تؤخذ عنّي، فيعاقبني الله بذلك، فقال له جبل حراء: إليّ يا رسول الله. وكان النبيﷺ إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد، فلمّا صنع المنبر، فاستوى عليه، اضطربت تلك السارية من فراق رسول اللهﷺ وحنّت كحنين الناقة، حتى سمعها أهل المسجد، ونزل رسول اللهﷺ، فاعتنقها، فسكنت.

لكنّه قال أبو مسلم: انّ الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ راجع إلى القلوب، لا إلى الحجارة، لأنّ الهبوط من الخشية صفة الإحياء والعقلاء والحجر جماد وقد تقدّم ذكر القلوب، كما تقدّم ذكر الحجارة، أقصى ما في الباب، انّ الحجارة اقرب المذكورين، الّا انّ هذا الوصف لمّا كان لائقاً بالقلوب دون الحجارة وجب رجوع هذا الضمير إلى القلوب دون الحجارة واعترضوا على أبي مسلم بأنّا لا نسلّم انّ الحجارة ليست حيّة عاقلة ولا نقول انّ الحجارة كلّها عاقلة والمراد من ذلك، جبل موسى حين تجلّى له ربّه له وتقطّع وذلك لأنّ الله خلق فيه العقل والإدراك وهذا غير مستبعد من قدرة الله ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1] وكذلك الجبل والحجر وصفه بالخشية، فحينئذٍ الضمير راجع إلى الحجارة، ثمّ انّ الهبوط لائق بالحجارة لا بالقلوب، فليس تأويل الهبوط، أولى من تأويل الخشية وقيل

١ـ سورة الإسراء: ٤٤.

١ـ سورة فصلت: ٢١.

وجه آخر في معنى الآية وهو انّ معنى ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[1] انّه يدعو المتفكّر والمتأمّل فيه إلى خشية الله ويوجب الخشية لله، فالحجارة من موجبات الخشية، بدلالته على صانعه وخالقه وأضاف الخشية إليها لأنّ التفكّر فيها هو الداعي إلى الخشية، كما قال جرير بن عطيّة:

و أعور من نبهان أمّا نهاره فاعمى وأمّا ليله فبصير

فجعل الصفة للّيل والنهار وهو يريد صاحبه النبهاني الّذي يهجوه (تنبيه) فإذا كانت الخشية في الحجارة، كيف لا تخشى ولا تتوب من ذنوبك فمن لم يساعده نفسه بالرجوع والتوبة، كيف يترك العزّ ويقبل الذلّ والغنى على الفقر مع انّ التوبة واجبة وفي فوريته فقد صرّح بها المعتزلة وأصحابنا، لكنّ المعتزلة يقولون حتى انّه لو أخّر توبته عن الكبيرة ساعة واحدة فقد فعل كبيرتين وساعتين فقد فعل أربع كبائر وهكذا. وأصحابنا سكتوا عن هذا التفصيل ودليل المعتزلة قويّ، لأنّ ترك الواجب كبيرة ثانية، والخطب الأعظم انّ المعصية ليست عندنا عظيمة ومن كثرة ما اكتسبناه خفّت عقوبتها عندنا ولا نبالي بأصلها فضلاً عن توبتها، اما سمعت ما رواه الشيخ في التهذيب عن الصادق عليه السلام: انّ رجلاً جاء إليه وقال انّ لي جيراناً ولهم جوار يتغنين ويضربن بالعود، فربّما دخلت المخرج فأطيل الجلوس استماعاً منّي لهنّ، فقال: «**لا تفعل**»، فقال والله ما هو شيء آتيه برجلي انّما هو استماع اسمعه بأذني، فقال «**اما سمعت الله يقول:** ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾»، فقال: انّي تركتها وأستغفر الله، فقال الصادق عليه السلام «**قم فاغتسل وصلّ ما بدا لك، فقد كنت مقيماً على أمر عظيم ما كان أسوأ حالك لو متّ على ذلك**».[1]

١ـ سورة البقرة: ٧٤.

١ـ تهذيب الأحكام، للشيخ الطوسي، ج ١، ص ١١٦.

أقول: تجرّع مرارات النوائب في أيّام معدودة، لحلاوة موعودة، انّما هي محنة بائدة، تتلوها فائدة، وكربة ناقدة، بعدها نعمة خالدة، ومن عشق المعالي ألف الغمّ ومن طلب اللئالي، ركب اليمّ، فلا تشربن ورداً يعقبك سقاما. ولا تشمنّ ورداً يورثك زكاما. فمن طلب الجنّة، زهد في الدنيا بقوته عنها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها، قم واعمل.

قال رسول الله ﷺ: «**سيّد الأعمال انصاف الناس من نفسك ومؤاساة الأخ في الله وذكر الله على كلّ حال**»[1]، امّا لا أقول سبحان الله والحمد لله، إلخ، وان كان هذا من ذكر الله ولكن ذكر الله في كلّ موطن على طاعة أو على معصية، بمعنى انّك تكون متذكّراً في جميع ما يخطر لك في قلبك، فعله أو تركه، هل هو في الطاعة فتأتي بها، أو في المعصية فتدعها وهذا هو الذكر الأكبر القلبي وامّا الذكر اللساني من الأسماء والصفات، فتذكره سبحانه مع التوجّه إلى معانيها مثل ان تقول يا رحيم، أو مثلا يا جواد، تكون تعرف معنى هذه النسبة إليه تعالى، فإنّ معنى الجود بالنسبة إليه افادة ما ينبغي لا لغرض وكلّ أحد غيره انّما يجود ويعطي، ليأخذ عوضاً لطلب الخدمة، أو لطلب ثناء الجميل، أو لطلب الإعانة، أو لطلب الثواب، أو لدفع الرقّة الجنسيّة من القلب، أو ليزيل حبّ المال عن قلبه وكلّ هذه في الحقيقة معاوضة وتحصيل كمال، لكنّ الحق سبحانه كامل في ذاته، فإذا قلت يا جواد، اعرف ما تقول، حتى لا يكون ذكرك لقلقة اللسان.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾

١ـ وسائل الشيعة، للحر العاملي، ج ١٥، ص ٢٨٣.

كان النبيﷺ شديد الحرص على الدعاء إلى الحق وقبولهم الإيمان منه وكان يضيق صدره بسبب عنادهم وتمرّدهم، فقصّ الله سبحانه عليه أخبار بني إسرائيل في العناد العظيم مع مشاهدة الآيات الباهرة، تسلية لرسوله فيما يظهر من اليهود في زمانه من قلّة القبول والاستجابة. والخطاب للنبيّ وأصحابه. وحاصل المعنى: أبعد ان علمتم تفاصيل شئونهم المؤيسة ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾: في ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ جميع اليهود أو علمائهم فإنّهم متماثلون في شدّة الشكيمة والأخلاق الذميمة ولا يتأتّى من اخلافهم الّا مثل ما اتى من أسلافهم، فلا تحزنوا على تكذيبهم ﴿لَكُمْ﴾ أي لأجل دعوتكم.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾ والحال قد كان فريق كائن ﴿مِّنْهُمْ﴾ وطائفة ممّن سلف منهم والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ وهو ما يتلونه في التوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ ويغيّرون ما فيه من الأحكام، كتغييرهم لصفة محمّدﷺ وآية الرجم وقيل: كان قوم من السبعين المختارين، سمعوا كلام الله، حين كلّم الله موسى بالطور، وما أمر به وما نهى، ثمّ قالوا سمعنا الله يقول في آخره: ان استطعتم ان تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم أن لا تفعلوا فلا بأس. وهذه الأمور من تحريفاتهم. قال صاحب كتاب «التيسير»: والصحيح انّهم لم يسمعوا كلام الله بلا واسطة، فإنّ ذلك كان لموسى على الخصوص لم يشركه فيه غيره ومعنى يسمعون كلام الله من التوراة، من موسى بقرائته.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ وفهموه وضبطوه بعقولهم ولم يبق لهم شبهة في صحّته يقول: كيف يؤمن هؤلاء وهم يقلّدون أولئك الآباء، فهم من أهل السوء الّذين مضوا بالعناد، فلا تطمعوا في الإيمان منهم.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: والحال انّهم يعلمون انّهم محرّفون، كاذبون، وقد

نسب الله إلى طائفة منهم المعاندة وإن كانوا بأجمعهم كافرين وفي الآية دلالة على عظم الذنب في تحريف الشرع وهو عامّ في اظهار البدع في الفتاوى أو القضايا وجميع التحريفات الدينيّة.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

سبب النزول، روي عن أبي جعفرعليه السلام انّه قال: «**كان قوم من اليهود، ليسوا من المعاندين المتواطئين إذ المسلمين حدّثوهم بما في التوراة من صفة محمّدصلى الله عليه وآله فنهاهم كبرائهم عن ذلك وقالوا لا تخبروهم بما في التوراة من صفة محمّدصلى الله عليه وآله فيحاجّوكم به عند ربّكم، فنزلت الآية**».[1]

وقيل: هؤلاء قوم من اليهود، آمنوا ثمّ نافقوا، فكانوا يحدّثون المسلمين من العرب، بما عذّب به أسلافهم، فقال بعضهم لهم: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ليحاجّوكم به، فيقولون: نحن أكرم على الله منكم.

﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أي اليهود ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من أصحاب محمّدصلى الله عليه وآله ﴿قَالُوا﴾ اي: منافقوهم ﴿آمَنَّا﴾ كإيمانكم وانّ محمّداًصلى الله عليه وآله هو الرسول المبشّر به ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ﴾ الذين لم ينافقوا ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي إلى الذين نافقوا بحيث لم يبق معهم غيرهم ﴿قَالُوا﴾ أي الساكتون عاتبين لمنافقتهم على ما صنعوا ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾ وتخبرونهم والاستفهام بمعنى النهي أي لا تحدثوا المسلمين ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وبيّنه الله لكم خاصّة من نعت النبيصلى الله عليه وآله في التوراة ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ﴾ اللّام متعلّقة بالتحديث دون

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٢٧٢.

الفتح أي لتحتجّوا عليكم به، فيقطعوكم بالحجّة ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي في حكمه وكتابه، كما يقال: هو عند الله كذا، أي في شرعه وكتابه كذا وحاصل المعنى انّكم لا تقرّوا بأن محمّداً ﷺ نبي لأنّكم إذا أقررتم انّه نبيّ حقّ وهو مذكور في كتابكم فحينئذٍ يجادلكم المسلمون وتكون الحجّة عليكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ متّصل بكلامهم أي أفلا تفقهون أيّها القوم، انّ إخباركم محمّداً وأصحابه بما تخبرون من وجود نعت محمّد في كتبكم، حجّة عليكم عند ربكم، يحتجون بها عليكم. وقيل معناه: أفلا تعقلون أيّها المؤمنون فلا تطمعوا في ذلك، فيكون كلاماً مستأنفا. وقيل انّه خطاب لليهود أي أفلا تعقلون أيّها اليهود إذ تقبلون من رؤسائكم مثل هذه الكلمات السخيفة، فيكون الكلام تحذيراً لهم عن اتّباعهم لرؤسائهم.

فاطلب العلم حتى يكون عملك على المنهج المستقيم وتستفيد من العمل والمراد من العلم، ما قاله النبي ﷺ: **«إنّما العلم ثلاثة آية محكمة، أو فريضة عادلة أو سنّة قائمة وما عداها فضول»**.[1]

والمراد من آية محكمة، التي لم يكن للريب والشكّ مجال فيها والّا لم تكن محكمة كالأحكام مثل قوله: للذكر مثل حظّ الأنثيين. والمراد من الفريضة العادلة:

العلوم النفسانيّة المتعلّقة بالرذائل والخصال المحمودة باعتبار التخلية والتحلية والتعبير بالعادلة: لأنّها المتوسّطة المحفوظة من الإفراط والتفريط. والمراد بالسنّة القائمة العادات المأخوذة من النبيّ والوصيّ، مستقيمة منتصبة عن الاعوجاج، تكفي مهامّ عاملها في الدنيا والآخرة وتكون قائمة بأمور فاعلها ويستغنى بها في أموره.

١ـ وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٤٥.

قال النبي ﷺ: **«تركتم على الحجّة البيضاء. فلا تغيّر السنّة بالتقليد من هاهنا وهاهنا فتفسد جميع أمورك»**.(١)

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

أي جميع ما يسرّونه وما يعلنونه، عالم به ومن ذلك أسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يحسنون الكتب ولا يقدرون على القراءة.

والأمّي منسوب إلى أمّة العرب وهي الأمّة الخالية عن العلم والقراءة، فاستعير لمن لا يعرف القراءة والكتابة ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: يعني التوراة ليطالعوها ويتحقّقوا ما فيها من دلائل نبوّة محمّد ﷺ فيؤمنوا ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ جمع أمنيّة من التمنّي والاستثناء منقطع لأنّ الأمانيّ ليست من جنس الكتاب وهي الشهوات الباطلة الثابتة عندهم والمفتريات، من تغيير صفة النبي ﷺ وبعض الأقاويل الفاسدة من زعمهم أنّهم لا يعذّبون في النّار الّا أيّاماً معدودة وأنّ آبائهم الأنبياء يشفعون لهم وأنّ الله لا يؤاخذهم بخطاياهم ولا حجّة لهم في هذه الأمور.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي وما هم إلّا يظنّون ظنّاً من غير تيقّن بها وقصارى أمرهم، الظنّ والتقليد لآبائهم وأنّى يرجى منهم الإيمان واليقين.

والأمنيّة لها معان مشتركة في أصل واحد.

أحدها ما تخيّله الإنسان فيقدّر في نفسه وقوعه ويحدّثها بوجوده وكونه.

١ـ لم نعثر عليه فيما بأيدينا من المصادر.

وثانيها، الأماني: الأكاذيب المختلقة سمعوها من علمائهم، فقبلوها على التقليد. قال أعرابي لابن دأب في كلام حدّث به: أهذا شيء رويته، أم تمنيته أي اختلقته.

وثالثها، بمعنى القراءة قال كعب بن مالك: تمنّى كتاب الله أوّل ليلة. وحمل معنى الآية على القراءة أليق وحينئذٍ الاستثناء متّصل، فكأنّه قال: لا يعلمون الكتاب، الّا بقدر ما يتلى عليهم، فيسمعونه وبقدر ما يذكر لهم، فيقبلونه لأنّهم اميّون وكلّ هذه المعاني مناسب لحالهم.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

الويل، كلمة يقولها كلّ واقع في هلكة بمعنى الدّعاء على النّفس بالعذاب ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ﴾ أي عقوبة عظيمة، وهو مبتداء، وما بعده خبره، قال رسول الله ﷺ: **«الويل واد في جهنّم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا، قبل أن يبلغ قعره»**.[1] وقال سعيد بن المسيّب عنه ﷺ: **«إنّه واد في جهنّم لو سيّرت فيه جبال الدنيا، لماعت من شدّة حرّه»**.[2]

﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ المحرّف ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لدفع توهّم المجاز، فقد يقول الإنسان كتبت إلى فلان إذا أمر غيره ان يكتب عنه ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ لعوامهم وتابعيهم ﴿هَٰذَا﴾ المحرّف ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ في التوراة. روي انّ احبار اليهود، خافوا ذهاب مأكلهم ورئاستهم حين قدم النبي ﷺ في المدينة، فاحتالوا في تعويق عوام اليهود وسفلتهم عن الإيمان، فعمدوا إلى نعوت

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٢٧٨.

٢ـ شرح أصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٦.

النبيّ ﷺ في التوراة وكانت هي مذكورة في التوراة حسن الوجه، جعد الشعر، اكحل العين، ربعة فغيّروها وكتبوا مكانه، طوال، أزرق، سبط الشعر، فإذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرءوا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لصفته، فيكذّبونه وانّما فعلوا ذلك ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِۦ﴾ أي يأخذوا لأنفسهم بمقابلة المحرّف ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو ما أخذوه من الرشى، بمقابلة التحريف والتأويل الزائغ. قليلاً لا يعبأ به وقد وصفه بالقلّة، لكونه حراماً ولا يربوا عند الله وهو فان، قال الواحدي في الوسيط: وقيل المراد في الآية: كاتب كان يكتب للنبيّ ﷺ، فيغيّر ما يملي عليه، ثمّ ارتدّ ومات، فلفظته الأرض. والأوّل أوجه ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ أي العقوبة العظيمة ثابتة لهم ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من أجل كتابتهم ذلك المحرّف ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من أخذهم الرشوة. واصل الكسب: الفعل لجرّ نفع، أو دفع ضرّ. والخطب الأعظم والبلاء الأطم، العالم المحرّف، ولو في مسألة، والجاهل المقلّد وهو متمكّن من العلم، فإنّ فساد الدنيا والدين من هذين. وقد حذر رسول الله ﷺ أمّته لمّا علم ما يكون في آخر الزمان، فقال: **«الا انّ من قبلكم من أهل الكتاب، افترقوا على اثنين وسبعين ملّة وانّ هذه الأمّة ستفترق على ثلاث وسبعين، كلّها في النار الّا واحدة وحذّرهم أن يحدّثوا من تلقاء أنفسهم في الدين ما هو يخالف كتاب الله، أو سنّته، فيضلّوا به الناس»**.[1]

وقد وقع ما حذّره وشاع وكثر وذاع، حتى أنّهم أرادوا أن يخرجوا عن دين الإسلام لميل طباعهم لحبّ ديدن النصارى، فموّهوا على ضعفاء الأمّة بل حمقائهم وأظهروا لهم العلم والاطّلاع بكتاب الله واسّسوا مواد مؤلفة بعضها يشبه بعض القرآن في الصورة لكن في المعنى يخالفه وبعضها يخالفه

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج ١٠٨، ص ٣٣١.

في الصورة والمعنى وبعضها القليل يوافقه وذلك لتمزيج الباطل بالحق ولإسكات بعض المتعالمين وسمّوه قانونا وقد نسخوا القانون الإلهي بهذا القانون الموصوف، فويل لهم ممّا كسبت أيديهم.

فأقول: وأقسم بالله وصفاته وآياته انّ من يعرّف نفسه، انّه من أهل القرآن ويدّعي الإسلام أن يحترز من هذا القانون الموضوع، بل يجب على المسلم ردّه وإنكاره، فلو وافقه وأحبّه وأيّده، فهو من أهل الويل في الآية ومن تأمّل في وجوب الإنكار وحرمة القبول، إمّا ملحد ولكن يظهر التنسك وإمّا من الطبقة الثانية من المموّهين بصيغة المفعول لا الفاعل، كما ذكرنا قبيل هذا، ثمّ **أقول:** في وجوب الردّ لهذا الأمر الذي به نسخ أديان تمام الأنبياء، كما أمر الله في الحج وأوجب (ولله على الناس) والتبرّي عن هذا الأساس.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي اليهود زعماً منهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ ولا تصل إلينا في الآخرة ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ قليلة محصورة، سبعة أيّام فإنّهم كانوا يقولون: انّ أيّام الدنيا سبعة آلاف سنة، فنعذّب مكان كلّ ألف سنة، يوماً أو يراد من أيّام معدودة:

أربعون يوماً، مقدار عبادة آبائهم العجل وكانوا يقولون: نعذّب تعذيب الأب ابنه، ونحن أبناء الله وأحبّاؤه ولا نعذّب أبداً، فكذّبوا تمام الكتب السماويّة وتمام رسله، لأنّه بيّن الله في كتابه على السنة رسله: انّ عقوبة الكفر ابديّة.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد تبكيتاً لهم ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ بقطع همزة الاستفهام، أي إتخذتم ﴿عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ وخبراً ووعداً بما تقولون؟ فإنّ ما تقولون، لا

يكون الّا إلى بناء وعهد محكم أخبركم الله به! وهل أخبركم عن الله أحد من الأنبياء: انّكم لا تعذّبون أبداً، بل تعذّبون أيّاماً قلائل، فإن كان لكم هذا ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ الّذي عهده إليكم والفاء في فلن يخلف الله فصيحة معربة عن شرط محذوف، مثل قول الشاعر:

قالوا خراسان أقصى ما يـراد بنـا ... ثـم القفـول فقـد جئنـا خراسـانا

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: قيل: أم، منقطعة على تقدير تمام الكلام قبله، فيكون بمعنى بل. أو تكون متّصلة، معادلة لهمزة الاستفهام، كأنّه قال: أنتم على أيّ الحالتين: أتقولون على الله ما تعلمون أم تقولون عليه ما لا تعلمون وقد تمسّك نفاة القياس وخبر الواحد بهذه الآية قالوا لأنّ القياس وخبر الواحد لا يفيدان العلم، فوجب أن لا يكون التمسّك بهما جائزاً لقوله: أم يقولون، الآية.

قال الرازي: لمّا دلّت الدلالة على وجوب العمل عند حصول الظنّ المستند إلى القياس، أو إلي خبر الواحد كان وجوب العمل معلوماً، فكان القول به قولاً بالمعلوم، لا بغير المعلوم.

بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾: بلى جواب لقولهم: لن تمسّنا النّار. والفرق بين بلى ونعم، انّ بلى، جواب النفي ونعم جواب الإيجاب، أي بلى تمسّكم أبداً، بدليل قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والسيّئة تتناول جميع المعاصي، فبيّن سبحانه انّ الّذي يستحق به الخلود أن يكون سيّئة محيطة به

واختلف في السيّئة، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم: السيّئة هاهنا الشرك، وقال الحسن: هي الكبيرة الموجبة للنار وقال السديّ: هي الذنوب التي أوعد الله عليها النار. والقول الأول يوافقنا الشيعة، لأنّ ما عدا الشرك لا يستحق به الخلود في النار عندنا. ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: أي أحدقت به من كلّ جانب، أو المعنى أهلكته ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾[1] أي أهلك وقال عكرمة ومقاتل: انّ الإحاطة، الإصرار على الذنب ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: أي دائمون في العذاب. والاختلاف في تفسير هذه الآية من معنى السيّئة والخلود بين الوعيديّة والخوارج والمعتزلة والأشاعرة كثير.

قال الطبرسي: (والذي يليق بمذهبنا، قول ابن عباس لأنّ أهل الإيمان لا يدخلون في حكم هذه الآية وقوله: وأحاطت به خطيئته، يقوى ذلك، لأنّ المعنى انّ خطاياه قد اشتملت عليه وأحدقت به حتّى لا يجد عنها مخلصاً ولا مخرجاً ولو كان معه شيء من الطاعات لم تكن السيّئة محيطة به من كلّ وجه وقد دلّ الدليل على بطلان التحابط ولأنّ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فيه وعد لأهل التصديق والطاعة بالثواب الدائم، فكيف يجتمع الثواب الدائم، مع العقاب الدائم ويدلّ أيضاً على أنّ المراد بالسيّئة في الآية (الشرك) أنّ سيّئة واحدة، لا تحبط جميع الأعمال، فلا يمكن إجراء الآية على العموم، فيجب أن يحمل على أعظم السيّئات وأكبر الخطيئات وهو الشرك ليمكن الجمع بين الآيتين).[1]

قال الرازي: اختلف أهل القبلة في وعيد أصحاب الكبائر، فمن الناس

١ـ سورة الكهف: ٤٢.

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٢٨٢.

من قطع بوعيدهم وهم فريقان: منهم من أثبت الوعيد المؤبّد وهو جمهور المعتزلة والخوارج ومنهم من أثبت وعيداً منقطعاً وهو البشر والخالدي. ومن الناس من قطع بانّه لا وعيد لهم وهذا القول شاذّ، ينسب إلى مقاتل المعروف المفسّر. القول الآخر وهو انّا نقطع بانّه سبحانه يعفوا عن بعض العصاة وعن بعض المعاصي ولكنّا نتوقف في حقّ كلّ أحد على التعيين انّه هل يعفو عنه أم لا ونقطع بانّه إذا عذّب أحداً منهم مدّة فإنّه لا يعذّبه أبداً، بل يقطع عذابه وهذا القول قول الصحابة والتابعين وأهل السنّة والجماعة وأكثر الإماميّة.

وأما دليل المعتزلة في الوعيد المؤبّد، فإنّهم عولّوا على العمومات الواردة في هذا الباب وتلك العمومات على وجهين: بعضها وردت بصيغة «من» في معرض الشرط وبعضها وردت بصيغة الجمع، امّا النوع الأول مثل قوله تعالى في آية المواريث: ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها. وقد علمنا انّ من ترك الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وارتكب شرب الخمر والزّنا وقتل النّفس المحرّمة، فهو متعدّ لحدود الله، فيجب أن يكون من أهل العقاب وذلك لأنّ من في معرض الشرط تفيد العموم على ما ثبت في أصول الفقه، فمتى حمل الخصم هذه الآية على الكافر، دون المؤمن، كان ذلك على خلاف الدليل.

ومن الآيات الّتي تمسّكوا بها في المسألة لاشتمالها على صيغة «من» في معرض الشرط وقالوا انّها تفيد العموم قوله تعالى في قاتل المؤمن عمداً: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾. قالوا فدلّت الآية على أنّ ذلك جزاؤه، فوجب ان يحصل له هذا الجزاء لقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[1] والآية الثالثة الّتي استدلّوا بها:

١ـ سورة نساء: ١٢٣.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.[1]

ومن الآيات أيضاً: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.[2]

ومنها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[3]، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾.[4]

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.[5] ومنها: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.[6] وهذا يوجب ان يكون الظالم من أهل الصلاة، داخلاً تحت هذا الوعيد. ومنها بعد تعداد المعاصي: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾.[7] بيّن أنّ الفاسق كالكافر، في أنه من أهل الخلود، الّا من تاب من الفساق، أو آمن من الكفّار.

ومنها: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.[1]

١ـ سورة الأنفال: ١٥ـ١٦.

٢ـ سورة الزلزلة: ٧ـ٨.

٣ـ سورة النساء: ٢٩.

٤ـ سورة النساء: ٣٠.

٥ـ سورة طه: ٧٤.

٦ـ سورة طه: ١١١.

٧ـ سورة الفرقان: ٦٩ـ ٦٨.

١ـ سورة النازعات: ٣٩ـ٣٧.

ومنها: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾[١]، الآية. ولم يفصل بين الكافر والفاسق ومنها: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٢] فهذه هي الآيات الّتي تمسّك بها المعتزلة في المسألة لاشتمالها على صيغة «من» في معرض الشرط واستدلّوا على أنّ هذه اللّفظة تفيد العموم، لأنّه لو كانت موضوعة للخصوص لما حسن من المتكلّم أن يعطى الجزاء لكلّ من أتى بالشرط لأنّهم أجمعوا على أنّه إذا قال: من دخل داري أكرمته. يكون أن يكرم كلّ من دخل داره، فعلمنا إنّ هذه اللّفظة ليست للخصوص.

النوع الثاني من دلائل المعتزلة: التمسّك بالوعيد بصيغة الجمع المعرّف بالألف واللّام وهي في آيات مثل قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[٣]، لأنّ معناه: إنّ الّذين فجروا في الجحيم، وذلك يفيد العموم، لكن أنكر أبو هاشم وأصحابه، أنّ الجمع المعرّف يفيد العموم وقال: اللّام في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ ليست لام التعريف، بل هي بمعنى الّذي. الآية الثانية من استدلال المعتزلة في انّ الجمع المعرّف يفيد العموم في الوعيد قوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[٤] وثالثها: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.[٥]

النوع الثالث من العمومات: صيغ الجموع المقرونة بحرف «الذي» مثل قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾[١] ومثل قوله:

١ـ سورة الجن: ٢٣.

٢ـ سورة البقرة: ٨١.

٣ـ سورة الإنفطار: ١٤.

٤ـ سورة مريم: ٨٦.

٥ـ سورة مريم: ٧٢.

١ـ سورة المطففين: ٢ـ١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[1] ومثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[2] ومثل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.[3]

ولم يفصل في الوعيد بين الكافر وغيره. وكذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾[4] الآية. وكذلك قوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.[5] ولو لم يكن الفاسق من أهل العذاب، لم يكن لهذا القول معنى، بل لم يكن له إلى التوبة حاجة.

النوع الرابع من العمومات، قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[6] وعيد على منع الزكاة.

النوع الخامس من العمومات، لفظة كلّ، قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾[7]، فبين ما يستحق الظالم على ظلمه.

النوع السادس من أدلّة المعتزلة، قوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾.[8] وهذا صريح في انّه تعالى لا بدّ وأن يفعل ولا مخلص من عذابه، فهذا مجموع ما تمسكوا به من عمومات القرآن.

وأمّا عمومات الأخبار فكثيرة، فالمذكور بصيغة من، ما روى وقّاص ابن ربيعة، قال: قال رسول الله: **«من أكل بأخيه أكلة أطعمه الله من نار جهنّم ومن**

١ـ سورة النساء: ١٠.

٢ـ سورة النساء: ٩٧.

٣ـ سورة يونس: ٢٧.

٤ـ سورة التوبة: ٣٤.

٥ـ سورة النساء: ١٨.

٦ـ سورة آل عمران: ١٨٠.

٧ـ سورة يونس: ٥٤.

٨ـ سورة ق: ٢٨ـ٢٧.

أخذ بأخيه كسوة، كساه الله من نار جهنّم ومن قام مقام رياء وسمعة، أقامه الله يوم القيامة مقام رياء وسمعة».[١] وهذا نصّ في عذاب الفاسق. وكذلك المذكور بصيغة من، قوله ﷺ: «من كان ذا لسانين وذا وجهين كان في النار».[٢] ولم يفصل بين المؤمن والمنافق. وكذلك المذكور بصيغة من. قال ﷺ: «من ظلم قيد شبر من أرض، طوّقه يوم القيامة من سبع أرضين».[٣] وكذلك قال رسول الله ﷺ: «كلّ مسكر خمر وكلّ خمر حرام ومن شرب الخمر في الدنيا ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة».[٤] وهو صريح في وعيد الفاسق وانّه من أهل الخلود، لأنّه إذا لم يشربها لم يدخل الجنّة، لأنّ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين. عنه ﷺ: «الصلاة من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيمة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة ولا ثواباً وكان يوم القيمة مع قارون وهامان وفرعون وأبيّ بن خلف».[٥] وهذا نصّ في انّ ترك الصّلوة يحبط العمل ويوجب عذاب الأبد. وأمثال هذه الاخبار كثيرة لا تحصى.

النوع الثّاني من العمومات: الاخبار الواردة لا بصيغة «من». وهي كثيرة لا تحصى. عن نافع مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنّة مسكين متكبّر ولا شيخ زان ولا منّان بعمله على الله».[١] ومن لم يدخل الجنّة من المكلّفين فهو من أهل النار. وأمثال هذه الأخبار أيضاً كثيرة. هذا مجموع استدلال المعتزلة الوعيديّة بعمومات القرآن والاخبار.

١ـ أنظر: الإختصاص، للمفيد، ص ٢٢٧. وبحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٦٠.

٢ـ قواعد المرام، ص ١٦.

٣ـ تاريخ مدينة دمشق، ج ٢١، ص ٨٥.

٤ـ الإيضاح، ص ٢٧٧.

٥ـ نيل الأوطار، ج ١، ص ٣٧٢.

١ـ أسد الغابة، ج ٥، ص ٨.

وأجاب الأشاعرة عنها من وجوه: اولها لا نسلّم انّ صيغة «من» في معرض الشرط للعموم. ولا نسلّم انّ صيغة الجمع إذا كانت معرّفة باللّام للعموم.

الأول: انّه يصحّ إدخال لفظتي الكلّ والبعض على هاتين اللّفظتين، فيقال: كلّ من دخل داري أكرمته وبعض من دخل داري أكرمته ويقال كلّ الناس كذا وبعض الناس كذا فلو كانت لفظة «من» للشرط، يفيد الاستغراق، لكان إدخال لفظ الكلّ عليه زائدا وكذلك في لفظ الجمع المعرّف، فثبت انّ هذه الصيغ لا تفيد العموم. وكذلك الموصول، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.[1] فظاهر الآية حكم على كلّ الذين كفروا انّهم لا يؤمنون، ثمّ انّا شاهدنا قوماً منهم قد آمن، فعلمنا انّه لابدّ من أحد الأمرين، إمّا لأنّ الصيغة ليست موضوعة للشمول، أو لأنّها وإن كانت موضوعة لهذا المعنى الّا انّه قد وجدت قرينة انّ مراد الله من هذا العموم، هو الخصوص، فلمّا كان ذلك العموم يخصّص بسبب القرينة كذلك هاهنا، فإنّ عمومات الوعيد، معارضة بعمومات الوعد ولا بدّ من الترجيح وليس ترجيح، بل الترجيح معنا من وجوه: **الأول**: انّ الوفاء بالوعد، ادخل في الكرم، من الوفاء بالوعيد.

الثاني: انّه قد اشتهر في الأخبار انّ رحمة الله سابقة على غضبه، فكان ترجيح عمومات الوعد أولى.

الثالث: انّ الوعيد حقّ الله والوعد حقّ العبد وهو أولى بالتحصيل من حقّ الله لاحتياجه. وقد رأينا انّ كثيرا من الألفاظ العامّة وردت في الأسباب الخاصّة، بل قطع بعض انّ العذاب منفيّ عن أهل الكبائر واحتجّوا بقوله

١ـ سورة البقرة: ٦.

تعالى: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[١] وقوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[٢] قالوا: دلّت الآية على انّ ماهيّة الخزي والسوء والعذاب مختصّة بالكافرين. وقال الله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[٣] حكم بأنّه تعالى يغفر كلّ الذنوب ولم يعتبر التوبة ولا غيرها وهذا الكلام. يفيد القطع بغفران كلّ الذنوب.

والثالث من الآيات الدالّة على مرامنا: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾[٤] وكلمة «على» تفيد الحال، كقولك رأيت الملك على أكله، أي رأيته على اشتغاله بالأكل، فكذا هاهنا وجب أن يغفر لهم الله حال اشتغالهم بالظلم وحال اشتغالهم بالظلم يستحيل وجود التوبة منهم، فعلمنا انّه يحصل الغفران بدون التوبة.

الرابع: قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[٥] وكلّ نار متلظّية.

الخامس: انّ صاحب الكبيرة لا يخزى لأنّ صاحب الكبيرة مؤمن والمؤمن لا يخزى لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾.[١] وصاحب الكبيرة من الذين آمنوا بالغيب وليس بكافر. وحكم سبحانه بالفلاح على كلّ من آمن، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

١ـ سورة النحل: ٢٧.

٢ـ سورة طه: ٤٨.

٣ـ سورة الزمر: ٥٣.

٤ـ سورة الرعد: ٦.

٥ـ سورة الليل: ١٤ـ١٦.

١ـ سورة التحريم: ٨.

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[1]
ومعلوم انّ صاحب الكبيرة، قد آمن بما أنزل الله وموقن بالآخرة لأنّه لو لم يؤمن فهو كافر، والكلام في المؤمن العاصي. وبالجملة، فالعمومات في الوعد والوعيد معارضة بعضها ببعض. والحقّ انّ العبد يكون يتوقّف عند هذه المدلولات ويكون مضطرباً خائفاً من الوعيد وراجياً بالوعد، لأنّه لا يحصل القطع بأحد الأمرين من العمومات.

وبالجملة، فأقصر عن الشهوات وتدارك لساعة لا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك بزائد، معانقة الحسان والتفرّج في المنتزهات، لا تنفع لظلمة القبر وضيقه وأنت لا تعلم ما بقي من أجلك فازهد في طول أملك قبل الحسرة والندامة. نعوذ بالله من قسوة قلوبنا، فإنّ القلب إذا لم يكن قاسيا يتأثّر بكلمة، كما اتّفق للشيخ جعفر المرتعش النيشابوري وكان أوّل أمره ابن دهقان كثير المال، فسأله رجل شيئاً، فقال في نفسه: شابّ، جلد، صحيح البدن، لا يأنف من هذا. قال فزعق في وجهى زعقة أفزعتني، ثمّ قال أعوذ بالله ممّا خامر في سرّك، قال فغشي عليّ، فلمّا أفقت لم أر أحداً فندمت على ما كان مني فبتّ ليلة بغمّ شديد، فرأيت في الرؤيا علي بن أبي طالب عليه السلام ومعه ذلك الشابّ وعليّ عليه السلام يشير إليّ ويوبّخني ويقول: «إنّ الله لا يجيب سؤال مانع سائليه. فانتبهت وفرّقت جميع ما كان لي ولزمت مسجداً ببغداد. وكان وقت موته عليه من الدين بضع وعشرون درهماً يعادل ما يملك. ونحن في كلّ يوم نقرأ من القرآن ولا نجيب سائلا. قلوبنا مريضة ولا نحسّ حتى نعالجها، فكما انّ البدن بعدم المراقبة في حفظ الصحّة يهزل ويضعف، كذلك الروح والنفس بكثرة المعاصي يفسد بحيث لا يقبل العلاج، الا ترى انّ بعض الأمراض لا يعالج، كذلك بعض المعاصي صعب العلاج،

١ـ سورة البقرة: ٤ـ٥.

أو غير ممكن العلاج، فتشتغل خمسين سنة بالمعاصي برجاء التوبة وأنّى لك التوبة، تشرب السم برجاء الترياق والطبيب ولعل الترياق لا ينفع بعض الأوقات في بعض الأمزجة، كما شوهد مراراً والمعاصي إذا كثرت يغلظ الحجاب ولا يحصل لك نور، حتى تهتدي إلى سبيل العبودية، فتكون خارجاً عن العبوديّة».

حكي عن ذي النون المصري، قال: كنت في بعض الجبال فإذا بجارية مكشوفة الرأس والوجه وقد نحل جسمها وتغيّر لونها وتقول: الله الله. فقلت لها: أين الخمار يا جارية، فأجابتني ما يصنع بالخمار وجه علاها الذلّ والصغار. فقلت لها لما ذا علاها الصغار. فقالت: من الخمار. فقلت سبحان الله، تناولت شيئاً من الخمر. قالت: يا بطال شربت البارحة من كأس المعرفة، فأصبحت اليوم من الشوق مخمورةً، فقلت: عظيني يا جارية. قالت: عليك بالسكوت حتّى يقال انّك مبهوت، وأرض بالقوت حتّى يبنى لك في الجنّة بيت من الياقوت، تضرّع بالأسحار إلى عالم الأسرار، وتب إليه توبةً نصوحا، والبس مكان الحرير مسوحاً، وأقبل من ناصح أمين، قبل أن تكون في عذاب مهين، وكلّ محنة إلى زوال، وكلّ نعمة إلى انتقال، ومال لا ينفعك في آخرتك وبال، وعلم لا يصلحك ضلال، وليكن وجهك أزهر. لا أغبر، قال الله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾[1]. لابيضاضها في الدنيا بالتزكية وزوال كدورة المعاصي عنها. ضاحكة. لأنّها بكت في الدنيا حتّى صارت عمياء عن رؤية غير الله والدنيا. مستبشرة. وهذه البشارة عوض خوفها في الدنيا، فافيقوا عن سكرتكم وانظروا بعين الإفاقة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ﴾: أي الّذين صدقوا بالله تعالى وبمحمدﷺ بقلوبهم وأدّوا

١ـ سورة عبس: ٣٨.

الفرائض وانتهوا عن المعاصي، مؤيّدون في الجنّة، لا يموتون ولا يخرجون منها أبداً.

جرت السنّة الإلهيّة على شفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه الحكمة في ارشاد العباد، من الترغيب تارة والترهيب أخرى، والبشير مرّة والإنذار أخرى والعجب مع هذه الآيات الصريحة في الخلود للكافر والمؤمن، في الجنّة والنار، انّ بعض المغرورين بالعقل من الفلاسفة والطبائعيّة لفرط غفلتهم كذّبوا هذه الآيات وظنّوا انّ قبائح أفعالهم وأعمالهم، لا تؤثّر في صفاء أرواحهم وقلّدوا اليهود وقالوا: إذا فارقت الأرواح الأجساد، يرجع كل شيء إلى أصله، فالاجساد ترجع إلى العناصر والأرواح إلى حظائر القدس ولا يزاحمها شيء من نتائج الأعمال الّا أيّاماً معدودة. وهذا فاسد لأنّ العاقل يشاهد حسّاً ان تتبّع الشهوات الحيوانيّة واستيفاء اللذّات النفسانيّة، تورث الأخلاق الذميمة، من الحرص والأمل والحسد والبغض والبخل والكبر والكذب وغير ذلك وهذه من صفات النفس الامّارة بالسوء، فتصير بالمجاورة ويتبدّل أخلاق الروح كأخلاق النفس الخبيثة فحكمه حكمها وما تستحق فيستحقّ فكلّما تدنّست الأجسام، تدنست الأرواح وكذّبهم الله تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾[1] الآية.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

١ـ سورة البقرة: ٨١.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: واذكروا وقت أخذنا العهد من بني إسرائيل والميثاق. قيل هو مواثيق الأنبياء على أممهم، والعهد لا يكون الّا بقول أي أمرنا بلسان رسلنا وأكّدنا عليهم في التوراة بأن لا تعبدوا الّا الله وقيل: المراد من العهد من جهة السمع والعقل كليهما ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ يحسنون ﴿إِحْسَانًا﴾ ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي وتحسنون إلى ذي قرابتكم.

في تفسير الامام قال رسول الله ﷺ: «**أفضل والديكم وأحقّهما بشكركم، محمّد وعلي صلوات الله عليهما**»[1] وقال أمير المؤمنين عليه السلام: سمعت رسول الله ﷺ يقول «**أنا وعليّ أبوا هذه الأمّة وحقنا عليهم أعظم من حق أبوي ولادتهم، فانّا ننقذهم من النار لن أطاعونا**».[2]

قال الفيض: ولهذه الأبوّة صار المؤمنون اخوة[3]، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.[4]

قال رسول الله ﷺ: «**من رعى حق قرابات أبويه أعطي في الجنّة ألف ألف درجة، ثمّ فسرّ الدرجات، ثمّ قال ومن رعى حق قربى محمد وعليّ صلوات الله عليهما أوتي من فضائل الدرجات وزيادة المثوبات على قدر زيادة فضل محمّد وعليّ على أبوي نسبه**».[1] والقربى مصدر كالحسنى.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع يتيم وهو الصغير الّذي مات أبوه قبل البلوغ ومن الحيوانات الصغير الذي ماتت أمّه.

١ـ مجمع النورين، للمرندي، ص ١٨٧.

٢ـ مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ٣٠٠.

٣ـ التفسير الصافي، ج ٤، ص ١٦٥.

٤ـ سورة الحجرات: ١٠.

١ـ بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٣٤٤. ورواه الفيض في التفسيرالصافي، ج ١، ص ١٥١.

في الحديث: «ما قعد يتيم مع قوم على قصعتهم فلا يقرب قصعتهم الشيطان».[1] وقال النبي ﷺ: «كافل اليتيم وانا كهاتين في الجنة»[2] ـ وأشار بسبّابتيه ـ وسميت بسبّابة لأنّهم كانوا يسبّون بها في الجاهليّة، فكرهوا ذلك وسمّوه بالمشيرة قال الصادق عليه السلام: «وأشدّ من يتم هذا اليتيم يتيم عن امامه، لا يقدر على الوصول اليه، ولا يدري كيف حكمه فما يبتلى به من شرائع دينه، الا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا وهذا الجاهل بشريعتنا، المنقطع عن مشاهدتنا، يتيم في حجره، ألا فمن هداه وأرشده وعلّمه شريعتنا، كان معنا في الرفيق الأعلى حدّثني بذلك أبي عن آبائه، عن رسول الله ﷺ».[3]

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: المسكين من أسكنه الضرّ والفقر. عن الحرائر، التوصية بحسن القول وإيصال الصدقة إليهم، قال أيضاً عليه السلام «الا، فمن واساهم بحواشي ماله، وسّع الله عليه جنانه وانا له غفرانه ورضوانه». ثمّ قال: «انّ محبّي محمّد ﷺ مساكين، مواساتهم أفضل من مواساة مساكين الفقراء وهم الذين سكنت جوارحهم وضعفت قواهم عن مقاتلة أعداء الله الذين يعيرونهم ويسفهون أحلامهم. الا، فمن قواهم بفقهه وعلمه حتى أزال مسكنتهم وجهلهم، ثم سلّطهم على أعداء الله الظاهرين من النواصب وعلى الأعداء الباطنين، إبليس ومردته، حتى يهزموهم عن دين الله ويذودهم عن أولياء آل الرسول، حوّل الله تلك المسكنة إلى شياطينهم وأعجزهم عن إضلالهم ـ قضى الله بذلك قضاءً حقّاً على لسان رسول الله ﷺ ـ».[1]

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ﴾: أي وقولوا للناس قولاً ﴿حُسْنًا﴾: قرء بفتح الحاء والسين وقرء بضمّ الحاء وإسكان السين مبالغة لفرط حسنه. امر الله سبحانه

١ـ الكامل، ج ٢، ص ٣٠٠، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات، ج ٢، ص ١٦٩.
٢ـ بحارالأنوار، ج ٣٥، ص ١٥٧.
٣ـ مستدرك الوسائل، ج ١٧، ص ٣١٧.
١ـ بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٣٤٤.

بالإحسان بالمال في حقّ أقوام مخصوصين وهم الوالدان والأقرباء واليتامى والمساكين. ولمّا كان المال لا يسع الكلّ، امر بمعاملة الناس كلّهم بالقول الجميل الّذي لا يعجز عنه كلّ احد، أي ألينوا لهم القول بحسن المعاشرة وحسن الخلق وأمروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر.

قيل: المراد قولوا للناس صدقاً وحقّا في شأن محمّد ﷺ، فمن سالكم عنه فأصدقوا وبيّنوا صفته ولا تكتموا أمره وقد امر الله الخلق في هذه الآية بما هو صلاح دينهم ودنياهم.

قال الصادق عليه السلام: **«قولوا للناس حسنا كلّهم، مؤمنيهم ومخالفيهم، امّا المؤمنون فيبسط لهم وجهه وبشره وامّا المخالفون فيكلّمهم بالمداراة لاجتذابهم إلى الإيمان، فإن ييئس من ذلك يكفّ شرورهم عن نفسه وإخوانه المؤمنين»**. قال: انّ مداراة أعداء الله من أفضل الصدقة من المرء على نفسه وإخوانه. كان رسول الله في منزله إذا استأذن عليه عبد الله بن أبي بن سلول، فقال رسول الله ﷺ: **«بئس أخو العشيرة، ائذنوا له»**، فلمّا دخل أجلسه وبشر في وجهه، فلمّا خرج قالت له عائشة: يا رسول الله قلت فيه ما قلت وفعلت فيه من البشر ما فعلت. فقال ﷺ: **«يا عويش يا حميراء انّ شرّ الناس عند الله يوم القيامة من يكرم اتقاء شرّه»**.[1] وفي «الكافي» و«العياشي» عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: **«قولوا للناس أحسن ما تحبّون أن يقال لكم، فإنّ الله يبغض اللعان السباب الطعان على المؤمنين المتفحش السائل الملحف ويحبّ الحييّ الحليم العفيف المتعفّف»**.[1]

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: **«لا تقولوا الّا خيرا حتى تعلموا ما هو»**.[2]

١ـ بحارالأنوار، ج ٧٢، ص ٤٠١.

١ـ بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٦١، نقلاً عن العياشي، ج ١، ص ٤٨.

٢ـ الكافي، ج ٢، ص ١٦٤.

وفي «التهذيب»«العياشي» و«الخصال» و«العياشي» عن الباقر عليه السلام: «انّها نزلت في أهل الذمة» ثم نسخها قوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾. والقمي، نزلت في اليهود، ثمّ نسخت بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[1]، فإن قيل: فما وجه التوفيق بين نسخها وبقاء حكمها، فالجواب: انّها نسخت في حقّ اليهود وأهل الذمّة المأمور بقتالهم ومن هو في حكمهم وبقي حكمها في سائر النّاس إلى يوم القيامة. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: كما فرضا عليهم، ذكرهما تخصيصاً مع دخولهما في العبادة المذكورة. تلخيصه أخذنا عهدكم يا بني إسرائيل بجميع المذكور فقبلتم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ ورفضتم الميثاق ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ وهم من الأسلاف من أيّام اليهوديّة على وجهها ومن الأخلاف كعبد الله بن سلام وأضرابه فهولاء مستثنون والباقون ضلّوا واضلّوا.

﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾: جملة تذييليّة أي وأنتم قوم عادتكم العناد والاعراض عن الحق وأصل الإعراض الذهاب عن المواجهة. والعبادة من وظيفة العبوديّة ولا يحصل العبوديّة الّا بها وهي تفرّد العبد لإطاعة خالقه وتجرّده عن كلّ مقصود سواه، فمن لاحظ خلقاً، أو استجلى ثناءً، أو استجلب بطاعته إلى نفسه حظّاً من حظوظ الدنيا. مع قصده بها، أو داخله مزج أو شوب، فهو ساقط عن مرتبة الإخلاص، وإذا حصل هذا المقام للإنسان يتمّ أمره بساعة وينقلب إلى أهله مسرورا، كما وقع لجماعة كثيرة رجعوا إلى الله وتجافوا عن دار الغرور بلحظة.

١ـ التفسير الصافي، ج ١، ص ١٥١.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾: واذكروا أيّها اليهود، وقت أخذنا إقراركم وعهدكم في التوراة وقلنا لكم لا يريق بعضكم دم بعض. جعل غير الرجل نفسه، لما بينهم من الاتصال القويّ نسباً وديناً فأجرى كلّ واحد منهم مجرى أنفسهم. وقيل: إذا قتل غيره فكأنّما قتل نفسه، لأنه يقتصّ منه وهو اخبار في معنى النهي.

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾: أي لا يخرج بعضكم بعضاً من دياره أو لا تسبّوا ولا تؤذوا جيرانكم، فتلجؤهم إلى الخروج وفي اقتران الإخراج من الديار بالقتل، إيذان بأنه بمنزلة القتل.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾: بالميثاق والزمتم على أنفسكم واعترفتم بوجوب المحافظة عليه ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: عليها، تأكيد للإقرار، مثل قولك: فلان مقرّ على نفسه بكذا، شاهد عليها، أو المعنى وأنتم اليوم تشهدون على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق. وتلخيص البيان: انّ هذه الأحكام والأمور كلّها كانت عليكم مذكورة في التوراة. وأنتم كنتم محكومين بها ومتعاهدين على العمل بها.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: ثمّ أنتم هؤلاء، مبتداء وخبر ومناط الإفادة اختلاف المنزل منزلة اختلاف الذات، أي أنتم بعد ذلك هؤلاء النّاقضون المتناقضون، أو التقدير ثمّ أنتم يا هؤلاء. ويجوز أن يكون هؤلاء تأكيداً لأنتم والخبر تقتلون، أو يكون بمعنى الذين وتقتلون صلته وفي موضع الرفع خبر للمبتدأ: أي أنتم الذين تقتلون أنفسكم: أي يقتل بعضكم بعضاً وتتعرضون للقتل.

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الضمير في ديارهم راجع إلى الفريق. والفريق: الطائفة، تظاهرون: بحذف إحدى التائين حال من فاعل تخرجون: أي متعاونين عليهم في إخراجهم، ملتبسين بالإثم والمعصية والعدوان والتطاول، وتقوّون ظهوركم للغلبة عليهم. والإثم: الفعل الذي يستحقّ فاعله الذمّ واللوم. ودلت الآية على أنّ الظلم كما هو محرّم، فالتعاون عليه أيضاً كذلك، فإن قيل: أليس الله لمّا أقدر الظالم على ظلمه فقد أعانه، فالجواب: انّه كما أمكنه فقد زجره عن الظلم، بالتهديد والمنع: فلو لم يمكّنه ويسلب عنه القوّة بحيث لم يقدر إتيانه، لقبح التكليف، لأنّه لا يقال للأعمى لا تنظر ولا يقال للعنين لا تزن.

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ﴾: أي جاؤكم حال كونهم ماسورين وظهروا لكم على هذه الحالة. والأسارى جمع أسير وهو من يؤخذ قهراً بمعنى الأسر وهو الشدّ والإيثاق. والفرق بين أسارى وأسرى: انّهم إذا قيّدوا وأوثقوا فهم أسارى ، إذا حصلوا في يدهم وسلطتهم من غير قيد فهم أسرى.

﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾: أي تخرجوهم من الأسر بإعطاء الفداء. والمفاداة تجري بين الفادي والمفتدي.

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾: الضمير مبتدأ مبهم يفسّره إخراجهم:

اى الإخراج والقتل حرام عليكم واصل القصّة: انّ الله حكم على بني إسرائيل في التوراة: أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم وأرضهم وايّما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل، فاشتروه وأعتقوه وكانت بنو قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، حين كان بينهما، أي بين الأوس والخزرج من العداوة والحرب، فكان كلّ فريق يقاتل مع حلفائه، فإذا غلبوا، خرّبوا ديارهم وأخرجوهم منها، ثمّ إذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالاً فيفدونهم، فعيّرتهم العرب وقالت كيف تقاتلونهم ثمّ تفدونهم، فيقولون: أمرنا في التوراة أن نفديهم وحرّم علينا قتالهم، ولكنّ نستحيي أن نذل حلفائنا، فذمّهم الله بأنّكم إذا وجدتم أسيراً في يد غيركم من أعدائكم تفدونهم وهذا الحكم قبلتموه وما تركتموه، فكيف قتلكم وإخراجكم إياهم ترتكبونه، فكما انّ تركهم أسرى في أيدى عدوّكم حرام واعتاقهم عليكم واجب، كذلك قتلهم وإخراجهم حرام عليكم.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الّذي فرضت عليكم فيه فرائض وهو التوراة ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وقد علمتم انّ الكفر منكم ببعضه نقض بعهدي وهو قبول التوراة والعمل بأحكامه.

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أي ليس جزاء من يفعل ذلك أي الكفر بالبعض والإيمان بالبعض منكم يا معشر اليهود الأذلّ وفضيحة في الدنيا وهو قتل بني قريظة وأسرهم وأجلاء بني النضير إلى أذرعات وأريحا من الشام وأخذ الجزية والاستصغار. ويوم يقام فيه الأجزية ولذا سميت القيامة يردّون ويرجعون إلى أشدّ العذاب وهو التعذيب في جهنّم، لأنّ كلّ عذاب ينقطع وعذابهم لا ينقطع والله ليس بغافل عن أعمالكم.

أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾: إشارة إلى الذين أخبر عنهم بأنّهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض: أي الموصوفون بهذه الصفة، الذين استبدلوا الحيوة الفانية بالحيوة الباقية وأعرضوا عنها لبعض منافعهم وأغراضهم الفاسدة، فاقطع علاقتك عمّا يفارقك بالموت والزم الاقتصار في الالتفات إلى لازمك الذي لا بدّ لك منه وهو الله. وقد أوحى الله إلى داود: يا داود انا بدّك اللازم فالزم بدّك. وهو الكمال الحقيقي، والمال والبنون شهوات وزينة الحيوة الدنيا وهي كمالات وهميّة وليست الشهوة واحدة وعشرة. وقد يكون الإنسان قد قمع عن نفسه جميع الشهوات، لكن لم يقمع عن طلب حسن الثناء والخلوص وهو قاتله، فلو فرضنا انّ جميع أهل الأرض سجد لك، أليس في مدّة قليلة لا يبقى الساجد والمسجود فكيف تترك الجاه العريض الطويل عند الله وتختار هذا الكمال الوهميّ الزائل من قبول جماعة من الناس الذين لا يملكون لك موتاً ولا حيوةً ولا رزقاً ولا أجلا وخطر الجاه أعظم من خطر المال، لأنّ قليل الجاه يدعو إلى كثيره، لأنّه الذّ من المال. ولا يسلم من هذه الآفة إلّا خامل مجهول.

قال عيسى عليه السلام: «**يا طالب الدنيا للبر، تركك لها أبرّ**».[1] اعلم ان المال كالدواء والنافع منه قدر مخصوص، والإفراط منه قاتل، والقرب من الإفراط ممرض، والعبد مسافر إلى الله، والدنيا منزل من منازل سفره، وبدنه راحلته، ولا يمكنه السفر إلّا بالراحلة، والراحلة لا بدّ لها من علوفة، ولم يؤخذ من العلوفة إلّا قدر مسافة السفر، والزائد ثقل ووبال، فاقنع من الدنيا بزاد

١ـ تنبيه الخواطر، ج ١، ص ١٣٤.

الراكب[١]، كما قال رسول الله ﷺ لسلمان: «فليكن بلاغك من الدنيا كزاد الراكب والزائد يلهى عن ذكر الله»، قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٢] والخطب الأعظم انّه ما من غنى إلّا ويدّعى أنّ ما في يده مقدار كفايته وضرورته. ولم يعرف مقدار الضرورة لكثرة شهواته مع انّ الضرورة في المطعم والملبس والمسكن، وقد عيّن الحذّاق من أطبّاء الدين مقدارها وهو أنّه إن تركت التجمّل في الملبس فيكفيك في السنة ديناران لشتائك وصيفك، وكذلك ان تركت التنعّم في مطعمك فيكفيك في كلّ يوم مدّ ويكفيك لإدامك ان اقتصرت على القليل في بعض الأوقات ثلاثة دنانير في السنة، فإذا مبلغ ضرورتك خمسة دنانير وخمسمائة رطل وإذا كنت معيلاً فكذلك القياس، لكن لما كان لا يحتمل بعض الأشخاص القناعة بالقدر الذي قدّره الزاهدون ولا حرج في الدّين فلهم الضعف في هذا المقدار. ولا يخرج عن حزب أبناء الاخوة مادام يقصد بذلك دفع الألم الشاغل عن ذكر الله والعبادة ومعلوم ان فائدة البذل أعظم من فائدة الإمساك، لأنّ إمساك المال إن كان للتنعّم في الشهوات فتلك سجيّة البهائم وإن كان يتركه لولده ويحرم نفسه مع أنّه هو أولى به، خصوصاً إذا كان الولد فاسقاً يستعين بذلك المال على المعصية فيكون معدّ الأسباب المعصية والكمال الحقيقي، الحريّة وهو انقطاع علائق الدنيا وما يفارقك بالموت.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: ولا يمنعون ولا ينصرون بدفعه عنهم بشفاعة وانتصار.

١ـ الاحتجاج، ج ١، ص ١٥١.

٢ـ سورة التكاثر: ١.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾: هذا نوع آخر من مقابلة النعم بالكفران من اليهود: أي بالله لقد أعطينا يا بني إسرائيل ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي التوراة جملة واحدة، قال ابن عباس: انّ التوراة لما نزلت، أمر الله تعالى موسى بحملها، فلم يطق ذلك، فبعث لكلّ آية منها ملكا، فلم يطيقوا حملها، فخفّفها الله على موسى فحملها.

﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾: قفاه به، إذا اتبعه إيّاه، أي اتبعنا من بعد موسى رسولاً بعد رسول، متّفقين أثره، وهم: يوشع وشموئيل وداود وسليمان وشمعون وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل والياس واليسع ويونس وزكريّا ويحيى وغيرهم.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: وعيسى بالسريانية: اليسوع. ومعناه: المبارك.

وابن بإثبات الألف في الكتابة وإن كان واقعاً بين العلمين لندرة الإضافة إلى الام ومريم بالسريانيّة: بمعنى العابدة والخادمة للمعبد. وقد جعلتها أمّها محرّرة لخدمة المسجد ولكمال عبادتها لربّها سمّاها مريم. وصرّح باسمها في القرآن مع الأنبياء سبع مرات وخاطبها كما خاطب الأنبياء، كقوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.[1] فشاركها مع الرجال ولو كانت النساء بمثل هذه لفضّلت النساء على الرّجال.

﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: المعجزات الواضحات، من إحياء الأموات وإبراء الأكمه والأبرص والأخبار بما يدّخرون والإنجيل.

١ـ سورة آل عمران: ٤٣.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: وقوّيناه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة أي بالروح المقدّسة المطهّرة وهي روح عيسى، وصفت بالقدس للكرامة، لأنّ القدس هو الله. أو الروح جبرئيل ووصف بالطهارة لأنّه لم يقترف ذنبا. وسمّي روحاً لأنّه كان يأتي الأنبياء بما فيه حيوة القلوب. ومعنى تأييده وتقويته به: انّه عصمه من أوّل حاله إلى كبره، فلم يدن منه الشيطان عند الولادة ورفعه إلى السماء حين قصد اليهود قتله. وكان بين موسى وعيسى أربعة آلاف نبيّ وقيل: سبعون ألف نبيّ.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ﴾: خاطب أهل عصر النبيّ بهذا وقد فعله أسلافهم لأنّهم يتولّونهم ويرضون بفعلهم. والفاء للعطف على مقدّر يناسب المقام والتقدير:

ألم تطيعوهم فكلما جاءكم ﴿رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ ولا تحبّ ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ ولا يوافق هواكم من الحق ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وتعظّمتم عن الاتّباع له ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم: أي من الأنبياء كعيسىعليه السلام ومحمّدصلى الله عليه وآله ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ ونسبتم إليهم الكذب ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وقال: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ولم يقل: ﴿قَتَلْتُمْ﴾ لشناعة هذا الأمر ولثبوت عارها عليهم وعلى من بعدهم من أخلافهم، لأنّهم رضوا، بل كانوا على هذه النيّة، بل الفعل لأنّهم حاولوا قتل محمّدصلى الله عليه وآله لو لا أن عصمه الله، وسمّوا الشاة حتّى قالصلى الله عليه وآله عند موته: «**ما زالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوان انقطاع أبهري**». وهو عرق منبسط في القلب إذا انقطع مات.

واعلم: أنّ هوى النفس داء قتّال، وللنفس صفات سبع كلّها مذمومة: العجب والكبر والرياء والغضب والحسد وحب المال وحبّ الجاه. ولجهنّم سبعة أبواب فمن زكّى نفسه عن هذه السبع فقد أغلق السبعة ودخل الجنّة. فيا حملة الأوزار وحفظة المال المستعار ألهاكم حب الرزق عن الرزّاق

واشتغلت طول النهار في الصفق بالأسواق، يا عمّار الخراب ويا شرّاب السراب إلى متى؟ وقد قاربت الخمسين! فاقتصر وقد وهنت ركبتاك وذابت أليتاك ولا عطر بعد عروس، ما هي إلّا أنفاس تتردّد وستنقطع، وقامات تتمدّد وتتقوس فتنقطع، فارغم أنف الشيطان وخالف هواك الحرص فقابله بالقناعة، والأمل فاكسر بمفاجاة الأجل، والتمتّع باللذائذ فقابله بطول الحساب في الموقف الصعب الكبير، والأنانيّة بالتواضع للفقراء من المؤمنين، وحبّ المال والبخل فاكسره بالبذل والعطاء حتّى تكون من أهل الورع، ولا أقلّ من أقلّ درجتهم، فإنّ درجات الورع أربعة:

الأولى: من الحرام وهي الدّرجة العامّة.

الثانية: ورع الصالحين وهي التي يتطرّق فيها الشبهة، قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾.[١]

الثالثة: ورع المتّقين يتورع عن الزينة وأكل اللّذائذ والشهوات مع انّها حلال خيفة أن يجمح النفس ويدعو إلى الشهوات المحظورة كالنظر إلى تجمّل أهل الدنيا فإنّه يحرك دواعي الرغبة في الدنيا قال الله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾.[٢] قال عيسى عليه السلام: **«لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإنّ بريق أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم»**[١] وقد قيل من رقّ ثوبه رقّ دينه.

الرابعة: ورع الصدّيقين وهو الحذر عن كلّ ما لا يراد بتناوله القوّة على طاعة الله أو كان قد تطرّق إلى بعض أسبابها معصيته، ومن ذلك انّ بشر الحافي، كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها الأمراء والسلاطين. تأمّل

١ـ سورة زمر: ١٨.

٢ـ سورة الحجر: ٨٨.

١ـ المحجة البيضاء، ج ٧، ص ٣٢٨.

في وصيّة رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وخفض الجناح والوفاء بالعهد وترك الخيانة وصلة الأرحام ورحمة الأيتام ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل والتفقّه في الدين وتدبّر القرآن وذكر الآخرة والجزع من الحساب وكثرة ذكر الموت ولا تسب مسلماً ولا تطع آثماً ولا ترض بقبيح تكن كفاعله واذكر الله عند كلّ شجر ومدر وبالأسحار وعلى كلّ حال، فإن الله ذاكر من ذكره وشاكر من شكره وجدّد لكل ذنب توبة: السرّ بالسرّ والعلانية بالعلانية».[1]
واعلم: انّ أصدق الحديث، كتاب الله. وأوثق العرى التقوى. وأحسن القصص القرآن. وشرّ الأمور محدثاتها.

وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى. وخير العلم ما نفع. واليد العليا خير من يد السفلى. وما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى. وشرّ المعذرة عند الموت. وشرّ الندامة يوم القيامة. ومن أعظم خطايا اللسان الكذب. وخير الغنى غني النفس. ورأس الحكمة مخافة الله في السرّ والعلانية. وانّ جماع الإثم، الكذب والارتياب. والنساء حبائل الشيطان. والشباب شعبة من الجنون.[2] وشرّ الكسب كسب الرياء. وشرّ المآثم أكل مال اليتيم. وليس لجسم نبت على الحرام الّا النار. ومن تغذّى بالحرام فالنّار أولى له ولا يستجاب له دعاء.

أقول: تأمّل في جوامع كلماته وقد بيّن ﷺ، جميع مراتب الحكمة النافعة لك في دينك ودنياك، مثل انّه نهى ﷺ عن الشرك الخفي، وهذا الشرك وإن كان لا يذهب بأصل الإيمان بأن يكون صاحبه مشركاً ويترتّب عليه أحكام الكافر، لكن يقع في حقيقة الإيمان عيب ونقص كالذهب المخلوط بالحديد، فيكون قليل القيمة وان كان ذهبا. وخفايا معايب الشرك

١ـ أنظر: بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٢٧.

٢ـ عوالي اللئالي، ج ١، ص ٢٩١.

الخفي كثيرة، فيطلب صاحبه الشرف والتعزز من هذا الفعل الشنيع من الناس، فيعجب بمدح الناس إيّاه ويطلب النفع بسبب هذا الرياء من غير الله. ويتوسل في دفع الضرر عن نفسه من غير الله، مع انّه لا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى. ودقائق الرياء والشرك الخفي خفية جدا.

قال صلى الله عليه وآله: **«الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء»**.[1] فإنّ النمل إذا دبّ على التراب، يرى أثر دبيبه، خصوصاً في النهار لكن في الليلة الظلماء لا يرى أثر دبيبه على الحجر الأملس، فإنّ النمل أسود والليل اظلم ولا يسمع دبيبه ورؤية الشيء غالباً والعلم به من هاتين القوتين. فإذا عرفت هذا الأمر فأينا غير مبتلى بهذه البلية ولا نأتي بهذا الأمر الشنيع كلّ يوم مرّات. ولعلك تسمع كلامي فتبادر إلى ملامي وتقول:

فحينئذٍ عملنا هباء؛ فأنا أعذرك في ملامتي، فإنّ الفطام عن المعهود شديد والنزول عمّا تلقاه الفتى من آبائه وعاداته صعب جداً، حقاً كان أو باطلاً، اما ترى هذه الكبيرة العظيمة المنهية في القرآن لمّا شاعت في عادات الناس لا يتخلّص منها الّا الأقلّون، بحيث لا يعدّون الغيبة من المعاصي مع انها عظيمة وصارت عادة بحيث انّ المغتاب حين اغتيابه إذا رأى منك قهقهة، يعدّها قبيحة عظيمة وينسبك إلى الفسق ولا يبالي بهذه العظيمة، فجعلت دينك ما يوافق العادة وعندك الحسن ما وافق عادة الناس والقبيح ما تركته العادة، لا ما حسّنه العقل، فيكون معتزلياً إمامياً ولا ما حسّنه الشرع فتكون أشعرياً بل هذا مسلك جديد خبيث.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: أي اليهود الموجودون في عصر النبي صلى الله عليه وآله قالوا

١ـ وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٢٥٤.

قلوبنا غلف، مستعار من الأغلف الذي لم يختتن أي مغشاة بأغشية جبليّة لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمّدﷺ ولا نفقهه، فرد الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك، لأنّها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق، فاضرب وقال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي خذلهم وطردهم وخلّاهم وشأنهم بسبب كفرهم العارض الّذي أقدموا عليه بسوء اختيارهم وإبطالهم الاستعداد الفطري الإسلامي.

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ما مزيدة للمبالغة أي فإيماناً قليلا يؤمنون وهو إيمانهم ببعض الكتاب. والفاء لسببيّة عدم الإيمان الموجب للّعن. ثم انّ في القراءة اختلاف، فقرء بعض، غلف، بسكون اللام، فالمعنى على ما بينّاه. وقرء بعض، غلف، بضم اللّام كأبي عمرو، جمع غلاف، فيكون معناه: انّ قلوبنا أوعية للعلم ونحن علماء فلو كان ما تقوله شيئاً يفهم أوله طائل لفهمناه، أو يكون المراد ليس في قلوبنا ما تذكره فلو كان علماً لكان فيها. ويجوز في معنى فقليلاً ما يؤمنون: أي فأفراد قليلة منهم يؤمنون، كعبد الله بن سلام وأصحابه.

وفي الآية ردّ صريح على المجبرة، لأنّ هؤلاء اليهود ادّعوا انّ على قلوبهم، ما يمنع من الإيمان ويحول بينها وبينه، فكذبهم في ذلك بأن لعنهم وطردهم ولو كانوا صادقين بأنّ الله خلق الكفر في قلوبهم وجعله المانع لهم، لما استحقّوا اللعن والطرد ويلزم انّ الله كلّفهم مالا يطاق تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا. وربّك اعلم بمن هو أهدى سبيلا والضلالة والهداية سبيلهما باختيار العبد. وانّ المادة المعبّرة عنها بالهيولي في نفسها خالية عن الحكم لها وعليها من حيث هي هي. وانّما الأحكام تلحق الصورة، الا ترى انّ القلم إذا أصاب مداداً فانّما يلحقه حكم ذلك من غير الحكم بالحسن والقبيح، فإذا

كتبت بذلك المداد اسمي ذاتين مختلفين في الخير والشرّ، كان اسم الذات المقدسة حسنا واسم الآخر سيّئا. وهاك مثالاً آخر، وهي حروف الهجاء فإنّ الألف لا تدلّ على غير نفسها وليس فيها معنى غير وجودها، فإذا ألّفت من ثلاثة أو أربعة، يوجب معنى محدث لم يكن قبل ذلك، كذلك المادّة لا تجري عليها الأحكام من حيث هي وانما تجرى عليها بالصورة والتأليف، الا ترى انّه إذا نزى حيوان محرم على حيوان محلّل، كان حكم التحليل والتحريم في نسلهما للاسم الذي هو خاصّة الصورة وظاهرها. وتلك الحقيقة تحقّقت وتميّزت بالصورة، فحقق بهذا البيان معنى الحديث: **«السعيد سعيد في بطن امّه»**.[1]

والأمّ هي الصورة والمادّة هي الأب وبعبارة أخرى: المادّة هي الوجود والصورة هي الماهية، فالحسن انّما حسن في بطن أمّه وكذلك القبيح، والحكم لا يتعلق بالمادة والّا لتساوت الإفراد من الجنس في الحكم، فيكون السرير والصنم واحداً، لأنّ السرير والصنم من الخشب، فلو كانت الأمّ هي المادة، لكان الصنم انّما قبح لكونه من الخشب ولم يقل به أحد وكان يقال: السعيد سعيد في صلب أبيه. ومن شأن العاقل أن ينتقد نفسه ويتأمّل انّ الشيطان من أيّ طريق أفسده، مثل انّ بعض الحمقاء بسبب هذا الحديث قالوا: السعادة والشقاوة من المقدرات وإذا كان كذلك، فما الفائدة في العمل! وعطّلوا العمل وهذا غلط، لأنّ الله أمركم بالعمل، قال: اعملوا وكل ميسّر لما خلق له. فأطع حتى تكون سعيداً، ولا تعص حتى تكون شقيّاً. وبعض آخر من الحمقاء أفسده الشيطان ويقول: ان الله غنيّ عنّي وعن عبادتي وليس له حاجة إلى عبادتنا. وهذا جهل، نعم انّ الله غنيّ عنك، لكن أنت تحتاج إلى

١ـ شرح أصول كافي، ج ١، ص ٢٣٥.

العبادة، قال الله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾.(١) وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾.(٢) وهذا الكلام يشبه مريضا يصف له الطبيب دواء فيقول المريض ما ينفع الطبيب إذا ما شربت الدواء، وطبقة أخرى من الناس يتجاوزون من حدود الشرع معتمدين على رحمة الله وكرمه، مع انّه إذا جاع لا يشبع الا بالأكل. وكذا لا يبرأ من مرضه الّا بعد شرب الدواء وهو كريم لكن لا تخرج حبّة من الحنطة الّا بعد مشقّة الحرث والسقي والمدة والعدة وهو كريم وشديد.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ﴾ كائن ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن، ووصفه بقوله من عند الله، للتشريف ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾: أي موافق للتوراة في التوحيد والنبوات ـ والمصدق به ما يدل عليها من العلامات من بعثة محمّد ﷺ ـ وليس المراد انّ القرآن مصدق تمام أحكام التوراة وشرائعها، بل القرآن نسخ أكثرها ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ من قبل مجيء محمّد ﷺ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ اي، يستنصرون به على مشركي العرب وكفّار مكّة ويقولون: اللهمّ انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة. ويقولون لأعدائهم: ننتظر زمان نبيّ يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وارم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ من الكتاب بمجيئه ونعوته ﴿كَفَرُوا۟

١ـ سورة فاطر: ١٨.

٢ـ سورة فصلت: ٤٦.

بِهِۦ﴾ حسداً وحرصاً على الرياسة. وغيّروا صفته وهو جواب، لما، الأولى والثانية، تكرير للأولى ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي عليهم ووضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أنّ اللعنة لحقتهم لكفرهم. والفاء للدلالة على ترتيب اللعنة على الكفر. واللعنة في حقّ الكافر: الطرد والإبعاد من الرحمة والجنّة على الإطلاق وفي حقّ العاصين والمذنبين من المؤمنين، الإبعاد من الكرامة التي وعد بها من لا يكون في ذلك الذنب مثل لعنة المحتكر وأمثاله.

بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

ثمّ ذم الله تعالى اليهود بإيثارهم الدنيا على الدين، فقال: ﴿بِئْسَمَا﴾ أي: بئس شيئاً باعوا به أنفسهم (ما) نكرة منصوبة، تميز ـ والمميز لا يكون إلّا نكرة، الا ترى انّ أحداً لا يقول عشرون الدرهم، كقولك: نعم رجلاً زيد ـ مفسرة لفاعل بئس وتقديره بئس الشيء شيئاً ﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ بمعنى باعوا ﴿بِهِۦٓ﴾ أي بذلك الشيء ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ المراد، الإيمان وحاصل المعنى: انّهم باعوا إيمانهم بكفرهم، لأنّ الذي حصلوه على منافع أنفسهم لما كان هو الكفر، صاروا بائعين أنفسهم بذلك وبذلوا الأنفس به. والمخصوص بالذمّ.

﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فبيّن سبحانه تفسير ما اشتروا به أنفسهم بقوله: أن يكفروا بما انزل الله، والمراد كفرهم بالقرآن، لأنّ الخطاب إلى اليهود وكانوا مؤمنين بالتوراة، ثمّ بيّن الوجه الذي اختاروا الكفر بما أنزل الله، فقال: ﴿بَغْيًا﴾ أي علّة كفرهم، البغي والحسد، لأجل ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وذلك لأنّهم طمعوا انّ هذا الفضل العظيم

بالنبوّة المنتظرة يحصل لهم ولقومهم، فلمّا وجدوه في العرب حملهم ذلك على البغي والحسد، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[١]، ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: أي احتملوا بغضب على غضب مترادف ولعنة إثر لعنة حيثما اقترفوا كفراً على كفر، مثل تكذيبهم عيسى عليه السلام وما أنزل عليه، وتكذيبهم محمّداً صلى الله عليه وآله وكذلك عبادتهم العجل. وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾[٢] وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾[٣]، فدخلوا في سبب بعد سبب. وللكافرين: أي لهم عذاب مهين مقرون بالإهانة والذلّ. وفيه إشعار بأنّ عذاب المؤمنين، تأديب وتطهير. وعذاب الكفّار، إهانة وتشديد. وذلك كله لحبهم الدنيا لشهواتهم.

قال عيسى عليه السلام: **«لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد»**.[٤]

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«اتّقوا الدنيا فإنّها أسحر من هاروت وماروت»**[٥]، وقال عيسى للحواريين: **«ارضوا بدنيّ الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بدنيّ الدين مع سلامة الدنيا»**.[١]

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«انّ الله لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وانّه لم ينظر إليها منذ خلقها. والقرآن مشحون من ذمّ الدنيا وذمّ أهلها»**[٢]، مثل قوله تعالى:

١ـ سورة أنعام: ١٢٤.

٢ـ سورة آل عمران: ١٨١.

٣ـ سورة مائده: ٦٤.

٤ـ جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٠.

٥ـ الدر المنثور، ج ١، ص ١٠٠.

١ـ بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٣٢٢.

٢ـ لم نعثر عليه فيما بأيدينا من المصادر.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾[1] ومثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.[2]

مثال الخلق في الدنيا، كمثال قوم ركبوا في السّفينة فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملّاح إلى الخروج لقضاء الحاجة وخوفهم المقام ليغرقوا فيها، فبادر بعض وقضى حاجته ورجع إلى السفينة، فوجد بعض مكاناً خالياً واسعا ووقف بعضهم ينظر في أزهارها ونعمات طيورها، فرجع إلى السفينة، فلم يجد الّا مكاناً ضيّقاً، وأكبّ بعضهم على تلك الأصداف والأحجار إذ أعجبه حسنها، فلم يقدر على رميها ولم يجد لها مكاناً، فحملها على عنقه وهو ينوء تحت ثقلها. وولج بعضهم الرياض ونسى المركب واشتغل بالتفرّج في تلك الأزهار والتناول من تلك الثمار وهو في تفرّجه غير ملتفت إلى النكبات، فلمّا رجع إلى السفينة، لم يصادفها، فبقى على الساحل، فافترسته السباع والهوام، فهذه صورة مثال الخلق في الدنيا فتأمّل.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾

بيان لنوع آخر من قبائح أفعالهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: وإذا قال أصحاب رسول اللهﷺ ليهود أهل المدينة ومن حولها آمنوا بما أنزل الله من الكتب الإلهيّة جميعا ﴿قَالُواْ نُؤۡمِنُ﴾: أي نستمرّ على الإيمان ﴿بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾: يعنى التوراة ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾: يريد الإنجيل والقرآن وما سوى التوراة من الكتب المنزلة ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي

١ـ سورة النازعات: ٣٨ـ٣٧.
٢ـ بحارالأنوار، ج ٧٠، ص ٣.

والحال انّ ما وراء التوراة هو الحق، يعني القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي حال كون القرآن موافقاً للتوراة وفيه ردّ لمقالتهم لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة، فقد كفروا بالتوراة ﴿قُلْ﴾ يا محمّد تبكيتاً لهم من جهة الله لبيان التناقض، بين أقوالهم وأفعالهم ﴿فَلِمَ﴾ أصله لما، لأمه للتعليل دخلت على، ما، الّتي للاستفهام وسقطت الالف، فرقاً بين الاستفهامية والخبريّة ﴿تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾: صيغة الاستقبال لحكاية حال الماضي وهو جواب شرط مقدر: أي قل لهم ان كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون، فلأيّ شيء تقتلون أنبياء الله من قبل وهو فيها حرام وأسند فعل الآباء، إلى الأبناء، لرضاهم بفعل آبائهم والآية دليل على انّ من رضى بالمعصية: فكأنّه فاعل لها، لأنّ اليهود كانوا راضين بقتل آبائهم إيّاهم، فسمّاهم الله قاتلين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: جواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه أي ان كنتم مؤمنين، فلم تقتلونهم وهو تكرير للاعتراض وتشديد للتهديد.

وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾

من تمام التبكيت والتوبيخ واللام للقسم ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالله قد جاءكم موسى، ملتبساً بالمعجزات الظاهرة، من العصا واليد وفلق البحر ونحوه ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ الها من بعد مجيئي موسى بها ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ التكرار في هذه البيانات وأمثالها لإيجاب الحجّة على الخصم. والمعنى اذكروا وقت أخذنا العهد ورفعنا فوقكم الجبل قائلين لكم:

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾: أي اعملوا بما أمرتم به في التوراة واسمعوا ما فيها سمع طاعة وقبول ﴿قَالُوا﴾: استيناف مبنيّ على سؤال سائل كأنّه قيل فماذا قالوا؟ فقيل قالوا: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك: ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ولو لا مخافة الجبل ما قبلنا في الظاهر، فإذا كان حال إسلامهم هكذا، فكيف يتصوّر من أخلافهم الإيمان.

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ بيان لمكان الإشراب، أي حلّ حبّ العجل محلّ الشراب واختلط به كما خلط الصبغ بالثوب: أي جعلوا شاربين حبّ العجل، نافذاً في قلوبهم نفوذ الماء ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم السابق الموجب لذلك قيل: (كانوا مجسّمة وحلوليّة ولم يروا جسما أعجب منه، فتمكّن في قلوبهم ما سوّل لهم السامريّ. وفي القصص انّ موسى عليه السلام لما خرج إلى قومه، أمر أن يبرد العجل بالمبرد، ثمّ يذري في النهر، فلم يبق نهر يجري يومئذ إلّا وقع فيه منه شيء، ثمّ قال لهم: اشربوا منه، فمن بقي في قلبه شيء من حبّ العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه).[1]

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ﴾: أي بئس شيئاً يأمركم بذلك الشيء ﴿إِيمَانُكُمْ﴾ بما أنزل إليكم من التوراة.

وحاصل المعنى أنّه قل يا محمّد صلى الله عليه وآله لهؤلاء اليهود، بئس الشيء الذي يأمركم به إيمانكم من حبّ العجل وقتل أنبياء الله والتكذيب بكتبه بزعمكم

١ـ أنظر: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٤٦.

انكم مصدقون بالتوراة وتدعون بقولكم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.[1] وليس المعنى أنهم أشربوا حبّ العجل، جزاء على كفرهم، لأنّ محبّة العجل كفر قبيح والله تعالى لا يفعل الكفر في العبد، لا ابتداءً ولا جزاءً، بل دعاهم إلى حبّ العجل، السامريّ، وزيّنه في قلوبهم. وقول من قال: فعل الله ذلك لهم، عقوبة ومجازاة على كفرهم، غلط فاحش ـ تعالى الله عمّا نسبوا إليه من هذه الأمور وأمثالها ـ وفي إسناد الأمر إلى الإيمان تهكم وإضافة الإيمان إليهم للإيذان بأنّه ليس بإيمان حقيقة كما ينبئ عنه قوله ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالتوراة وإذا لا يسوغ الإيمان بها مثل تلك القبائح، فلستم بمؤمنين. وفي هذا نفي عن التّوراة أن يكون يأمر لشيء يكرهه الله وإعلام بأنّ الّذي يأمرهم بذلك أهواءهم.

اعلم: أنّ اعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن تظهر في الخارج على الجوارح بعضها معفوّة وبعضها غير معفوّة، فأوّل ما يرد على القلب هو الخاطر، فيخطر بباله الشيء وتهيج رغبته اليه، فالأوّل حديث النفس، والثاني هو رغبة النفس، يسمّى الميل ثمّ يحكم القلب بأنّ هذا ينبغي أن يفعل وهذه الدرجة الثالثة، ثمّ يعزم على الفعل، فهذه أربعة أحوال قبل العمل بالجارحة، فخاطر وميل واعتقاد وعزم، فالخاطر لا يؤاخذ به وكذلك الميل لأنّه لا يدخل تحت الاختيار وهما المرادان بقولهﷺ: **«عفي عن أمّتي ما حدّثت به أنفسهم»**. والثالث: وهو الاعتقاد فهذا يؤاخذ به إذا كان اختياريّا وإلّا فلا. والعزم على الفعل فإنّه يؤاخذ به[1]، قال النبيﷺ في المتقاتلين: **«انّ المقتول في النار، لأنّه**

١ـ سورة بقرة: ٩١.

١ـ عدة الداعي، ص ٢١٣.

كان حريصاً على قتل صاحبه»[1] وهذا نصّ في أنّه من أهل النار بالعزم، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾. وفي عبارات الشيخ البهائي والأنصاري في مبحث التجرّي بيانات في أهوائهم وقلوبهم. وأرض القلب لا ينبغي إفسادها وأعظم أسباب فسادها التحريف ولو في الجملة، فإنّ الشرائع سنن موضوعة بين العباد فإذا تمسّك الخلق بها زال العدوان ولزم كلّ أحد شأنه فحقنت الدماء وضبطت الأموال وحفظت الفروج، فكان ذلك صلاح الدنيا وصلاح القلوب. امّا إذا حرفت الشريعة أو أهملت، فيقدم كلّ أحد على ما يهواه، فيظهر الفساد في البرّ والبحر ومن أعظم أسباب فساد القلوب اظهار مقامات دينيّة بقول أو عمل ظاهريّ، أو تكلف حال لا يوافقه القلب مظهراً له على صورته الواقعيّة، تلبيساً على نفسه، أو على الناس ومحدثون عادات غير موافقة للشريعة والطبيعة، مجبولة على التقليد ومتابعة أفعال أبناء نوعه وهذه مفسدة لأحوال القلب وهو لا يحسّ بها كيف انقلبت قلبه النهاية وانّه يقتصر على أمور ظاهرها عبادات وباطنها عادات ولا يطلب حقائق الإيمان والإخلاص والتوجّه التامّ في الأعمال الخفيّة التي لا يطلع عليها إلّا الله.

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾

﴿قُلْ﴾ لهم يا خير الأنبياء ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ان صح قولكم ان لن يدخل الجنّة إلّا من كان هودا وانّ الجنّة لكم ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾: خاصّة بكم من دون محمّد وأصحابه ﴿فَتَمَنَّوُا۟

١ـ شرح صحيح مسلم، ج ١٨، ص ١٢.

﴿ٱلْمَوْتَ﴾: فاسئلوا الموت بالقلب واللسان، فإنّ من أيقن بدخول الجنّة اشتاق إليها وتمنّى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلّص من دار الكدّ والتعب وقرارة الأكدار لأنّه لا سبيل إلى دخولها الا بعد الموت، فاستعجلوه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ومؤمنين والمؤمن ينبغي أن يكون فعله مصدّقاً لقوله. وأصل الإيمان إفراد القديم عن الحدوث ونفي الشريك مطلقاً، ثمّ الامتثال لأوامره تعالى، فإذا حصل هذا المعنى فقد تمّت السعادة.

قال رسول اللهﷺ: **«لما دخل على يعقوب، بشير يوسف وبشّره بحياته، قال له يعقوب: على أيّ دين تركته، قال: على دين الإسلام، قال يعقوب: قد تمّت النعمة على يعقوب»**.

واعلم يا أخي، انّ اصل الأصول ومناط القبول ومكفّر الخطايا ومستجلب العطايا، التوحيد. قال صاحب تفسير روح البيان، المولى إسماعيل الحقّي حكي: (انّ رسول الله كان يحب إسلام دحية الكلبي، لأنّه كان تحت يده سبعمائة من أهل بيته وكان مطاعاً عندهم وكانوا يسلمون بإسلامه ولذلك كانﷺ حريصاً على إسلامه وكان يقول: **«اللهمّ ارزق دحية الإسلام»** فلما أراد دحية الإسلام، أوحى الله إلى النبيﷺ بعد صلاة الفجر، ان: **«يا محمد انّ الله يقرؤك السلام ويقول: إنّ دحية يدخل عليك الآن»**.

وكان في قلوب الأصحاب شيء من دحية، من وقت الجاهليّة، فلمّا سمعوا ذلك، كرهوا ان يمكّنوا دحية فيما بينهم، فلمّا علم ذلك الرسولﷺ كره أن يقول لهم مكّنوا دحية، وكره أن يدخل دحية، فيوحّشوه، فيبرد قلبه عن الإسلام، فلمّا دخل دحية المسجد، رفع النبيّﷺ ردائه عن ظهره وبسطه على الأرض بين يديه فقال لدحية: **«هاهنا ـ وأشار إلى ردائه ـ»** فبكى دحية من كرم رسول اللهﷺ ورفع ردائه وقبّله ووضع على رأسه وعينيه وقال: ما

شرائط الإسلام، اعرضها عليّ. فقال ﷺ: **«أن تقول اوّلاً، لا إله الاّ الله، محمّد رسول الله»**. فقال دحية ذلك، ثمّ وقع البكاء على دحية. فقال ﷺ: **«ما هذا البكاء وقد رزقت الإسلام؟»** فقال: انّي ارتكبت خطيئة وفاحشة كبيرة، فقل لربّك، ما كفّارته؟ ان أمرني أن أقتل نفسي، قتلتها وان أمرني أن أخرج من جميع مالي، خرجت، فقال ﷺ: **«وما ذلك يا دحية»**، قال: كنت رجلاً من ملوك العرب واستنكفت أن تكون لي بنات، لهنّ أزواج، فقتلت سبعاً من بناتي كلّهنّ بيدي، فتحيّر النبي ﷺ في ذلك حتّى نزل جبرئيل، فقال: **«يا محمّد انّ الله يقرؤك السلام ويقول: قل لدحية: وعزّتي وجلالي، انّك لما قلت: لا إله إلاّ الله غفرت لك كفر ستّين سنة وسيّئات ستّين سنة. فكيف لا أغفر لك قتل البنات؟»** فبكى ﷺ وأصحابه. فقال ﷺ: **«إلهي غفرت لدحية قتل بناته بشهادة أن لا إله إلاّ الله مرة واحدة، فكيف لا تغفر للمؤمنين بشهادات كثيرة وبقول صادق وبفعل خالص؟»**).

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٩٥﴾

(لن) تأييد للنفي، أي لا يتمنّوا الموت، هؤلاء اليهود، ﴿أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: لحرصهم على الحيوة، لأجل استدراك شهوات أنفسهم وبسبب كثرة معاصيهم ومخالفتهم في دينهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: والله عالم بظلمهم في حقّ أنفسهم ومخالفتهم في كتابهم. فيا مغرور لو نصحك ناصح، لم ترتكب الكبائر وتعير على الظلم، تعتل بالضرورة مع أنّ الضرورة لو كانت صادقة فبقدر الضرورة. ما أشبه عذرك بعذر الشارب المدّاح فما رعيت حقّ رعايتها وأدنى مراتب الرعاية أن يصون العبد نفسه من المخالفة عمّا كتب الله عليه من الأعمال وأعلاها أن يقف في سيره مع كلّ خطوة حتّى يصحّحه ويخرج عن عهدة ما عليه في تلك الخطوة من الآداب وينسب هذا التوفيق إلى الله لا من فعل نفسه ولا يخلو من هذه الملكة ساعة واحدة، قال

الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[1]:

والمراد من الحرمات التحرج والتجنّب عن المخالفات والامتثال بإتيان الأوامر، على سبيل التعظيم والرغبة والميل، لا على سبيل الكره، فإنّ العبد الكامل إذا عرف عظمة الله، يعبده طوعا، ولا يعبده عبادة العبيد كرهاً، إذ لو لا خوفه من العقوبة، لم يعبده، ولو لا طمعه المثوبة، لم يعمل فهو أجير، يعمل للأجرة فهو عبد الأجرة، لا عبد سيّده، فإن الأجرة إنّما هي مطلوبة لمصلحة النفس ونفعها وراحتها، فعبادته إنّما هي لنفع نفسه، لكن لما كانت الطبقة العامّة لا يقدرون أن يأتوا بمثل هذه العبادة، فهم محكومون أن يعبدوا بالظاهر المتعارف، من مفاد ظاهر الكتاب والسنّة وتلك العبادة الكاملة للأولياء الخاصّة، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلا للعبادة».**[2] لكن فليعلم الطبقة العامّة انّهم محكومون أن يعبدوا بالشروط المقرّرة في الكتاب والسنّة، لا أن يتسامحوا فيها من آدابها المفروضة واوّل أدب العبادة، الإخلاص، وهو تصفية العمل من كلّ شوب ولو من الألف جزء واحد ومن كمال الخلوص أن لا يعتدّ بعمله، بل يرى العامل، عمله محض الموهبة، أجراه الله على يده ولا يرى نفسه مستحقّاً للثواب فإنّه، لا حول ولا قوّة إلّا بالله، ويكون خجلاً من عمله، مع بذل المجهود خوفاً من القصور بحقّ العبوديّة، لأنّه عبد لسيّده، مأمور بالإخلاص عن النقصان والشوائب واحتمال النقيصة والقصور كاف لخجله والعبد إذا ما هذّب عمله عن الشوب والنقصان، يحرم الخير الكثير ولا يكون له استقامة في الخدمة ويحصل له تلوّن، فيغلب الجسم الروح والهوى العقل وينتكس

١ـ سورة الحج: ٣٠.

٢ـ بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٨٦.

الأمر ولا ينبعث له ذوق في العبادة والخدمة، بل يحصل له فتور.

قال النبي ﷺ: «آفة العبادة الفترة».[1] يمرض القلب شيئاً فشيئاً، إلى أن يكره العبادة ويزيد إلى أن يصل إلى درجة المنافقين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.[2]

وهذا المرض بسبب التلوّن وعدم الاستقامة ولهذا شبّهوا الاستقامة بالرّوح الذي يتقوّى به البدن، فإذا فارق الروح البدن يتلاشى ويفنى. والاستقامة على ما امر به من نهج السنة ولا يخترع من عند نفسه عبادة، فيقع في الشيطنة ويحرم بركة المتابعة.

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾: ولتعلمنّ يا محمّد ﷺ من الوجدان العقلي وهو جار مجرى العلم، خلا انّه مختص بما يقع يد التجربة ونحوها عليه. واللام لام القسم، أي والله تجدن اليهود يا محمّد ﷺ ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾: لا يتمنّون الموت. والتنكير للنوع وهي حياتهم الّتى هم فيها، لأنّها نوع من مطلق الحيوة ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ أي انّ اليهود أحرص على الحيوة من سائر الناس ومن الذين أشركوا، قيل هم مشركو العرب وقيل هم المجوس، لأنّهم كانوا يحبّون ملكهم عشّ ألف نيروز وألف مهرجان والمهرجان يوم الاعتدال الخريفي، كما انّ النيروز يوم الاعتدال الربيعي وهذا كقولك: زيد أسخى الناس وأسخى من هرم بن سنان.

١ـ تحف العقول، ص ٦.

٢ـ سورة النساء: ١٤٢.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: بيان لزيادة حرصهم، أي يريد ويتمنّى ويحبّ أحد هؤلاء المشركين أن يعطى البقاء والعمر ألف سنة. ولو، فيه معنى التمنّي والمجوس هم القائلون بيزدان وأهرمن والنور والظلمة والخير والشر. ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾، أي ما أحدهم من يزحزحه من النار تعميره والزحزحة، التبعيد. و، با، زائدة للتأكيد وان يعمّر، فاعل مزحزحه.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ البصير: العالم بكنه الشيء، أي عليم بخفيّات أعمالهم.

قال النبي ﷺ: **«طوبى لمن طال عمره وحسن عمله».**[1] ومن أحبّه للفساد فقد ضلّ ولا ينجو ممّا يخاف، انتهى.

ومعلوم ان الموت ينزل على كل نفس، راضية كانت، أو كارهة، روى شارح الخطب عن وهب بن منبه انّه قال: (مرّ دانيال ببرية، فسمع يا دانيال قف تر عجبا، فوقف فلم ير شيئاً، ثم نودي الثانية، قال فوقفت فظهر لي بيت يدعوني إلى نفسه، فدخلت فإذا سرير مرصّع بالدر والياقوت، فإذا النداء من السرير اصعد يا دانيال تر عجباً، فارتقيت السرير، فإذا فراش من ذهب مشحون بالمسك والعنبر، فإذا رجل عليه ميت، كانّه نائم وعليه من الحليّ والحلل ما لا يوصف وفي يده اليسرى خاتم من ذهب ودرّ وفوق رأسه تاج وعلى منطقته سيف أشدّ خضرة من البقل، فإذا النداء من السرير، ان احمل هذا السيف واقرأ ما عليه، قال، فإذا مكتوب عليه، سيف صمصام من عوج بن عنق بن عاد بن ارم، وانّي عشت ألف عام وسبعمائة سنة وافتضضت اثنى عشر ألف جارية، وبنيت أربعين ألف مدينة، وخرجت بالجور والعنف عن

١ـ الأمالي، للصدوق، ص ١١١.

حدّ الإنصاف، وكان يحمل مفاتح الخزائن أربعمائة بغل وكان يحمل إلى خراج الدنيا، فلم ينازعني أحد من أهل الدنيا، فادعيت الربوبيّة، فأصابني الجوع حتّى طلبت كفاً من ذرة بألف قفيز من درّ فلم أقدر عليه، فمتّ جوعا، يا أهل الدنيا اذكروا الموت كثيرا واعتبروا بي ولا تغرّنكم الدنيا كما غرّتني، فإنّ أهلي لم يحملوا من وزري شيئاً).

قيل لكعب الأحبار: يا كعب حدّثنا عن الموت. قال: هو كشجرة الشوك، أدخلت في جوف ابن آدم فأخذت كلّ شوكة بعرق ثمّ اجتذبها رجل قوي شديد الجذب، فقطع ما قطع وأبقى ما أبقى.[1] وفي الحديث: **«لو انّ شعرة من وجع الميّت وضعت على أهل السماوات والأرضين لماتوا أجمعين. وان في القيامة لسبعين هولا وانّ أدنى هولها ليضعف على الموت سبعين ضعفا»**. فعلى القلوب القاسية أن يعالجوا قلوبهم بحضور مجالس العلم والمواعظ ومشاهدة المحتضرين وذكر الموت وشدائده.

فاستعد ليوم رجوعك والقلب القابل لان يكون عرش الرحمن، لا تجعله للذّة الفانية عرش إبليس ومربع الشيطان. واعلم انّ كل ما خلق، خلق لأجل حكمة وما امر به وما نهى عنه لبقاء تلك الحكمة وحصولها وهذا القانون المنزل فائدته بقاء تلك الحكمة وحصولها، فلا تفتهم فيختلط امر المعاش والمعاد، فإذا جاوزت ذرّة من ذلك القانون، فبقدر التجاوز فسدت ونقصت الحكمة وهلمّ جرا فكلّ أدب من آدابه من فعل تركته، أو ترك فعلته يوجب نقصاً في حاشية دينك، بل دين غيرك وغيّرت حكمة الله ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه كذبة، فما ينجلي من صدره حتّى يعلم انّه أحدث توبة منها وتطهّر من تلك القذرة الباطنية، واستقصاء

١ـ المصنف، ج ٨، ص ٣١٣.

الإنسان في الطهارة الباطنية واجب كالنجاسات الظاهرة، فانّك تنكر على الشخص لو داس الأرض حافياً على فراشك ولا تبالي من مستقذرات باطنك ومهما لم ينقّ الإنسان باطنه من الخبائث، لم ينتفع من إيمانه وعباداته ولم يظهر أثرها، فإنّ الذي مشتغل بالبئر والبالوعة وهو ملوّث كيف يتمكّن من الورود على الملك ويظهر هذه القذارات الباطنية على الجسم لمتابعة الهوى لا مادة الهوى وقد جبّل عليه، والنبي ﷺ ما استعاذ من الهوى ولكن استعاذ من متابعته فقال: «أعوذ بك من هوى متبع وشحّ مطاع» ولم يستعذ من وجود الشحّ، فإنّه طبيعة النفس ولكن استعاذ من طاعته.

ومعرفة دقائق متابعة الهوى، على قدر صفاء القلب وقلّة التلوّث، فإنّ كثير التلوّث لا يصل له هذه المعرفة، فإنّه قد يكون، يتّبع باستحلاء معاشرة الخلّان، أو التجاوز في الأمور المباحة كالأكل والنوم والنكاح وهو لا يشعر بانّه متّبع الهوى، ولا يعلم المسكين انّه مادام حبّ عليه أن ينزع نفسه عن متابعة الهوى، فإنّ النفس دائماً يشتهى هواها ونافرة عن العبوديّة والعبادة بسبب طلب الراحة وهيهات من هذه الفراغة الّا بعد الموت. قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[1] ولكن أين أنت من نهي النفس وما عرفت في أيّام عمرك الّا أتعاب السّن والنوم في الظلال والكنّ وقد بنى على الهوى طبعك وغرس على محبّتها نبعك مع أن طارف الدنيا وتليدها نسج العناكب وضوء الحباحب فاستقبل الموت قبل هجومه، فلعلّه قرب أبان نجومه، فإنّ ضرّ الذنوب سموم قاتلة وحجاب بين العبد والرب والحجاب إذا غلظ لا يرى من ورائه شيء ومن شرب السم فليبادر في القيئ والّا يهلكه.

١ـ سورة النازعات: ٤٠.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

بيان أخر من قبائح اليهود وهذا الكلام لا بدّ له من سبب وهو انّه لمّا قدم ﷺ المدينة، أتاه عبد الله بن صوريا، فقال يا محمّد ﷺ: كيف نومك فقد أخبرنا عن نوم النبي الذي يجيء في آخر الزمان، فقال ﷺ: **«تنام عيني ولا ينام قلبي»**. قال: صدقت يا محمّد ﷺ فأخبرني عن الولد، أيّ عضو من الرجل وايّ من المرأة، فقال: **«امّا العظام والعصب والعروق فمن الرجل وامّا اللحم والدم والظفر والشعر فمن المرأة»**، فقال: صدقت، فما بال الرجل يشبه أعمامه دون أخواله، أو يشبه أخواله دون أعمامه، فقال: **«أيّهما غلب ماؤه ماء صاحبه، كان الشبه له»**، قال: صدقت[1]، فقال: أخبرني أيّ الطعام حرم إسرائيل على نفسه ففي التوراة انّ النبيّ الأمّي يخبر عنه، فقال ﷺ: **«أنشدكم بالله الّذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً، فطال سقمه، فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمنّ على نفسه أحبّ الطعام والشراب وهو لحمان الإبل وألبانها»**، فقالوا: نعم[2]، فقال له ﷺ: بقيت خصلة واحدة ان قلتها أمنت بك: أيّ ملك يأتيك بما تقول عن الله؟ قال ﷺ **«جبرئيل»**، قال انّ ذلك عدونا، ينزل بالقتال والشدّة ورسولنا ميكائيل، يأتي بالبشر والرخاء، فلو كان هو الّذي يأتيك، آمنّا بك، فقال عمر: وما مبدأ هذه العداوة؟ فقال ابن صوريا: انّ أوّل هذه العداوة انّ الله تعالى، أنزل على نبيّنا، انّ بيت المقدس سيخرب في زمان

١ـ الاحتجاج، ج ١، ص ٤٨.

٢ـ جامع البيان، ج ١، ص ٦٠٦.

رجل يقال له بختنصر ووصفه لنا[1]، فطلبناه فلمّا وجدناه بعثنا لقتله رجالاً، فدفع عنه جبرئيل وقال ان سلّطكم الله على قتله، فهذا ليس هو ذاك الّذي أخبر الله عنه: انّه سيخرب بيت المقدس فلا فائدة في قتله، ثم انّه كبر وقوى وملك وغزانا وخرّب بيت المقدس وقتلنا، فلذلك نتخذه عدوّاً وامّا ميكائيل فإنّه عدوّ جبرئيل! فأنزل الله هاتين الآيتين: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ وجواب ﴿مَن﴾ محذوف، أي يكون عدواً لله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ يعنى جبرئيل ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ أي القرآن، أضمره لوضوحه وكمال شهرته ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بيان لمحلّ الوحي، فإنّه القابل الأول ومدار الحفظ والفهم، وحقّ صورة الكلام أن يقال: على قلبي، لكنّه جاء على حكاية قول الله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وأمره وتيسيره ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حال كون القرآن موافقاً لما قبله من الكتب الإلهيّة من معارف التوحيد وبعض الشرائع ﴿وَهُدًى﴾ إلى دين الحقّ ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ ومبشّراً بالجنّة مصدر بمعنى الفاعل ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فحينئذٍ لا وجه لمعاداته فلوا نصفوا، لأحبّوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم.

فالمؤمن يشكر والفاسق يكفر، قال الجنيد: الشكر أن لا تستعين بنعمه على معاصيه، فنعمة إدراكك تصرفها في الدهاء وقواك في المعاصي ومالك في اللهو، فمن لأمك في معصية ونهاك عنها، فشكر هذه النعمة أن تحبّه لا أن تبغضه.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ ومخالفاً لأمره ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ أفردهما بالذكر لإظهار شرفهما، قال عكرمه: جبر، وميك، وإسراف، هي العبد بالسريانيّة، وايل وآئيل، هو الله ومعناها عبد الله وعبد الرحمن قال الرازي في «المفاتيح»: قرء ابن كثير، جبرئيل بفتح الجيم وكسر

١ـ التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري، ص ٤٥٤.

الراء من غير همزة والكسائي وأبو عمر عن عاصم بفتح الجيم والراء مهموزاً والباقون بكسر الجيم والراء، غير مهموز على وزن قنديل وفيه سبع لغات، ثلاث منها ما ذكرناها وجرائل على وزن جراعل وجرائيل على وزن جراعيل وجرايل على وزن جراعل وجراين بالنون ومنع عن الصرف للتعريف والعجمة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جواب الشرط ولم يقل فإنّه، لاحتمال أن يعود إلى جبرئيل وميكائيل ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لهم، جاء بالظاهر ليدلّ على انّ الله انّما عاداهم لكفرهم

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾

فقال ابن صوريا لرسول الله ﷺ بعد تلك السؤالات، ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتّبعها، فانزل هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[1] أي وبالله قد أنزلنا إليك آيات واضحة الدلالة على معانيها وعلى كونها من عند الله، ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: وما يكفر بهذه الآيات الّا المتمردون في الكفر، الخارجون عن حدوده.

أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿أَوَكُلَّمَا﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدّر يقتضيه المقام أي اكفروا بالبيّنات ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا﴾ أراد به العهد الّذي بلغهم الأنبياء، أن يؤمنوا بالنبيّ الأمّي، أو العهود الّتي كانت بين رسول الله ﷺ وبين اليهود، فنقضوها لفعل قريظة والنضير عاهدوا أن لا يعينوا عليه أحد، فنقضوا ذلك وأعانوا عليه قريشاً يوم الخندق ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ جماعة منهم

١ـ أسباب نزول الآيات، للنيسابوري، ص ١٩.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ أي أكثر المعاهدين ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ولا يعود الضمير إلى فريق، لأنّ الفريق النابذة كلّهم غير مؤمنين، لكن من المعاهدين من آمن كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهما وقرء أبو السمال أو، بسكون الواو على انّ الألف واللام في الفاسقون بمعنى الّذين، فيكون المعنى: وما يكفر بها الّا الذين فسقوا أو نقضوا عهد الله مرارا.

وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ﴾: ولمّا جاء اليهود الّذين كانوا في عصر النبيّ ﷺ ﴿رَسُولٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني محمّد ﷺ عن أكثرْ المفسّرين وقيل: أراد بالرسول، الرسالة وهذا القول ضعيف ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ أي هو معترف بنبوّة موسى عليه السلام وبصحّة التوراة، أو معنا من حيث انّ التوراة بشّرت بمقدم محمّد ﷺ فإذا أتى محمّد ﷺ كان مجيئه تصديقاً للتوراة ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي ترك والقى طائفة منهم وانّما قال: من الّذين ولم يقل: منهم. لأنه أراد علماء اليهود ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد به القرآن، أو التوراة ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ كناية عن تركهم العمل به، قال الشعبي: هو بين أيديهم يقرءونه ولكن نبذ والعمل به، فحينئذٍ المراد: التوراة، أدرجوه في الحرير والديباج وحلّوه بالذهب والفضة ولم يحلّوا حلاله ولم يحرّموا حرامه، قال السدي: نبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت، قال قتادة: النابذون جماعة معدودة من علمائهم ولذا ذكر سبحانه: فريقاً لأنّ الجمع العظيم والجمّ الغفير والعدد الكثير، لا يجوز عليهم كتمان ما علموه، لأنّه خلاف المألوف من العادات الّا إذا كانوا عدداً يجوز على مثلهم،

التواطؤ على الكتمان ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ انّه صدق وحقّ والمراد انّهم علموا وكتموا، بغياً وطمعاً في الرياسة، أو المراد كأنّهم لا يعلمون ما عليهم في ذلك من العقاب.

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

واتّبع اليهود، عطف على ما تقدّم من انّه نبذ فريق من اليهود كتاب الله وراء ظهورهم واختلف في اليهود، فقيل: المراد اليهود الذين كانوا على عهد النبيﷺ وقيل: انّهم اليهود الذين كانوا في زمن سليمانﷺ وقيل: المراد به الجميع لأنّ متّبعي السحر لم يزالوا منذ عهد سليمان إلى ان بعث محمّدﷺ أي اتبع اليهود ما يقرء الشياطين، من السحر والنيرنجات على عهد سليمان وزعموا بزعمهم الباطل انّ سليمانﷺ كان كافراً ساحراً ماهراً به ونال ما نال وملك ما ملك وقدر ما قدر وقالوا ونحن أيضاً نعمل به ونظهر العجائب حتّى ينقاد الناس لنا ونستغني عن الانقياد لمحمّدﷺ.

القمي والعياشي عن الباقرﷺ قال: «لمّا هلك سليمان وضع إبليس السحر وكتبه في كتاب وطواه وكتب على ظهره: هذا ما وضعه آصف بن برخيا للملك سليمان

بن داود، من ذخائر كنوز العلم، من أراد كذا وكذا، فليفعل كذا وكذا، ثم دفنه تحت سرير سليمان، فدلّاهم عليه وقرأه عليهم، فقال الكافرون: ما كان يغلبنا سليمان الا بهذه وقال المؤمنون: بل هو عبد الله ونبيّه، فقال الله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[1]» أي على عهده، أوفى عهده، فكذّبهم الله، وقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ ولا استعمل السحر، كما قال هؤلاء الكفرة ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ قرء، لكن، مخفّفة ومشدّدة وعلى قراءة التّخفيف ملغاة عن العمل ورفع اسم ما بعدها، أي ولكن كفر الشياطين بتعليمهم الناس السحر الّذي نسبوه إلى سليمان ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ وبتعليمهم إيّاهم ما انزل على الملكين ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ قال الصادق عليه السلام: «وكان بعد نوح كثر السحرة والمموّهون فبعث الله ملكين إلى نبيّ ذلك الزمان بذكر ما يسحر به السحرة وذكر ما يبطل به سحرهم ويردّ به كيدهم، فتلقّاه النّبي عن الملكين وأدّاه إلى عباد الله بأمر الله وأمرهم أن يقفوا به على السحر وأن يبطلوه ونهاهم عن أن يسحروا به الناس وهذا كما يدلّ على كيفيّة السمّ وعلى ما يدفع به غائلة السمّ، ثمّ يقول لمتعلّم ذلك العلم هذا السمّ فمن رأيته سم، فادفع غائلته بكذا وإياك أن تقتل بالسمّ أحداً، قال وذلك النبيّ أمر الملكين أن يظهرا للناس بصورة بشرين ويعلماهم ما علموا وذلك قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ ذلك السحر وإبطاله ﴿حَتَّىٰ يَقُولَا﴾ للمتعلّم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ امتحان للعباد ليطيعوا الله فيما يتعلّمون من هذا ويبطلوا به كيد السحر ولا تسحروا ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ أيّها المتعلّم باستعمال هذا السحر وطلب الإضرار به ودعاء الناس إلى ان يعتقدوا انك تفعل ما لا يقدر عليه الّا الله، فإنّ ذلك كفر ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ يعني طالبي السحر ﴿مِنْهُمَا﴾ أي ممّا تتلوا الشياطين على عهد سليمان وممّا انزل على الملكين ببابل من هذين

١ـ بحارالأنوار، ج ١٤، ص ١٣٨، نقلاً عن القمي، ص ٤٦، ٤٧.

الصنفين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ يتعلّمون للإضرار بالناس والتفريق بين الزوج والزوجة وبين المتحابين وما يؤدّي عمله إلى الفراق بينهما ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ اي لا يضرّون بذلك السحر الّا بتخلية الله، فإنّه تعالى لو شاء لمنعهم بالقهر وقيل: معنى باذن الله بعلم الله».[1]

قال صاحب كتاب نصاب الاحتساب: انّ الرجل إذا لم يقدر على مجامعة أهله وقدر على ما سواها، فإنّ المبتلى بذلك يأخذ حزمة من القصب ويطلب فأساً ذا فقارين ويضعه في وسط تلك الحزمة ثمّ يؤجج ناراً في تلك الحزمة حتّى إذا حمي الفأس استخرجه من النار وبال على حوّة فيبرأ باذن الله.[2]

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لأنّهم إذا عملوا السحر وتعلّموا ليسحروا به، فقد تعلّموا ما يضرّهم في دينهم، فإنّهم ينسلخون عن دين الله بذلك ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ أي علم هؤلاء المتعلّمون ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ قيل: اللام، في لمن اشتراه، لام الابتداء وقيل لام القسم، و﴿مَنْ﴾ قيل شرطيّة والجواب ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ وقيل: من، موصولة، أي والله لقد علم الّذي اشترى السحر ماله في الآخرة من نصيب في الجنّة ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي بئس ما باعوا به حظّ أنفسهم من نصيب الجنّة حيث اختاروا التكسب بالسحر لداعية الفرار من التكليف وحبّ الدنيا لو كانوا يعلمون كنه ما يصيرون إليه من العقاب الدائم.

فان قيل: كيف أثبت سبحانه لهم العلم في قوله ولقد علموا، ثمّ نفاه

١ـ بحار الأنوار، ج ٥٦، ص ٣٢٠.

٢ـ فتح الباري، ج ١٠، ص ١٩٩.

عنهم في قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فالجواب: انّ الّذين علموا، غير الّذين لم يعلموا، فالّذين علموا، هم الّذين علموا السحر ودعوا الناس إلى تعلّمه وهم الّذين نبذوا كتاب الله وامّا الجهّال الذين يرغبون في تعلّم السحر، فهم الّذين لا يعلمون، أو انّ القوم واحد ولكنّهم علموا شيئاً وجهلوا شيئاً آخر، علموا انّه ليس لهم في الآخرة خلاق ولكن جهلوا ما حصل لهم لهذا الأمر، من العقوبة والنكال.

ثمّ في الآية قول آخر: وهو انّه قرأ، ملكين بكسر اللام، عن الضحّاك وابن عبّاس، فقال الحسن: كانا علجين، أقلفين ببابل، يعلّمان الناس السحر وقيل: كانا رجلين، صالحين من الملوك[1]، مستدلاً بأنّه لا يليق بالملائكة تعليم الباطل، لكن يمكن الجواب بأنّه تعليم الباطل لأجل معرفة بطلانه، ليس فيه ضرر كما شرح أولاً، أو انزلا وهما ملكان من الملائكة، انزلا لتعليم السحر، ابتلاء وامتحاناً من الله للناس كما ابتلي قوم طالوت بالنهر، أو انزلا تمييزاً بينه وبين المعجزة لئلا يغتر به الناس وذلك لأنّ السحرة كثرت في ذلك الزمان واستنبطت أبواباً غريبة في السحر وكانوا بذلك يدّعون النبوّة والناس يصدّقونهم بالنبوّة، فبعث الله هذين الملكين ليعلّما الناس أبواب السحر، حتّى يتشخّص السحر عن المعجزة، فلهذه الحكمة انزل السحر على الملكين، لأنّ التشخيص بين المعجزة والسحر متوقّف على العلم بماهيّة السحر، فبعث الله هذين الملكين لتعريف ماهيّة السحر وقد نهيا الناس عن أعماله بقولهما: انّما نحن فتنة، فلا تكفر أيّها المتعلّم بعمله وهذا من أحسن الأغراض. وأحسن الوجوه. وأنكر أبو مسلم في الملكين أن يكون السحر نازلاً عليهما وقال:

انّ السحر لو كان نازلاً عليهما، لكان منزله هو الله وذلك غير جائز لأنّ

١ـ بحارالأنوار، ج ٥٦، ص ٣٠٤.

السحر كفر وعبث ولا يليق به إنزال ذلك، لأنّ قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[1]، يدلّ على انّ تعليم السحر كفر، فلو ثبت في الملائكة انّهم يعلّمون السحر، لزمهم الكفر وذلك باطل والسحر لا يضاف الّا إلى الكفرة والفسقة والشياطين، فكيف يضاف إلى الله ما ينهى عنه ويتوعّد عليه العذاب وقد أجيب عن قول أبي مسلم قبيل هذا.

وبالجملة فعلى كونهما من الملائكة قالوا في سبب نزولهما واختلفت الروايات في هذه القضيّة، حتّى في رواياتنا الخاصّة، فبعض منها يدلّ على وقوعها وبعض على عدم وقوعها كما في الصافي، قال الراوي: قلت لأبي محمّد الرضا عليه السلام فإنّ قوماً عندنا يزعمون انّ هاروت وماروت، ملكان من الملائكة، فأنزلهما الله إلى الدنيا وانّهما افتتنا بالزهرة وأرادا الزنا بها وشربا الخمر وقتلا النفس المحرّمة وانّ الله يعذّبهما ببابل وانّ السحرة منهما يتعلّمون السحر وانّ الله مسخ تلك المرأة بهذا الكوكب الّذي هو الزهرة، فقال الامام: معاذ الله من ذلك، انّ ملائكة الله معصومون، محفوظون من الكفر والمعاصي بألطاف الله، قال الله تعالى فيهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2] وقال الله تعالى، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾.[3] وعن الرضا عليه السلام، انّه سئل عمّا يرويه الناس من أمر الزهرة وانّها كانت امرأة فتن بها هاروت وماروت وما يروونه من أمر سهيل انّه كان عشاراً باليمن، فقال عليه السلام: «**كذبوا في قولهم وما كان الله ليمسخ أعدائه أنواراً مضيئة، ثمّ يبقيها مادامت السموات والأرض وانّ المسوخ لم**

١ـ سورة البقره: ١٠٢

٢ـ التفسير الصافي، ج ١، ص ١٧٢.

٣ـ سورة الأنبياء، ٢٦ـ٢٧.

يبق أكثر من ثلاثة أيّام وما يتناسل منها شيء وما على وجه الأرض اليوم مسخ وانّ الّتي وقع عليها اسم المسوخيّة مثل القرد والخنزير والدّب وأشباههم انّما هي مثل ما مسخ الله على صورها وامّا هاروت وماروت فكانا ملكين علما الناس السحر ليحترزوا به سحر السحرة ويبطلوا به كيدهم وما علّما أحداً من ذلك شيئاً الّا قالا له: انّما نحن فتنة فلا تكفر فكفر قوم باستعمالهم لما أمروا بالاحتراز عنه وجعلوا يفرّقون بما تعلّموا بين المرء وزوجه».[1]

قال الفيض، أقول: وامّا ما كذّبوه عليهم السلام من امر هاروت وماروت فقد ورد عنهم في صحّتها أيضاً روايات، «القمّي» و«العياشي» عن الباقر عليه السلام: انه سأله عطا عن هاروت وماروت، فقال: «انّ الملائكة كانوا ينزلون من السماء إلى الأرض في كلّ يوم وليلة يحفظون أعمال أوساط أهل الأرض من ولد آدم والجنّ ويعرجون بها إلى السماء فضجّ أهل السماء من أعمال أوساط أهل الأرض في المعاصي والكذب على الله وجرأتهم عليه سبحانه ونزّهوا الله عمّا يقولون ويصفون فقالت طائفة من الملائكة: يا ربّنا أما تغضب ممّا يعمل خلقك في أرضك وممّا يصفون فيك الكذب وعمّا يرتكبونه من المعاصي الّتي نهيتهم عنها وهم في قبضتك فاحبّ الله يرى الملائكة سابق علمه في جميع خلقه ويعرفهم ما منّ به عليهم ممّا طبعهم عليه من الطاعة وعدل به عنهم من الشهوات الإنسانيّة فأوحى الله إليهم أن انتدبوا منكم ملكين حتّى أهبطهما إلى الأرض وأجعل فيهما الطبائع البشريّة من الشهوة والحرص والأمل كما هو في ولد آدم ثمّ اختبرهما في الطاعة إليّ ومخالفة الهوى قال: فندبوا لذلك هاروت وماروت وكانا من أشدّ الملائكة في العيب لولد آدم واستيفار غضب الله عليهم فأوحى الله إليهما ان اهبطا إلى الأرض فقد جعلت فيكما الشهوات كما جعلتها في بني آدم وانّي آمركما أن لا تشركا بي شيئاً ولا تقتلا النفس الّتي حرّمتها ولا تزنيا ولا تشربا الخمر ثمّ اهبطا إلى

١ـ عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٢٤٥.

الأرض في صورة البشر ولباسهم، فهبطا ناحية بابل، فرفع لهما بناء مشرف، فأقبلا نحوه فإذا ببابه امرأة حسنة، جميلة، حسناء، متزيّنة، مستبشرة، مسفرة نحوهما فلمّا تأمّلا حسنها وجمالها وناطقاها وقعت من قلبهما أشدّ موقع واشتدّت بهما الشهوة الّتي جعلت فيهما، فما لا إليها ميل فتنة وخذلان وحادثاها وراوداها عن نفسها. فقالت لهما انّ لي دينا أدين به وليس في ديني أن أجيبكما إلى ما تريدان، الّا أن تدخلا في ديني، فقالا: وما دينك، فقالت: انّ لي إلهاً من عبده وسجد له فهو من ديني وانا مجيبه لما يسأل منّي، فقالا: وما إلهك، فقالت، الهي هذا الصنم، فنظر كلّ إلى صاحبه، فقالا: هاتان خصلتان ممّا نهينا عنه، الزّنا والشرك، لأنّا إذا سجدنا لهذا الصنم وعبدناه، أشركنا بالله وهوذا، نحن نطلب الزنا ولا نقدر على مغالبة الشهوة فيه ولن يحصل بدون هذا، قالا لها: انّا نجيبك إلى ما تريدين، قالت: فدونكما هذه الخمر، فاشربا، فإنّها قربان لكما منه وبه تبلغا مرادكما، فائتمرا بينهما، وقالا: هذه ثلاث خصال نهينا عنها وانّا لا نقدر على الزنا الّا بهاتين، ما أعظم البليّة بك، قد أجبناك، قالت فدونكما اشربا، فشربا وسجدا، ثمّ راوداها، فلمّا تهيّأت لذلك، دخل عليها سائل، فرآهما على تلك الحالة، فذعرا منه، فقال السائل ويلكما قد خلوتما بهذه المرأة العطرة الحسناء وقعدتما منها على مثل هذه الفاحشة، إنكما لرجلا سوء، لأفعلنّ بكما وخرج على ذلك فنهضت وقالت: لا والهى لا تصلان الآن إليّ وقد اطّلع هذا الرجل علينا وعرف مكانكما وهو لا محالة مخبر بخبركما، فبادرا واقتلاه قبل أن يفضحنا جميعا، ثمّ دونكما فاقضيا وطركما مطمئنين آمنين، فاسرعا إلى الرجل، فأدركاه، فقتلاه، ثمّ رجعا إليها فلم يرياها وبدت لهما سوآتهما ونزع عنهما رياشهما وسمعا هاتفا: إنكما اهبطتما إلى الأرض بين البشر من خلق الله ساعة من النهار، فعصيتماه بأربع من كبار المعاصي وقد نهاكما ربّكما عنها فلم تراقباه ولا استحييتما منه وقد كنتما أشدّ من نقم ولام على أهل الأرض المعاصي ولما جعل فيكما من طبع خلقة البشري وكان قد عصمكم من المعاصي، كيف رأيتم موضع

خذلانه فيكم»، قال عليه السلام: **«وكان قلبهما من حبّ تلك المرأة ان وصفا وأسسا طرايق من السحر، ما تداوله أهل تلك الناحية.** قال الإمام عليه السلام: **«فخيّرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة»،** فقال أحدهما لصاحبه: نتمتّع من شهوات الدنيا إلى ان نصير إلى عذاب القيامة، فقال الاخر: انّ عذاب الدنيا له انقطاع وعذاب الآخرة لا انقضاء له وليس حقيق بنا أن نختار عذاب الآخرة، الدائم الشديد، على عذاب المنقطع، قال عليه السلام: **«فاختارا عذاب الدنيا وكانا يعلّمان الناس، السحر، بأرض بابل، فرفعا من الأرض إلى الهواء، فهما معذّبان، منكوسان، معلّقان في الهواء إلى يوم القيامة»**[١] وقيل: يضربان بسياط من حديد إلى يوم القيامة وروي: انّه استشفع لهما إدريس فخيّرا بين العذابين، فاختارا عذاب الدنيا، قيل، هما في بئر بابل من نواحيِ الكوفة معلّقان بشعورهما، أو بأرجلهما.

قال مجاهد: ملئ الجبّ ناراً فجعلا فيه وقيل: يعذّبان بالعطش، لأنّه إذا قلّب الله بنيتهما بنية البشر، خرجا عن الملكيّة ويحتاجان إلى ما يحتاج إليه البشر، فحينئذٍ يندفع الأشكال ان صحّ هذا القول ولعلّ اختلاف الأقوال من المرموزات والّذي خوطب بالقرآن، أعرف به، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«اتّقوا الدنيا، فو الّذي نفس محمّد بيده، انّها لأسحر من هاروت وماروت»**.[٢]

إياك أن تسحرك الدنيا بلذاتها وعلاقتها، فتبتّل إلى الله واحترز عن النفس، فإنّ أباك آدم أصبح محسود الشياطين ومسجود الملائكة وعلى رأسه تاج الكرامة وعلى جسده لباس الوصلة وفي وسطه نطاق القربة وفي جيده قلادة الزلفى يتوالى عليه النداء كلّ لحظة، يا آدم، يا آدم، فلم يمس حتّى نزع عنه لباسه وسلب منه استيناسه فإذا كان شؤم زلّة، أو صغيرة واحدة كذلك،

١ـ التفسير الصّافي، ج ١، ص ١٧٥.

٢ـ الدرالمنثور، ج ١، ص ١٠٠.

فكيف بك. ولذلك كان المخلصون يحترزون من المباحات، فاعرض عن ملاذ الدنيا واعتزل عن أبنائها، فطوبى لمن عوّد نفسه بالعزلة، فتمّت له النعمة ويكون أنسه بالله وبسبب العزلة لا يتيسّر له أسباب المعاصي، اما سمعت قضيّة ابى بكر الورّاق، وكان مشيّقا منذ زمان ان يرى الخضر وكان لهذا الأمر قرب عشرين سنة، كان يخرج كلّ صباح إلى المقابر ويقرء جزوا من الكتاب الكريم، ثمّ يرجع، قال: إلى ان اتّفق يوماً في الطريق، رأيت شيخاً نورانياً، فسلّم عليّ، فقال: هل تحبّ ان أصاحبك إلى المقابر، فصاحبني، فاشتغلت بكلامه إلى أن رجعت، فلمّا وصلنا إلى باب البلدة، قال لي: كنت تشتاق أن ترى الخضر، فنلت إلى مرامك اليوم، لكن بمصاحبتي فاتك قراءة الجزء وهاك نصيحة، فعليك بالاعتزال وغاب عنّي، وأبو بكر هو الّذي مات ابنه لمّا سلّمه إلى المعلّم لقراءة القرآن، فلمّا وصل إلى هذه الآية ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[1] غلب الخوف على هذا الطفل، بسبب قراءة هذه الآية إلى ان مرض وتوفّي.

وأنت تسعى في عمرك لدفع ضرّ أو جلب نفع لئلا تحتاج لتمتّع من نيل مشتهياتك مع انّ ما هو سبب عزتك ونيلك الشهوات سبب ذلّتك في الآخرة وطول الحساب، فاخلع نعليك وفرّغ قلبك عن علائق الدنيا، حتّى تصل إلى واد المقدّس من القرب من غير مانع، فإنّ النعلين حاجبتان بين مساس رجليك وبساط القرب ولا تتجوهر النفس الّا بزوال الاعراض الفاسدة من الشهوات، فاجهد في العمل ولا تجحد، لكن تستبعد هذا المعنى والحقّ معك لأنّك معصّب العين بعصابة حطام الدنيا ولذا همّتك ضعيفة، أين كثافة الكثيف والمقام الشريف وأول ما عليك استماع الزواجر والآيات المخوّفة

١ـ سورة المزمل: ١٧.

الرادعة القرآنيّة، هذا إذا كنت مبتديا وان كنت منتهيا، فالوعديّة والتشويقيّة، كما قيل: خوّفوا المبتدي وشوّقوا المنتهي فإنّه لا بدّ للجمل من حاد لقطع البوادي.

أنت أرضيّ والأرض تحيي بوابل المطر، فتربو وتنبت، ثمّ إن كنت كثير الأكل قلّل في أكلك شيئاً فشيئاً، فلو يصعب عليك هذا الأمر لأنّ العادة طبيعة خامسة، فزن أوّل يوم مأكلك بعود رطب، فانقص كلّ يوم على قدر جفاف العود واذكر الحديث: **«أكثركم شبعاً في الدنيا، أطولكم جوعاً يوم القيامة»**[1]، فكن من أصحاب اليمين إن لم تكن من المقرّبين واعلم انّه ما بينك وبين القيامة الّا إيّاها، فإنّه جميع ما في الكبرى، في الصغرى، لكن في الكبرى أشدّ. فأجمع بين المقال والحال والعلم والعمل واتبع الراسخين في العلم وعلماء الآخرة الذين ليس لهم رغبة في هواهم ولا يطلبون الدنيا الّا بقدر الحاجة، بل لا يناظرون الّا لإظهار الحقّ لا الغلبة ولا صيقل كلام ولا نقض في الحديث الصحيح ولا تأويل باطل في متن آية محكمة ولا مزاعقة ولا مخاصمة، بل على طريق الفائدة والكشف، لا المشتغلين لأجل الدنيا والرياسة.

في الحديث: **«انّ العلم يهتف بالعمل فإن أجابه والّا ارتحل»**.[2] المحبوب من العلم هو العلم الّذي ينفعك في الآخرة، فاطلبه واعمل به ولا تطلب علماً ينفعك في دنياك ويضرّك في آخرتك، ففي العلوم ما يضرّ مثل علم السحر وصبغ الصفر إذا قلّبها بالصناعة فضة وكذلك بعض العلوم الّتي تشغلك عن أمر دينك، فكما انّ في المكاسب، مكاسب خسيسة، تأباها النفوس الشريفة، كالحفر والكناسة والحجامة وكما في الرياح مورق ومحرق، كذلك العلوم،

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٥٧.

٢ـ الكافي، ج ١، ص ٤٦.

فالعلم النافع، هو الّذي لو عملت به يجعلك في جنّات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فاكتسب من جواهر الأعمال، تشرّف بها عند عرض البضايع، فمثالك في العمل والبطالة كجماعة سافروا في الظلمات، فقال لهم الخبير بالمكان: احملوا من حصاها، تغنموا، فالمطيع وصاحب حسن الظنّ حمل فأوقر والمتشكّك البّطال ما حمل، فلمّا خرجوا إلى الضوء شاهدوا بضائعهم، فإذا درّ وجواهر، فندم البّطال، فأقبل قول المتشرّع الصادق، ودع كبرك وتوانيك وقلّل شبعك ومن النوم عينك واحفظ بطنك من الحرام، فأنت العاجز الّذي تؤذيك البقّة وتقتلك الشرقة، قنعت من نعيم الجنّة بحلاوة في الدنيا من نحلة: بخبزة من تبنة وتعلم انّك غداً مستور بلبنة، مع انّك مؤاخذ بنعيمك، قال الله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[1] وكن موقناً بما أمرك الشارع ولا تكن ضعيف اليقين في الدين وضعف اليقين والشك يوردك الهلكة ويورث الغفلة والبطالة.

قال رسول الله ﷺ: «حبّك الشيء يعمي ويصمّ».[2] مراده ﷺ انّ من الحبّ ما يعمي عن طريق الحقّ ويصمّك عن استماع الرشد ويعمي العين عن النظر إلى مساويه.

قال الرازي: انّ لفظ السحر في عرف الشرع مختصّ بكل أمر يخفى سببه ويتخيّل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع[3] ومتى اطلق ولم يقيّد، أفاد ذم فاعله، قال الله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي موّهوا عليهم حتّى ظنّوا انّ حبالهم وعصيّهم تسعى. وقال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن

١ـ سورة التكاثر: ٨.

٢ـ رسائل المرتضى: ج ٢، ص ٢١٦.

٣ـ مصباح الفقاهة، ج ١، ص ٤٦٠.

سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾. وقد يستعار لفظ السحر فيما يحمد ويمدح.

روي انّه قدم على رسول الله ﷺ، زبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم، فقال ﷺ، لعمرو: «خبّرني عن زبرقان»، فقال: مطاع في ناديه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره، فقال زبرقان: هو والله يعلم انّي أفضل منه، فقال عمرو: انّه ذميم المروّة، ضيق العطن، أحمق الأب، لئيم الخال، يا رسول الله، صدّقت فيهما، أرضاني فقلت أحسن ما علمت واسخطني فقلت: أسوأ ما علمت، فقال رسول الله ﷺ: «انّ من البيان لسحراً»[1]، فسمّى ﷺ بعض البيان سحراً، لأنّ صاحبه يتصرّف في الذهن بكلامه اللطيف ويوضح الشيء المشكل، فأشبه السحر الّذي يستميل القلوب بأعماله ويستنفر ولأنّ المتكلّم يحسن ما يكون قبيحاً ويقبح ما هو حسن، قال الشاعر:

في زخرف القول تزيين لباطله   و الحق قد يعتريه سوء تعبير

تقول هذا حجال النحل تمدحه   و ان ذممت فقل قيء الزنابير

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾: الضمير راجع إلى اليهود أي أمنوا بالقرآن والنبيّ ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك والسحر ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ مفعلة من الثواب وثاب أي رجع وسمّي الجزاء ثواباً، لأنّه عوض عمل المحسن، يرجع إليه ومثوبة، مبتداء جواب ﴿لَوْ﴾ والتنكير للتقليل، أي شيء قليل من الثواب ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ خير، خبر المبتداء، أصله: لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً ممّا شروا به أنفسهم، فحذف الفعل وغيّر السبك إلى ما عليه المنظم الكريم، للدلالة على

١ـ أحكام القرآن، ج ١، ص ٥٠.

إثبات المثوبة لهم والجزم بخيريّتها وحذف المفضّل عليه، إجلالاً للمفضَّل من أن يكون طرف النسبة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ انّ ثواب الله خير.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: خاطب الله المؤمنين في القرآن بقوله: يا أيّها الذين آمنوا، في ثمانية وثمانين موضعاً، قال ابن عباس: وكان تعالى يخاطب اليهود أولاً في التوراة بقوله: يا أيّها المساكين[1] ولمّا اعتدوا على أنبيائه وخالفوا محمّداًﷺ، أثبت لهم المسكنة اخراً ﴿لَا تَقُولُوا﴾ لرسول الله ﴿رَاعِنَا﴾: المراعاة المبالغة في الرعي وهو حفظ الغير وتدارك مصالحه، كان المسلمون يقولون لرسول اللهﷺ إذا القي عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله، أي تأنّ بنا وانتظرنا حتّى نفهم كلامك وكانت هذه الكلمة لليهود، كلمة عبرانيّة أو سريانيّة يتسابّون بها فيما بينهم، فلما سمعوا قول المؤمنين: راعنا، يخاطبون الرسول افترضوه وخاطبوا به الرسول وهم يعنون به تلك المسبة، فنهى الله تعالى المؤمنين عنها قطعاً لألسنة اليهود عن التلبيس وأمروا بما هو في معناها ولا يحتمل التلبيس فقال: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ أي انتظرنا من نظره إذا انتظره ﴿وَاسْمَعُوا﴾ بآذان واعية وأذهان حاضرة، حتّى لا تحتاجوا إلى الاستعادة ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وللذين تهاونوا برسول الله، عذاب موجع لما اجترءوا على الرسول من المسبّة. وفي الآية دلالة على تجنّب الألفاظ المحتملة الّتي فيها التعريض. والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.[2]

١ـ عيون الأخبار، ج ٢، ص ٣٩.

٢ـ مكارم الأخلاق، ص ٤٣٨.

قال رسول الله ﷺ: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين، حتى يدع ما لا بأس به، حذراً ممّا به البأس**»[1] وقال: «**انّ من الكبائر، شتم الرجل أباه**»، قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه، قال: «**نعم يسبّ أبا الرجل، فيسّب أباه وامّه**»[2]، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3] فمنع من سبّ آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك، فالإنسان لا بدّ وأن يحترز عن الذريعة وهي عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه، يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع وهذا معنى التعريض.

مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: كان فريق من اليهود يظهرون المحبّة للمؤمنين ويزعمون انّهم يودّون لهم الخير، فنزلت الآية ونفى سبحانه عن قلوبهم الودّ والمراد من نفي الودّ الكراهة، أي ما يحبّ الذين كفروا ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ والمعنى انّ الكفّار بأجمعهم لم يحبّوا ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾ أي على نبيّكم، لأنّ المنزل عليه، منزل على أمته ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ و﴿مِّنْ﴾ مزيدة لاستغراق الخير. والخير، الوحي والقرآن والنصرة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي انّهم يرون أنفسهم أحقّ بأن يوحى إليهم، فيحسدونكم بناء على انّهم أهل الكتاب والوحي وأبناء الأنبياء، الناشئون في مهابط الوحي وأنتم أميّون. وامّا المشركون، فإدلالاً بما كان لهم من النجدة والجاه زعماً

١ـ بحارالأنوار، ج ٧٤، ص ١٦٤.

٢ـ الجامع لأحكام القرآن، ج ١٠، ص ٢٣٩.

٣ـ سورة الأنعام: ١٠٨.

منهم انّ رئاسة الرسالة كسائر الرياسات الدنيويّة ولذا قالوا: لو لا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. وهم كانوا يتمنّون أن يكون النبوّة في أحد الرجلين: نعيم بن مسعود الثقفي بالطائف ووليد بن مغيرة بمكّة، فأجاب الله بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ومفعول، من يشاء، محذوف. والمراد بالرحمة: النبوة والوحي والحكمة والنصرة وليس لاحد عليه حقّ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ على من يختاره بالنبوّة والوحي، فمن حسد بعبد من عباد الله بنعمة خصّه بها فقد بارز أولاً، ربّه، لأنّه يتسخّط قسمته تعالى، فكأنّه يقول لربّه: لو قسمت هكذا، والثاني: انّ فضل الله يؤتيه من يشاء وهو يبخل بفضله، والثالث: انّه يريد خذلان وليّ الله وزوال النعمة عنه، والرابع: انّه أعان عدوّ الله يعني إبليس. ثمّ انّ حسدك لا ينفذ على عدوّك بل على نفسك.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«قاتل الله الحسد ما أعدله، بدء بالحاسد قبل المحسود»**.[1]

قال بكر بن عبد الله: كان رجل يأتي بعض الملوك وله مكانة عنده، فحسده رجل على تلك المكانة، فسعى به إلى الملك وقال: انّ هذا الرجل يزعم انّ الملك أبخر، فقال الملك: وكيف يصحّ ذلك عندي، قال: تدعو به إليك، فانظر فإنّه إذا دنا منك يضع يده على أنفه، أن لا يشمّ ريح البخير، فخرج من عند الملك ودعا الرجل إلى منزله، فأطعمه طعاماً فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده، فقام بحذاء الملك ويتكلّم مع الملك على عادته، فقال الملك له: ادن منّي، فدنا منه، واضعاً يده على فيه، مخافة أن يشمّ الملك منه ريح الثوم، فلمّا رأى الملك ما فعل، صدّق في نفسه قول الساعي.

١ـ عيون الحكم والمواعظ، ص ٥٠٣.

وكان عادة الملك أن لا يكتب بخطّه الّا الجائزة، فكتب له بخطّه إلى عامل له: إذا أتاك الرجل، فاذبحه واسلخه واحش جلده تبناً وابعث به اليّ، فأخذ الكتاب وخرج، فلقيه الرجل الّذي سعى به، فاستوهب منه ذلك الكتاب وأخذه منه بأنواع التضرع والامتنان زعماً منه انّه الأمر بالجائزة، ومضى به إلى العامل، فقال العامل: انّ في كتابك ان أذبحك واسلخك، قال: انّ الكتاب ليس هو لي، الله الله في أمرى حتّى أراجع الملك، قال له العامل: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه وسلخه وحشى جلده تبنا وبعث به إلى الملك، ثمّ عاد الرجل كعادته، فتعجّب الملك من مجيء الرجل، فقال: ما فعلت بالكتاب، قال: لقيني فلان فاستوهبه منّي، فوهبته، قال الملك: انّه ذكر لي انّك تزعم اني ابخر، فقال كلّا، قال: فلم وضعت يدك على انفك، قال: أطعمني طعاماً فيه ثوم فكرهت أن تشمّه، قال: ارجع إلى مكانك فقد كفى المسيء إساءته.

مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

طعن اليهود في الإسلام، فقالوا الا ترون انّ محمّداً يأمر أصحابه بأمر ثمّ ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه فنزلت الآية ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: النسخ في اللغة، الإزالة والنقل، يقال نسخت الريح الأثر، إزالته ونسخت الكتاب أي: نقلته من نسخة الي نسخة ومنه تناسخ الأرواح، المراد: التحوّل من واحد، إلى واحد وقرء ننسخ بضمّ النون والنسوء هو التأخر وننسها قرء بفتح النون والجمهور من المسلمين على جواز النسخ ووقوعه وتمسّكوا بهذه الآية وآيات أخرى، مثل قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾[1] ومثل

١ـ سورة النحل: ١٠١.

قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.[١] وأنكر بعض، النسخ ووقوعه في القرآن، مثل أبي مسلم بن بحر وقال: انّ المراد من الآيات المنسوخة، هي الشرائع الّتي في الكتب المتقدّمة، من التوراة والإنجيل، كالسبت والصلاة إلى المشرق والمغرب وحرمة لحم الإبل وأمثالها، لكنّ القائلين بوقوع النسخ، دلائلهم كثيرة وحججهم قويّة، مثل أن قالوا بوقوع النسخ في القرآن، انّ الله أمر المتوفّى عنها زوجها بالاعتداد حولاً كاملا وذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾.[٢] ثمّ نسخ ذلك بأربعة أشهر وعشراً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ ـ الآية ـ وأجاب أبو مسلم: بأنّ الاعتداد بالحول ما نسخ بالكليّة، لأنّها لو كانت حاملاً ومدّة حملها حولاً كاملاً، لكانت عدّتها حولاً كاملاً وإذا بقي هذا الحكم في بعض الصور، كان ذلك تخصيصاً لا ناسخا وهذا الجواب ضعيف وحجّة القائلين بوقوع النسخ، آية تقديم الصدقة عند نجوى الرسول وكذلك قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾[٣]، ثمّ أزالهم عنها بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.[٤] وأجاب أبو مسلم: انّ حكم تلك القبلة ما زال بالكليّة لجواز التوجّه إليها عند الأشكال، أو مع العلم إذا كان هناك عذر. وجوابه: انّ على الوصف الذي ذكره، لا فرق بين بيت المقدّس وسائر الجهات وبالجملة فعمدة دليل أبي مسلم في هذه المقولة، انّ الله وصف كتابه بأنّه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلو نسخ لكان قد أتاه الباطل وهذا ليس

١ـ سورة الرعد: ٣٩.

٢ـ سورة البقرة: ٢٤٠.

٣ـ البقرة: ١٤٢.

٤ـ البقرة: ١٤٤.

بدليل، لأنّ المراد: انّ هذا القرآن لم يتقدّمه من كتب الله ما يبطله ولا يأتيه من بعده أيضاً ما يبطله، انتهى.[١]

ثمّ انّ المنسوخ امّا أن يكون هو الحكم فقط، أو التلاوة، أو هما معاً.

امّا الأول: مثل آية عدّة الوفاة وهي: والذين يتوفّون، الآية.

وامّا الثاني: فكآية الرجم، فكما روي انّ ممّا يتلى عليكم في الكتاب الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما، فهو منسوخ التلاوة، دون الحكم ومعنى النسخ في مثلها، انتهاء التكليف لقراءتها، أي نسخ تلاوتها وبقي حكمها.

وامّا الثالث الّذي منسوخ الحكم والتلاوة، قالت عائشة: كان تتلى في كتاب الله عشر رضعات يحرمن، ثمّ نسخ بخمس رضعات يحرمن[٢]، فهو منسوخ الحكم والتلاوة جميعا، ثمّ انّ النسخ يختصّ بالأوامر والنواهي، لكنّ الخبر لا يدخله النسخ أبداً، لاستحالة الكذب على الله، انتهى.

﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أو نتركها على حالها، أو نؤخّرها لوقت آخر لمصلحة والمعنى: انّ كلّ آية نذهب بها على ما يقتضيه الحكمة ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي بآية وحكم هي خير ﴿مِّنْهَآ﴾ للعباد في النفع والثواب والتفاضل فيها، بحسب ما يحصل منها الخير ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ في المنفعة والثواب، فكلّ ما نسخ إلى الأيسر، فهو للسهولة للعباد وما نسخ إلى الأشقّ، فهو في الأجر أكثر، فالأيسر: كنسخ الاعتداد في الوفاة والأشقّ كنسخ ترك القتال بإيجابه وقد يكون النسخ بمثل الأوّل، لا أخفّ ولا أشقّ، كنسخ القبلة، فحينئذٍ طعن اليهود لهﷺ فيكون هذه الآية رداً عليهم.

والأنبياء هم المباشرون لإصلاح النفوس، مثل أطبّاء البدن للأجسام،

١ـ المحصول في علم الأصول، ج ٣، ص ٣١٠.

٢ـ انظر: المحلى، لابن حزم، ج ١٠، ص ١٤.

والنسخة كتاب الله وتغيير الأعمال الشرعيّة والأحكام الخلقيّة الّتي هي منزلة عليهم للنفوس بمنزلة العقاقير، فيغيّرها الشارع وهو الله على حسب مصالحها كما انّ الشيء يكون دواء للبدن في وقت، ثمّ قد يكون داء في وقت آخر لكن لمّا ختمت النبوّة بمحمّد ﷺ، كذلك ختمت المعالجة بالقرآن الّذي هو شفاء ولا يتغيّر بعده أمر أبداً ما دامت السموات والأرض، فمن حرّفه أو بدّل فرعاً من فروعه، فقد كفر به وخرج عن دين الإسلام، سواء تعلّق نظره بالمصلحة أم لا.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النسخ والإتيان بمثل المنسوخ وبما هو خير منه.[1]

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو المالك للسموات والأرض، فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو كالدليل على قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وتخصيص السموات والأرض بالذكر ـ وإن كان الله تعالى له ملك الدنيا والآخرة جميعاً ـ لكونهما أعظم المصنوعة ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ من، زائدة للاستغراق ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ ناصر، قيّم بالأمور ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معين لكم، فلا يجوز الاعتماد على غيره وحسن منه الأمر والنهي والتغيير والتبديل والنسخ لكونه مالكاً للخلق.

١ـ لقد استشهد المفسر هنا ببيت من الأدب الفارسي وهو:

آنكه داند دوخت او دانـد دريـد   هر چه را بفروخت نيكوتر خريد

المعنى: من عرف التدبير والتدبر في الأمور (كمن يجيد التفصيل ويحسن الخياطة)، حسنت حياته ومعيشته (كمن يشتري ماهو الأفضل بما يبيع مما لديه)

قال رسول الله ﷺ: «يا عباد الله أنتم كالمرضى وربّ العالمين كالطبيب، فصلاح المرضى فيما يعمله الطبيب ويدبّره لا فيما يشتهيه المريض، الا فسلّموا الله أمره تكونوا من الفائزين».[1]

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾: أم، على قسمين، متّصلة ومنقطعة، فالمتصلة بمعنى همزة الاستفهام والمنقطعة بمعنى بل، ولا يكون الّا بعد كلام تامّ وفي هذه الآية متّصلة واختلفوا في المخاطب به، قيل: انّهم المسلمون، قالوا: كان المسلمون يسألون رسول الله عن أمور لا خير لهم في البحث عنها ليعلموها، كما سأل اليهود موسى وقيل: سأل قوم من المسلمين أن يجعل لهم النبي ﷺ ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط وهي شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها المأكول والمشروب، كما سألوا موسى أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة[2] والقول الآخر: انّه خطاب لأهل مكة وهو قول ابن عباس ومجاهد قال: (انّ عبد الله بن أمية المخزومي أتى رسول الله ﷺ في رهط من قريش فقال يا محمّد ﷺ: ما أومن بك حتّى تفجر لنا ينبوعا أو تكون لك جنّة من نخيل وعنب أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيّك حتّى تنزّل علينا كتاباً من الله، إلى عبد الله بن أميّة، انّ محمّداً رسول الله، وقال له بقيّة الرهط: فإن لم تستطع ذلك فأتنا بكتاب من عند الله، جملة واحدة فيه الحلال والحرام والحدود والفرائض، كما جاء موسى إلى قومه بالألواح من عند الله فيها كلّ ذلك، فنؤمن لك عند

١ـ الاحتجاج، ج ١، ص ٤٥.
٢ـ مجمع البيان، ج ١، ص ١٨٣.

ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية).[1]

والقول الثالث: انّ الخطاب لليهود، قال الرازي: وهو الأصحّ، لأنّ هذه السورة من أول قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ﴾.[2] حكاية عنهم ومحاجّة معهم ولأنّ هذه السورة مدنيّة وجرى ذكر اليهود وما جرى ذكر غيرهم.

وبالجملة: فالمعنى أتريدون وتقترحون بالسؤال كما اقترحت بنوا إسرائيل سابقاً على موسى أن تسألوا رسلكم وهو في تلك الرتبة من علوّ الشأن ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ مشبّها بسؤال موسى ﴿مِن قَبْلُ﴾ محمّد، متعلق بـ﴿سُئِلَ﴾ جيء به للتاكيد ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ﴾ ويأخذه لنفسه ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ بمقابلته بدلاً منه ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وعدل وجاز من حيث لا يدرى ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن الطريق المستقيم وتاه في تيه الهوى وتردّى في مهاوي الرّدى، وسواء السبيل: وسط الطريق السويّ، الذي هو بين الغلوّ والتقصير وهو الحقّ. وليس للمؤمن أن يحبّ مالا يرضاه الله، أو يكره ما يرضى الله، ومتى ما لم يراع هذه المرتبة، يسقط عن رتبة الإيمان الكامل، قال في «بستان العارفين»: مثل الإيمان مثل بلدة لها خمسة من الحصون: الأول من الذهب والثاني من فضّة والثالث من حديد والرابع من حبوكل والخامس من لبن، فما دام أهل الحصن يعاهدون الحصن الّذي من اللبن، فالعدوّ لا يبلغ فيهم، فإذا تركوا الحصن الأول، طمع العدوّ في الثاني، ثمّ في الثالث حتّى خرب الحصون، فكذلك الإيمان في خمسة من الحصون، اولها اليقين، ثمّ الإخلاص، ثمّ أداء الفرائض، ثمّ إتمام السنن، ثمّ حفظ الأدب فما دام

١ـ أنظر: الاحتجاج، ج ١، ص ٢٧.

٢ـ سورة البقرة: ٤٠.

يحفظ الأدب ويتعاهده، فإنّ الشيطان لا يطمع فيه، فإذا ترك الأدب، طمع اللعين في السنن، ثمّ في الفرائض، ثمّ في الإخلاص، ثمّ في اليقين، فينبغي أن يحفظ الأدب في جميع أموره، حتّى في المباحات وانّما ارتدّ من ردّ لعدم رعاية الأدب كإبليس وغيره من المردودين.

اعلم انّه لا يكفيك تزكية النفس عن البعض، حتّى تزكّى عن جميعها ولو تركت واحداً من الأخلاق السيّئة غالباً عليك، فذاك يدعوك إلى البقيّة، مثل انّ الحسن، لا يحصل بحسن بعض الأعضاء ما لم يحسن جميع الأطراف، فانّك لو كنت يوسفي الوجه وكنت أعور، لست في زمرة الملاح والصباح، فإنّ الخلق وهو الصورة الظاهرة بسبب عيب يكون ناقصاً، فكذلك الخلق وهو السيرة الباطنة، يكون معيباً وناقصاً، فإنّ الإنسان مركّب من جسد يدرك بالبصر ومن روح ومن نفس يدرك بالبصيرة ولكلّ واحد منهما هيئة، امّا قبيحة أو حسنة. والروح والنفس أعظم قدرا ولذلك اضافه الله إلى نفسه وأضاف الجسد إلى الطين، فقال: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[1] ووصف الروح بانّه امر ربّاني، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[2] وكما للبدن أركاناً كالعين والأذن والفم و. ولا يوصف بالحسن ما لم يحسن جميعها، كذلك الصورة الباطنة، لها أركان لا بدّ من حسن جميعها، حتّى يحسن الخلق وهي أربعة معان وقوى: قوّة العلم وقوّة الغضب وقوّة الشهوة وقوّة العدل بين هذه القوى الثلاث، فإذا استوت هذه الأركان الأربعة، حصل حسن الخلق، امّا قوّة العلم، فاعتدالها أن يصير بحيث يدرك بها الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، والحقّ والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأعمال،

١ـ سورة ص: ٧١.

٢ـ سورة الإسراء: ٨٥.

فإذا حصلت هذه القوّة حصلت منها ثمرة الفضائل والحكمة، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.[1]

وامّا قوة الغضب والشهوة: فاعتدالها أن يقتصر انقباضها وانبساطها على موجب إشارة الحكمة والشرع.

وامّا قوّة العدل: فهي ضبط قوّة الغضب والشهوة، تحت إشارة الدّين والشرع بالعقل الّذي هو بمنزلة الناصح، ولا بدّ في قوّة الغضب، الاعتدال، لأنّها ان مالت إلى طرف الزيادة سمّي تهوراً، وان مالت إلى النقصان سمّي جبناً، وافراط الغضب يحصل منه الصلف والبذخ والاستطالة والكبر والعجب، وتفريطها يحصل منه الجبن والذلّة والمهانة وعدم الغيرة وضعف الحميّة على الأهل والمال وامّا في اعتدالها يحصل الخلق الكريم والشهامة والحلم والثبات وكظم الغيظ وو و.

وامّا اعتدال الشهوة: فهو العفّة وأفراطها يعبّر بالشره وعن تفريطها بالخمود، فيصدر من العفّة، السخاء والحياء والمسامحة والقناعة والورع وقلّة الطمع ويصدر عن افراطها، الحرص والوقاحة والتبذير والعجب والرياء والهتكة والمجانة والملق والحسد والتذلل للأغنياء والاستحقار للفقراء.

وامّا قوّة العقل: فيصدر من اعتدالها حسن التدبير ونقابة الرأي في إصابة الظنّ والتفطّن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس وامّا إفراطه فيحصل منه المكر والدهاء والخداع ويحصل من تفريطه، البله والغمارة والحمق والبلادة والانخداع وحسن الخلق في الجميع وسط بين الإفراط والتفريط وكلا طرفيها ذميم ومهما مال واحد من هذه الجملة إلى الإفراط والتفريط، فبعد لم يكمل حسن الخلق والعلاج الرياضة والمجاهدة ومعنى

١ـ سورة البقرة: ٢٦٩.

الرياضة أن يكلّف الصفة المفرطة الغالبة، خلاف مقتضاها ويعمل بنقيض موجبها، مثلاً ان غلب البخل، يتكلّف البذل مرّة بعد أخرى، حتّى يسهل عليه البذل في محلّه وهكذا إلى أن ينقلب الطبع، فإنّ العادة طبيعة خامسة.

واعلم انّ تفاوت الناس في حسن الباطن، كتفاوتهم في حسن الظاهر ولم يسلّم الحسن المطلق الّا على الندرة كما حصل له ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.[1]

اعلم: انّ أصول الأخلاق المحمودة عشرة: التوبة والخوف والزهد والصبر والشكر والإخلاص والتوكّل والمحبّة والرضا وذكر الموت.

الأصل الأوّل، التوبة وانّها مبدأ طريق السالكين ومفتاح سعادة المقبلين والتائب محبوب الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[2]، وقال ﷺ: **«انّ الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في فلاة مهلكة، معه راحلته وعليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه، فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتّى اشتدّ الحرّ والعطش، قال: ارجع إلى مكاني الّذي كنت فيه، فأنام حتّى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ، فإذا راحلته عنده، عليها زاده وشرابه، فالله أشدّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»**[3] وهي واجبة على الفور مع الشرائط، على كلّ أحد، لأنّ الإنسان مركّب من صفات بهيميّة وسبعيّة وشيطانيّة وربوبيّة وقد عجنت في طينته عجناً محكما واوّل ما يظهر فيه، البهيميّة فيغلب عليه الشهوة والشره، ثمّ السبعيّة فيغلب عليه المنافسة والمعاداة، ثمّ الشيطانيّة فيغلب عليه المكر والخداع، ثمّ يظهر فيه بعد ذلك صفات الربوبيّة وهو الكبر

١ـ سورة القلم: ٤.

٢ـ سورة البقرة: ٢٢٢.

٣ـ الطرائف، للسيد بن طاووس، ص ٣٢٤.

والاستعلاء، فإذن لا يستغني أحد عن التوبة وهي إرث أبيه ولو فرضنا انّه سلم من هذه الآفات وخلا عن جميع ذلك، فلا يخلو عن غفلة عن الله وذلك طريق البعد، قال الله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[١] وتوبة العوام من الذنوب الظاهرة وتوبة الصالحين عن الأخلاق الذميمة وتوبة المتّقين من الغفلة المنسية للذكر وتوبة العارفين عن الوقوف على مقام يكون ورائه مقام، فتوبة العارفين لا نهاية لها.

الأصل الثاني: الخوف: قال الله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.[٢]

قال النبي ﷺ: **«رأس الحكمة مخافة الله»**[٣]، قال الله تعالى في الحديث القدسي: **«وعزّتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له آمنين»**[٤] والخوف سوط يسوق العبد إلى السعادة وحقيقة الخوف: ألم القلب واضطرابه بسبب توقع مكروه في الاستقبال. أوحى الله إلى داود عليه السلام: **«خفني كما تخاف السبع الضاري»**.[٥] والله تعالى كم أهلك من عباده وعرضهم لأنواع العذاب ولم يأخذه رقّة وشفقة، وأخوف الخلق الأنبياء، وآمن الخلق الأغبياء، أو ما سمعت انّ العبد يكون خوفه ورجاؤه متساوياً، فذلك للمطيع المتجرّد لله، لكن ما دام العبد مفارقاً للذنوب ينبغي أن يغلب الخوف على الرجاء.

قال بعض السالكين: لو نودي ليدخلنّ الجنّة جميع الخلق الّا واحداً، لخفت أن أكون ذلك الرجل، لكن إذا قارب الموت ينبغي أن يغلب الرجاء

١ـ سورة الكهف: ٢٤.

٢ـ سورة الأعراف: ١٥٤.

٣ـ من لايحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٧٦.

٤ـ كنز العمال، ج ٣، ص ١٥٠.

٥ـ منية المريد، ص ١٥٤.

وحسن الظنّ، قال ﷺ: **«لا يموتنّ أحدكم الّا وهو حسن الظّن بربّه»**.

والرجاء غير التمني والمتمنّي مغرور يحسب نفسه راجياً فمن رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه ومالا يحمل على ذلك فهو حديث نفس لا وزن له والخوف يوجب الزهد لا الحرص.

الأصل الثالث: الزهد، قال ﷺ: **«ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد عمّا في أيدي الناس يحبك الناس»**.[١] وقال ﷺ: **«إذا أراد بعبد خيرا زهّده في الدنيا ورغّبه في الآخرة وبصّره بعيوب نفسه»**.[٢] وبداية الزهد، التزّهد، لأن نفسه مائلة إلى الدنيا لكنه يجاهدها وحقيقة الزهد أن ينزوي عن الدنيا طوعاً مع القدرة عليها وامّا أن تنزوي عنك وأنت راغب فيها، فذلك فقر وليس بزهد.

الأصل الرابع: الصبر: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣] وذكر الله، الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا، قال ﷺ: **«الصبر كنز من كنوز الجنة»**.[٤] والتخلية والتزكية لا تتم الّا بالصبر لأنّ جملة أعمال الإيمان على خلاف باعث الشهوة ولذلك قال ﷺ: **«الصبر نصف الإيمان»**.[٥] والإنسان لا يزال في جميع الحالات يحتاج إلى الصبر لأنّ جميع ما يلقى العبد في حياته امّا أن يوافق هواه أو يخالفه، فإن وافق كالثروة وكثرة الجاه والصحة فما أحوجه إلى الصبر فإنه إن لم يضبط نفسه طغى وأفسد وامّا ما يخالف الهوى ففي الطاعات يحتاج إلى مجاهدة النفس وتحمّل مشاقّ العبادة وتخليصها عن الرياء ومكائد النفس وكلّ طاعة تحتاج إلى الصبر في

١ـ الأمالي، للطوسي، ص ١٤٠. ورواه الصدوق الخصال، ج ١، ص ٣٢.

٢ـ الأمالي، للطوسي، ص ٥٣١.

٣ـ سورة الزمر: ١٠.

٤ـ مسكن الفؤاد، ص ٤٧. ورواه المجلسي في البحار، ج ٧٩، ص ١٣٧.

٥ـ مسكن الفؤاد، ص ٤٧.

اوّله بتصحيح النيّة والإخلاص وأيضاً حين الاشتغال كيلا يتكاسل عن آدابه وسننه والحضور ونفي الوسواس وأيضاً بعد العمل ليصبر عن ذكره وإفشائه تخلّصاً عن الرياء والسمعة، كما انّ المعاصي لا بدّ من تركها على الصبر والمجاهدة مع الهوى، قال ﷺ: **«المجاهد من جاهد هواه والمهاجر من هجر السوء».**[1] والصبر عن المعاصي أشدّ لا سيّما عن معصية صارت عادة مألوفة كمعاصي اللسان كالكذب والثناء على النفس.

قال بعض الأكابر: ما كنّا نعدّ إيمان الرجل إيماناً، إذا لم يصبر على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾.[2] قال النبي ﷺ: **«من إجلال الله أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك».**[3]

الأصل الخامس: الشكر: قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[4] وقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾.[5] والشكر من المقامات العالية وهو أعلى من الصبر والخوف والزهد وجميع المقامات المذكورة لأنها ليست مقصودة في أنفسها وانما يراد لغيرها، مثل انّ الصبر يراد منه قمع الهوى والخوف سوط يسوق الخائف إلى المقامات المحمودة والزهد هرب من العلائق الشاغلة عن الله لكن الشكر مقصود لنفسه ولذلك لا ينقطع في الجنة. قال الله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[6] ولا يتحقّق الشكر الّا مع العلم بالنعمة والمنعم، فليعلم الشاكر انّ النعمة من

١ـ سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٢٣٨.

٢ـ سورة الإبراهيم: ١٢.

٣ـ التحفة السنية، ص ٤٤.

٤ـ سورة البقرة: ١٥٢.

٥ـ سورة النساء: ١٤٧.

٦ـ سورة يونس: ١٠.

الله والوسائط كلّهم مسخرون مقهورون. ومتى اعتقدت انّ لغير الله دخلاً في النعمة الواصلة إليك، لم يصحّ حمدك وشكرك، بل ذلك إشراك في النعمة والمنعم ومعلوم بالضرورة ان الخازن والوكيل، مضطرّان إلى العطاء بعد الأمر فهما مسخّران، لا دخل لهما بأنفسهما في النعمة وحكمهما حكم القلم والكاغذ والحبر في التوقيع وانّ قلوب الخلق خزائن الله ومفاتيحها بيد الله وفتحها بأن يسلّط عليها دواعي جازمة حتى يعتقد انّ خيرها في البذل مثلاً فعند ذلك لا يستطيع ترك البذل ومن لا يعلم انّ منفعته في انفاعك، فلا يعطيك شيئا فإذا هو ليس منعماً عليك، لأنّه يسعى لنفسه، انّما المنعم من سخّره بتسليط هذه الدواعي عليه ولا بد للشاكر أن يستعمل نعمه تعالى في محابّه لا في معاصيه، مثل أن يستعمل عينه في مطالعة كتاب الله وشواهد قدرته وفي مطالعة السماوات والأرض ويستعمل اذنه في سماع الذكر وما ينفعه في الآخرة ويعرض عن الإصغاء إلى الهجر والفضول وهكذا فحينئذٍ من شرح الله صدره تمكن من الشكر فهو على نور من ربّه، فيرى من كلشيء حكمته ومحبوب الله فيه ومن لم ينكشف له ذلك، فعليه باتباع السنة وحدود الشرع فليعلم انّه مثلاً إذا نظر إلى محرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس وكفر بكلّ نعمة لا يتم النظر الّا بها، فإن الأبصار انّما يتمّ ويتحقق بالعين ونور الشمس انّما يتمّ بالسموات فهو قد كفر أنعم الله في السموات والأرض. وقس على هذا كل معصية، فإنّها انّما يمكن بأسباب يستدعي وجود جميعها خلق السماوات والأرض. وهاك مثالاً آخر وهو: انّ الله سبحانه خلق الدراهم والدنانير لتكون حاكمة في الأموال والأمور ويعدل بهم القيم والعوض ولولاهما لتعذرت المعاملات إذ لا يمكن اشتراء مثقال من الزعفران بالجمل، والفرس بالتمر، فمن كنزهما أو اتخذ منهما آنية، كان كمن حبس حاكماً من

حكام المسلمين حتّى تعطّلت الأحكام أو استعمل حاكماً من حكّام المسلمين في الحياكة والفلاحة وتعطل الحكم وكلّ ذلك ظلم وتغيير لحكمة الله في خلقه وعباده ومعاداة الله في محابّه ومن لا ينكشف له بنور البصيرة هذه الأسرار لم يعرف صورة الشرع ومعناه ولم يعرف قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ إلى أن يقول: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.[1]

فلا يتصوّر الشكر الّا لمن قام لله بنواميس الشرع ولا يتحقق الشكر الا مع العلم بالنعمة والمنعم فاعرف المنعم واشكره.

الأصل السادس والسابع: الإخلاص والتوكل: قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[2] قال النبي ﷺ: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[3]، قال ﷺ: «**من انقطع إلى الله كفاه كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها**».[4] والمتوكل من لا يرى فاعلاً سوى الله ويترجمها قولك: (لا إله الّا الله وحده لا شريك له ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾). فمن قال ذلك صادقاً مخلصاً فقدتم توحيده وثبت في قلبه الأصل الذي منه ينبعث حال التوكل، فإن زعمت انّ من أعطاك طعاماً فتقول: انما يطعمني باختياره، إن شاء أعطى وإن شاء منع، فكيف لا أراه فاعلاً. فهذا الزعم باطل لأنك ترى الكثير من الأسباب، ولا ترى ارتباط السلسلة بمسبّبها، مثل انّك رأيت المطر سبباً في النبات، فاعلم انّ المطر مسخر بواسطة الغيم والغيم مسخّر بواسطة

١ـ سورة التوبة: ٣٤.

٢ـ سورة الطلاق: ٣.

٣ـ بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ١٥١. نقلاً عن جامع الأخبار، ص ١٣٧.

٤ـ بحارالأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٨. ورواه الشيخ علي الطبرسي في مشكوة الأنوار، ص ٥٢.

الريح وكذلك إلى أن ينتهي إلى أوّل لا محالة. ولا يحصل التوكل للمتوكّل الّا أن يعتقد جزماً أو أن ينكشف له بالبصيرة بانّه لو خلق الخلائق كلّهم على عقل أعقلهم ثمّ زادهم أضعاف ذلك علماً وحكمة، ثمّ كشف لهم عواقب الأمور واطّلعهم على أسرار الملك والملكوت، ثم أمرهم أن يدبّروا الملك والملكوت، لما دبّروه بأحسن ممّا هو عليه ولم يمكنهم أن يزيدوا أو ينقضوا جناح بعوضة، بل شاهدوا جميع ذلك، عدلاً محضاً وحقّاً صرفا لا نقص فيه وانّ كلّ ما يرون فيه نقصاً فيرتبط به كمال آخر أعظم منه وما ظنّوه ضرراً فتحته نفع أعظم منه، لا يتوصّل إلى ذلك النفع الّا به، فإذا حصل للإنسان هذه المعرفة، يحصل التوكّل ويطمئنّ قلبه بالتفويض وغير مستعين بآحاد الناس، لعلمه بأنّ وكيله كافيه وهو جواد كريم، فيكون هذا المتوكل حكمه، حكم الصبيّ في ثقته بأمّه وفزعه إليها وقسم آخر وهو أعلى درجة بل يكون بين يدي الله، كالميّت بين يدي الغاسل، لا كالصبيّ يزعق بأمّه ويتعلّق بذيلها، بل يعلم انه إن لم يطلب أمّه، فامّه تطلبه وتبتدي بارضاعه وإن لم يتعلق بذيلها. ولهذا في بعض المقامات يأبون الدعاء والسؤال.

لكن اعلم: انّه ليس من شرط التوكل ترك الكسب والتداوي، والاستسلام للمهلكات وذلك خطاء، لان ارتباط هذه المسببات بهذه الأسباب من السنة التي لا تجد لها تبديلا. ومثال التارك للكسب، مثال من لا يمدّ يده إلى الطعام وهو جائع ويقول هذا سعي وانا متوكل، أو يريد الولد ولا يواقع أهله أو يريد الحنطة ولا يبثّ البذر فإنّ تعطيل الأسباب المقدّرة من الخالق، إبطال الحكمة وهو جهل، ثم لا يتكل على اليد فربما يفلج وعلى الطعام فربّما يهلك ويفسد، بل يتكل بقلبه على خالقهما (ولا حول ولا قوّة الّا بالله) فالحول هو الحركة والقوّة هي القدرة، فإذا كان هذا حالك فأنت متوكّل وان

سعيت. وترك الادّخار محمود لمن غلب يقينه وامّا الضعيف الّذي يضطرب قلبه، لو لم يدّخر، لم يتفرّغ للعبادة، فالأفضل له أن يدع طريق المتوكّلين ولا يحمل نفسه ما لا يطيقه إذ فساد ذلك في حقّه أكثر من صلاحه وكلّ على حسب قوّته وقد ينتهي القوّة إلى أن يسافر في البوادي من غير زاد، لكن الضعيف إذا فعل ذلك فهو عاص ملق نفسه إلى التهلكة ولا شكّ انّ طول الأمل يناقض التوكّل، فإن قنع بقوت يومه وفرّق الباقي فهو تامّ التوكّل، كما فعل رسول اللهﷺ ومهما قلّت مدّة الادّخار كانت الرتبة أعظم ـ جعلنا الله من المتوكّلين ـ.

الأصل الثامن: المحبّة، قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.[1] قال النّبيﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون الله ورسوله احبّ إليه ممّا سواهما».[2] قال بعض الأكابر: من ذاق من خالص محبّة الله منعه ذلك من طلب الدنيا وأوحشه من جميع البشر. وأكثر المتكلّمين فسّروا محبّة الله بامتثال أوامر الله وما لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ولا يناسب طباعنا بوجه من الوجوه، فكيف نحبّه وانّما يتصوّر منّا أن نحبّ من هو من جنسنا وتحقيق المسألة انّه كلّ لذيذ محبوب يميل النفس إليه واللذّة تتبع الإدراك والإدراك إدراكان ظاهر وباطن وإدراك الظاهر بتوسط الحواس الخمس، لكن إدراك الباطن بتوسّط اللطيفة الّتي محلّها القلب، تارة يعبّر عنها بالعقل وتارة بالنور وتارة بالحس السادس الّذي خاصيّة الإنسان ونحن نرى ان الإنسان يحبّ الملك الرءوف العادل العطوف على الرعيّة، كما انّه يبغض الظالم الجاهل الغليظ وكذلك

١ـ سورة المائدة: ٥٤.

٢ـ مسكن الفؤاد، ص ٢٧. وأخرجه الفيض الكاشاني في المحجة البيضاء، ج ٨، ص ٤. ورواه باختلاف يسير أحمد في مسنده، ج ٣، ص ١٧٢. والنسائي في سننه، ج ٨ ص ٩٥.

يحبّ الموصوفين بالكمال مثل الأنبياء والصلحاء ويجد الإنسان في نفسه هزّة وارتياحاً وميلاً إلى هذه الطبقة، بل يوجبون على أنفسهم الذّب عنهم وبذل المال لهم وفي سبيلهم، ثمّ إذا أحببت هؤلاء لهذه الصفات الحسنة وعلمت انّ النبيّ ﷺ كان أجمع منهم لهذه الخصال، كان حبّك له أشدّ بالضرورة، فإذا رفعت نظرك الآن من النبيّ إلى مرسل النبي وخالقه والمتفضّل على الخلق ببعثته لعرفت انّ بعثة الأنبياء حسنة من حسناته وقطرة من بحر علمه وقدرته تعالى، فإنّ الأنبياء مع هذه الأوصاف الحسنة مربوبون، لأقوام لهم بأنفسهم ولا يملكون موتاً ولا حيوةً ولا رزقاً ولا أجلاً. والكلّ تحت قبضته فحينئذٍ كيف يمكنك ان لا تحبّ خالقك الذي محيط ومحسن على الذرّة والدرّة وتأمّل: هل لا لأحد في العالم احسان إليك سوى الله، وهل لك لذّة وتنعّم في شيء وميل على نعمة الّا والله خالقها وخالق الشهوة إليها والتلذّذ بها، فلا تكوننّ أقل من الكلب، فإنّه يحبّ صاحبه الّذي يحسن إليه، فإن لم تقدر أن تحبّه لجلاله وعظمته وجماله كما تحبّه الملائكة فانظر إلى لطف صنعه في اعضائك لحبّه بإحسانه إليك، فتكون أقلا من عوام الخلق، وأعظم نعم الله علينا، رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[1] وبوجوده ﷺ تمت النعم ولو كنت تعرف حقيقة هذه النعمة العظيمة لكنت تبذل روحك بذكر اسمه مرّة واحدة وزادت درجة محبتك والقلب لسليم غير غافل عن هذه المعرفة وكما انّ أوفق الأشياء للأبدان، الأغذية اللطيفة، فكذلك أوفق الأشياء للقلوب، المعرفة لكنّ الشهوات ونيلها ممرضة للقلوب شيئاً فشيئاً حتّى لا يقبل شهوة معرفة الله أصلاً، كما يفسد مزاج المريض، فيسقط شهوته عن الغذاء وينعكس طبعه فيشتهي الطين والأشياء المضرّة

١ـ سورة الجمعة: ٢.

المهلكة وهو مقدّمات الموت.

واعلم: انّ مرض القلب ينتهي إلى حدّ يستكره معرفة الله ويبغضها ويبغض أهلها، بل يبغض ويكره جميع الأنبياء والصلحاء ولا يدرك حينئذٍ الّا لذة المطعم والمنكح والرياسة وذلك هو القلب المنكوس وهو الميّت الّذي لا يقبل العلاج، فيكون أهل هذه الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾[1] ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.[2]

وبالجملة فجميع الناس يدّعون محبّة الله لكن لها علامات وأعظم علاماتها تقديم امر الله على هوى النفس مطلقاً والشوق إلى الموت، أو الخلوّ عن كراهيّة الموت، الّا إذا تشوّق إلى زيادة المعرفة، فلهذه الجهة لا يحبّ الموت.

الأصل التاسع: الرضاء بالقضاء، قال النبيّ ﷺ: **«إذا احبّ الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه وان رضي اصطفاه»**[3] وقال ﷺ: **«اعبدوا الله بالرضا، فإن لم تستطيعوا ففي الصبر على ما تكره خير كثير».**[4] واعلم انّه قد أنكر الرضا جماعة وقالوا: لا يتصوّر الرضا بما يخالف الهوى وانّما يتصوّر الصبر فقط. وقال بعض: يمكن الرضا بما يخالف الطبع والهوى، لأنّه ولو يكره بالطبع ما يخالف هواه ولكن رضى به لعقله وإيمانه بجزالة ثواب البلاء، كما رضى المريض بالم الفصد وشرب الدواء، لعلمه بانّه سبب الشفاء، حتّى انّه يفرح ممّن يأتي له الدواء والفصّاد.

١ـ سورة الكهف: ٥٧.

٢ـ سورة النحل: ٢١.

٣ـ المحجة البيضاء، ج ٨، ص ٦٧ و٨٨. والبحار، ج ٨٢، ص ١٤٢.

٤ـ انظر: المحجة البيضاء، ج ٥، ص ١٠٤.

روي: (انّ نبيّاً كان يتعبّد في جبل وكان بالقرب منه عين فاجتاز بها فارس وشرب ونسى عندها صرّة فيها ألف دينار، فجاء آخر وأخذ الصرّة، ثمّ جاء رجل فقير وعلى ظهره حزمة حطب، فشرب واستلقى ليستريح، فرجع الفارس في طلب الصرّة، فلم يرها، فأخذ الفقير وطالبه وعذّبه فلم يجد عنده فقتله، فقال النبيّ يا الهي ما هذا الأمر، أخذ الصرّة ظالم آخر وسلّطت هذا الظالم على هذا الفقير حتّى قتله، فأوحى الله اليه: اشتغل بعبادتك، فليس معرفة أسرار الملك من شأنك، انّ هذا الفقير كان قتل أبا الفارس، فمكّنته من القصاص وانّ أبا الفارس كان قد أخذ ألف دينار من آخذ الصرّة، فرددته إليه من تركته). ومن أيقن بسبب تفاصيل القضاء لم ينطو ضميره الّا على الرضا بكلّ ما يجري من الله.

واعلم: انّه لا ينبغي أن يظنّ ظانّ انّ معنى الرضا بالقضاء ترك الدعاء والأسباب وتترك السهم الذي أرسل إليك حتّى يصيبك مع قدرتك على دفعه بالترس وترك الأسباب مخالفة لمحبوبه ومناقشة لرضاه، إذ ليس من الرضا للعطشان أن لا يمدّ اليد إلى الماء البارد زاعماً انّه رضى بالعطش الّذي من قضاء الله، بل من قضاء الله ومحبّته أن يزول العطش بالماء بل رعاية سنة الله هي الرضا بالقضاء.

الأصل العاشر: ذكر الموت وهو عظيم النفع، إذ به يبغض الدنيا وينقطع علاقة القلب عنها، قال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«أكثروا من ذكر هادم اللّذات»**[1] وقال صلى الله عليه وآله: **«لو يعلم البهائم من الموت، ما يعلم ابن آدم، لما أكلتم منها سميناً».**[2] **«وأكرم الناس**

١ـ عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٧٥، ح ٣٢٥، الدعوات، ص ٢٣٨، ح ٦٦٥.

٢ـ انظر: بحارالأنوار، ج ٦١، ص ٥١. نقلاً عن من لايحضره الفقيه، ج ٢، ص ١٨٨.

وأكيسهم أكثرهم للموت ذكراً وأشدّهم له استعداداً»[١]، فإنّ الموت عظيم هايل وما بعده أعظم منه وفي ذكره منفعة، فإنّه ينقص الدنيا ويبغضها إلى القلب وبغض الدنيا رأس كلّ حسنة، كما انّ حبّها رأس كلّ خطيئة ولا سبب لإقبال الخلق على الدنيا الّا قلّة التفكّر في الموت. وطريق الفكر فيه ان يفرغ الإنسان قلبه ويجلس في خلوة ويباشر ذكر الموت بصميم قلبه ويتفكّر في أقرانه الّذين مضوا فيتذكّرهم واحداً واحداً، وحرصهم وأملهم، ثمّ يتذكّر مصارعهم عند الموت وأجسادهم كيف تمزّقت في التراب، ثمّ يرجع إلى نفسه، فيعلم انّه كواحد منهم، أمله كأملهم وأعضائه كأعضائهم كيف صاروا جيفة. قال صلى الله عليه وآله لعبد الله: **«إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحّتك لسقمك، فانّك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غداً».**[٢] واشترى أسامة وليدة إلى شهرين بمائة، فقال صلى الله عليه وآله: **«الا تعجبون من أسامة انّه لطويل الأمل والّذي نفسي بيده ما طرفت عيناي الّا ظننت انّ شفريها لا يلتقيان ولا لقمت لقمة الّا ظننت انّي لا أسيغها حتّى أغصّ بها من الموت»**، ثمّ قال صلى الله عليه وآله: **«يا بني آدم ان كنتم تعقلون فعدّوا أنفسكم من الموتى والّذي نفسي بيده ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾»**[٣] وقال صلى الله عليه وآله[٤]: **«نجا أوّل هذه الامّة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل».**[٥]

واعلم: انّ الروح الإنساني، لا يفنى ولا يموت، بل يتبدّل بالموت حالها فقط ويتبدّل منزلها، فيرمى من منزل إلى منزل، والقبر في حقّها امّا روضة أو حفرة.

١ـ الأمالي، للطوسي، ص ٥٣٢.

٢ـ المصدر السابق، ص ٥٢٦.

٣ـ سورة الأنعام: ١٣٤.

٤ـ تنبيه الخواطر، ج ١، ص ٢٧١. وتراه في البحار، ج ٧٠، ص ١٦٦.

٥ـ انظر: الأمالي، للصدوق، ص ١٣٧. ورواه المجلسي في البحار، ج ٦٧، ص ١٧٣.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾

روي انّ فنحاص بن عازوراء اليهودي، وزيد بن أقيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليماني وعمّار بن ياسر بعد وقعة احد: الم تروا ما أصابكم، ولو كنتم على الحقّ ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا، فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلا، فقال عمّار كيف نقض العهد فيكم، قالوا شديد، قال: فانّي قد عاهدت أن لا أكفر بمحمّد ﷺ ما عشت، فقالت اليهود: امّا عمّار، فقد صبا، أي خرج عن ديننا بحيث لا يرجى منه الرجوع إليه أبداً، فكيف أنت يا حذيفة، الا تبايعنا، قال حذيفة: «رضيت بالله ربّاً وبمحمّد ﷺ نبيّاً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخواناً، فقالوا: وإله موسى لقد أشرب في قلوبكما حبّ محمّد ﷺ، ثمّ أتيا رسول الله ﷺ وأخبراه، فقال ﷺ: **«أصبحتما خيراً وأفلحتما»**.[١]

الحاصل ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي أحبّ وودّ كثير من اليهود ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ أي أن يردوكم، فإنّ ﴿لَوْ﴾ من الحروف المصدريّة إذا جاءت بعد فعل، يفهم منه معنى التمنّي، قوله: ودّوا لو تدهن، أي أحبّوا أن يصرفوكم عن التوحيد ﴿مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿كُفَّارًا﴾ مرتدين، حال من ضمير المخاطبين، أو مفعولا ثانياً ليرودّنكم على تضمينه معنى يصيرونكم ﴿حَسَدًا﴾ علّة لقوله ﴿وَدَّ﴾ أي من أجل الحسد ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ ومن قبل ميلهم ومشتهياتهم، لا من قبل الميل إلى الحقّ والتديّن بل منبعثاً من اصل الحسد ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ

١ـ تفسير كنزالدقائق، ج ١، ص ٣١٥.

﴿لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وظهر لهم أنّ محمّداً قوله حقّ ورسول لأنّه مذكور في كتابهم على ما رأوا منه المعجزات ﴿فَٱعْفُواْ﴾ العفو ترك عقوبة المذنب، يقال عفت الريح المنزل أي درسته. ومن ترك عقوبة المذنب فكأنّه درس ذنبه، حيث انّه ترك المجازاة، والفرق بين العفو والصفح، انّه قد يعفو الإنسان المجازاة ولا يصفح، لأنّ الصفح ترك التقريع باللسان والاستقصاء في اللوم ولذا قال: ﴿وَٱصْفَحُواْ﴾ وليس المراد بالعفو والصفح في الآية الرضا بما فعلوا بل المراد ترك المقاتلة والإعراض عن مساويهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ويحكم الله بحكمه الّذي هو الإذن في قتالهم وضرب الجزية عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الانتقام منهم إذا جاء أوانه.

وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية عطف على قوله: فاعفوا، أمرهم بالعبادة والبرّ من الواجبات بإقامة الصلاة وأداء الزكاة، عمّ بعد التخصيص، فأمرهم بالتطوّعات بقرينة ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ فإنّ الخير يتناول أعمال الخير كلّها، واجباً كان أو نفلاً وقدّم الواجب لعظم شأنه، فالصلاة قربة بدنيّة والزكاة قربة ماليّة والصلاة شكر الأعضاء والزكاة شكر الأغنياء وما، في قوله: وما تقدّموا، شرطيّة: أيّ شيء من أمور الخير تقدّموه وتسلفوه، فهو لمصلحة أنفسكم و﴿تَجِدُوهُ﴾ أي ثوابه وجزائه، لاعينه، محفوظاً ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة، فتجدوا الثمرة واللقمة مثل جبل أحد، كما في الحديث: «**إذا مات العبد، قال الناس ما خلف وقالت الملائكة ما قدّم**».[1]

١ـ مكارم الأخلاق، ص ٤٣٩ ؛ وأخرجه المجلسي في البحار، ج ٧٤، ص ٥٤.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بأعمالكم لا يخفى عليه القليل ولا الكثير وهو عامٌ في الخير والشر والإنسان إذا مات انقطع عمله، الّا أن يبقى بعده واحد من الأولاد الثلاثة الّتي لا ينقطع أجرها: **الأول**: ما يتولّد من مال الإنسان، كبناء المساجد والقناطر في طرق المسلمين للتسهيل عليهم والرباط والأوقاف وأمثالها. **والثاني**: ما يتولّد من عقله وعلمه المنتفع به في الدين، من استنباط حكم شرعيّ وتأليف وتصنيف كتب الحديث وما يحتاج إليه في أمور الدين. **والثالث**: ما يتولّد من النفس، كالبنين والبنات، بشرط الصلاح والتقوى، لأنّ الأجر لا يحصل من غيره. ولا يمكن هذا الأمر.

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾: نزلت في وفد نجران وكانوا نصارى اجتمعوا في مجلس رسول الله ﷺ مع اليهود، فكذّب بعضهم بعضاً، فقالت اليهود لبني نجران: لن يدخل الجنّة الّا اليهود وقال بنو نجران لليهود: لن يدخلها الّا النصارى، فحكى الله مقالتهم ولم يقل كانوا، حملا على لفظ «من» وانّما جمع الخبر مع انّ المطابقة شرط في المبتداء والخبر، فباعتبار معنى «من» واليهود، جمع هائد: أي تائب، لتوبتهم عن عبادة العجل. والنصارى جمع نصران، كسكارى جمع سكران.

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي تلك الأمانيّ الباطلة امانيّهم وهي أمنيّتهم دخول الجنّة وأن يردّوكم كفاراً وان لا ينزل عليكم الخير ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أصله آتوا، قلبت الهمزة هاء، أي أحضروا حجّتكم على

اختصاصكم بدخول الجنّة ولم يقل براهينكم، لأنّ دعواهم كانت واحدة وهي نفي دخول غيرهم الجنّة. والجنّة على تلك الدعوة واحدة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم. ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ إثبات لما نفوه من دخول، غيرهم الجنّة: بلى يدخلها من أخلص نفسه لله تعالى ولا يشرك به شيئاً ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ حال من ضمير أسلم وقد فسّره النبيﷺ بقوله: **«أن تعبد الله كأنّك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك».**[1]

وهذا المعنى حقيقة الإيمان ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ وثوابه ثابت ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ والعنديّة القرب والتشريف ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إذا كانوا بهذه الصفات بنيّات صادقة خالصة عن مطلق الشوائب ولذا قالﷺ: **«انّما الأعمال بالنيّات»**[2]، **«ونيّة المرء خير من عمله».**[3] لأنّ المقصود من العمل، الامتثال للأوامر، حتى يحصل به تنوير القلب ومعرفة الله ويطهّره عما سوى الله حتى تحصل العبوديّة، والنيّة صفة القلب وتأثير صفة القلب أقوى من تأثير صفة الجوارح، فإنّ القلب أشرف الجوارح، ففعله أشرف الأفعال، فكانت النيّة أفضل من العمل وبكثرة النيّة، تكثر الحسنة، كمن قعد في المسجد وينوي فيه نيّات كثيرة، مثل أن يعتقد انّه بيت الله ويقصد به زيارة مولاه، كما قالﷺ: **«من قعد في المسجد فقد زار الله وحقّ على المزور إكرام زائره»**، ثم ينتظر الصلاة بعد الصلاة، فيكون حال الانتظار كمن هو في الصلاة. وثالثها: إغضاء السمع والبصر وسائر الأعضاء عمّا لا ينبغي»، فإنّ الاعتكاف كفّ وهو في معنى الصوم وهو نوع ترهّب، كما قالﷺ: **«رهبانيّة أمّتي القعود**

١ـ انظر: الأمالي، للطوسي، ص ٥٢٦.

٢ـ المصدر السابق: ص ٦١٨.

٣ـ أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٩، باب النية، ح ٢.

في المساجد».[1] ورابعها: أن يقصد افادة علم أوامر من الدين. وخامسها: ترك الذنوب حياء من الله. فهذا طريق تكثير النيّة، وقس عليه سائر الطاعات، والنية تغيّر الموضوع، مثل انّ التطيب إذا أراد به التنعّم بلذّات الدنيا وإظهار التفاخر على الناس أو ليتودّد به إلى قلوب النساء، فكلّ ذلك يجعل التطيّب معصية، وجاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة، كما ورد به الخبر، وان كان قصد به الامتثال وتعظيم المسجد ودفع الروائح الموذية عن عباد الله، فهو عين الطاعة. والضابط أن يكون الفعل مشروعاً ويكون القصد الداعي الحق فقط. ثمّ ان الناوي إذا اشتهى امراً فيقول مثلاً عند تدريسه أو تجارته ان ادرس لله، أو اتّجر لله، يظنّ ان ذلك نيّة وهيهات، فذاك حديث نفس، أو حديث لسان، والنية بمعزل عن ذلك، انّما النيّة انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها انّ فيه بوجه القربة وذلك قد يتيسّر في بعض الأوقات وقد يتعذر، وكذا الكلام في المطاعم والمناكح ولا يمكن هذا الأمر الّا بعد تحسين الأخلاق ولعلّك تظنّ بنفسك حسن الخلق وأنت عاطل عنه، وينبغي ان يحكم فيه غيرك وتسأل صديقاً بصيراً لا يداهن، لأنّ أكثر الأخلاق يتعلّق بالغير، فبعدأن تبيّن لك معائب اخلاقك، فتبدأ بالأهم فالأهم، وأوّل ما تدفعه عن نفسك حبّ الدنيا، فإنّ سائر المعاصي والأخلاق الذميمة تتبعه، فاطلب خلوة خالية وتفكر في سبب اقبالك على الدنيا واعراضك عن الآخرة، فلا تجد له سبباً الّا الشهوة الفانية وانّ أقصى عمرك في الشهوات مائة سنة وقد فاتك ملك لا آخر له، وإذا كانت الدنيا مملوّة ذرة وقدّر طائراً في كلّ ألف سنة ويلتقط في كلّ ألف سنة حبّة واحدة، فتفنى الذرة ولا يفنى الأبد، لأنّ الباقي لا نهاية له، وجملة عمرك بالإضافة إلى بقائك في الآخرة اقصر من لحظة إلى جميع عمرك

١ـ كشف الخفاء، للعجلوني، ج ١، ص ٤٣٨.

ولعلّك تقول: انّما افعل ذلك على توقّع العفو، فإنّه رحيم كريم فأقول: ولم لا تترك الحراثة والتجارة وطلب المال على توقّع العثور على كنز في خراب، فإن الله كريم وتوقّع العفو مع الحرص على الدنيا وخراب الأعمال، كتوقّع الكنز في الخراب، بل ابعد، مع انّ الله تعالى نبّهك، فقال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾.[1] ثمّ رغّبك عن طلب المال فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.[2] فما بالك تكذب بكرمه في الدنيا ولا تكل عليه ثمّ تخدع نفسك بالكرم في الآخرة وأنت تعلم انّ ربّ الدنيا والآخرة واحد. ولعلّك تقول: انّ أمور الدنيا قد انكشفت لي بالعيان وامّا أمر الآخرة فلم أشاهده ولست أجد التصديق الحقيقي في قلبي فلذلك فترت رغبتي في ترك الدنيا نقداً، بما هو موعود نسية ولست أثق به. فحينئذٍ تفكّر في أقاويل أهل البصائر من صدر العالم والناس في امر الآخرة أصناف: صنف ـ وهم الأكمل والأكثر ـ اثبتوا الجنّة والنار كما ورد به الكتب السماويّة والاخبار من لدن آدمعليه السلام إلى نبيّناصلى الله عليه وآله وقد سمعت أنواع نعيمها ونكال جحيمها.

وصنف لم يثبتوا اللذات والآلام الحسيّة، بل أثبتوها على سبيل التخيّل كما في المنام حتى يكون كلّ واحد في جنّة أو نار وحده وزعموا انّ تأثير ذلك فيه كتأثير الحقيقة، لأنّ تألّم النائم كتألّم اليقظان وانّما يخلصه عنه التنبيه وذلك في الآخرة دائم لا انقطاع له. وصنف من الأطبّاء والمنجّمين، اقتصر نظرهم على الطبائع الأربع ومزاجها ولم يدركوا الا الروح الجسماني الذي هو بخار أنضجته حرارة القلب، ينتشر في العروق الضوارب إلى جميع البدن ويقوم به الحسّ والحركة وظنّوا انّ الموت عدمه وانه يرجع إلى فساد المزاج.

١ـ سورة النجم: ٣٩.

٢ـ سورة الهود: ٦.

والصنفان الأوّلان قائلون ومتفقون على إثبات سعادة مؤبّدة ومتفقون بأن السعادة لا تنال الّا بالاطاعة وترك الدنيا، فأنت في حق هؤلاء، أي الصنف الآخر، امّا أن تجوز غلطهم، أو تعتقد صدقهم فإن جوّزت خطاءهم لزمك الإعراض عن الدنيا بمجرّد الاحتمال، فانّك لو كنت جائعاً وظفرت بطعام وهممت بأكله فاخبرك صبيّ انّ فيه سمّاً أو حيّة ولغت فيه فآسيت الجوع وتركت الأكل وتقول ان كان كاذباً فليس يفوتني الّا الأكل وان كان صادقاً ففيه الهلاك، فحينئذٍ كيف يستجيز العاقل الهجوم على الدنيا ولا يحذر من هذا السم الّذي لم يخبر به الصبيّ، بل أخبر به جميع الكتب السماوية وأهل الوحي.

وان قلت: أني أعلم ضرورة صدق قول الصنف الآخر وان الموت عدم وانه لا عقاب ولا ثواب وانّ الأنبياء كلّهم مغرورون ملبّسون وانّما الحقّ ما أقول، فمن كان هكذا لا ريب في فساد مزاجه وركاكة عقله ولكن مع هذا يقال له: ان كنت تطلب الراحة في الدنيا فقط، فإنّ الراحة في الحريّة والخلاص عن قيد الشهوات وما المستريح في الدنيا الّا تاركها لكثرة عنائها وقيل في حقهم قال الله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[1]

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ بيان لتضليل كلّ فريق

١ـ سورة الحجر: ٣.

صاحبه أي ليست النصارى على أمر يصح ويعتد به ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ أي قالوا ما قالوا ﴿وَهُمۡ﴾ والحال انّ كلّ فريق منهم ﴿يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ والكتاب للجنس وهذا الكلام توبيخ ومنع لهم لأنّ حق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب الله وآمن به أن لا يكفر بالباقي، لأنّ كلّ واحد من الكتابين مصدّق للثاني فإنّ التوراة مصدّقة بعيسى والإنجيل مصدّق بموسى فإذا كانوا مع العلم والتلاوة والمعرفة يختلفون هذا الاختلاف، فكيف حال من لا يعلم ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ منهم ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ مثل قول العالمين وقيل: المراد من الذين لا يعلمون، كفار العرب ومشركيهم، قالوا: انّ المسلمين ليسوا على شيء فالمراد انّ اليهود والنصارى الذين يقرؤن الكتب إذا قالوا كذلك، فكيف بهؤلاء الأمّيّين ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾: بين الفريقين ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ «من» في الأصل كلمة استفهام وهي هاهنا بمعنى النفي أي لا أحد ظلم ممّن منع مساجد الله. واختلف في الذين منعوا وذكروا أقوالاً: اولها: قال ابن عباس: انّ طنطيوس الرومي ملك النصارى غزا بيت المقدس فخربه والقى فيه الجيف وسبى ذراري بني إسرائيل وأحرق التوراة وذبح فيه الخنازير وحاصر أهله وقتلهم وسبى البقيّة ولم يزل بيت المقدس خراباً حتى بناه الإسلام في زمن عمر. وثانيها: قال الحسن وقتادة والسدّي: نزلت في بخت النصر حيث خرب بيت المقدس مع

بعض النصارى. قال أبو بكر الرازي في كتاب «أحكام القرآن» هذان الوجهان غلطان، لأنّه لا خلاف بين أهل السير انّ عهد بخت نصر كان قبل مولد المسيح عليه السلام بدهر طويل، والنصارى كانوا بعد المسيح، فكيف يكونون مع بخت النصر في تخريب بيت المقدس وأيضاً فإنّ النصارى يعتقدون في تعظيم بيت المقدس، مثل اعتقاد اليهود، فكيف أعانوا على تخريبه؟ وثالثها: انّ الآية نزلت في مشركي العرب الذين منعوا الرسول صلى الله عليه وآله عن الدعاء إلى الله بمكّة والجؤوه إلى الهجرة فصاروا مانعين له ولأصحابه أن يذكروا الله في المسجد الحرام وطرح أبو جهل الكسافات على ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله، فقيل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ﴾ـ الآية ـ ورابعها: قال أبو مسلم: المراد منه الذين صدّوه عن المسجد الحرام حين ذهب إليه من المدينة عام الحديبيّة واستشهد بقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[١] وبقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[٢] فإن قيل كيف يجوز حمل لفظ المساجد على المسجد الحرام، فهذا كمن يقول لمن آذى صالحاً واحداً: لم تؤذي الصالحين. أو المسجد موضع السجود، فالمسجد الحرام، مساجد ولا يكون مسجداً واحداً.

﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ثاني مفعولي منع فإنّه ممنوع، أي من أن يسبّح ويقدّس ويصلّي له فيها ﴿وَسَعَىٰ﴾ وعمل ﴿فِي خَرَابِهَا﴾ بالهدم والتفريق، والخراب اسم للتخريب، كالسلام بمعنى التسليم وأصله التتليم والتفريق ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي ما كان لهم ان يدخلوها الّا بخشية وخضوع، فضلاً عن الاجتراء على

١ـ سورة الفتح: ٢٥.

٢ـ سورة الأنفال: ٣٤.

تخريبها أي حقهم الذلة وارتعاد الفرائض من المؤمنين إذا أرادوا أن يدخلوها، فضلاً عن إيذاء المؤمنين، لو لا ظلم الكفرة وعتوّهم، وقيل: ان المعنى بشارة من الله للمسلمين، بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد وانّه سيذلّ المشركون لهم، حتى لا يدخلوها الّا بطريق الخوف فيعاقب أو يقتل، إن لم يسلم وقد أنجز الله وعده وما كان يجتري أحد من المشركين ان يحجّ وأمر النبيّ ﷺ بإخراج اليهود من جزيرة العرب وقد وقع عليهم من الصغار والذلّ بالجزية كما قال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾.[1]

وقال قتادة والسدّي: قوله: ﴿إِلَّا خَائِفِينَ﴾ بمعنى انّ النصارى لا يدخلون بيت المقدس إلّا خائفين ولا يوجد فيه نصراني الّا أوجع ضرباً وهذا القول مردود، لأنّ بيت المقدس غزاه طنطيوس الرومي وصار في أيدي النصارى أكثر من مائة سنة، حتى استخلصه الملك الناصر صلاح الدين يوسف من آل أيّوب شاه الدويني وقصّته مشهورة وقد وقع بيد المسلمين ثانياً وكان فتح الملك الناصر سنة خمسمائة وخمس وثمانين بعد الهجرة إلى يومنا هذا وعلى ما اشتهرت انّه عاد إليهم ثالثة أو كاد وذلك بشؤم العجوز الملعونة وهي الدنيا، فاحتالت بأنواع الدهى والمكر، فاشترت يوسف الصديق بدراهم مموّهة واستعبدها، فالويل لمن باع الحرّ باسم الحرية ولم يعرف معناها واخسف القمر باطماع البدرة وكان من باعه من تلامذة ابن المقنع بل أستاذه وابن المقنع صاحب البدر المعروف بالتخشب. وهذا الأستاد صاحب بدرة الذهب، فيا لها من صفقة ما أخسرها وأضرّها على الإسلام، اللهم انّي أبرئ ممّن باع واشترى وخدع وافترى، فاقسمك بكتابك المنزل ـ وفيه اسمك

١ـ سورة التوبة: ١٧.

الأكبر وأسماؤك الحسنى ـ أن تؤيّد دين نبيك وتعزّ الإسلام وأهله ومحلّه وظهر بيتك للطائف والعاكف واجعل لي هذه البرائة وسيلة إليك لغفران ذنوبي واجعلها حجة لي يوم ألقاك.

قال بعض العلماء: تعطيل المسجد عن العبادة والذكر، تخريب له، لأنّ المقصود من بنائه، هو الذكر والعبادة فيه، فمادام لم يترتّب عليه هذا المقصود، صار كأنّه هدم وخرب.

قال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«إذا رأيتم الرّجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان»**[1] لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[2]، فجعل حضور المساجد عمارة لها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«ستّ من المروّة، ثلاث في الحضر وثلاث في السفر، فامّا اللاتي في الحضر: فتلاوة كتاب الله وعمارة مساجد الله واتخاذ الإخوان في الله، وامّا اللاتي في السفر، فبذل الزاد وحسن الخلق والمزاح في غير معصية الله».**[3] وعدّ من علامات الساعة: **«تطويل المنارات وتنقيش المساجد، وتخريبها تخليتها عن ذكر الله فتعطيل المساجد عن التلاوة وعن الصلاة وعن إظهار شعائر الإسلام أقبح سيئة».**[4]

وفي الحديث: **«من زار بيت المقدس محتسبا، أعطاه الله ثواب ألف شهيد وحرّم الله جسده على النار، ومن زار عالماً فكأنّما زار بيت المقدّس»**[5] ـ كذا في «مشكوة الأنوار» ـ .

وبالجملة: فظاهر قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا

۱ـ سنن ابن ماجه، ج ۱، كتاب المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلوة، ج ۸۰۲.

۲ـ سورة التوبة: ۱۸.

۳ـ الخصال، ج ۱، ص ۱۵۷، ورواه المجلسي في البحار، ج ۷۳، ص ۲٦٦.

٤ـ أنظر: بحار لأنوار، ج ٦، ص ۳۰۷.

٥ـ الذكرى، ص ١٥٤.

ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ يقتضي أن يكون الساعي في تخريب المساجد وتعطيلها بسبب من الأسباب عن العبادة، أسوأ حالاً من كلّ فاسق وهو في أعظم درجات الفسق، كما انّ الساعي في عمارته بالعبادة في أعظم درجات الإيمان لقوله: انّما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر لأنّ كلمة «انّما» للحصر فالويل كلّ الويل لمن أغلق أبواب المساجد بتعطيلها عن العبادة وفتح أبواب بيوت الخمر.

وفي الحديث عن أبي هريرة، قال النبيﷺ: **«أحب البلاد إلى الله المساجد وأبغضها إليه أسواقها»**[1] والسرّ العقلي في الحديث انّ المسجد مكان لذكر الله، حتى إذا دخله الغافل اشتغل بالذكر، والسوق على الضدّ من ذلك، لأنّه موضع البيع والشراء والإقبال على الدنيا، وذلك ممّا يورث الغفلة عن الله، حتّى انّ الذاكر إذا دخله فإنّه يصير غافلا في الغالب.

وفي الحديث: **«من تطهّر في بيته، ثمّ مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة»**[2] ـ رواه مسلم ـ وعن أبي سعيد الخدري: انّ هذه الآية ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ نزلت في حقّهم.

روى عقبة بن عامر الجهني عن النبيﷺ قال: **«إذا تطهّر الرجل، ثمّ مرّ إلى المسجد يراعي الصلاة، كتب له كاتبة أو كاتباه بكلّ خطوة يخطوها إلى المسجد، عشر حسنات والقاعد الّذي يرعى الصلاة، كالقانت ويكتب من المصلّين من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع»**.[3] فعليك بالطهارتين ظاهرة وباطنة، فالباطنة طهارة

١ـ السنن الكبري، ج ٣، ص ٦٥.

٢ـ المجموع، ج ٤، ص ١٩٤

٣ـ المستدرك، ج ١، ص ٢١١.

القلب عن كل شيء سواه وتخلية النفس عن القذرات المعنوية كالحسد والكبر وأمثالها وطهارة الظاهرة عن الأحداث والقذارات، فاستقم كما أمرت.

قال النبيﷺ: **«من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة»**.[1]

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

النزول، لمّا حولت القبلة عن بيت المقدس، أنكر اليهود ذلك، فنزلت الآية رداً عليهم، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾: بين سبحانه انّ المشرق والمغرب لله وجميع الجهات والأطراف له ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فاينما أمركم باستقباله فهو قبلة، فكما انّ بيت المقدّس، قبلة، كذلك جعل الكعبة، قبلة، فلا تنكروا ذلك، يدبر عباده بما يريد.

في كتاب التوحيد، عن السماء والعالم، قال الرضاعليه السلام: **«المشيئة من صفات الأفعال، فمن زعم انّ الله لم يزل مريداً شائياً، فليس بموحّد»**[2]، قال المجلسي: (لعل الشرك باعتبار انّه إذا كانت الارادة والمشيّة ازليّتين بكونهما دائماً معه سبحانه، يوجب قديمين آخرين).[3] وعن عاصم بن حميد: قال سألت الصادقعليه السلام: لم يزل الله مريدا فقالعليه السلام: **«انّ المريد لا يكون الّا المراد معه، بل لم يزل عالماً قادراً، ثمّ أراد»**.[4]

قال بعض مثل قتادة وابن زيد: (انّ الله نسخ بيت المقدس بالتخيير إلى أي جهة شاء بهذه الآية، فكان للمسلمين أن يتوجهوا إلى حيث شاءوا في

١ـ بحارالأنوار، ج ٦٢، ص ٤٦.

٢ـ بحارالانوار، ج ٥٤، ص ٣٧.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ المصدر السابق نفسه.

الصلاة، الّا انّ النبيﷺ كان يختار التوجّه إلى بيت المقدس مع انّه كان له أن يتوجّه حيث شاء، ثم انّه نسخ ذلك بتعيين الكعبة).

وقيل: انّ الآية نزلت في النوافل للمسافر، حيث تتوجّه به راحلته.

عن سعيد بن جبير، قال: (انما نزلت الآية في الرجل يصلي إلى حيث توجهت به راحلته في السفر في التطوّع، وكانﷺ إذا رجع من مكة صلّى على راحلته تطوّعاً يومئ برأسه نحو المدينة) فيكون معنى الآية على هذا القول: فأينما تولّوا وجوهكم، لنوافلكم في أسفاركم، فثم وجه الله، وصادفتم المطلوب، انّ الله واسع الفضل غنيّ، فمن سعته وغناه وفضله، رخّص لكم في ذلك، لأنّه لو كلّفكم استقبال القبلة في مثل هذه الحالة لزم إحدى الضررين، امّا ترك النوافل، وامّا النزول عن الراحلة والتخلّف عن الرفقة، بخلاف الفرائض، فإنّها صلوات مفروضة، محصورة، معيّنة والكل مكلّفون بالأداء، فلا يلزم منه التخلّف عن الرفقة والى الحرج. والمراد من قوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ الحضور العلمي منه سبحانه، فيكون الوجه مجازاً، من قبيل إطلاق اسم الجزء على الكلّ، إذ ليس سبحانه جوهراً ولا عرضاً حتّى يكون في جانب وهذا معنى الحديث: (لو انكم وليتم بجبل إلى الأرض السفلى، لهبط على الله).

اى لهبط على علم الله، والله منزّه عن الحلول في الأماكن، لأنّه كان قبل ان يحدث الأماكن ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم وأعمالهم.

قيل: انّ إمام الحرمين انّه نزل ببعض الأكابر ضيفاً فاجتمع عنده العلماء، فقام واحد من أهل المجلس، فقال: ما الدليل على تنزّهه عن المكان؟ وهو قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[1]، فقال الغزالي، الدليل عليه قول

ا ـ سورة طه: ٥.

يونس عليه السلام في بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فتعجب الحاضرون من العلماء في جوابه، فالتمس صاحب الضيافة بيانه، فقال الغزالي: هاهنا فقير مديون بألف درهم، أدّ عنه حتّى أبيّنه، فقبل صاحب الضيافة دينه، فقال: انّ يونس لما ابتلي بالظلمات في قعر البحر ببطن الحوت، قال: «لا إله الا أنت» وقال النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، فكلّ منهما خاطبه بقوله: أنت، وهو خطاب الحضور، فلو كان في مكان لما كان ذلك بصحيح، فدل ذلك على انّ الله تعالى ليس في مكان لأنهما في السير.

وأمّا قصّة القبلة، روي انّه صلى الله عليه وسلم كان يصلّي بمكّة إلى الكعبة، فلمّا هاجر إلى المدينة أمره الله أن يصلّي نحو بيت المقدس ليكون أقرب إلى تصديق اليهود، فصلّى نحوه ستّة عشر شهراً وكان يقع في روعه ويتوقّع من ربّه أن يحوّله إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام وأقدم القبلتين وذلك قوله: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ وذلك في مسجد بني سلمه، فصلّى الظهر ولمّا صلّى الركعتين نزل: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ فتحول في الصلاة، فسمّي ذلك المسجد، مسجد القبلتين، فلمّا تحوّلت القبلة أنكر من أنكر، فكان هذا ابتلاء من الله كما قال: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ فاتّبع الرسول واستقل في مبدء طريق السالكين.

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾: والضمير راجع اما إلى قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ وفي المانعين اختلف الأقوال كما ذكرنا من اليهود، أو

مشركي العرب أو غيرهم وعلى كلّ الأقوال، الآية في اتخاذ الولد، يشملهم لأنّ اليهود قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ والنصارى قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ ومشركوا العرب قالوا: (الملائكة بنات الله)، فلا جرم صحّت هذه الحكاية على جميع التقادير، قال ابن عباس: انّها نزلت في كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا، فإنّهم جعلوا عزيراً ابن الله، والاتخاذ أما بمعنى الصنع والعمل ويتعدّى إلى مفعولٍ واحد وامّا بمعنى التصيّر، والمفعول الأول محذوف، أي صيّر بعض مخلوقاته ولدا وادعى انّه ولده، لا انّه ولده حقيقة، فكما يستحيل عليه تعالى إن يلد حقيقة، كذا يستحيل عليه التبنّي، فنزّه الله تعالى نفسه عما قالوا، بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ فهو كلمة تنزيه، ينزّه بها عمّا نسبوا اليه، كما قال في موضع آخر: سبحانه أن يكون له ولد فمرّة أظهره ومرّة اقتصر عليه لدلالة الكلام عليه واحتجّ على هذا التنزيه بقوله: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنّ السبب المقتضي لاتّخاذ الولد، الاحتياج إلى من يعينه في حياته ويقوم مقامه بعد مماته ولا بدّ أن يكون الولد من جنس والده، فكيف يكون له ولد وهو لا يشبهه شيء ومنزّه عن التركيب والاحتياج وهو تعالى خالق السماوات والأرض وما فيهما جميعا الذي يدخل فيه الملائكة وعزير والمسيح، وكان المستفاد من الدليل، امتناع أن يكون شيء ما، ممّا في السماوات والأرض ولدا، سواء كان ذلك ممّا زعموا أم غيره.

﴿كُلٌّ﴾ أي كلّ ما فيهما من أولى العلم وغيرهم، في الخصال بحذف[1] الأسانيد، عن الصادق عليه السلام قال: **«إن لله اثنى عشر ألف عالم، كلّ عالم منهم أكبر من سبع سماوات وسبع أرضين، ما يرى عالم منهم ان لله عالماً غيرهم وانّى**

١ـ في المجلد الرابع عشر من بحار الأنوار، ص ٧٩ نقلاً عن الخصال مع ذكر الأسانيد.

الحجّة عليهم».(١) في كتاب «التوحيد» و«الخصال»، عن جابر بن يزيد قال: سألت أبا جعفر الباقر، عن قول الله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، فقال‌عليه‌السلام: «يا جابر تأويل ذلك انّ الله إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم وسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جدّد الله عالماً غير هذا العالم وجدّد خلقاً من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحّدونه ويخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم وسماء غير هذه السماء تظلّهم لعلّك ترى انّ الله انّما خلق هذا العالم الواحد، أو ترى انّ الله لم يخلق بشراً غيركم بلى والله لقد خلق الله ألف ألف عالم وألف ألف آدم وأنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميّين».(٢) وفي حديث آخر عنه‌عليه‌السلام: «لعلّكم ترون انّه إذا كان يوم القيامة وصار أهل الجنّة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، لا يعبد بعده الله بلى ليخلقنّ الله».(٣)

﴿لَّهُ﴾ تعالى ﴿قَانِتُونَ﴾: أي منقادون وعبرّ سبحانه، أولاً عن جميع الموجودات بقوله: ﴿كُلٌّ﴾ ثمّ عبّر ثانياً بما يختصّ بالعقلاء بقوله: ﴿قَانِتُونَ﴾ إشعاراً بأنّ العالي والداني سواء في هذا الحكم والسبب في هذه النسبة وهي نسبة الولد إلى الله:

انّ أرباب الشرائع المتقدّمة كانوا يطلقون على أرباب الأنواع اسم الأب وعلى الكبير منهم اسم الإله، حتّى قالوا انّ الأب، هو الربّ الأصغر، وانّ الله هو الربّ الأكبر، وكانوا يريدون من هذا الإطلاق والمعنى: انّه تعالى هو السبب الأول في وجود الإنسان وإنّ الأب هو السبب الآخر في وجوده، فإنّ الأب هو مخدوم الإبن وكأنّه موجده من وجه، ثمّ ظنّت الجهلة منهم انّ

١ـ بحارالأنوار، ج ٢٧، ص ٤١. نقلاً عن الخصال، ج ٢، ص ١٧١ و١٧٢.

٢ـ الخصال، ج ٢، ص ١٨٠.

٣ـ الخصال، ج ١، ص ٣٥٩، ح ٤٥، البحار عنه، ج ٨، ص ١٣٣، ح ٣٧.

المراد به معنى الولادة الطبيعيّة، فاعتقدوا ذلك تقليداً، من غير فهم المراد، ولذلك منع قائله مطلقاً، بل كفر، سواء قصد به معنى السّببيّة، أو معنى الولادة الطبيعيّة حسماً لمادّة الضلالة والفساد.

قال الرازي في تفسيره: ووجه الاستدلال بهذه الآية في ردّ قولهم وإبطال عقيدتهم من وجوه، **الأوّل**: انّ كلّ ما سوى الموجود الواجب، ممكن لذاته، وكلّ ممكن لذاته، محدث، وكل محدث فهو مخلوق للواجب، امّا بيان أنّ ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته فلأنّه لو وجد موجودان واجبان لذاتهما لاشتركا في وجوب ولامتاز كلّ واحد منهما عن الآخر بما به التعيّن، وما به المشاركة غير ما به الممايزة، فيلزمهما قيد المشاركة وقيد الممايزة، وحصل التركيب وكلّ مركّب مفتقر إلى أجزائه، فهو ممكن لذاته، فكلّ واحد من ذينك الواجبين لذاتهما ممكن لذاته وهذا خلف.

والوجه الثاني: انّ هذا الّذي أضيف إليه بأنّه ولده، امّا أن يكون قديماً أزليّاً، أو محدثاً، فإن كان أزليّاً لم يكن حكمنا بجعل أحدهما ولداً والآخر والداً أولى من العكس، فيكون ذلك الحكم حكماً مجرّداً من غير دليل وان كان الولد حادثاً، كان مخلوقاً لذلك القديم وعبداً له، والعبد لا يكون ولداً ولا يستحق المعبوديّة.

قال الرضا(ع): **«انّ الله قديم والقدم صفة دلّت على انّه لا شيء قبله ولا شيء معه في ديمومته وبطل قول من زعم انّه كان قبله أو كان معه شيء وذلك أنّه لو كان معه شيء في بقائه لم يجزأن يكون خالقاً له لأنّه لم يزل معه فكيف يكون خالقاً لمن لم يزل معه، ولو كان قبله شيء، كان الأول ذلك الشيء، لا هذا، وكان الأول أولى بأن يكون خالقاً للثاني»**.(١)

١ـ الفصول المهمة في أصول الأئمة، ج ١، ص ١٥٠.

وفي «شرح نهج البلاغة» للكيدري، ورد في الخبر: لمّا أراد الله خلق السماوات والأرضين، خلق جوهراً خضراً فنظر إليها بعين الهيبة، فذابت وصار ماء مضطرباً، ثمّ أخرج منه بخاراً كالدخان، وخلق منه السماء[١]، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ ثم فتق تلك السماء، فجعلها سبعاً، ثمّ جعل من ذلك الماء زبداً، فخلق منه أرض مكّة، ثمّ بسط الأرض كلّها من تحت الكعبة، ولذا سمّيت امّ القرى، ثمّ شقّت من تلك الأرض سبع أرضين وجعل بين كلّ سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام وكذلك بين كلّ أرض وأرض الخ.[٢]

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

اى إذا أراد شيئاً واصل القضاء: الأحكام والقطع، عبّر سبحانه تعالى الارادة بالقضاء لإيجابها ووقوعها البتّة، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فيحصل في الوجود سريعاً من غير توقّف وهذا التعبير عبارة عن سرعة حصول المخلوق بإيجاده والقضاء يستعمل بمعنى الخلق، مثل قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾[٣]، أي خلقهنّ وبمعنى الأمر، نحو: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٤] وبمعنى الإخبار، مثل: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٥]، أي أخبرناهم وهذا المعنى لا بدّ وان يأتي بالي وبمعنى الفراغ من الشيء مثل قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ﴾ وانّما فسرّ كلمة كن بسرعة الحصول: لأنه تعالى رتب تكوّن المخلوق على قوله كن بفاء التعقيب فيكون قوله: كن

١ـ شرح نهج البلاغه، لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٨٥.

٢ـ بحار الأنوار، ج ٥٤، ص ٢٩.

٣ـ سورة فصلت: ١٢.

٤ـ سورة الإسراء: ٢٣.

٥ـ سورة الإسراء: ٤.

مقدماً على تكوّن المخلوق بزمان واحد والمتقدّم على المحدث بزمان واحد محدّث، فقوله: كن، لا يجوز أن يكون قديماً ولا يجوز أيضاً أن يكون قوله، كن، محدّثاً لأنّه لو افتقر كلّ محدث إلى قوله، كن وقوله، كن، أيضاً محدّث، فيلزم افتقار ﴿كُن﴾ إلى كن آخر ويلزم امّا الدور أو التسلسل وهما محالان، فثبت انّه لا يجوز توقف إحداث الحوادث على قوله: كن، ثمّ قالوا ان الأشياء المعدومة لا يصحّ أن يخاطب ويؤمر وأجيب عن هذا الا يراد انّ الأشياء، المعدومة لمّا كانت معلومة عند الله، صارت كالموجود، فيصحّ خطابها والصحيح انّ المراد سرعة الحصول من الارادة، والكلام نزل على لسان العرب ومثل هذه المعاني شايع لقولهم امتلأ الحوض وقال قطني: (قال أبو الهذيل: هذه الكلمة علامة يفعلها الله للملائكة، إذا سمعوها علموا انّه أحدث وخلق امراً)[١]، وقيل: انه خاصّ بالّذين قال لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[٢] ومن جرى مجراهم وهو قول الاصمّ وقيل: المراد انّه امر للأحياء بالموت وللموتى بالحياة.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

لمّا بيّن سبحانه قبائح أقوالهم في التوحيد ونسبة اتّخاذ الولد إليه في الآية السابقة حكى قبايح أقوالهم في إنكار النبوّة فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المراد: مشركوا العرب أو النصارى أو اليهود أو كلّهم ﴿لَوْلَا﴾ أي هلّا ﴿يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ معاينة، فيخبرنا بأنّك نبيّ، أو هلّا يكلّمنا شفاهاً بكلامه،

١ـ أنظر: مجمع البيان، ج ١، ص ٣٦٤.

٢ـ سورة البقرة: ٦٥.

كما كلّم موسى ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ موافقة لدعوتنا كما جاءت آيات موافقة لدعوتهم ولم ترد انّه لم يأتهم آية، لأنّه قد جاءتهم الآيات والمعجزات.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ قيل: هم اليهود، حيث اقترحوا الآيات على موسى، حيث قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[1] و﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ ونحوه وكذلك النصارى قالوا لعيسى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[2]، كذلك ـ أي مثل ذلك القول الشنيع قالوا قديماً ـ مثل قولهم تشبيه المقول بالمقول.

﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: أي تماثلت قلوب أولئك هؤلاء في العمى والعناد والقسوة وتشابه مقالتهم بمقالة من قبلهم، فإنّ الألسنة ترجمان القلوب.

﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ﴾: وأنزلناها بيّنة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: ويطلبون اليقين ويريدون تحصيله.

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

قرء بفتح التاء والجزم على النهي، روي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام وابن عباس وقرء على لفظ الخبر، على ما لم يسمّ فاعله[3]، وعلى كون الجزم المراد النهى عن المسألة وقيل: النهي ظاهراً ولفظاً، لكنّ المراد تفخيم ما أعدّ الله لهم من العقاب، لقول القائل: لا تسأل عن حال فلان، فقد صار أمره إلى فوق ما تتصوّر.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمّد ﴿بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حال كونك

١ـ سورة النساء: ١٥٣.

٢ـ سورة المائدة: ١١٢.

٣ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٣٦٧.

مؤيّدا بالحجج والقرآن والآيات، لتكون مبشّراً لمن اتّبعك واهتدى بدينك ومنذرا لمن كفر بك وضلّ عن دينك.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾: فعلى قراءة الرفع والخبر، أي أنت غير مسئول بهم، ومعصيتهم لا تضرك، فانّما عليك البلاغ وعلينا الحساب ولا تغتم لكفرهم.

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

بيان حال الكفّار من تشدّدهم وثباتهم على كفرهم وقد بلغ من حالهم انّهم يريدون أن يتّبع ﷺ ملّتهم والموافقة لهم فيما هم عليه والنزول، كانت اليهود والنصارى يسألون النبي ﷺ الهدنة ويرونه انّه إن هادنهم وأمهلهم اتّبعوه، فآيسه الله من موافقتهم، فقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي قل لهم يا محمّد: انّ دين الله الذي يرضاه، هو الهدى، أي القرآن وهو يهدي إلى الجنة وهو الذي أنت عليه وأنت مهتديه، لا طريقة اليهود والنصارى وقيل معناه: انّ دلالة الله هي الدلالة وهدى الله هو الهداية، كما يقال: طريقة فلان هي الطريقة.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ ومراداتهم، قال ابن عباس: معناه ان صلّيت على قبلتهم ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: أي من البيان من الله، أو من الدّين ﴿مَا لَكَ﴾ يا محمّد ﴿مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ وناصر يحفظك من عقابه ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ وظهير يعاونك والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمّته، كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، قال ابن عباس: جميع مثل هذه الخطابات في القرآن، المراد منه الأمّة، والذين قالوا: انّ الخطاب متوجّه إلى الكلّ، له ﷺ ولأمّته، قالوا لا

بأس بالخطاب إليه مع علمه سبحانه بعصمته، لأنّ التكليف والتحذير مع وجود الآلات والقوى البشريّة حسن والعلم بعدم الوقوع لا ينافي الإمكان الذاتي الّذي هو متعلّق التكليف.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (١٢١)﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: الذين آتيناهم مبتداء وأولئك مبتداء ثان، يؤمنون خبره، يريد عبد الله بن سلام وأصحابه الذين اسلموا من اليهود وانّما خصّهم بذكر الإيتاء مع ان الكلّ من اليهود مأتيّون بالكتاب، لأنّهم هم الذين عملوا به ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: بمراعاة لفظه عن التحريف وبالتدبّر في معانيه والعمل به وقيل: المراد من، الّذين آتيناهم، أهل السفينة الّذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب عليه السلام من الحبشة وكانوا أربعين رجلاً، اثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من رهبان الشام[1]، عن ابن عباس قال: نزلت الآية فيهم وقيل: المراد أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وعلى هذا فالمراد بالكتاب، القرآن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بالكتاب ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ بالكتاب، سواء كان كفره بالتحريف، أو بالإنكار ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الهالكون المغبونون.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٢٢) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾: فمن جملة النعمة،

١ـ مجمع البيان، ج١، ص ٣٧٠.

التوراة وذكر النعمة انما يكون بشكرها وشكرها الإيمان به ومن جملتها نعت النبيّ صلى الله عليه وآله فمن ضرورة الإيمان بالتوراة، الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله.

فاعرف منعمك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، عن أصبغ ابن نباتة: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «انّ السماوات والأرض وما فيهما، من مخلوق في جوف الكرسي، وله أربعة أملاك يحملونه باذن الله فامّا ملك منهم ففي صورة الآدميّين وهي أكرم الصور على الله وهو يدعو الله ويطلب الرزق لبني آدم، الثاني في صورة الثور، وهو يطلب الرزق والسعة للبهائم والثالث في صورة النسر وهو سيد الطيور، يطلب الرزق لجميع الطيور، والرابع في صورة الأسد وهو يطلب الرزق للسباع، ولم يكن في هذه الصور أحسن من الثور ولا أشدّ انتصاباً منه، حتى اتّخذ الملاء من بني إسرائيل العجل فلمّا عكفوا عليه وعبدوه خفض الملك الذي بصورة الثور حياء من الله ان عبد من دون الله شيء يشبهه وتخوّف ان ينزّل به العذاب»، ثمّ قال عليه السلام: «انّ الشجر لم يزل حصيداً مخضوداً حتّى دعى للرحمن ولد، فعند ذلك اقشعر الشجر وصار له شوك حذاراً أن ينزل به العذاب، فما بال قوم غيّروا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وعدلوا عن وصيه عليه السلام لا يخافون ان ينزل بهم العذاب، ثمّ تلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾».[2]

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي عالمي زمانكم ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾: أي عذاب يوم ﴿لَّا تَجْزِى﴾: ولا تقضي في ذلك اليوم ﴿نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ أخرى ﴿شَيْـًٔا﴾ من الحقوق التي لزمتها ولا تؤخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع من أخرى واما إذا كان عليها شيء، فإنه يقتصّ منها بغير اختيارها، بما لها من حسناتها ممّا عليها من الحقوق كما جاء في الحديث: انّ

١ـ سورة الرعد: ١١.

٢ـ انظر: تفسير القمي، ج ١، ص ٨٥.

رسول الله ﷺ قال: «من كانت عليه مظلمة لأخيه من عرض أو غيره، فليستحلل منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».(١)

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾: من النفس العاصية ﴿عَدْلٌ﴾: أي فداء، والفدية ما يماثل الشيء قيمته وعوضه وإن لم يكن من جنسه ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ ان شفعت للنفس الثانية ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: ولا يمنعون من عذاب الله، ولا تقع الشفاعة للكافر، ولا تنفع أبداً، لا من الملائكة ولا من الأنبياء.

وفي الحديث: (من أتبع قوماً على أعمالهم حشر في زمرتهم وحوسب يوم القيامة بحسابهم وإن لم يعمل بأعمالهم)، وربما يكون للإنسان شركة في إثم القتل والزنا وغيرهما إذا رضى به من عامل، ومال إلى ذلك الفعل: كما انّ من حضر معصية فكرهها فكانّما غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن حضرها.

وفي الحديث: (سيأتي على الناس زمان تخلق فيه سنّتي وتتجدّد البدعة فيه فمن اتبع سنتي يومئذ صار غريباً وبقي وحيدا ومن اتبع بدع الناس وجد خمسين صاحباً وأكثر).

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

قال القرطبي: إبراهيم بالسريانية على ما ذكره الماوردي وفي العربية على ما حكي ابن عطيّة: أب رحيم، وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربيّ، قيل: اسمه، إبرايم، فزيد: ها، في اسمه والهاء في السريانية: للتفخيم

١ـ صحيح البخاري، ج ٣، ص ٩٩.

والتعظيم، وقرء إبراهام وانّما حكى سبحانه في هذا المقام قصّة إبراهيم، لأنّه كان معروف الفضل، عند تمام الطوائف والملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضله، متشرّفين بانّهم من أولاده ومن ساكني حرمه، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضاً مقرّين بفضله، متشرفين بانّهم من أولاده، فحكى سبحانه أموراً توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمّد ﷺ والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه وذلك لأنّ إبراهيم عليه السلام ما نال إلى منصب النبوّة والإمامة الّا بقبول التوحيد وترك التمرد، والانقياد لحكم الله وطلب الإمامة لأولاده، فقال الله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فدلّ على انّ منصب الإمامة والرياسة في الدين، لا يصل إلى الظالم، فهؤلاء متى أرادوا الخير وجب عليهم ترك اللجاج والظلم وقبول الباطل وإنكار اليهود والنصارى تحويل القبلة من غير وجه، لأنّ هذا البيت قبلة إبراهيم عليه السلام الّذي يعترفون بفضله ويفتخرون بنسبه.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾: الابتلاء[1] على ضربين، أحدهما يستحيل على الله والآخر جائز، فالمستحيل هو أن يختبره ليعلم ما يكشف له عنه وهذا ما لا يصحّ لأنّه علّام الغيوب والآخران يبتليه حتّى يصبر فيما يبتليه به، فيكون ما يعطيه من العطاء على سبيل الاستحقاق ولينظر الناظر اليه، فيقتدى به ويكون إرشاداً للغير.

المعنى: واذكر وقت امتحن الله إبراهيم، وهو مجاز وحقيقته انّه أمره وكلّفه وحقيقة الابتلاء من الله تشديد التكليف.

﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ وروي عن الصادق عليه السلام: «اوّل ما ابتلاه الله في نومه، من ذبح ولده إسماعيل أبي العرب، فعزم عليها وسلم لأمر الله فأتمه، فقال الله ثواباً له لما صدق

١ـ و هذا مضمون الرواية التي المجلد الخامس من بحار الأنوار، ص ١٣٠ نقلاعن الأمالي.

وعمل بما أمره الله: اني جاعلك للناس إماماً، ثمّ أنزل الله عليه الحنيفية، وفسّرت، الكلمات بوجوه»(١)، قال ابن عباس: هي عشر خصال كانت فرضاً في شرعه وسنّة في شرعنا خمس منها في الرأس وهي: المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك وخمس في البدن وهي: الختان وحلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظفار والاستنجاء بالماء، أي غسل مكان الغائط والبول بالماء والمراد من فرق الرأس تقسيمه إلى نصفين، وكان المشركون يفرقون شعور رؤسهم وأهل الكتاب يرسلون شعورهم على الجبين ويتخذونها كالقصة وهي شعر الناصية، قيل: وكان النبي صلى الله عليه وآله يحب موافقة أهل الكتاب ثمّ نزل جبرئيل عليه السلام، فأمره بالفرق وأكثر حال النبيّ كان الإرسال وحلق الرأس منه معدود وكان صلى الله عليه وآله يقصّ شاربه كل جمعة قبل أن يخرج إلى صلاة الجمعة والقصّ في الشارب لا بدّ وأن يبدوا اطراف الشفة ولا يبقى فيه غمر الطعام والسنة، تقصير الشارب وحلقه، قيل: بدعة كحلق اللحية، وفي الحديث: **«جزّوا الشوارب واعفوا اللحى»**(٢) والجزّ: القصّ والقطع: والإعفاء: التوفير والترك على حالها، وحلق اللحية حرام وقبيح ومثلة، كما انّ حلق شعر الرأس، في حق المرأة مثلة، منهيّ عنه وتشبّه بالرجال وتفويت للزينة، كذلك حلق اللحية، تشبّه بالنساء.

في وسائل الشيعة، عن الباقر عليه السلام قال: **«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حفّوا الشوارب واعفوا اللحى ولا تشبهوا بالمجوس، جزّوا لحاهم ووفّروا شواربهم، ونحن نجزّ الشوارب ونعفي اللحى وهي الفطرة»**.(١)

١ـ انظر: وسائل الشيعة، ج ٢، ص ١١٧.

٢ـ مسند أحمد، ج ٢، ص ٣٦٥ ولاحظ السنن الكبري، ج ١، ص ١٥٠.

١ـ وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٢٣.

وحديث آخر وفي تفسير علي بن إبراهيم، في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، قال: (انّه ابتلاه في نومه بذبح إسماعيل، فاهمّها إبراهيم وسلّم لأمر الله، قال الله ثوابا له: اني جاعلك للناس إماماً، ثمّ أنزل عليه الحنيفيّة وهي عشرة: خمسة في الرأس وخمسة في البدن، امّا التي في الرأس: أخذ الشارب واعفاء اللحى وطم الشعر من الرأس والسواك والخلال)[1] ولو لا هذه الأخبار ففي النهي التحريمي في مشاكلة أعداء الدين وسلوك طريقتهم وتشبّه الرجال بالنساء وحكم وجوب الدية الكاملة في حلق اللحية إذا لم تنبت وإذا نبتت فثلث الدية لكفى دليلاً في حرمة حلق اللحية.

واعلم: انّ دية أعضاء الرجل والمرأة متساوية إلى أن تبلغ الثلث من الدية الكاملة، فإذا بلغت الثلث فتضاعف دية أعضاء الرجل.

قال أبان بن تغلب: قلت لأبي عبد الله‌عليه السلام ما تقول في رجل قطع إصبعاً من أصابع المرأة، كم فيها من الدية؟ قال‌عليه السلام: **«عشرة من الإبل»**، قلت: قطع اثنتين، قال‌عليه السلام: **«عشرون»**، قلت: قطع ثلاثاً، قال‌عليه السلام: **«ثلاثون»**، قلت: أربعاً، قال‌عليه السلام: **«عشرون»**، قلت: سبحان الله، يقطع ثلاثاً، فيكون عليه ثلاثون ويقطع أربعاً وعليه عشرون، قال‌عليه السلام: **«مهلاً هذا حكم رسول الله‌صلى الله عليه وآله انّ المرأة تعادل الرجل إلى ثلث الدية، فإذا بلغت الثلث رجعت إلى نصف دية الرجل»**.[1]

في تفسير «روح البيان»: ومن تسبيح الملائكة: (سبحان من زيّن الرجال باللحى وزيّن النساء بالذوائب).[2]

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أيضاً: انّه تعالى ابتلاه بثلاثين خصلة

١ـ أنظر: تفسير القمي، ج ١، ص ٥٩.

١ـ وسائل الشيعة، ج ٢٩، ص ٣٥٢.

٢ـ لاحظ: شرح الأزهار، ج ٤، ص ٤٥٠.

من شرايع الإسلام، فأقامها كلّها إبراهيم واتمّهن فكتب له البراءة، فقال سبحانه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[1] وهي عشرة في سورة براءة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾[2] إلى اخرها.

وعشرة في الأحزاب:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾[3] إلى اخرها.

وعشرة في سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[4] إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[5]، وروى وعشرة في سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾[6]، إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[7]، فجعلها أربعين[8] وفي رواية عن ابن عباس انّه أمره بمناسك الحج وقيل ابتلاه الله بالكوكب والقمر والشمس والختان وبذبح الولد وبالنار وبالهجرة فكلّهنّ وفّاهن[1] والآية يحتمله الجميع.

قال الشيخ أبو جعفر ابن بابويه: يشمل الكلمات المقام اليقين الّذي أتى به وذلك قوله: (وليكون من الموقنين) والمعرفة بالتنزيه عن التشبيه حين نظر إلى الكوكب والقمر والشمس وذلك قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ

١ـ سورة النجم: ٣٧.

٢ـ سورة التوبة: ١١٢.

٣ـ سورة الأحزاب: ٣٥.

٤ـ سورة المؤمنون: ١.

٥ـ سورة المؤمنون: ٨.

٦ـ سورة المعارج: ١.

٧ـ سورة المؤمنون: ٩.

٨ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٣٧٤.

١ـ المصدر السابق نفسه.

﴿ٱلْـَٔافِلِينَ﴾[1]، ومنها الشجاعة بدلالة قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾[2]، ومقاومته أعداء الله فريداً بنفسه، ومنها الحلم وذلك قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[3]، ومنها السخاء ويدلّ عليه قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[4]، ثمّ العزلة عن العشيره وقد تضمّنه قوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[5]. ثمّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبيان ذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾[6]، ثمّ التوكّل وبيان ذلك في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[7]، ثمّ المحنة حين جعل في المنجنيق وقذف به إلى النار، ثمّ الصبر على سوء خلق سارة، ثمّ الزلفة، في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾[8]، ثمّ الجمع لشروط الطاعات، في قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، ثمّ استجابة دعوته، حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2]، ثمّ اصطفاؤه في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3]، ثمّ اقتداء من بعده من الأنبياء به في قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ

١ـ سورة الأنعام: ٧٦.

٢ـ سورة الأنبياء: ٥٨. والجذاذ من الجذّو هو القطع.

٣ـ سورة الهود: ٧٥.

٤ـ سورة الذاريات: ٢٤.

٥ـ سورة مريم: ٤٨.

٦ـ سورة مريم: ٤٢.

٧ـ سورة الشعراء: ٧٨.

٨ـ سورة آل عمران: ٦٧.

١ـ سورة الأنعام: ١٦٣.

٢ـ سورة البقرة: ٢٦٠.

٣ـ سورة البقرة: ١٣٠.

﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾[1]، الآية انتهى كلام الشيخ.[2]

فاتّبع سنة من قد خلق الله نوره قبل الظهور في عالم البشريّة بدهور، ودع القياسات الفكريّة والاستحسانات العقليّة، فتكون تحرف النواميس بعقلك القاصر، فإنّ صاحب الناموس أعرف منك، ولا تكن كبعض السفهاء الذين يدّعون العقل في زماننا، فإنّهم قاسوا بعقولهم انّ قسمة الأنثى إذا كان بالعكس، كان أقرب بالعدل، لأنّ النساء أضعف في الاكتساب وليس لهنّ تدبير وعقل كما في الرجال، وهذا الكلام مع قطع النظر عن مخالفة الشريعة، مخالف للعقل، لأنّ الرجل أفقر للمال منهنّ بسبب القيام بأمورهنّ، ثمّ انّ لهنّ من يقوم بأمورهنّ واقلّ حاجة من الرجال بسبب الأنوثة، فإن لم يقبّلها ذا، يقبّلها ذاك، فيقوم بأمرها، لكن الرجل ليس له هذه المنفعة ولا أقل من أن يقوم بأمر نفسه، فحاجته بالمال أكثر من حاجة المرأة، ثمّ انّه في الغالب تتساوى المرأة مع الرجل في المال مع ما تأخذ نصف الرجل في الميراث، مثل ان إذا أخذ الرجل ألف درهم والمرأة خمسمائة درهم، فلمّا تزوّجت تأخذ من الصداق مثلاً خمسمائة درهم فتساوي أخاها في المال والأخ إذا أراد أن يتزوّج فلا بدأن يجعل ويعطي صداق زوجته خمسمائة درهم، فيكون مساوياً لأخته في المال وأمور أخر، لا حاجة بالإطالة، فاجعل عقلك تابعاً للشرع لا العكس، تكن مؤمناً ولا تكن زنديقاً، أما قرأت القرآن؟ ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1]، وفضل الرجال،

١ـ سورة البقرة: ١٣٢.

٢ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٣٧٦.

١ـ سورة النساء: ٣٤.

العقل والقوّة والغزو وانّ منهم الأنبياء والحكماء وفيهم الخلافة والإمامة والاقتداء بهم في الصلوات والأذان والخطبة والاعتكاف والشهادة وزيادة السهم وتحمل الدية في القتل الخطاء والولاية في النكاح والطلاق وعدد الأزواج.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: أي وفّى بهنّ وعملها بالتمام وقيل: ضمير الفاعل في أتمهنّ راجع إلى الله على قول أبي القاسم البلخي ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾: قل اني جاعلك لأجل الناس مقتدى يأتمّون بك في هذه الخصال، فهو مقتدى الصالحين إلى قيام الساعة وقد أنجز الله وعده لأنّه امر نبيّه محمّداًﷺ بقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1]، واجتمع أهل الأديان على تعظيمه، كما انّ أمّة محمّدﷺ يقولون في آخر صلواتهم: **«اللهم صلى على محمّد وآل محمّد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم انك حميد مجيد»**[2] وفي الخبر: انّ إبراهيم رأى في المنام جنّة عريضة مكتوب على أشجارها: (لا إله الّا الله محمّد رسول الله)، فسأل جبرئيلعليه السلام عنها فأخبره بالقصّة، فقال: **«يا ربّ أجر على لسان لمّة محمّدﷺ ذكري»**، فاستجاب الله دعاءه ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على الكاف في جاعلك و«من» تبعيضيّة، أي واجعل بعض ذريّتي أماماً يقتدى به الناس، لكنّه راعى الأدب بالاحتراز عن صورة الأمر ولم يقل، واجعل، وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحالة إمامة الكلّ وان كانوا على الحق، والذريّة نسل الرجل وقد يطلق على الآباء والأبناء من الذكور والإناث ومنه قوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[1]، أراد آبائهم

١ـ سورة النحل: ١٢٣.

٢ـ التهذيب، ج ٢، ص ١٠٠، باختلاف يسير.

١ـ سورة يس: ٤١.

وتطلق الذريّة أيضاً على الواحد، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[١]: يعني ولدا صالحا ﴿قَالَ﴾ الله ﴿لَا يَنَالُ﴾ ولا يصيب ﴿عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾: أي ان أولادك منهم مسلمون ومنهم كافرون، فلا يصل الإمامة والنبوّة للظالم، لأنّ الامام انّما هو يمنع الظلم، فمن استرعى الذئب للغنم ظلم وفي الآية دليل على انّ الفاسق لا يصلح للإمامة، بل لا يقدّم للصلاة أيضاً وقالت الأشاعرة: أريد بالظالم، الكافر.

أقول: وفي تعبير الظالم بخصوص الكافر، تعنّت وتعسّف، لأنّ كون الكافر ظالماً لا يخرج الظالم عن إطلاقه فلا ينالهما فمن أين تعيّن التخصيص وفي الآية أيضاً دليل على عصمة الأنبياء من المعاصي قبل البعثة وبعد البعثة، لأنّه يصدّق عليه انّه كان ظالما ولو وقتاماً قال الطبرسي: فإن قيل انّما نفى أن يناله ظالم في حالة ظلمه، فإذا تاب لا يسمّى ظالما فيصحّ أن يناله، فالجواب انّ الظالم وان تاب فلا يخرج من أن تكون الآية قد تناولته في حال كونه ظالماً فإذا نفى سبحانه أن يناله فقد حكم عليه بانّه لا يناله، لأنّ الآية مطلقة غير مقيّدة بوقت دون وقت، فيجب أن تكون محمولة على الأوقات كلّها، فلا ينالها الظالم وان تاب فيما بعد[٢].

في كتاب السماء والعالم، بعض الحديث: قال رسول الله ﷺ: «**قال عيسى ابن مريم في الإنجيل: يا معشر الحواريين، خلق الله الليل لثلاث أمور وخلق النهار لسبع خصال، فمن مضى عليه الليل والنّهار وهو في غير هذه الخصال، خاصماه يوم القيامة خلق الله الليل لتسكن فيه العروق الفاترة التي أتعبتها في نهارك. وتستغفر لذنبك الذي كسبتها بالنهار ثمّ لا تعود فيه وتقنت فيه قنوت الصابرين، فثلث تنام**

١ـ سورة آل عمران: ٣٨.

٢ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٣٧٨.

وثلث تقوم بالعبادة وثلث تضرّع إلى ربّك وهذا ما خلق له الليل. وأمّا النّهار لتؤدي الصلاة المفروضة التي عنها تسئل وأن تبرّ بوالديك وأن تضرب في الأرض تبتغي لمعيشة يومك وان تعودوا فيه وليّاً لله وان تشيعوا جنازة كيما تنقلبوا مغفوراً لكم وأن تأمروا بمعروف وأن تنهوا عن منكر فهو ذروة الإيمان وقوام الدين وأن تجاهدوا في سبيل الله».

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾: أي واذكر يا محمّدﷺ وقت تصييرنا الكعبة ﴿مَثَابَةً﴾ معاذاً وملجأ ومآباً ومباءة ومرجعاً يتوبون إليه في كل عام. وفي الحديث: «**من خرج من مكة وهو ينوي الحج من قابل زيد في عمره ومن خرج من مكّة وهو لا ينوي العود إليها فقد قرب أجله**»[1] أو المعنى يحجّون إليه فيثابون عليه.

﴿وَأَمْنًا﴾: موضع أمن، لأنّ من أعاذ به لا يخاف على نفسه مادام فيه، فإنّ المشركين كانوا لا يتعرّضون لسكّان الحرم وكان الرجل منهم يرى قاتل أبيه فيه فلا يتعرّض له وهذا شيء توارثوه من دين إسماعيل، فبقوا عليه إلى أيام النبيﷺ أو المعنى يأمن حاجّه من عذاب الآخرة من حيث انّ الحج يجبّ ويقطع ويمحو ما وجب قبله من حقوق الله الغير الماليّة، مثل الزكاة وكفّارة اليمين وأما حقوق النّاس فلا يجبّها الحج لكن نقل صاحب تفسير روح البيان رواية والله عالم بصحتها وفسادها، قال:

ولكن روي انّ الله استجاب دعاء النبيﷺ ليلة المزدلفة، في الدماء

١ـ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ١٠٧، ح ١.٢.

والمظالم ونقل عن كتابهم «الكافي» و«تفسير الفاتحة» للقونوي ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ أي وقلنا: اتّخذوا على ارادة القول، لئلا يلزم عطف الإنشاء على الأخبار.

﴿مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾: أي موضع الصلاة و«من»: للتبعيض ومقام إبراهيم الحجر الذي فيه أثر قدميه او الموضع الذي كان فيه حين دعى الناس وقام عليه، أو حين رفع بناء البيت.

قال ابن عباس: الحج كلّه مقام إبراهيم[١] وقال عطاء: مقام إبراهيم، عرفة والمزدلفة والجمار[٢] وقال مجاهد: الحرم كلّه مقام إبراهيم[٣] وقال قتادة والحسن والسّدي: هو الصلاة عند مقام إبراهيم، أمرنا بالصلوة عنده بعد الطواف وهو المرويّ عن الصادقعليه السلام[٤] وهذا هو الظاهر، لأنّ مقام إبراهيم إذا اطلق، لا يفهم منه الّا المقام المعروف اليوم بمقام إبراهيم الّذي هو في المسجد الحرام وفي المقام دلالة على نبوّة إبراهيم، فإنّ الله جعل الحجر تحت قدميه كالطين حتّى دخلت قدماه فيه؟ قال أبو جعفرعليه السلام: **«نزلت ثلاثة أحجار من الجنة، مقام إبراهيمعليه السلام وحجر بني إسرائيل والحجر الأسود، استودعه الله إبراهيمعليه السلام حجراً ابيضا وكان لشدّ بياضاً من القراطيس فاسودّ من خطايا بني آدم»**[١]، وفي قصّة مهاجرة إسماعيل وهاجر: روي عن على بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن النضر بن سويد، عن هشام، عن الصادقعليه السلام قال: **«إنّ إبراهيم كان نازلاً في بادية الشام، فلمّا ولد له من هاجر، إسماعيل اغتمّت سارة من ذلك غمّاً شديداً، فكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمّه، فشكى إبراهيمعليه السلام إلى الله، فأوحى الله إليه: إنّما**

١ـ التبيان، ج ١، ص ٤٥٣.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٣٨٠.

١ـ المصدر السابق نفسه.

مثل المرأة مثل الضلع المعوج، ان تركته استمتعت به وان رمت ان تقيمه كسرته».

قال الشاعر:

هي الضلع العوجاء لست تقيمها الا انّ تقويم الضلوع انكسارها

«ثمّ أمره الله أن يخرج إسماعيل عليه السلام وهاجر عنها، فقال: أي ربّ إلى أي مكان؟ قال: إلى حرمي وأمني وأول بقعة خلقتها من أرضي وهي مكة، وأنزل عليه جبرئيل بالبراق فحمل إبراهيم وهاجر. وإسماعيل عليه السلام، فكان لا يمر إبراهيم عليه السلام بموضع حسن فيه شجر ونخل وزرع، الّا قال إبراهيم عليه السلام إلى هاهنا، فيقول: لا، أمض، حتّى وافى مكّة، فوضعه في موضع البيت وقد كان عاهد إبراهيم عليه السلام سارة، أن لا ينزل حتّى يرجع إليها، فلمّا نزلا في ذلك المكان، كان فيه شجر، فألقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها فاستظلّا تحته، فلمّا سرحهم إبراهيم عليه السلام ووضعهم وأراد الانصراف عنهم إلى سارة، قالت له هاجر: لم تدعنا في هذا الموضع الّذي ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع، فقال إبراهيم عليه السلام: أمرني ربّي ان أضعكم في هذا المكان، ثمّ انصرف عنهم، فلمّا بلغ (كدي) وهو جبل بذي طوى، التفت إليهم إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1] ثم مضى وبقيت هاجر وإسماعيل عليه السلام، فلمّا ارتفع النهار عطش إسماعيل عليه السلام، فقامت هاجر في الوادي، حتّى صارت في موضع المسعى، فنادت. هل في الوادي أنيس، فغاب عنها إسماعيل عليه السلام، فصعدت على الصفا ولمع لها السراب في الوادي، فظنّت انّه ماء، فنزلت في بطن الوادي وسعت، فلمّا بلغت المروة غاب عنها إسماعيل عليه السلام، ثمّ لمع لها السراب في ناحية الصفا، فهبطت إلى الوادي بطلب الماء فلمّا غاب عنها إسماعيل عليه السلام، عادت

١ـ سورة إبراهيم: ٣٧.

حتّى بلغت الصفا، فنظرت إلى إسماعيل عليه السلام حتّى فعلت ذلك سبع مرات، فلمّا كان في الشوط السابع وهي على المروة، نظرت إلى إسماعيل عليه السلام وقد ظهر الماء من تحت رجليه فعدت حتّى جمعت حوله رملاً، وإنّه كان سائلاً فزممته، بما جعلت حوله الرمل، فلذلك سمّيت زمزم.

وكانت جرهم نازلة بذي المجاز وعرفات فلمّا ظهر الماء بمكّة، عكفت الطيور والوحوش على الماء، فنظرت جرهم إلى تعكّف الطير على ذلك المكان فاتّبعوها حتّى نظرت إلى امرأة وصبيّ نزلوا في ذلك المكان وقد استظلّوا الشجر وقد ظهر لهم الماء، فقالت لهاجر: من أنت وما شان هذا الصبي؟ قالت: أنا أمّ ولد إبراهيم خليل الرحمن وهذا ابنه، أمره أن ينزلنا هذا الموضع، فقالوا لها: أتأذنين أن نكون بالقرب منكم؟

فقالت: حتّى أستأذن إبراهيم عليه السلام، فزارهما إبراهيم عليه السلام في اليوم الثالث، فاستأذنت هاجر من إبراهيم عليه السلام في الإذن لهم، فأذن إبراهيم عليه السلام، فنزلوا بالقرب منهم وضربوا خيامهم وأنست وإسماعيل عليه السلام بهم.

فلمّا زارهم إبراهيم عليه السلام في المرّة الثالثة ونظر إلى كثرة الناس حولهم، سرّ بذلك سروراً شديداً، فلمّا تحرّك إسماعيل عليه السلام وكانت جرهم قد وهبوا لإسماعيل كلّ واحد منهم شاتاً وشاتين وكانت هاجر وإسماعيل عليه السلام يعيشان بها.

فلمّا بلغ إسماعيل عليه السلام مبلغ الرجال، أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت، فقال: يا ربّ في أي بقعة؟ فقال في البقعة الّتي أنزلت على آدم عليه السلام القبّة، فأضاءت الحرم ولم تزل القبّة الّتي أنزلها الله على آدم عليه السلام قائمة، حتّى كان أيّام الطوفان زمن نوح عليه السلام، فلمّا غرقت الدنيا رفع الله تلك القبّة وغرقت الدنيا ولم تغرق مكّة فسمّي البيت العتيق لأنّه أعتق من الغرق.

وبعث الله جبرئيل عليه السلام على إبراهيم عليه السلام فخطّ له موضع البيت وكان الحجر الّذي أنزله الله على آدم عليه السلام أشدّ بياضاً من الثلج كما ذكرنا فبنى إبراهيم عليه السلام البيت ونقل إسماعيل عليه السلام الحجر من ذي طوى فرفعه في السماء تسعة أذرع.

ثمّ دلّه جبرئيل عليه السلام على موضع الحجر في الأرض، فاستخرجه إبراهيم ووضعه في الموضع الّذي هو فيه وجعل له بابين، باباً إلى المشرق وباباً إلى المغرب، فالباب الّذي إلى المغرب يسمّى المستجار، ثمّ ألقى عليه الشيح والإذخر.

فلمّا تمّ البناء نزل جبرئيل يوم التروية، فقال: قم يا إبراهيم فادنوا من الماء لأنّه لم يكن بمنى وعرفات ماء، فسمّيت التروية لذلك، ثمّ أخرجه إلى منى، فبات بها، ففعل بها ما فعل آدم».[1]

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾ أي أمرناهما أمراً مؤكّداً ووصّينا إليهما، فإنّ العهد قد يكون بمعنى الأمر والوصيّة يقال عهد إليه: أي أمره ووصّاه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾[1].

وقيل: سمّي إسماعيل لأنّ إبراهيم عليه السلام كان يدعو إلى الله أن يرزقه ولدا ويقول: اسمع يا إيل و«إيل» هو الله، فلمّا رزق سمّاه به.[2]

﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ بأن طهّراه عن الأوثان والأنجاس والمراد من ﴿طَهِّرَا﴾ أي أقرّاه على طهارته واحفظاه من أن يصيب حوله شيء منها، ويقرّبون إليه المشركون وهذا كقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[3] فإنّهن

١ـ تفسير القمي، ج ١، ص ٦٠، وذكره الطبرسي في تفسيره، ج ١، ص ٣٨٨.

١ـ سورة يس: ٦٠.

٢ـ انظر: تفسير القرطبي: ج ٢، ص ١٢٦.

٣ـ سورة البقرة: ٢٥.

لم يطهّرن من نجس، بل خلقهنّ طاهرات، كقولك للخيّاط: وسّع كمّه، والكمّ ما كان ضيّقا حتّى يوسّعه، بل المراد اصنعه ابتداء واسع الكمّ.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ الزائرين حوله ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾ المجاورين الّذين عكفوا وأقاموا عنده، وهذا في المتوطّنين والأوّل في القادمين للزيارة والطواف ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي المصلّين جمع راكع وساجد. ولتقارب الركوع والسجود ذاتاً وزماناً ترك العاطف بين موصوفيهما.

والجلوس في المسجد الحرام ناظراً إلى الكعبة من جملة العبادات المرضيّة.

قال النبيّ ﷺ: **«إنّ لله تعالى في كلّ يوم عشرين ومائة رحمة تنزل على هذا البيت ستّون للطائفين وأربعون للمصلّين وعشرون للناظرين»**.[1]

واعلم: أنّه لمّا قال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ دخل فيه بالمعنى جميع بيوته، فيكون حكمها حكمه في التطهير، وخصّ الكعبة بالذكر لأنّه لم يكن في ذلك الوقت هناك غيره. وفي «روح البيان»: في الحديث: قال النبيّ ﷺ: **«أوحي إليّ: يا أخا المنذرين، يا أخا المرسلين، أنذر قومك أن لا يدخلوا بيتاً من بيوتي إلّا بقلوب سليمة وألسنة صادقة وأيدي نقيّة وفروج طاهرة، ولا يدخلوا بيتاً من بيوتي ما دام لأحد عندهم مظلمة فإنّي ألعنه مادام قائماً بين يديّ حتّى يردّ تلك الظلامة إلى أهلها، فأكون سمعه الّذي يسمع به وبصره الّذي يبصر به ويكون من أوليائي وأصفيائي ويكون جاري مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين»**.[1]

وكلّ أمر له ضدّ مثل أنّ المظلمة عظيمة، وردّها أعظم منها.

ثمّ اسع في ردّ مظالم الخلق قال ﷺ: **«يا عليّ ردّ درهم مظلمة أفضل عند**

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٣٨٣.

١ـ تفسير القرطبي: ج ٢، ص ١١٥.

الله من أربعين حجّة مقبولة أو أربعين ألف».

والانقطاع في الخلوة ودوام الذكر إلى أن ينخرق من روزنة الغيب نور، وذلك نور اليقين، فتكون بعد حصول ذلك النور مؤمناً حقّا كما قال عليّ عليه السلام لحارث: «**كيف أصبحت يا حارث؟**» قال: أصبحت بالله مؤمنا حقّا، فقال عليه السلام: «**إنّ لكلّ حقّ حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**» فقال: عرفت عزّ الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها وكأنّي بأهل الجنّة في الجنّة يتزاورون، وبأهل النار يتعاوون، وكأنّي بعرش ربّي بارز، فقال عليه السلام: «**مؤمن نوّر الله قلبه، الآن عرفت فالزم. والقلب المؤمن عرش الرحمن فلا بدّ من تصفيته حتّى تعكف عنده الأنوار الإلهيّة وتنزل عليه السكينة والوقار فعند وصول العبد إلى هذه الرتبة فهو من الركّع السجّد، وناجى الله بسرّه فيكون من أهل اليقين».**[1]

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ المراد من الآية دعاء إبراهيم عليه السلام للمؤمنين من سكّان مكّة بالأمن والسعة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ المكان وهو الحرم ﴿بَلَدًا﴾ ذا أمن يأمن أهله من المخاوف والزلازل والخسف والجنون ونحو ذلك من المثلات الّتي تحلّ بالبلاد، و«آمن» من باب النسب، مثل لابن وتامر، وهذا الدعاء كان في أوّل ما قدم إبراهيم عليه السلام مكّة لمّا قالت له هاجر: إلى من تكلنا في هذا البلقع؟

﴿ءَامِنًا﴾ مأموناً، قال ابن عبّاس: يريد محرّماً، لا يصاد طيرة ولا يقطع

١ـ مشكوة الأنوار، ص ٤٦.

شجرة ولا يؤذي جاره، وإلى هذا المعنى يؤول ما روي عن الصادق(ع)، من قوله: «**من دخل المسجد مستجيراً بالله فهو آمن من سخط الله، ومن دخله من الوحش والطير كان آمنا من أن يهاج عليه حتّى يخرج من الحرم**».[١]

قال رسول الله(ص) يوم فتح مكّة: «**إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحلّ لأحد قبلي ولا تحلّ لأحد بعدي ولم تحلّ لي إلّا ساعة من النهار**».[٢]

وهذه الرواية وأمثالها تدلّ على أنّ الحرم كان آمنا قبل دعوة إبراهيم(ع) وقد تأكّدت حرمته بدعائه.

وقيل: إنّما صار حرماً بدعائه وكان قبل ذلك كسائر البلاد واستدلّ بصحّة هذا القول الثاني بأنّ النبي(ص) قال: «**إنّ إبراهيم(ع) حرّم مكّة وإنّي حرّمت المدينة**».

وقيل: كانت مكّة حراماً قبل الدعوة بوجه غير الوجه الّذي صارت به حراماً بعد الدعوة، فالأوّل: بمنع الله إيّاها من الخسف والانتفاك، كما لحق ذلك غيرها من البلاد. وبما جعل في النفوس لها من الهيبة والعظمة. والثاني: بالأمر بتعظيمه على ألسنة الرسل وبالمناسك وآداب الحجّ، فأجابه الله إلى ما سأل.

وقيل: إنّه سأل الأمرين على أن يديمها وإن كان أحدهما مستأنفاً والآخر قد كان.[١]

﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والمأكولات ممّا يخرج من الأرض،

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٣٨٤.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

١ـ المصدر السابق نفسه.

فاستجاب له في ذلك ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ بدل من ﴿أَهْلَهُۥ﴾ أي وأرزق المؤمنين خاصّة ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي قال الله: فقد استجيب دعوتك فيمن آمن، ومن كفر ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ أي أمدّ له ليتناول من لذّات الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾ تمتيعاً قليلاً وزماناً قصيراً، وهو مدّة حياته.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ ولا شيء أشدّ من عذاب النار، واضطرارهم وقوعهم فيها بحيث يتعذّر عليهم التخلّص منه، لأنّهم ليسوا مختارين ولا يملكون الامتناع منه ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمخصوص بالذم محذوف أي بئس المرجع والمقام المصير إلى النار.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ الرفع والإصعاد والإعلاء نظائر كما أنّ القواعد والأساس والأركان نظائر، وأصلها الثبوت والاستقرار، وقاعدة البناء أساسه الّذي بني عليه.

بيّن سبحانه بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت. واذكر يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وقت رفع إبراهيم أساس البيت الّتي كانت قبل ذلك لأنّ أوّل من حجّ البيت آدم عليه السلام.

قال الصادق عليه السلام: **«وكانت البيت درّة بيضاء، فرفعه الله إلى السماء وبقي أساسه وكان يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه أبداً»** قاله العيّاشيّ بإسناده.(١)

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: **«إنّ أوّل شيء نزل من السماء إلى الأرض لهو البيت الّذي بمكّة أنزله الله ياقوتة حمراء، ففسق قوم نوح في الأرض فرفعه الله»**.(٢)

١ـ الكافي، ج ٤، ص ١٨٩. وأنظر: تفسير العياشي، ج ١، ص ٦٠.

٢ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٣٨٧.

وكان يرفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أساس الكعبة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ وفي قراءة عبد الله بن مسعود بزيادة «و يقولان».

وقيل: إنّ إبراهيم عليه السلام وحده رفع القواعد وكان إسماعيل عليه السلام صغيراً في وقت رفعها، قال الطبرسيّ: وهو قول شاذّ غير مقبول، والصحيح: كان إبراهيم عليه السلام يبني وإسماعيل عليه السلام يناوله الحجر[1]، وإنّما عبّر بالمستقبل إشعاراً في البيان بلفظ الحال، كأنّه يراه المخاطب على وجه العيان والمشاهدة والمراد برفع الأساس البناء عليه، لأنّ البناء بنقله من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع.

وكان لإبراهيم عليه السلام أربعة بنين: إسماعيل وهو المذكور وإسحاق ومدين ومدائن، وقيل: ثمانية: زمران ويقتان ويشبق ونوح والبناء الّذي بنى إبراهيم عليه السلام كان على الأساس الأول حسبما ذكر في الحديث.

وكان البناء الأوّل، بناء آدم عليه السلام بإعانة الملائكة من خمسة أجبل: طور سيناء، طور زيتاء، طور لبنان، طور الجودي، طور حراء.

قال ابن عبّاس: حجّ آدم عليه السلام أربعين حجّة من الهند إلى مكّة على رجليه[1]، فبقي البيت يطوف به هو والمؤمنون من ولده، إلى أيّام الطوفان، فرفعه الله في تلك الأيّام إلى السماء الرابعة، يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك وبعث الله جبرئيل حتّى خبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس، صيانة له من الغرق.

وكان موضع البيت خالياً إلى زمن إبراهيم عليه السلام ثمّ إنّ الله أمر إبراهيم عليه السلام ببناء البيت، فسأل الله أن يبين له موضعه، فبعث الله جبرئيل فخطّ له

١ـ المصدر السابق نفسه.

١ـ مواهب الجليل، الحطاب الرعيني، ج ٣، ص ٥١٥.

موضع البيت فرفع البيت إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حتّى انتهى إلى موضع الحجر الأسود، فقال لابنه: يا بنيّ ائتني بحجر ابيض حسن يكون للناس علماً، فأتاه بحجر، فقال عليه السلام: ائتني بحجر أحسن من هذا، فمضى إسماعيل عليه السلام يطلبه، فصاح أبو قبيس: يا إبراهيم إنّ لك عندي وديعة فخذها فإذا هو بحجر أبيض من ياقوت الجنّة، كان آدم عليه السلام قد نزل به من الجنّة، أو أنزله الله قبل ذلك، فأخذ إبراهيم عليه السلام الحجر، فوضعه مكانه.

فلما رفع القواعد جاءت سحابة مربّعة فيها رأس، فنادت: أن ارفعا علي تربيعي، فهذا بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.[1]

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ قائلين: يا ربّ تقبّل منّا الطاعات والدعاء. والفرق بين التقبّل والقبول أنّ التقبّل على بناء التكلّف ويطلق حيث يكون العمل ناقصاً لا يستحقّ أن يقبل إلّا على طريق التفضّل والكرم ولفظ القبول لا دلالة فيه على هذا المعنى ولذلك قالا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ﴾ اعترافاً منهما بالقصور في العمل خضوعاً ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع المسموعات وكلّ المعلومات.

رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي مخلصين ومنقادين بالرضاء لكلّ ما آمرت وقدّرت، فإنّهما وإن كانا مستسلمين في زمان صدور هذا الدعاء، لكنّهما طلبا الزيادة في الخلوص.

١ـ انظر: تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٢٢.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ أي واجعل بعض ذرّيّتنا جماعة مسلمة وخصّاً البعض من ذرّيّتهما لما علما أنّ منهم محسناً وظالما، وطريق علمهما قوله تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي بصرّنا وأعلمنا مواضع نسكنا، أو أعمال الحجّ من قبيل المواقيت والموقف وموضع الطواف والمسعى وغيرها. والنسك كلّ ما يتعبّد به إلى الله، لكنّه شاع في أعمال الحجّ، وأصل النسيكة شاة كانوا يذبحونها في الجاهليّة.

﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآ﴾ أي ارجع إلينا بالمغفرة والرحمة، أو تكلّما بهذه الكلمة على وجه التسبيح والانقطاع والخضوع إلى الله وقيل: إنّهما سالا التوبة على ظلمة ذرّيّتهما ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ القابل للتوبة والكثير القبول لها، مرّة بعد أخرى المنعم عليهم.

رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ الضمير في قوله: ﴿فِيهِمۡ﴾ راجع إلى الأمّة المسلمة والمراد بقوله: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ هو نبيّنا محمّدﷺ روي أنه أجيب بأنّه قد استجيب لك وهو في آخر الزمان وفي الحديث: قال النبيﷺ: **«إنّي عند الله مكتوب خاتم النبيّين وإنّ آدم لمجدل في طينته[1] ـ أي لملقى على الأرض ـ وسأخبركم بأوّل أمري: أنا دعوة أبي إبراهيمعليه السلام وبشارة عيسىعليه السلام ورؤيا أمّي الّتي رأت حين وضعتني وقد خرج منها نور أضاءت لها**

١ـ سورة البقرة: ١١٨.

١ـ الفايق في غريب الحديث، الزمخشري، ج ١، ص ١٦٩.

منه قصور الشام».[1]

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ ويبلّغهم ما يوحى إليه من دلائل التوحيد والشرائع ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وما يكمل به نفوسهم، وكلّ كلمة دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهّرهم عن دنس الشرك والمعاصي، ثمّ بعد الدعاء ختم بالثناء على الله بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الّذي لا يفعل إلّا ما تقتضيه الحكمة.

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ الرغبة: المحبّة والميل لما فيه للنفس منفعة «من» استفهاميّة، قصد بها التقريع والإنكار، ورغب في الشيء: إذا أراده، ورغب عنه: إذا تركه.

أي لا يترك دين إبراهيم عليه السلام أحد ولا يعرض عن شريعته وطريقته ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ وجعلها ذليلاً ومهينا، قيل: إنّ عبد الله سلام، دعا ابني أخيه سلمة ومهاجر إلى الإسلام، وقال لهما: قد علمتما أنّ الله تعالى قال في التوراة: (إنّي باعث من ولد إسماعيل نبيّاً اسمه أحمد صلى الله عليه وآله، فمن آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون) فأسلم سلمة ومهاجر، فأنزل الله الآية.[1]

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ من بين سائر الخلق بالنبوّة والحكمة ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من المشهود لهم بالثبات والصلاح، ومن

١ـ انظر: الخصال، ص ١٥٥. ومسند أحمد بن حنبل، ج ٥، ص ٦٢.

١ـ تفسير الجلالين، ص ٥٧.

كان كذلك كان حقيقاً بالاتّباع. ولا يرغب عن ملّته إلّا سفيه يفعل أفعال السفهاء بسوء اختياره.

﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف لاصطفيناه. في وقت قال: ﴿لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ وأخلص دينك لربّك واستقم على الإسلام وذلك حين خرج من الغار ونظر إلى الكوكب والقمر والشمس، فألهمه الله الإخلاص ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأخلصت ديني له.

قال أهل التفسير: إنّ إبراهيمﷺ ولد في زمن النمرود بن كنعان[1]، وكان النمرود أوّل من وضع التاج على رأسه[2] ودعا الناس إلى عبادته، وكان له كهّان ومنجّمون، فقالوا له: إنّه يولد في بلدك في هذه السنة غلام يغيّر دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه، قالوا: فأمر بذبح كلّ غلام يولد في ناحيته في تلك السنة، فلمّا دنت ولادة امّ إبراهيمﷺ وأخذها المخاض خرجت هاربة، مخافة أن يطّلع عليها فيقتل ولدها، فولدته في نهر يابس، ثمّ لفّته في خرقة ووضعته في حلفاء، ثمّ رجعت وأخبرت زوجها بأنّها ولدت وأنّ الولد في موضع كذا، فانطلق أبوه وأخذه من ذلك المكان وحفر له سرباً في الأرض كالمغارة، فواراه فيه وسدّ عليه بابه بصخرة مخافة السباع.

وكانت أمّه تختلف إليه فترضعه. وكان اليوم على إبراهيمﷺ في الشباب والقوّة كالشهر في حقّ سائر الصبيان، والشهر كالسنة، فلم يمكث إبراهيمﷺ في المغارة إلّا خمسة عشر شهراً، أو سبع سنين، أو أكثر.

فلمّا شبّ إبراهيمﷺ في السرب، قال لأمّه: من ربّي؟ قالت: أنا، قال: فمن ربّك؟ قالت: أبوك، قال: فمن ربّ أبي؟ قالت: اسكت، فأتى إبراهيمﷺ

١ـ البداية، النهاية، ج ١، ص ٢٠٠.

٢ـ تاريخ ابن خلدون، ق ١، ج ٢، ص ٧٠.

أباه آزر وقال: يا أباه من ربّي؟ وكان آزر، عمّه ويطلق الأب على العمّ تغليباً، لأنّ العمّ أب، والخالة امّ، لإنخراطهما في سلك واحد وهو الأخوة، لا تفاوت في أغلب الأمور بينهما[1]، كما قال النبيّ ﷺ: «عمّ الرجل صنو أبيه ولا تفاوت بين صنوي النخلة»[2].

وبالجملة، لمّا قال إبراهيم عليه السلام لآزر: من ربّي؟ قال آزر: أمّك، قال: فمن ربّ امّي؟ قال: أنا، قال: فمن ربّك؟ قال: النمرود، قال: فمن ربّ النمرود؟ فلطمه لطمة وقال له: اسكت.

فلمّا جنّ عليه الليل، دنا إبراهيم عليه السلام من السرب، فنظر من خلال الصخرة، فرأى السماء وما فيها من الكواكب، فتفكّر في خلق السماوات، فقال: إنّ ربّي الّذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني مالي إله غيره، ثمّ نظر في السماء، فرأى كوكبا، قال: هذا ربّي، ثمّ أتبعه بصره، ينظر إليه حتّى غاب، فلمّا أفل قال: لا احبّ الآفلين، ثمّ رأى الشمس والقمر، فقال فيهما كما قال في حقّ الكواكب.

واختلف في هذا البيان، فبعض أجراه على الظاهر وقالوا: كان إبراهيم عليه السلام في ذلك الوقت مسترشداً، طالباً لمعرفة التوحيد وكان ذلك الأمر في حال طفوليّته قبل أن يجري عليه القلم، فلم يكن كفراً ولم يضرّه ذلك في الاستدلال.

وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا: كيف يتصوّر من مثله أن يرى كوكباً ويقول: هذا ربّي معتقدا؟ وإنّما قال ذلك في مقام الاحتجاج على الخصم، ولإثبات التوحيد وإلزام الطرف وكان مستسلماً لربّه الكريم وعلى الصراط المستقيم.

١ـ انظر: زاد المسير، لابن الجوزي، ج ٣، ص ٥٠.

٢ـ الأمالي، للشيخ الطوسي، ص ٢٤٩.

في كتاب «السماء والعالم»، في النجوم، بإسناده عن الكلينيّ في كتاب تعبير الرؤيا، عن محمّد بن منام، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**قوم يقولون: النجوم أصحّ من الرؤيا، وذلك كان صحيحاً حتّى لم يردّ الشمس على يوشع بن نون وعليّ بن أبي طالب عليه السلام فلمّا ردّ الله الشمس عليهما، ضلّ فيها علماء النجوم**».[1]

في «الكافي»، عن هشام الخفّاف، قال: قال الصادق عليه السلام: «**يا هشام كيف نظرك بالنجوم؟**» قلت: ليس بالعراق أحد أبصر منّي في النجوم، فقال عليه السلام: «**كيف دوران الفلك عندكم؟**» قال هشام: فأخذت قلنسوتي من رأسي فأدرتها[2]، فقال عليه السلام: «**إن كان كذلك فما بال بنات النعش والجدي والفرقدين لا يرون يدورون يوماً من الدهر في القبلة؟**»[1] ثمّ قال عليه السلام: «**يتقابلان ملكان للحرب وحاسبان لهما، فيحسب هذا لصاحبه بالظفر، ثمّ يلتقيان فيهزم أحدهما الآخر، أو يجيء ملك آخر، فيهزمهما، فأين كانت النجوم؟**» ثمّ قال عليه السلام: «**إنّ أصل الحساب في النجوم حقّ ولكن لا يعلم ذلك إلّا من علم مواليد الخلق كلّهم**».[2]

قال المجلسيّ: وبالجملة من أدلّ الدلائل على بطلان قول المنجّمين أنّا قد علمنا أنّ من جملة معجزات الأنبياء الإخبار عن الغيوب وعدّ ذلك خارقاً للعادات، كإحياء الميّت وإبراء الأكمه والأبرص ولو كان العلم بما يحدث طريقاً نجوميّاً، لم يكن ما ذكرناه معجزاً ولا خارقاً للعادة وكيف يشتبه على مسلم بطلان أحكام النجوم وقد أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على تكذيب المنجّمين والشهادة بفساد مذاهبهم؟ ومعلوم من دين الرسول صلى الله عليه وآله، ضرورة

١ـ بحارالأنوار، ج ٥٨، ص ٢٤٢، ح ٢٢، نقلاً عن فرج المهموم، ص ٨٧.
٢ـ كأنه زعم أن حركة الفلك في جميع المواضع دحرية.
١ـ الكافي، ج ٨، ص ٣٥١، ح ٥٤٩.
٢ـ فرج الهموم، ص ٨٨.

التكذيب بما يدّعيه المنجّمون.[1] وفي الروايات عنهﷺ في ذلك ما لا يحصى فأمّا ما أصابتهم في الإخبار عن الكسوف والخسوف وأمثالهما فالفرق بينها وسائر ما يخبرون به من تأثيرات الكواكب أنّ الكسوفات والاقترانات والانفصالات طريقه الحساب وسير الكواكب، وله أصول صحيحة وقواعد سديدة، وليس كذلك ما يدّعونه من تأثيرات الكواكب في الخير والشرّ والنفع والضرر، فيقع فيها خطاء وكذب كثير.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[2] استشكل بعض في هذه الآية بوجهين: أحدهما أنّه حكى عن بيّنة النظر في النجوم مع أنّه ممنوع، والآخر قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وذلك كذب.

وأجاب السيّد المرتضى في كتاب تنزيه الأنبياء بوجوه.

الأوّل أنّ إبراهيمعليه السلام كانت به علّة تأتيه في أوقات مخصوصة، فلمّا دعوه إلى عيدهم بالخروج معهم نظر إلى النجوم ليعرف نوبة علّته، فقال: إنّي سقيم، أي شارفت الدخول فيها والعرب تسمّي الشارف للشيء الداخل فيه، كما قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.[1]

فلو قيل: على هذا يكون يقول: فنظر إلى النجوم لأنّ لفظة «في» لا تستعمل إلّا فيمن ينظر كما ينظر المنجّم فالجواب: إنّ حروف الصفات يقوم ويستعمل بعضها مقام بعض، مثل قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[2] وإنّما أراد: على جذوع النخل[3] ويجوز أن يكون معناه: أنّه شخص ببصره

١ـ رسائل المرتضى، ج ٢، ص ٣١٠.

٢ـ سورة الصافات: ٨٩ـ ٨٨.

١ـ سورة الزمر: ٣٠.

٢ـ سورة طه: ٧١.

٣ـ تنزيه الأنبياء، ص ٤٥.

إلى السماء، كما يفعل المتفكّر والمتأمّل استعانة على فكره وعذره في الجواب.

قال العلّامة المجلسيّ: ويمكن أن يقال: إنّ حرمة النظر في علم النجوم على الأنبياء والأئمّة العالمين بها حقّ العلم غير مسلّم وإنّما يحرم على غيرهم لعدم إحاطتهم بهذا العلم.[١]

ويؤيّد هذا الكلام ما في كتاب «الاحتجاج» عن أبان بن تغلب، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ دخل عليه رجل من أهل اليمن، فسلّم عليه، فردّ عليه، فقال له: **«مرحباً يا سعد»**، فقال له الرّجل: بهذا الاسم سمّتني أمّي، وما أقلّ من يعرفني به! فقال عليه السلام: **«صدقت يا سعد المولى»**، فقال له الرجل: بهذا كنت ألقّب، قال: **«لا خير في اللقب قال الله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾»**[١] ثمّ قال عليه السلام: **«ما صناعتك يا سعد»**، قال: أنا من أهل بيت ننظر في النجوم ولا يقال: إنّ باليمن أحداً أعلم بالنجوم منّا. فقال عليه السلام: **«فكم ضوء المشتري على ضوء القمر درجة؟»** فقال اليمانيّ: لا أدري: فقال عليه السلام: **«فكم ضوء المشتري على ضوء عطارد درجة؟»** فقال اليمانيّ: لا أدري. فقال الصادق عليه السلام: **«فما اسم النجم الّذي إذا طلع هاجت الإبل؟»** فقال اليمانيّ: لا أدري. قال عليه السلام: **«فما اسم النجم الّذي إذا طلع هاجت البقر؟»** قال: لا أدري، قال عليه السلام: **«فما اسم النجم الّذي إذا طلع هاجت الكلاب؟»** فقال لا أدري. قال عليه السلام: **«فما زحل عندكم في النجوم؟»** قال اليمانيّ: نجم نحس، فقال عليه السلام: **«لا تقل هذا فإنّه نجم أمير المؤمنين وهو نجم الأوصياء وهو النجم الثاقب الّذي ذكره الله في القرآن»**، فقال اليمانيّ: فما معنى الثاقب، فقال عليه السلام: **«إنّ مطلعه في السماء السابعة وإنّه ثقب بضوئه حتّى أضاء في السماء الدنيا»** والحديث

١ـ بحارالأنوار، ج ٥٥، ص ٢١٩.

١ـ سورة الحجرات: ١١.

طويل إلى أن يقولعليه السلام: **«وإنّ عالم المدينة** ـ والمراد نفسه النفيسة ـ **لا يقفو الأثر»**[1]، أي لا يحتاج في علمه بالحوادث إلى تلك الأمور **«بل يعلم في لحظة واحدة بما أعطاه الله من العلم ما يقع فيما يطلع عليه الشمس وتقطعه واثنا عشر عالماً من أصناف الخلق ومنها جابلقا وجابرسا»**[2]، يعني إذا أراد يعلم ما يحدث في اللحظة الواحدة، في جميع تلك العوالم.

وفي كتاب «الاحتجاج» عن سعيد بن جبير: قال: استقبل أمير المؤمنين دهقان من دهاقين الفرس، فقال له بعد التهنئة: يا أمير المؤمنين، تناحست النجوم الطالعات وإذا كان مثل هذا اليوم وجب على الحكيم الاختفاء ويومك هذا يوم صعب، قد انقلب فيه كوكبان وانقدح من برجك النيران وليس لك الحرب بمكان، فقال أمير المؤمنينعليه السلام: **«يا دهقان المنبئ بالآثار المحذّر من الأقدار، ما قصّة صاحب الميزان وقصّة صاحب السرطان؟ وكم بين السراري والذراري؟»** قال الدهقان سأنظر، وأومأ بيده إلى كمّ وأخرج أسطرلابا، ينظر فيه، فتبسّمعليه السلام، فقال: **«أتدري ما حدث البارحة وقع [خسف] بالصين وانفرج برج ماجين وسقط سور سرانديب وانهزم بطريق الروم بإرمينة وفقد ديّان اليهود بإيلة وهاج النمل بوادي النمل وهلك ملك إفريقية، أكنت عالماً بهذا؟»** قال: لا يا أمير المؤمنين، فقالعليه السلام: **«البارحة سعد سبعون ألف عالم وولد في كلّ عالم سبعون ألفاً، والليلة يموت مثلهم وهذا منهم»** (و أومأ بيده إلى سعد بن سعدة الحارثيّ وكان جاسوساً للخوارج في عسكرهعليه السلام فظنّ الملعون أنّه يقول: خذوه، فأخذ بنفسه، فمات) فخرّ الدهقان ساجداً.[1]

١ـ الاحتجاج، ج ٢، ص ١٠٢.

٢ـ بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ٢٢١.

١ـ الاحتجاج، ج ١، ص ٣٥٥.

في كتاب «الدرّ المنثور»: قيل: السبب في كراهة علم النجوم لسبب الاختلاف الّذي وقع فيها، كما نقله عطاء، فحينئذٍ لا يمكنهم الحساب والحكم الواقعيّ على الكواكب وحركاتها فيكذبون أو من جهة أنّه يصير سبباً لترك الأمور الضروريّة بسبب علمهم بما يترتّب على حسابهم.

وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

﴿وَوَصَّىٰ﴾ التوصية: تقديم ما فيه خير وصلاح من قول أو فعل إلى الغير، دينيّاً أو دنيويّاً ﴿بِهَآ﴾ أي بالملّة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾[1] ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ أي أولاده المذكورين ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ عطف على إبراهيم، أي وصّي يعقوب أيضاً بنيه بهذه الوصيّة. ويعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم، ﴿بَنِيهِ﴾ الاثني عشر: روبيل وشمعون ولاوي ويهودا ويستسوخور وزبولون ونوانا ونفتونا وكوزا واوشير وبنيامين ويوسف. وعاش يعقوب مائة وسبعاً وأربعين سنة بأرض مصر وأوصى أن يحمل إلى الأرض المقدّسة ويدفن عند أبيه إسحاق، فحمله يوسف فدفنه عنده ﴿يَـٰبَنِىَّ﴾ على إضمار القول عند البصريّين، تقديره: وصّى وقال: يا بنيّ وذلك جملة والجملة لا يقع مفعولاً إلّا لأفعال القلوب أو فعل القول عندهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي دين الإسلام ولا دين عنده غيره ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ أي لا يكون يصادفكم الموت ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ومخلصون بالتوحيد وذلك حين دخل يعقوب مصر، فرأى أهلها يعبدون الأصنام، فأوصى بنيه بأن يثبتوا على الإسلام، لأنّ الإنسان إذا أنس وعاشر بأهل الشرّ

١ـ سورة البقرة: ١٣٠.

يخاف عليه أن يتخلّق بأخلاقهم.

كتب بعض العلماء إلى تلميذ له: أمّا بعد، فإنّك قد أصبحت تأمل الدنيا بطول عمرك وتتمنّى على الله الأماني بسوء فعلك، وإنّما تضرب حديداً بارداً، والسلام.

وحسن الظنّ بالله إنّما يعتبر بعد إصلاح الحال بالأخلاق والأعمال واليقين.

والقائلون بالطبائع، هم الّذين يسندون الأفعال إلى مجرّد الطبائع وهو قول سخيف وكفر وباطل فإنّ الطبيعة قوّة جسمانيّة، وكلّ جسم محدث فكلّ قوّة جسمانيّة، وكلّ جسم محدث فكلّ قوّة حالّة فهي محدثة تفتقر إلى محدث غير طبيعيّة وإلّا لزم التسلسل، فلا بدّ من القول بالصانع.

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ﴾ نزلت الآية حين قالت اليهود للنبيّ ﷺ: ألست تعلم أنّ يعقوب أوصى بنيه باليهوديّة يوم مات؟ فأجاب الله هل كنتم حاضرين حين احتضر يعقوب وقال لبنيه ما قال؟ أي ما كنتم حضورا وقت موته لمّا قال ﴿لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي أيّ شيء تعبدونه؟ فلا تدّعوا وتنسبوا إلى رسلي الأباطيل من اليهوديّة والنصرانيّة، فإنّي ما بعثتهم إلّا بالحنيفيّة، وإنّما قال عليه السلام:

﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: «من تعبدون» لأنّ الناس كانوا يعبدون الأصنام.

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ أي

نعبد الإله المتّفق على وجوده، وجعل إسماعيل وهو عمّه من جملة الآباء، تغليباً للأب والجدّ، فثبت بهذا أنّ العمّ يطلق على الأب كما أشرنا إليه في قصّة آزر ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بدل من ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبد.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ تلك إشارة إلى الأمّة المذكورة الّتي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما أي جماعة قد مضت بالموت وأصله: صارت إلى الخلاء وهي الأرض الّتي لا أنيس بها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي لها كسبها لا كسب غيرها ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ لا كسب غيركم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تؤاخذون بسيّئات الأمّة الماضية.

وحاصل المعنى أنّ اليهود لمّا كانوا مفتخرين بأوائلهم فردّهم الله بأنّهم لا ينفعهم انتسابهم إليهم وإنّما ينفعهم اتّباعهم في الأعمال، فإنّ أحداً لا ينفعه كسب غيره، كما قال النبي ﷺ: **«من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»**.[1]

قال الشاعر:

و ما ينفع الأصل مـن هاشـم ... إذا كانت النفس من باهلـة[2]

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ النزول: عن ابن عبّاس أنّ جماعة

١ـ مسند الشهاب، للقضاعي، ج ١، ص ٢٤٥. وأنظر: أحكام القرآن، ج ٣، ص ٤٦٠.

٢ـ أورده الثعالبي في ثمار القلوب، ص ١١٩ والذهبي في مسير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٤١١.

من اليهود وجماعة من النصارى من أهل نجران خاصموا المسلمين، كلّ فرقة منهم تزعم أنّها أحقّ بدين الله من غيرها، فقالت اليهود: نبيّنا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وقالت النصارى:

نبيّنا عيسى أفضل الأنبياء وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وكلّ فريق منهما قالوا للمؤمنين: كونوا على ديننا، فنزلت الآية.[1]

﴿وَقَالُوا﴾ أي رؤساء اليهود ورؤساء النصارى للمسلمين: كونوا على ديننا ﴿تَهْتَدُوا﴾ جواب للأمر، أي: إن تكونوا كذلك، تجدوا الهداية ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﷺ لهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي أهل ملّته ودينه على حذف المضاف، أي بل نتّبع ملّته ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كلّ دين باطل إلى دين الحقّ وهو حال من إبراهيم، وتذكّر ﴿حَنِيفًا﴾ بتأويل الملّة بالدين ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بهم بالشرك، بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ و﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾.[1]

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

﴿قُولُوا﴾ أيها المؤمنون: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ وحده ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي بالقرآن الّذي أنزل على نبيّنا، والإنزال إليه إنزال إلى أمّته ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ من صحفه العشر، وما أنزل إلى ﴿إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وإلى ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ والمراد هنا أولاد يعقوب، والسبط: أصل شجرة واحدة لها أغصان كثيرة، وسبط الرجل: ولد ولده، والأسباط من بني

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٠٣. وأنظر: بحار الأنوار، ج ٩،ص ٦٨.

١ـ سورة التوبة: ٣٠.

إسرائيل كالقبائل من العرب والشعوب من العجم، والصحف وإن كانت نازلة إلى إبراهيم، لكنّ من بعده حيث كانوا متعبّدين بتفاصيلها جعلت منزلة إليهم، كما جعل القرآن منزلاً إلينا.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾ جملة المذكورين منهم وغير المذكورين ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ في موضع الحال من العائد المحذوف والتقدير: وما أوتيه النبيّون منزلاً عليهم من ربّهم.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ كاليهود فنؤمن ببعض ونكفر ببعض لأنّه اتّحدوا في الأصول وكلّهم على كلمة واحدة في الأصول ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي والحال: أنّا مخلصون لله ومذعنون.

فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أخبر الله أنّ هؤلاء الكفّار متى آمنوا على حدّ ما آمن المؤمنون به ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ إلي طريق الجنّة وسلكوا طريق الاستقامة وحصل بينكم الاتّفاق ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ وأغضوا عن الإيمان على الوجه المذكور بأن أخلّوا بشيء من ذلك ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي مستقرّون في خلاف عظيم، بعيد عن الحقّ، فقوله: ﴿فِى شِقَاقٍ﴾ خبر لقوله: ﴿هُمْ﴾ وجعل الشقاق لهم وهم مظروفون له مبالغة في الإخبار باستيلائه عليهم، فكان كلّ واحد من الفريقين في شقّ غير شقّ صاحبه.

ثمّ عقّب سبحانه بتسلية الرسول وضمان التأييد بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أمر اليهود والنصارى، ويدفع شرّهم عنك وينصرك عليهم، وقد أنجز الله وعده له بالقتل والجزية والذلّة في نصارى نجران ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع ما تدعو به ويعلم ما في قلبك.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨﴾

﴿صِبْغَةَ﴾ من الصبغ، كالجلسة من الجلوس؛ وهي الحالة الّتي تقطع عليها الصبغ.

عبّر بها عن الإيمان ومستعارة لفطرة الله التي فطر الناس عليها وتقدير الكلام: صبغنا الله صبغة وفطرنا وخلقنا على استعداد الإيمان، أو ألزموا صبغة الله وتطهير الله، لا صبغتكم وتطهيركم. وعبّر عن لفظ الإيمان والفطرة بلفظ الصبغة لوقوعه في صحبة صبغة النصارى إذ كانوا يصبغون أولادهم في سابع الولادة مكان الختان للمسلمين، بغمسهم في الماء الأصفر الّذي يسمّونه المعموديّة، وهي اسم ماء غسل به عيسى فمزّجوه بماء آخر وكلّما يستعملوا منه جعلوا مكانه ماء آخر وهو علامة تنصّرهم ولا يتحقّق التنصّر إلّا بهذا الفعل.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ والاستفهام بمعنى الجحد، و﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ مبتدأ وخبر، والتقدير: ومن صبغته أحسن من صبغة الله؟ وأيّ شخص تكون صبغته أحسن من صبغة الله؟ فإنّه يصبغ ويميّز عباده بالإيمان ويطهّرهم به ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ أي لله، أولانا تلك النعمة ﴿عَٰبِدُونَ﴾ وتقدّم الظرف للاهتمام ورعاية الفواصل وهو عطف على آمنّا، فإذا كان حرفة العبد العبادة فقد زيّن نفسه بصبغ حسن.

قال بعض العلماء: لا يكمل التعبّد لأحد حتّى لا يجزع من أربعة: من الجوع والعري والفقر والذّل، وللعبد أوقات، فإذا كان في الطاعة فعليه بتخليصها، وإذا كان في النعمة فعليه بشكرها وإذا كان في البليّة فعليه بالصبر عليها والرضى، وإذا كان في المعصية فيتداركها سريعاً بالتوبة ولكلّ وقت منها سهم في العبوديّة يقتضيه الحقّ منك بحكم الربوبيّة، فمن راقب الأوقات

الأربع وصل إلى الدرجات.

نقل أنّ السريّ السقطيّ قال: مكثت عشرين سنة أفيض خلق الله، فلم يقع في شبكتي إلّا واحد كنت أتكلّم في المسجد الجامع ببغداد يوم الجمعة وقلت: عجبت من ضعيف عصى قوياً فلمّا كان يوم السبت وصلّيت الغداة إذا أنا بشابّ قد وافى وخلفه غلمان وحاشية وهو راكب على دابّته، فقال: أيّكم السريّ، فأومأ جلسائي إليّ فسلّم عليّ وجلس وقال: سمعتك تقول: عجبت من ضعيف عصى قويّا، فما أردت به؟

فقلت: ما ضعيف أضعف من بني آدم، ولا قويّ أقوى من الله تعالى وقد تعرّض ابن آدم مع ضعفه إلى معصيته قال: فبكى الشابّ.

ثمّ قال: يا سريّ، هل يقبل ربّك غريقاً مثلي؟ قلت: ومن ينقذ الغرقى إلّا الله؟ قال يا سريّ إنّ عليّ مظالم كثيرة كيف أصنع؟ قال: إذا صحّحت الانقطاع إلى الله أرضى عنك الخصوم، بلغنا عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**إذا كان يوم القيامة واجتمع الخصوم على وليّ الله، وكل لكلّ منهم ملكا يقول: لا تروّعوا وليّ الله، فإنّ حقّكم اليوم على الله**»، فبكى الشابّ. ثمّ قال: صف لي الطريق إلى الله، فقلت: إن كنت تريد المقتصدين فعليك بالصيام والقيام وترك الآثام، وإن كنت تريد طريق الأولياء فاقطع العلائق واتّصل بخدمة الخالق فبكى حتّى بلّ منديلاً له، وانصرف وكان من أمره كيت وكيت من ترك الدنيا والسكون في المقابر وتغيّر الحال حتّى توفّي على تلك الحالة، قال السّريّ: فحلمت يوماً عيناي فإذا به يزمّل في السندس والإستبرق ويقول لي: جزاك الله خيرا، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: أدخلني الجنّة ولم يسألني عن ذنب. انتهى.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ١٣٦﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا محمّدﷺ لليهود والنصارى: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا ﴾ أتخاصموننا ﴿فِي ٱللَّهِ ﴾؟ أي في دين الله، وتدّعون أنّ دينه الحقّ هو اليهوديّة والنصرانيّة وتبنون دخول الجنّة عليهما وتقولون تارة: لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أو نصارى، وتارة تقولون:

كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ والحال أنّه لا وجه للمجادلة لأنّه مالك أمرنا وأمركم ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ الحسنة الموافقة لأمره ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ السيّئة المخالفة لحكمه، فكيف تدّعون أنّكم أولى بالله؟ ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ لا نبتغي إلّا وجهه وأنتم به مشركون. والإخلاص تصفية العمل عن الشرك والرياء والدنيا وملاحظة المخلوقين.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾: ﴿ أَمْ﴾ معادلة للهمزة في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ والمراد إنكار كلا الأمرين أي أتحاجّوننا في دين الله أم تقولون: إنّ الأنبياء كانوا على دينكم؟ فبأيّ الحجّتين تتعلّقون في إقامة الحجّة على حقيّتهم وتدّعون ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ ﴾ وهي حفدة يعقوب وهم أولاد أولاده الاثنى عشر ﴿كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ وتقولون: نحن مقتدون بهم؟ وكيف تقولون في حقّ الأنبياء الّذين بعثوا قبل نزول التوراة والإنجيل: إنّهم كانوا هوداً أو نصارى ومن المحال أن يقتدي المتقدّم بالمتأخّر ويستنّ بسنّته؟

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿ءَأَنتُمْ﴾ والهمزة للإنكار ﴿أَعْلَمُ﴾ بدينهم ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ أعلم؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ﴾ بمعنى النفي

﴿مِمَّن كَتَمَ﴾ وأخفى وستر عن الناس ﴿شَهَٰدَةً﴾ ثابتة ﴿عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي وما أحد أظلم ممّن يكون عنده شهادة من الله فيكتمها وادّعى أنّ الأنبياء كانوا على دينهم، والمراد من هذا الكتمان أنّ الله بيّن في كتابه صحّة نبوّة محمّد ﷺ والبشارة.

وقيل: المراد بالشهادة في الآية وكتمانها أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده كانوا حنفاء مسلمين فكتموا هذه الشهادة وادّعوا أنّهم كانوا على دينهم فهذه شهادة كانت من الله عندهم وكتموها. وقيل في معنى الآية: إنّ المراد من أظلم في كتمان الشهادة من الله لو كتمها، أي إنّه يلزمكم أنّه لا أحد أظلم من الله إذ كتم شهادة عنده وأوقع عباده في الضلال وهو الغنيّ عن ذلك، ولو كانوا هوداً أو نصارى لأخبر بذلك.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولا يخفى عليه شيء من المعلومات فكونوا على حذر من الجزاء من مفترياتكم في دين الله.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

قد مضى تفسيره، والوجه في تكراره أنّه عنى بالأوّل إبراهيم ومن ذكر معه من الأنبياء، وبالثاني أسلاف اليهود: وإذا اختلف الأزمان والمواطن لم يكن التكرار معيباً بل يكون لازماً.

وحاصل آخر للآية وذكرها: وهو أنّه لو سلّم لكم ما ادّعيتم من أنّ الأنبياء كانوا على دين اليهوديّة والنصرانيّة فليس لكم فيه حجّة لأنّه لا يمتنع اختلاف الشرائع بالمصالح فله أن ينسخ من الشرائع ما شاء ويقرّ منها ما شاء على حسب ما يقتضيه حكمته وأمره.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يريد المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والنصارى والمشركين، وإنّما كانوا سفهاء لأنهم رغبوا عن ملّة إبراهيم وقد قال سبحانه:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[1] أي أذلّها بالجهل.

وحاصل المعنى أنّ الّذين ضعفت عقولهم من الناس: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ ﴿مَا﴾ استفهاميّة إنكاريّة مرفوعة المحلّ على الابتداء و﴿وَلَّىٰهُمْ﴾ خبره، أي أيّ شيء صرفهم. والقبلة من المقابلة لأنّ المصلّي يقابلها وحوّلهم عن قبلتهم وهي البيت المقدّس، ثمّ انصرفوا منها إلى الكعبة لأنّ النبيﷺ صلّى إلى البيت المقدّس بعد مقدمه المدينة نحواً من سبعة عشر شهراً تأليفاً لقلوب اليهود ثمّ صارت الكعبة قبلة المسلمين إلى نفخ الصور. ﴿قُل﴾ يا محمّد لهم: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي الأمكنة بأسرها له ملكاً وتصرّفاً فلا يستحقّ شيء منها أن يكون لذاته قبلة حتّى يمتنع إقامة غيره مقامه، فله أن يأمر في كلّ وقت بالتوجّه إلى جهة من تلك الجهات على حسب مشيئته، فاللائق بالمخلوق أن يطيع خالقه فإنّ الطاعة ليست إلّا الامتثال وليس للعبد أن يتحرّى خصوصيّة في المأمور به أمراً زائداً على الأمر وأنّ اليهود أحبّوا جهة المغرب حيث زعموا أنّ موسىؑ كان في جانب المغرب، فأكرمه الله بكلامه ووحيه، والنصارى أحبّوا جهة المشرق حيث زعموا أنّ مريم حين خرجت من بلدها مالت إلى جهة المشرق كما قال الله:

١ـ سورة البقرة: ١٣٠.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾[1] والمؤمنون استقبلوا الكعبة طاعة لله وامتثالاً لأمره، لا ترجيحاً لبعض الجهات مع أنها قبلة إبراهيم ومولد نبيّهم.

﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وهو التوجّه إلى بيت المقدس تارة والكعبة أخرى.

وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ الكاف للتشبيه، والمشبّه به الاصطفاء عن إبراهيم، أي فكما اصطفينا إبراهيم في الدنيا فكذلك جعلناكم أمّة وسطاً، والمشبّه به الهداية أي كما أنعمنا عليكم بالهداية كذلك أنعمنا عليكم بأن جعلناكم أمّة وسطاً.

أو المعنى: كما هديناكم إلى أوسط القبل، كذلك جعلناكم أمّة وسطاً، والوسط هو العدل كما روي عن أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«أمّة وسطا أي عدلاً، وخير الأمور أوسطها»**[1][2] أي أعدلها.

١ـ سورة مريم: ١٦.

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٣٣٣.

٢ـ كنوز الحقائق، للمناوي، في هامش جامع الصغير، ج ١، ص ١٠٧، حرف التاء.

قال زهير:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي العظائم[١]

فمدحهم الله بكونهم عدولاً ولذلك جعلهم شهودا، كما قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٢] وذلك لأنّهم متوسّطون في الدين بين المفرط والغالي فلا قصّروا كتقصير اليهود حيث قتلوا أنبياءهم وحرّفوا التوراة، ولم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا له تعالى ابناً وإلهاً.

﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ روى الحاكم أبو القاسم الحسكانيّ في كتاب «شواهد التنزيل» بإسناده عن سليم بن قيس، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إيّانا عنى بقوله: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بأعمالهم، فرسول الله صلّى الله عليه وآله شاهد علينا ونحن شهداء الله على خلقه وحجّته في أرضه ونحن الّذين قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾**»[١]

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ أي محمّد صلّى الله عليه وآله ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فلو قيل: إنّ الشهادة إذا كانت ضارّة تتعدّى بعلى وإذا كانت نافعة تتعدّى باللام، لأنّ المراد من كلمة «على» تضمّن معنى الرقيب والمطّلع، فحسن التعبير بـ(على).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ وهي الكعبة، لأنّه صلّى الله عليه وآله كان ـ وهو بمكّة ـ مأموراً بأن يصلّي إلى الكعبة، ثمّ لمّا هاجر إلى المدينة امر بالصلاة إلى بيت المقدس، ثمّ أعيد إلى ما كان عليه والمعنى: ما

١ـ راجع التبيان ج ٢، ص ٦ ومجمع البيان، ج ١، ص ٤١٦، وزاد المسير، لابن الجوزي، ج ١، ص ١٣٨.

٢ـ سورة آل عمران: ١١٠.

١ـ شواهد التنزيل، ج ١، ص ١١٩، وبحار الأنوار ج ٢٣، ص ٣٣٤.

رددناك إلى ما كنت عليه وعلى استقباله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ في التوجّه إلى ما امر به ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ﴾ وينصرف ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ العقب مؤخّر القدم مستعار للارتداد والرجوع عن الدين والطريق.

أي ليتميّز الثابت على الإسلام من المتردّد، واللّازم من العلم التميز وتسمية الملزوم باسم اللازم وبالعكس شائع، وليس المراد أنّه تعالى لم يعلم حالهم ثمّ علم لأنّه كان عالما في الأزل بهم وبكلّ حال من أحوالهم الّتي تقع في كلّ زمان من أزمنة وجودهم.

ونظيره في الإشكال قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[١] وقوله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[١] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٢] ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[٣] وأمثال هذه الآيات.

وقيل: معنى العلم في مثل هذه الآيات الرؤية أي لنرى، والعرب تضع العلم مكان الرؤية، والرؤية مكان العلم كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ﴾[٤] وقال الفرّاء وجه آخر: وهو أنّ حدوث العلم في الآية راجع إلى المخاطبين، ومثاله أنّ جاهلاً وعاقلاً اجتمعا، فيقول الجاهل: الحطب يحرق النار، ويقول العاقل: النار يحرق الحطب، وسنجمع بينهما لنعلم أيّهما يحرق صاحبه، فكذلك قوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي إلّا لتعلموا، والغرض من هذا الجنس من الكلام الرفق في

١ـ سورة محمّد: ٣١.

١ـ سورة الأنفال: ٦٦.

٢ـ سورة آل عمران: ١٤٢.

٣ـ سورة سباء: ٢١.

٤ـ سورة الفجر: ٦، وسورة الفيل: ١.

الخطاب لا يراد المعنى المراد كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾[1] فأضاف الكلام الموهم للشك ترقيقاً للكلام ورفقاً للمخاطب والوجه الأوجه الوجه الأول انتهى.

﴿وَإِن كَانَتْ﴾ القبلة المحولة ﴿لَكَبِيرَةً﴾ أي شاقّة ثقيلة على من يألف التوجّه إلى القبلة المنسوخة ﴿وَإِن﴾ هي المخفّفة من المثقّلة واسمها محذوف وهو القبلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي هداهم الله وتيقّنوا أنّ السعيد الفائز من أطاع أمر مولاه.

ثمّ بيّن سبحانه أنّهم مثابون على الاتّباع فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ وثباتكم على التصديق بما جاء به النبيّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ﴾ متعلّق «بروف» ﴿لَرَءُوفٌ﴾ وذو مرحمة ﴿رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنوبهم بالإيمان وإيصال الرزق.

روي أنّه أخذ بعض الأمراء قاتلاً في زمن داودعليه السلام فصلب فوق الجبل عشاء ورجع الناس إلى منازلهم وبقي على الخشبة وحده وتضرّع إلى آلهته ولمّا يمت فلم يغنوا عنه شيئاً، ثمّ رجع إلى الله وقال: أنت الله الحقّ أتيت إليك لتغيثني فأغثني برحمتك، قال الله: يا جبرئيل إنّ هذا عبد آلهته طويلاً فلم ينتفع ففزع إليّ ودعاني، فاستجبت له فاهبط وضعه على الأرض في سلامة ففعل، فلمّا أصبحوا رأوه وهو يصلّي لله فأخبروا داودعليه السلام بذلك، فدعا الله فيه مستكشفاً سرّه فأوحى الله إليه: «**يا داود إنّي أرحم من آمن بي ودعاني فإن لم أفعل فأيّ فرق بيني وبين آلهته ومن توجّه بقلبه إلى الله وادّعى المحبّة فليكن لا يكذّب فعله قوله، وليكن البلوى عنده ألذّ من الحلوى فذلك صدق فيما ادّعى، وليمدّ الالتفات إلى غيره من الاحتياط ولو بأكل لقمة مشوبة في عمره وتحسبها من الموانع في الارتقاء**».

١ـ سورة سبإ: ٢٤.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿قَدْ نَرَىٰ﴾ مستقبل معناه الماضي أي شاهدنا وعلمنا ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ وتردّد نظرك في جهة السماء، روي عن ابن عبّاس أنّه صلى الله عليه وآله قال: «**يا جبرئيل وددت أنّ الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها، فقال جبرئيل: أنا عبد مثلك فاسأل ربّك ذلك**» وكان صلى الله عليه وآله يحبّ التغيير لكن لا يتكلّم بذلك، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يديم النظر إلى السماء رجاء مجيء جبرئيل، فأنزل الله الآية.[1] والسبب في أنّه صلى الله عليه وآله يحبّ تغيير القبلة أمور:

منها: أنّ الكعبة كانت قبلة إبراهيم وكان اليهود يقولون: إنّه يخالفنا ثمّ يتّبع قبلتنا ولو لا نحن لم يدر أين يستقبل.

ومنها: أنّه صلى الله عليه وآله كان يقدّر أن يصير ذلك سبباً لاستمالة العرب ولدخولهم في الإسلام.

ومنها أنّه صلى الله عليه وآله أحبّ أن يحصل هذا الشرف للمسجد الّذي في بلدته وكان قد وعد صلى الله عليه وآله بتحويل القبلة عن بيت المقدس فكان ينقلب وجهه انتظاراً للوعد وتوقّعاً للموعود.[2]

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أي فو الله لنعطينّكها ولنمكّننّك من استقبالها ووالياً لها ترضاها وتحبّها وتتشوّق إليها لأنّك تحبّها لمقاصد دينيّة وافقت مشيّة الله. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والمراد بالوجه

١ـ بحارالأنوار، ج ١٩، ص ١٩٨، وانظر: ج ٨١، ص ٣٩.

٢ـ انظر: فقه القرآن، للقطب الراوندي، ج ١، ص ٩٠، وزاد المسير، ج ١، ص ١٤٠.

هاهنا جملة البدن، وتخصيص الوجه بالذكر للتنبيه على أنّه الأصل في التوجّه والاستقبال، والمراد بالشطر: النحو، قال الرازيّ: الشطر لفظ مشترك بين معنيين، النصف، والجانب والمتبادر من لفظ ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ هو المسجد الأكبر الّذي فيه الكعبة و﴿ٱلْحَرَامِ﴾ أي المحرّم فيه القتال والممنوع من الظلمة أن يتعرّضوا له وسائر أمور محرّم وقوعه فيه، وفي ذكر المسجد دون الكعبة إيذان بكفاية مراعاة جهة الكعبة، لأنّ استقبال عينها للبعيد متعذّر وفيه حرج عظيم بخلاف القريب.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ الخطاب الأول لهﷺ وهذا الخطاب لكافّة الناس أي في أي موضع كنتم وأردتم الصلاة فولّوا وجوهكم نحوه وطرفه، ولو اقتصر على الأول لظنّ ظانّ أنّ ذلك قبلته فحسبه فبيّن سبحانه أنّه قبلة لجميع المصلّين.

قال ابن عبّاس: البيت كلّه قبلة، وقبلة البيت الباب، والبيت قبلة أهل المسجد، والمسجد قبلة أهل الحرم، والحرم قبلة أهل الأرض كلّها، وهذا موافق لما قاله أصحابنا: إنّ الحرم قبلة من نأى عن الحرم من أهل الآفاق.[1]

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أراد به علماء اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي التحويل إلى الكعبة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ لما أنّ المسطور في كتبهم أنّهﷺ يصلّي إلى القبلتين ومعنى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي من قبل ربّهم، لا شيء ابتدعه الرسول من قبل نفسه.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ خطاب للمسلمين وأهل الكتاب جميعاً على التغليب فيكون وعداً للمسلمين بالإثابة ووعيداً للمخالفين بأوامر الله.

١ـ التبيان، ج ٢، ص ١٦ ومجمع البيان، ج ١، ص ٤٢٣.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ ولئن أتيت الّذين، في الكلام معنى القسم أي والله لئن أتيت الّذين اعطوا الكتاب من اليهود والنصارى بكلّ برهان قاطع على أنّ التوجّه إلى الكعبة هو الحقّ ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ عناداً ومكابرة وهذا في حقّ قوم معيّنين علم الله أنّهم لا يؤمنون فإنّ منهم من آمن وتبع القبلة.

﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ حتم لإطماعهم إذ كانوا تناجوا في ذلك وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنّا نرجو أن يكون صاحبنا الّذي ننتظره وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم.

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فإنّ اليهود يستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس، لا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك لتصلّب كلّ فريق فيما هو فيه.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ ووافقتهم في مراداتهم بأن صلّيت إلى قبلتهم مداراة لهم وطمعاً في إيمانهم ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي الوحي الّذي هو طريق العلم، أو المعنى من بعد ما علمت أنّ الحقّ ما أنت عليه من القبلة ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا الكلام مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1] قال ابن عبّاس: إنّ أمثال هذه الخطابات في القرآن ولو أنّها إليه لكنّه المراد الأمّة كقولهم: إيّاك أعني واسمعي يا جارة.

١ـ سورة الزّمر: ٦٥.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ أخبر الله بأنّ أهل الفهم والدراسة من اليهود والنصارى يعرفون النبيّ وصحّة نبوّته بأوصافه الشريفة المكتوبة في كتابهم كما لا يشتبه عليهم أبناؤهم ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ﴾ وهم الّذين كابروا وعاندوا الحقّ ﴿لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنّ محمّداً ﷺ رسول الله وأنّ الكعبة قبلة الله، لأنّه مذكور في كتابهم: أنّ هذا النبيّ يصلّي على القبلتين، وإنّما قال: فريقاً منهم لأنّ بعضهم صدّقوا وآمنوا به كعبد الله بن سلام وأصحابه وكعب الأحبار وغيره وما كتموا وأمّا الجهلة منهم فليست لهم معرفة بالكتاب وما هم بصدد الإظهار ولا بصدد الكتم وإنّما كفرهم على وجه التقليد.

ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ مبتدأ، و﴿مِن رَّبِّكَ﴾ خبره. واللام للعهد والإشارة إلى ما عليه النبيّ أو إلى الحقّ الّذي يكتمونه أو للجنس، والمعنى: أنّ الحقّ من الله لا من غيره وهو ما أنت عليه، لا ما هم عليه؛ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ فلا تكوننّ من الشاكّين، والمراد الأمّة وإن توجّه الخطاب إليه كما ذكرنا سابقا، والصحيح في معنى الآية أنّ الّذي كتموه كتموه في قوله: ﴿لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾: ﴿وَلِكُلّٖ﴾ مضاف وحذف المضاف إليه

لوضوح المعنى أي: ولكلّ قوم، قيل: الكلّ يعمّ الجميع من فرق المسلمين واليهود والنصارى والمشركين وقيل: إنّ المشركين غير داخلين في القوم، والتنوين في «لكلّ» عوض عن المضاف إليه، قال الرازيّ في «المفاتيح»: وقوله: ﴿هُوَ﴾ راجع إلى اسم الله، أي: الله مولّيها إيّاه وقيل:

عائد إلى الكلّ، فعلى هذا لا يدخل المشركون في الكلّ، بل يعمّ اليهود والنصارى والمسلمين، فعلى القول الثاني وهو أن يكون الضمير راجعاً إليهم، فتقدير الكلام أنّ لكلّ منكم وجهة من القبلة هو مستقبلها ومتوجّه إليها لصلاته وكلّ يفرح بما هو عليه ولا يفارقه فلا سبيل إلى اتّفاقكم على قبلة واحدة فألزموا معاشر المسلمين قبلتكم.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ فإنّكم على خيرات من ذلك في الدنيا والآخرة لانقيادكم لأمره ولشرفكم بقبلة إبراهيم، وأمّا على كون الضمير عايداً إلى الله فتقدير الكلام على قسمين:

القسم الأول أنّ الله عرّفنا أنّ كلّ واحدة من هاتين القبلتين اللتين هما بيت المقدس والكعبة جهة يولّيها عباده على حسب ما يعلمه صلاحاً فالجهتان منه تعالى في الحالتين وهو الّذي ولّى وجوه عباده إليهما فانقادوا أمره حسب ما أمركم فاستبقوا الخيرات بالانقياد، ولا تلتفتوا إلى مطاعن هؤلاء الّذين يقولون: ما ولّاهم عن قبلتهم؟ فإنّ الله يجمعكم جميعاً في صعيد القيامة مع هؤلاء السفهاء فيفصل بينكم. والقسم الثاني أنّ المعنى: ولكلّ قوم منكم معاشر المسلمين ناحية من الكعبة فاستبقوا الخيرات بالتوجّه إليها من جميع النواحي فإنّها وإن اختلفت بعد أن تؤدّي إلى الكعبة فهي كجهة واحدة، ولا يخفى على الله نيّاتهم، فهو يحشرهم ويثيبهم على أعمالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بما أراد من الإماتة والإحياء والجمع.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

قال الرازي: وجه التكرار في الآيات الثلاثة أنّ الأحوال ثلاثة:

أولها: أن يكون الإنسان في المسجد الحرام.

وثانيها: أن يخرج عن المسجد الحرام ويكون في البلد.

وثالثها: أن يخرج للسفر إلى أقطار الأرض، فالآية الأولى محمولة على الحالة الأولى، والثانية على الثانية والثالثة على الثالثة لأنه قد يتوهم أنّ للقرب حرمة وحكماً لا تثبت فيها للبعد فلأجل هذا الأمر كرّرت.

وقيل وجوه أخر.

وقيل: المراد من الآية الثانية وهي قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ المراد في السفر، أي من أي مكان وبلد خرجت إليه للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ عند صلاتك ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وتلقائه فإنّ وجوب التوجه إلى الكعبة لا يتغيّر بالسفر والحضر حالة الاختيار ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي هذا المأمور به ﴿لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الثابت الموافق للحكمة ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الإطاعة والمعصية.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ في أسفارك ومغازيك بعيدة كانت أو قريبة ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أيها الناس ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ من محالّكم. وهذه الآية الثالثة كرّرها لما أنّ القبلة لها شأن خطير والنسخ من مظانّ الشبهة وكان إنكار أهل الكتاب في هذا النسخ

شديداً فبالحريّ أن يؤكّد.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي لأن لا يكون لأهل الكتاب عليكم حجّة إذا لم تصلّوا نحو المسجد الحرام بأن يقولوا: ليس هذا هو النبيّ المبشّر به إذ ذاك نبيّ يصلّي القبلتين، وذلك أنه كان مكتوباً في كتبهم أنّه يأتي ويصلّي بالقبلتين.

قال أبو روق: إنّ حجّة اليهود أنّهم كانوا قد عرفوا أنّ النبيّ المبعوث في آخر الزمان قبلته الكعبة فلمّا رأوا محمّداً ﷺ يصلّي إلى الصخرة احتجّوا بذلك فصرفت قبلته إلى الكعبة لئلا يكون لهم عليه حجّة.[1]

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يريد إلّا الّذين يكتمون ما عرفوا من كتابهم من أنّه ﷺ يحول إلى الكعبة وتسمية هذه بالحجّة لأنّهم يوردونها موقعها، ويسوقونها مساقها فسمّيت مجازاً حجّة تهكّماً بهم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ ولا تخافوهم في توجّهكم إلى الكعبة فإنّ مطاعنهم لا تضرّكم شيئاً، وقيل: المراد بالّذين ظلموا قريش واليهود، فأمّا قريش فقالوا: قد علم أنّنا على هدى فرجع ﷺ إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا، وأمّا اليهود فقالوا: لم ينصرف عن قبلتنا عن علم وإنّما جعله برأيه، وقيل: المراد بالّذين ظلموا العموم يعني ظلموكم بالمخالفة وقلّة الاستماع ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ لمّا ذكرهم بالظلم والخصومة طيّب نفوس المؤمنين فقال: لا تخافوا من مخالفتهم في القبلة واخشوا عقابي في ترك استقبالها فإنّي أحفظكم.[2]

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ علّة لمحذوف تقديره أمر بكم بتولية الوجوه شطره لإتمامي النعمة عليكم، وأنصركم على أعدائكم، وأورثكم أرضهم

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٣١.

٢ـ المصدر السابق، ص ٤٣٢.

وديارهم في الدنيا وفي الآخرة جنّتي ورحمتي ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولكي تهتدوا. و«لعلّ» من الله واجب.

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ الكلام متّصل بما قبله أي ولأتمّ نعمتي عليكم في أمر القبلة إتماماً كائناً كإتمامي لها بإرسال رسول كائن منكم وهو محمّد ﷺ فإنّ إرسال الرسول لا سيّما منهم نعمة لم تكافئها نعمة ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ وهو القرآن العظيم ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ ويحملكم على ما تصيرون به أزكياء طاهرين من دنس الشرك والذنوب المكدّرة لجوهر النفس.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من معانيه والشرائع والأحكام الّتي باعتبارها وصف بكونه هدى ونوراً ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي الإصابة في القول والعمل، من أحكمت الشيء إذا رددته عمّا لا يعنيه كأنّ الحكمة هي الّتي تردّ عن الجهل والخطأ ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ ويعلّمكم العلوم الّتي في الكتاب ولا طريق إلى تحصيلها إلّا من جهة الوحي على ألسنة الأنبياء وبعد أن عملتم ما علمتم يحصل لكم ملكة الاعتدال والسعادة، ومعلوم أنّ ملكة الاعتدال في الأخلاق لا تحصل إلّا بالمواظبة على ترك الأفعال السيّئة وإتيان الفرائض والسنن حتّى يحصل التوفيق ومهما رأيت نفسك في كراهة واستثقال من الأخلاق الجميلة وصعب عليك ترك المحظورات فاعلم أنّك قاصر الباع في السعادة.

عن أبي حمزة الثماليّ قال: (دعا حذيفة بن اليمان ابنه عند موته، فأوصى إليه وقال: يا بنيّ أظهر اليأس عمّا في أيدي الناس فإنّ فيه الغنى،

وإيّاك وطلب الحاجات من الناس فإنّه فقر حاضر، وكن اليوم خيراً من أمسك وإذا صلّيت فصلّ صلاة مودّع للدنيا كأنّك لا ترجع إليها، وإيّاك وما يعتذر منه).(١)

قال الصادق عليه السلام: **«ما ضعف بدن عمّا قويت عليه النيّة»**.(٢)

قال علماء الأخلاق: (إن تتمكّن أن يكون باطنك خيراً من ظاهرك فبها ونعمت، وإلّا فليكن ظاهرك وباطنك وسرّك وعلنك واحداً).

قيل: إنّ شابّا من الأنصار كان يأتي عبد الله بن عبّاس وكان ابن عبّاس يكرمه ويدنيه فقيل له: إنّك تكرم هذا الشابّ وهو شابّ سوء يأتي اللّيالي القبور وينبّشها، فقال عبد الله: إذا كان ذلك فأعلموني، فخرج الشابّ في بعض الليالي يتخلّل القبور، فأعلموا عبد الله، فخرج لينظر ما يكون من أمره ووقف ناحية ينظر إليه من حيث لا يراه الشابّ، فدخل الشابّ قبراً قد حفر.

ثمّ اضطجع في اللحد ونادى بأعلى صوته: يا ويحي إذا دخلت لحدي وحدي ونطقت الأرض من تحتي وقالت: لا مرحباً بك ولا أهلاً قد كنت أبغضك وأنت على ظهري فكيف وقد صرت في بطني؟ بل ويحي إذا نظرت إلى الأنبياء وقوفاً والملائكة صفوفاً، فمن عدلك من يخلّصني؟ ومن المظلومين من يستنقذني؟ ومن عذاب النار من يجيرني؟ قد عصيت من ليس بأهل أن يعصى، وجعل يردّد هذا الكلام ويبكي إلى الصباح، فلمّا خرج من القبر التزمه ابن عبّاس وعانقه، ثمّ قال: نعم النبّاش ما أنبشك للذنوب والخطايا! ثمّ تفرّقا.(١)

١ـ الأمالي، للصدوق، ص ٤٠١.

٢ـ من لايحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤٠٠. والأمالي، ص ٤٠٨.

١ـ الأمالي، للصدوق، ص ٤٠٩.

وأمثال هذه الرياضات لا تحصل إلّا بالخشية وبرسوخ حبّ الله في القلب وخروج حبّ الدنيا عن القلب، فمزّق نفسك ضدّ عادتها وعوّدها بالعادات الجميلة، والعادات تقتضي في النفس عجائب، أما ترى أنّ اللاعب بالحمام لا يحسّ طول النهار بحرّ الشمس قائماً على رجليه وهو ميّت من التعب ومع ذلك لا يحسّ، وإذا كان الطبع يستلذّ من أكل الطين فكيف لا يستلذّ من العسل؟ فروّض[1] نفسك بمشقّات الطاعة حتّى يصير التطوّع طبعا، لكن لمّا كانت اللذات أنسب إلى مشتهاها تميل النفس إليها والنفس قابلة لقبول العادتين.

لكنّ هذه الرياضة يكون لها مدّة طويلة، فإنّ عادة عشرين سنة لا تتبدّل بقيام ليلة ولا أقلّ من المقابلة وأنّ الترياق يلزم أن يكون مساوياً لوزن السمّ فدم في العمل حتّى تستدرك الفيض الأقدم والأولى في رياضتك، وتبديل أخلاقك علاج مرض القلب وأنت بزعمك ليس قلبك مريض، ومن عنده شيء أحبّ إليه من الله فقلبه مريض ولا بدّ من علاجه وإلّا فيهلك قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[1].

فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ بالطاعة لقوله ﷺ: من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وقراءته، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وقراءته ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب والإحسان وإفاضة الخير، وأطلق الذكر على

١ـ روض: من (راض يروض روضاً)، أي: ذلّله.

١ـ سورة التوبة: ٢٤.

طريق المشاكلة والمجاز لوقوعه في صحبة العبد، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ﴾[1] والله تعالى منزّه عن النسيان.

﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ على ما أنعمت عليكم من النعم فأمر سبحانه بتخصيص شكرهم له وأن لا يشكروا غيره ويعرفوا أنّ النعمة منه تعالى والمراد: اذكروني بالقول واشكروا لي بالعمل ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ بإنكار النعم وعصيان الأمر وفي الآية إشعار على أنّ ترك الشكر كفران.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ من الناس من حمل الصبر على الصوم ومنهم من حمله على الجهاد ومنهم من حمله على الصبر عن المعاصي واللذائذ وحظوظ النفس ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي هي امّ العبادات ومعراج المؤمنين، روي (أنهﷺ إذا وقعت له شديدة، فزع واستعان بالصلاة). وقدّم سبحانه في الآية الترك على الفعل، لأنّ التخلية قبل التحلية ولهذا قدّم النفي على الإثبات في كلمة التوحيد. وذكر الصلاة لأنّ الأمر بها مطلق لكلّ أفراد المكلّفين وأمّا غيرها فمختصّ بأصحاب دون أصحاب، مثل الزكاة فمختصّة بأصحاب النصاب ومثل الحجّ فبأصحاب الاستطاعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ومعنى المعيّة: الولاية الدائمة، وإنّما قال: ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولم يقل: مع المصلّين لأنّ الصلاة لا تنفكّ عن الصبر، فإذا كان مع الصابرين لا جرم كان مع المصلّين.

والصبر مبدؤ كلّ فضل فإنّ أوّل التوبة الصبر عن المعاصي وأوّل الزهد، الصبر عن المباهات.

١ـ سورة الشوري: ٤٠.

ولهذا قال ﷺ: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد».[1]

وقال ﷺ: «الصبر خير كلّه، فمن تحلّى بحلية الصبر سهل عليه ملابسة الطاعات والاجتناب عن المنكرات، وكذلك الصلاة. قال الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾».[2]

وفي الحديث: «إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق نادى مناد: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس وهم يسرعون ويسيرون إلى الجنّة فتلقاهم الملائكة فيقولون: إنّا نراكم سراعاً إلى الجنّة فمن أنتم؟ قالوا: نحن أهل الفضل، فيقولون: ما كان فضلكم؟ قالوا: كنّا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أسيء إلينا عفونا، فيقال لهم: ادخلوا الجنّة فنعم أجر العاملين. ثمّ ينادي مناد: أين أهل الصبر؟ فيقوم ناس يسيرون سراعاً إلى الجنّة فتلقاهم الملائكة، فيقولون: إنّا نراكم سراعاً إلى الجنّة فما أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر فيقولون: ما كان صبركم؟ قالوا كنّا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معصية الله، فيقال لهم: ادخلوا الجنّة. ثمّ ينادي مناد: أين المتحابّون في الله؟ فيقوم ناس يسيرون سراعاً إلى الجنّة فتلقاهم الملائكة، فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن المتحابّون في الله، فيقولون: وما كان تحابّكم في الله؟ قالوا: كنّا نتحابّ في الله بطاعته».[1]

قال رسول الله ﷺ: «إنّ المؤمن قيّده القرآن عن كثير من هوى نفسه فالصيام جنّته والصدقة فكاكه والصلاة كهفه».[2]

أقول: يعني كما أنّ الكهف يحفظ الإنسان عن أمور، كذلك الصلاة تمنع وهي بمنزلة الناهي بالقول إذا قال لا يفعل الفحشاء والمنكر، وذلك أنّ فيها التكبير والتهليل والتسبيح والوقوف بين يدي الله، وكلّ ذلك يدعو إلى

١ـ الكافي، ج ٢، ص ٨٧، ح ٢، والخصال، ص ٣١٥.

٢ـ سورة العنكبوت: ٤٥.

١ـ انظر: البداية والنهاية، لابن كثير، ج ٩، ص ١٣٣. والتحفة السنية، للجزائري، ص ٤٦.

٢ـ التحصين، لابن فهد الحلي، ص ٢٧.

شكره ويصرف عن ضدّه، فهي كالآمر والناهي بالقول وكلّ دليل مؤدّ إلى أمر فهو داع إليه وصارف عن ضدّه.

قال النبي ﷺ: **«لا صلاة لمن لم يطع الصلاة وطاعة الصلاة أن ينته المصلّي عن المعاصي»**.(١)

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ وجه تعلّق الآية بما قبلها أنّه لمّا قال ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ في إقامة ديني، فإن احتجتم في تلك الإقامة إلى المجاهدة مع العدوّ بأموالكم وأنفسكم ففعلتم ذلك وتلفت نفوسكم، فلا تحسبوا أنّكم ضيّعتم أنفسكم، بل اعلموا أنّ قتلاكم أحياء قال ابن عبّاس: نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً، ستّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار وكان الناس يقولون لمن يقتل في سبيل الله: مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذّاتها، فنزلت الآية أي هم أحياء.(١)

وفي كونهم أحياء أقوال:

أحدها: وهو الصحيح، أنّهم أحياء على الحقيقة إلى أن تقوم الساعة وهو قول جماعة، كابن عبّاس وقتادة ومجاهد والحسن وعمرو بن عبيد وواصل بن عطا والجبّائيّ والرمّانيّ وأكثر المفسّرين.

والقول الثاني: وهو بمعزل عن القبول، أنّهم يحيون يوم القيامة ويثابون، وهذا القول المتروك، عن البلخيّ وحده ولم يذكر غيره هذا المعنى، وهذا المعنى سخيف بارد لأنّ هذا الأمر لكلّ من آمن بالله وليس فائدة في تخصيصهم بالذكر.

١ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٢٩. وبحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١٩٨.

١ـ انظر: مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٤٠.

والثالث: أنّ المعنى: لا تقولوا: هم أموات في الدين، بل هم أحياء بالطاعة والهدى[1]، أي كالأحياء في الحكم لا ينقطع ثواب أعمالهم لأنّهم قتلوا في نصرة دين الله، فما دام الدين باقياً فلهم ثواب ذلك لأنّهم سنّوا هذه السنّة، أو المراد: ذكرهم وشرفهم باق.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ كيف حالهم.

فإن قيل: على معنى القول الأول الّذي ذكرنا نحن نرى جثّة الشهداء مطروحة على الأرض لا تتصرّف ولا يرى فيها شيء من علامات الأحياء.

فالجواب أنّ الله يجعل لهم أجساماً كأجسامهم في دار الدنيا يتنعّمون فيها دون أجسامهم الّتي في القبور، وهذا على مذهب من يقول من أصحابنا في الإنسان: إنّه النفس الناطقة، فإنّ النعيم والعذاب على هذا إنّما يحصل للنفس الّتي هي الإنسان المكلّف عنده دون الجثّة.

ويؤيّد هذا القول ما رواه الشيخ أبو جعفر في كتاب «تهذيب الأحكام» مسنداً إلى عليّ بن مهزيار عن يونس بن ظبيان، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فقال عليه السلام: **«ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟»** قلت: يقولون في حواصل طير خضر في قناديل تحت العرش، فقال عليه السلام: **«سبحان الله! المؤمن أكرم على الله أن يجعل روحه في حوصلة طائر أخضر! يا يونس، المؤمن إذا قبضه الله صيّر روحه في قالب كقالبه في الدنيا، فيأكلون ويشربون، فإذا قدم عليه القادم عرفوه بتلك الصورة الّتي كانت في الدنيا»**.[1]

وفي رواية أخرى عن أبي بصير قال: سألت الصادق عليه السلام عن أرواح

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٣٧، ورواه بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٠٣.

١ـ التهذيب، ج ١، ص ٤٦٦، والذكري، ص ٧٨.

المؤمنين، فقال عليه السلام: «في الجنة على صور أبدانهم لو رأيته لقلت: فلان».[1]

وأمّا على مذهب من قال: إنّ الإنسان هذه الجثة المشاهدة وإنّ الروح هو النفس المتردّد في مخارق الحيوان وهو أجزاء الجوّ والباطن فالقول أنّه يلطف أجزاء من الإنسان لا يمكن أن يكون الحيّ حيّاً بأقلّ منها يوصل إليها النعيم وإن لم تكن تلك الجملة بكمالها لأنّه لا يعتبر بالأطراف وأجزاء السمن في كون الحيّ حيّاً، فإنّ الحيّ لا يخرج بمفارقتها من كونه حيّا.

وربّما قيل بأنّ الجثّة يجوز أن تكون مطروحة في الصورة ولا تكون ميتة فتصل إليه اللذّات، كما أنّ النائم حيّ وتصل إليه اللذّات مع أنّه لا يحسّ ولا يشعر بشيء من ذلك، فيرى في النوم ما يجد به السرور والالتذاذ حتّى يودّ أن يطول نومه ولا ينتبه.

وقد جاء في الحديث: «أنّه يفسح له مدّ بصره، ويقال له نم نومة العروس»[1] وقوله: ﴿لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي لا تعلمون أنهم أحياء.[2]

وفي الآية دلالة على صحّة مذهبنا في سؤال القبر وإثابة المؤمن فيه وعقاب العصاة على ما تظاهرت وتظافرت الأخبار به. وإنّما حمل البلخيّ ذلك المعنى الّذي انفرد به وذكرناه لإنكاره عذاب القبر[3]، فإن قلت: إن كان المراد في الآية هذا المعنى الآخر فما وجه تخصيص الشهداء بها وهو مشترك في الجميع من إدراك اللذّة والألم؟

فالمراد اختصاصهم بمزيد البهجة والكرامة والقرب، ولكنّ القول الصحيح هو الوجه الأول كما قال به جلّ العلماء كالشيخ والطبرسيّ.

١ـ المصدر السابق نفسه.

١ـ الكافي، ج ٣، ص ١٣١.

٢ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٣٩.

٣ـ المصدر السابق نفسه، وبحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٠٤.

واعلم: أنّ نفس الإنسان وذاته الّذي هو مخاطب مكلّف مأمور منهيّ جسمانيّ لطيف سار في هذا البدن المحسوس سريان النار في الفحم وماء الورد في الورد، وهو الّذي يشير إليه كلّ أحد بقوله: أنا، وهو الإنسان حقيقة، وهو كان في صلب آدم حين سجد له الملائكة وهو المسؤول بقوله: ألست بربّكم؟ قالوا: بلى، وهو الّذي يتوفّى في المنام ويخرج ويسرح ويرى الرؤيا فيسرّ بما يرى أو يحزن، فإن أمسكه الله ولم يرجع جسده تبعه الروح والجسد الكثيف المعبّر عنه بالبدن.

والروح الإنسانيّ محلّ تعيّنه هو القلب الصنوبريّ، والروح الحيوانيّ محلّ تعيّنه هو الدماغ ويسري في جميع أعضاء البدن إلّا أنّ سلطانه قويّ في الدماغ والدماغ أقوى مظاهره والروح الحيوانيّ إنّما حدث بعد تعلّق الروح السلطانيّ بهذا الهيكل فهو من انعكاس أنوار الروح السلطانيّ ليكون مبدأ الأفعال، لأنّ الحياة أمر مغيب مستور في الحيّ، لا يعلم إلّا بآثارها كالحسّ والحركة والعلم والإرادة، وهذا يدور على الروح الحيوانيّ، فمادام هذا البخار باقياً على الوجه الّذي يصلح أن يكون علاقة بينهما، فالحياة قائمة، وعند انتفائه وخروجه تزول الحياة، ويخرج الروح من البدن خروجاً اضطراريّاً وهو الموت الحقيقيّ.

ومن هذا البيان ينكشف أحوال البرزخ، وأنّ القبر روضة من رياض الجنان، أو حفرة من حفر النيران فالشهداء أحياء بالحياة البرزخيّة ومتنعّمون بالأبدان المثاليّة والروح الإنسانيّ، لكنّه إذا بعث وحشر، فنعيمه وعذابه على النمط الّذي كان في الدنيا من روحه الإنسانيّ والحيوانيّ والجسميّ، من جميع أجزائه الدنيويّ، من اللحم والشحم والعظم، وكلّ ما كان له في بدنه في الدنيا حتّى أنّ سنّه إذا كان كافراً كجبل احد.

قال معاذ بن جبل: قال رسول الله ﷺ: «إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظلّ يوم الحرور والهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن، فإنّه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان».(١)

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ اللام جواب قسم محذوف، أي والله لنعاملنّكم معاملة المختبر، هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء؟ إذ البلاء معيار كالمحك يظهر به جوهر النفس، وذلك الاختبار لا لنعلم شيئاً لم نكن عالمين به، بل ليترتّب الجزاء على المطيع والعاصي لأنّ ترتّب الثواب والجزاء لا يصحّ إلّا بعد وقوع الفعل من المكلّف ولا يصحّ أن يترتّب بمجرّد العلم ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ أي بقليل من خوف الأعداء وأمور أخر، وإنّما قلّله لأنّ ما وقاهم منه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم، وما أعطاهم أكثر من ما منعهم ﴿وَالْجُوعِ﴾ أي من القحط والمجاعة، وإنّما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطّنوا عليه نفوسهم ويسهل عليهم الصبر.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ بهلاك المواشي وذهاب بعض الأموال ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ بالموت والقتل في الجهاد وغيره ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾: بذهاب حمل الأشجار وارتفاع البركات وموت الأولاد لأنّها ثمرات أيضاً وقيل: الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان، والنقص من الأموال الصدقات والزكاة، ومن الأنفس الأمراض، ومن الثمرات الأولاد، والصحيح أنّه يعمّ الجميع ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمّد ﴿الصَّابِرِينَ﴾ على البلايا.

١ـ رواه الطبرسي في جوامع الجامع، ج ١، ص ٦، والمجلسي في البحار، ج ٨٩، ص ١٩.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ وهي ما يصيب الإنسان من مكروه، قال النبي صلى الله عليه وآله: «**كلّ شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة**»[1]، وأصله من أصاب السهم المرمى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي نحن إلى حكمه نصير، وهذا الكلام إقرار بالبعث والنشور.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ قولنا ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرار على أنفسنا بالملك وقولنا: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار على أنفسنا بالهلك**»[1]، قال صلى الله عليه وآله: «**من أصيب بمصيبة فأحدث استرجاعاً وإن تقادم عهدها، كتب الله له من الأجر مثل يوم أصيب**».[2]

قال الصادق عليه السلام: «**من كان فيه أربع كتبه من أهل الجنّة: من كانت عصمته شهادة أن لا إله إلّا الله، ومن إذا أنعم الله عليه النعمة قال: الحمد لله، ومن إذا أصاب ذنبا قال: أستغفر الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون**».[3]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الّذين وصفهم من الصابرين ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي ثناء جميل من ربّهم وتزكية أو بركات ومغفرة ﴿وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ المصيبون طريق الحقّ والهداية، واستسلموا لقضاء الله، قال ابن مسعود: لأن أخرّ من السماء أحبّ إليّ من أن أقول في شيء قضاء: ليته لم يكن.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**من ضرب بيده على فخذه عند مصيبة فقد حبط**

١ـ تفسير الصافي، ج ١، ص ٢٠٤، ورواه القرطبي في تفسيره، ج ٢، ص ١٧٥.

١ـ نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، ج ٤، ص ٢٢. (تحقيق الشيخ عبده)

٢ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٤٢، وأيضاً رواه السيوطي في الجامع الصغير، ج ٢، ص ٥٧٣.

٣ـ الأمالي، للشيخ المفيد، ص ٧٦.

أجره»[1]، أقول: إنّ الصبر يجب عليه إذا كان من جهة العدل الحكيم، فيجب الصبر عليها لعلمه بأنّه تعالى لا يقضي إلّا بالحقّ، وإن أصابته من جهة الظلمة فلا يجب عليه الصبر، بل جاز له أن يمانعه.

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾: «صفا» علم لجبل بمكّة وسمّي الصفا لأنّه جلس عليه آدم صفيّ الله عليه السلام، والمروة علم لجبل في مكّة أيضاً وسمّي المروة لأنّها جلست عليها امرأة آدم حواء.

عن جعفر بن محمّد عليه السلام: «والصفا في الأصل الحجر الأملس، مأخوذ من الصفو، واحده صفاة وكلّ حجر لا يخلطه غيره من طين أو تراب. وهو واويّ لأنّ تثنيته صفوان والمرو نبت. وأصله الصلابة أيضاً. والألف واللّام للتعريف لا للجنس».[1]

﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ والشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة، وشعائر الله معالمه الّتي جعلها معالم لعباده من موقف أو مسعى أو منحر، من شعرت به أي علمت.

قيل: إنّه كان على الصفا صنم على صورة رجل، يقال له: أساف وصنم على المروة على صورة امرأة يقال لها: نائلة وإنّهما كانا زنيا في الكعبة، فمسخا حجرين فوضعا عليهما ليعتبر بهما، فلمّا طالت المدّة عبداً من دون الله، وكان أهل الجاهليّة إذا سعوا بين الصفا والمروة سجدهما تعظيما لهما، فلمّا جاء الإسلام وكسرت الأوثان كره المسلمون الطواف والسعي بينهما لأنّه

١ـ بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٦٠، وتحف القول، ص ٢٢١.

١ـ انظر: مجمع البيان، ج ١، ص ٤٤٣.

فعل الجاهليّة فأذن في السعي بينهما وأخبر أنّهما من شعائر الله.[1]

والحكمة في شرعيّة السعي بينهما: أنّ هاجر لمّا ضاق عليها الأمر من العطش وعطش إسماعيل سعت في هذا المكان إلى أن صعدت الجبل ودعت وطلبت من الله الماء فأنبع الله لها زمزم فجعلها طاعة للمكلّفين إلى يوم القيامة. وفي الخبر: الصفا والمروة بابان من الجنّه وموضعان من مواضع الإجابة، ما بينهما قبر سبعين ألف نبيّ وسعيهما يعدل سبعين رقبة.

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ الحجّ في اللغة هو القصد على وجه التكرار، وفي الشرع عبارة عن قصد البيت بالأعمال المخصوصة من الإحرام والطواف والسعي والوقوف وغير ذلك، والعمرة هي الزيارة، مأخوذ من العمارة، لأنّ الزائر يعمر المكان بزيارته وهي في الشرع عبارة عن زيارة البيت بالعمل، فمن قصد البيت بالأعمال المخصوصة وزاره ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ ولا إثم ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ ويدور عليهما لأنّهم توهّموا أن يكون في ذلك جناح لأجل فعل الجاهليّة.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ وأصل التطوّع الفعل طوعاً وميلاً لا كرهاً، كأنّه قيل: من تبرّع بما لم يفرض عليه من القربات مطلقاً فانتصاب ﴿خَيْرًا﴾ بنزع الخافض، أي من تطوّع تطوّعاً بخير ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ له مجاز بعمله، فإنّ الشاكر في وصف الله بمعنى المجازيّ بالإثابة على الطاعة، والشكر من الله، الرضى عن العبد ولازم الرضى الإثابة ﴿عَلِيمٌ﴾ بطاعة المتطوّع، وفي كتاب «زهرة الرياض»: أنّ رجلاً من الزهّاد قال: حججت سنة وفي رأيي أن أنصرف من عرفات ولا أحجّ بعد هذا، فنظرت في القوم فإذا أنا بشيخ متكئ على عصا وهو ينظر إليّ مليّا، فقلت: السلام عليك يا شيخ، فقال: وعليك السلام

١ـ انظر: تفسير جوامع الجامع، للطبرسي، ج ١، ص ١٦٨.

ارجع عمّا نويت، فقلت: سبحان الله من أين تعلم نيّتي؟ قال: ألهمني ربّي، فو الله لقد حججت خمساً وثلاثين حجّة وكنت واقفاً بعرفات هاهنا في الحجّة الخامسة والثلاثين أنظر إلى هذه الرحمة وأتفكّر في أمري وأمرهم أنّ الله هل يقبل حجّهم وحجّي، فبقيت متفكّراً حتّى غربت الشمس وأفاض الناس من عرفات إلى مزدلفة ولم يبق أحد وجنّ اللّيل وتمّت تلك الليلة، فرأيت في النوم كأنّ القيامة قد قامت وحشر الناس وتطايرت الكتب ونصبت الموازين والصراط وفتحت أبواب الجنان والنيران فسمعت النار تنادي وتقول: اللهمّ ذق الحجّاج حرّي وبردي، فنوديت النار: يا نار سلي غيرهم، فإنّهم ذاقوا عطش البادية وحرّ عرفات ووقوا عطش القيامة ورزقوا الشّفاعة، فإنّهم طلبوا رضاي بأنفسهم وأموالهم فانبهت وصلّيت ركعتين، ثمّ نمت ورأيت كذلك، فقلت في نفسي: هذا من الرحمن أو من الشيطان؟ فقيل لي: بل من الله، مدّ يمينك، فمددت فإذا على كفّي مكتوب: من وقف بعرفة وزار البيت شفّعته سبعين من أهل بيته، فلم تمرّ عليّ منذ حينئذٍ سنة إلّا وقد حججت حتّى تمّ لي ثلاث وسبعون حجّة. انتهى.

ويشمل قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾[1] جميع مراتب الأخلاق الحسنة والمستحبّات الشّرعيّة من البرّ ومعاونة الضعفاء والمساكين، فإنّ الله يشكر عمله بمزيد الثواب.

في «ثواب الأعمال»: عن جميل بن درّاج عن الصادق عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ الحاجّ إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلّا كتب الله له عشر حسنات ومحى عنه عشر سيّئات ورفع له عشر درجات فإذا ركب بعيره لم يرفع خفّاً ولم يضعه إلّا كتب الله له مثل ذلك وإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه وإذا سعى بين

١ـ سورة البقرة: ١٨٤.

الصفا والمروة خرج من ذنوبه وإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه وإذا وقف بالمشعر خرج من ذنوبه وإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه، وعدّ رسول الله ﷺ كذا وكذا موطناً كلّها يخرجه من ذنوبه ثمّ قال ﷺ: فإنّ لك أن تبلغ الحاجّ».[1]

وعن أبي حمزة الثماليّ، عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: قال رجل لعليّ بن الحسين: تركت الجهاد وخشونته ولزمت الحجّ، قال: وكان عليه السلام متّكئاً فجلس وقال: «ويحك ما بلغك ما قال رسول الله ﷺ في حجّة الوداع؟ إنّه لما همّت الشمس أن تغيب قال ﷺ: يا بلال، قل للناس: فلينصتوا، فلمّا أنصتوا، قال: إنّ ربّكم تطوّل عليكم في هذا اليوم فغفر لمحسنكم وشفع لمحسنكم في مسيئكم فأفيضوا مغفوراً لكم وضمن لأهل التبعات من عنده الرضى».[1]

وعن الصادق عليه السلام قال: «لمّا أفاض رسول الله ﷺ فلقاه أعرابيّ في الأبطح، فقال: يا رسول الله إنّي خرجت أريد الحجّ فعاقني عائق وأنا رجل مليّ كثير المال، فمرني ما أصنع في مالي، أبلغ ما بلغ الحاجّ؟ قال فالتفت ﷺ إلى أبي قبيس فقال: لو أنّ أبا قبيس لك زنته ذهباً حمراء أنفقته في سبيل الله ما بلغت ما بلغ الحاجّ».[2]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

المعنيّ بالآية علماء اليهود والنصارى مثل كعب بن الأشرف وكعب بن أسيد وابن صوريا وزيد بن التاتوج أو التابوه وغيرهم من علماء النصارى الّذين كتموا أمر النبيّ ﷺ ونبوّته وعلائم خاتميّته وهم وجدوها مكتوباً ومثبتاً في التوراة والإنجيل.

١ـ ثواب الأعمال، ص ٤٧، ورواه العلامة في منتهى المطالب، ج ٢، ص ٦٤٤.

١ـ راجع: الكافي، ج ٤، ص ٢٥٨، وثواب الأعمال، ص ٤٨.

٢ـ ثواب الأعمال، ص ٤٨.

والآية متناولة لكلّ من كتم ما أنزل الله، لأنّه عام فيدخل فيه أولئك وغيرهم.

فحثّ سبحانه في الآية على إظهار الحقّ ونهى عن إخفائه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ ويخفون ﴿مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ من الحجج المنزلة في الكتب من علوم الشرع. فعمّ بالوعيد في كتمان جميعها ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ متعلّق بيكتمون أي أوضحناه ﴿لِلنَّاسِ﴾ جميعاً ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي التوراة ولعلّ المراد من قوله: ما أنزلنا، الوحي، ومن الهدى: الدلائل العقليّة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ ويبعدهم عن رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ أي الّذين يتأتّى منهم اللعن من الملائكة ومؤمني الثقلين.

قال ابن مسعود: ما تلاعن اثنان إلّا ارتفعت اللعنة بينهما، فإن استحقّ أحدهما وإلّا رجعت على اليهود الّذين كتموا صفة محمّدﷺ [١]، وقيل: المراد من قوله: ﴿اللَّاعِنُونَ﴾: البهائم والهوامّ تلعن العصاة، تقول: اللهم العن عصاة بني آدم، فبشؤمهم منع عنّا القطر.[٢]

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ الاستثناء متّصل والمستثنى منه هو الضمير في ﴿يَلْعَنُهُمُ﴾ أي إلّا الّذين تابوا من الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب منه ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا بالتدارك فإنّه يجب بعد التوبة مثلاً لو أفسد على تغيير دينه بإيراد شبهة عليه، يلزمه إزالة تلك الشبهة ويفعل أموراً حد الكتمان

١ـ أنظر: تفسير البغوي، ج ١، ص ١٣٤.

٢ـ انظر: جامع البيان، للطبري، ج ٢، ص ٧٥، ح ١٩٧١.

وهو البيان وهو المراد بقوله: ﴿وَبَيَّنُوا﴾ ما بيّنه الله في كتابه، لتحصل وتتمّ توبتهم. فدلّت الآية على أنّ التوبة لا تحصل إلّا بترك كلّ ما لا ينبغي، ويفعل كلّ ما ينبغي ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ وأقبل توبتهم، فإنّ التوبة إذا أسندت إلى الله بأن قيل: تاب الله أو يتوب، تكون بمعنى القبول ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في قبول التوبة.

عن الصادق عليه السلام قال: **«فيما وعظ الله عيسى بن مريم: يا عيسى أنا ربّك وربّ آبائك، اسمي واحد وأنا الأحد المتفرّد بخلق كلّ شيء، وكلّ شيء من صنعي، وكلّ خلقي إليّ راجعون، فكن إليّ راغبا ومنّي راهبا فإنّك لن تجد منّي ملجأ إلّا إليّ، اجعل ذكري لمعادك وتقرّب إليّ بالنوافل ولا تولّ غيري فأخذلك، يا ابن البكر البتول، ابك على نفسك بكاء من قد ودع الأهل وقلى الدنيا وتركها لأهلها».**[1]

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ أي الّذين استمرّوا على الكفر ويصرّون على كفرهم وما ارتدعوا عن حالتهم الكفريّة وماتوا عليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مستقرّ ﴿عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ هم المخصوصون باللعنة الأبديّة، أحياء وأمواتاً، أمّا في الدنيا فيلعنهم المؤمنون، ويوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً والله تعالى يلعنهم يوم القيامة، ثمّ الملائكة، ثمّ الناس. ومن لعن الظالم وهو ظالم فقد لعن نفسه.

خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

استئناف لبيان كثرة عذابهم أي لا يرفع عنهم ولا يهوّن عليهم ولا

١ـ الكافي، ج ٨، ص ١٣١.

يمهلون للمعذرة وللتّخفيف بل يعذّبون على الدوام أو بمعنى النظر والرؤية، أي لا ينظر إليهم نظر رحمة، وإنّما خلدوا لأنّ نيّاتهم البقاء على ما كانوا عليه من الكفر. وأمّا اختلاف الدركات فبتفاوت سوء الأحوال وشدّة الكفر ومراتبه.

واعلم أنّ الضلال والفساد في الطالبين من فساد مرشدهم فما دام المرشد على الصراط المستقيم يحفظ الطالب من الضلال كما قال: «إذا زلّ العالم زلّ بزلّته العالَم»[1]، ونزول البلاء من فساد الرئيس ومتابعة العامّة إيّاه حكي أنّ أمّنا حوّاء أكلت أولاً من الشجرة فلم يقع شيء، فلمّا أكل منها آدم وقع الخروج من الجنّة، فويل لأرباب الرياسة الّذين ظلموا أنفسهم وتجاوز ظلمهم إلى من عداهم.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

الواحد شيء لا ينقسم عدداً كان أو غيره، وهو الشيء الّذي لا ينقسم من جهة الوحدة، مثلاً الإنسان الواحد يستحيل أن ينقسم من حيث إنّه إنسان واحد إلى إنسانين، بل قد ينقسم إلى الأبعاض والأجزاء لكنّه لم ينقسم من جهة ما قيل له: إنّه واحد بل من جهة أخرى.

قال ابن عبّاس: إنّ كفّار قريش قالوا يا: محمّد صف لنا ربّك، فقال الله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ المستحقّ للعبادة ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فرد في الإلهيّة لا شريك له فيها ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانيّة أي لا إله موجود في الوجود ـ والخبر محذوف ـ إلّا الله.[1] ومعنى ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أنّه لا يجوز الانقسام ولا يحتمل التجزئة وليس بذي أبعاض وكذلك واحد لا نظير له ولا يشابهه شيء وواحد في صفاته الّتي يستحقّها لنفسه، مثلاً وصفنا بأنّه قديم أنّه المختصّ بهذه

١ـ مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٥. ورواه السرخسي في المبسوط، ج ١٦، ص ٦٢.

١ـ انظر: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٨٥.

الصفة لا يشاركه فيها غيره، ووصفنا بأنه قادر على أنّه المختصّ بهذه القدرة، ففي كلّ صفة من صفاته واحد لا يقدر غيره تلك الصفة.

في كتاب «ثواب الأعمال» مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «ثمن الجنة لا إله إلا الله».(١)

وفي حديث آخر قال النبي ﷺ: «ليس شيء إلّا وله شيء يعد له إلّا الله فإنّه لا يعد له شيء، ولا إله إلّا الله فإنّه لا يعدلها شيء».(٢)

وعن عبد الله بن الوليد رفعه قال: قال النبي ﷺ: «من قال لا إله إلّا الله غرست له شجرة في الجنّة من ياقوتة حمراء منبتها في مسك أبيض، أحلى من العسل وأشدّ بياضاً من الثلج وأطيب من المسك. فيها ثمار أمثال أثداء الأبكار تفلق عن سبعين حلّة».(١)

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بيان لسبب استحقاق العبادة دون غيره، وعن أسماء بنت يزيد أنّها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ في هاتين الآيتين اسم الله الأعظم» وهما:

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الثانية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾.(٢)

إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ

١ـ ثواب الأعمال، ص ٣. ورواه الكليني في الكافي، ج ٢، ص ٥١٧.

٢ـ راجع: ثواب الأعمال، ص ١٧.

١ـ ثواب الأعمال، ص ٣، وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١٢٢٣، بحارالأنوار، ج ٨، ص ١٨٣.

٢ـ سورة البقرة: ٢٥٥، وسورة آل عمران: ٢.

﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

قيل: كان للمشركين حول الكعبة ثلاثمائة وستّون صنماً، فلمّا سمعوا قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ تعجّبوا وقالوا: كيف يسع الناس إله واحد؟ أجعل الآلهة إلها واحداً؟ فإن كان محمّد صادقاً في توحيد الإله فليأتنا بحجّة نعرف بها صدقه فنزلت الآية.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وإبداعهما على ما هما عليه مع بدائع الصنائع الّتي يعجز عن فهمها عقول البشر. وإنّما جمع السماوات وأفرد الأرض لأنّ كلّ سماء ليست من جنس الأخرى، وفلك كلّ واحدة غير فلك الأخرى. والأرضون كلّها من جنس واحد وهو التراب، وعند الحكماء محدّب كلّ سماء مماسّ لمقعّر ما فوقه غير الفلك التاسع المسمّى بالعرش فإنّ محدّبه وسطح فوقه غير مماسّ لشيء من الأفلاك وهو المسمّى بلسانهم: الفلك الأطلس وما فوقه خلأ وبعد غير متناه عندنا وعند الحكماء لا خلأ فيه ولا ملأ.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي في تعاقبهما كالذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبه إذا جاء أحدهما جاء الآخر خلفه. وفي الزيادة والنقصان والظلمة والنور.

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ لا ترسب تحت الماء مع أنها ثقيلة كثيفة والماء خفيف لطيف. وتأنيث «الفلك» باعتبار الجماعة ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ «ما» اسم موصول، والجملة حاليّة، حال كونهم ينتفعون بركوبها والحمل فيها للتجارة.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي إنّ فيما أنزل الله من جهة السماء ﴿مِن مَّآءٍ﴾ بيان للجنس، فإنّ المنزل من السماء يعمّ الماء وغيره، و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾

المراد المعنىّ المعروف أي الفلك، ويحتمل جهة العلوّ سماء كانت أو سحاباً، فإنّ كلّ ما علا الإنسان يسمّى سماء لكنّ الصحيح الأول ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ أي بما أنزل ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بأنواع النباتات والأزهار والأشجار ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وبعد ذهاب زرعها وتناشر أوراقها وحسن إطلاق الحياة والموت للأرض باعتبار الحسن والنضارة والبهاء والنماء، وباعتبار اليبوسة والتناشر ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي فرّق ونشر في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ ذي روح يدبّ على الأرض من العقلاء وغيرهم ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ في تقليبها في مهابّها قبولاً ودبوراً وشمالاً وجنوباً، وفي كيفيّتها حارّة وباردة وعاصفة ولينة، وفي آثارها عقماً ولواقحا وفي الغرض من إرسالها تارة بالرحمة وتارة بالعذاب.

قال ابن عبّاس: (من أعظم جنود الله الريح والماء).[1] وسمّيت الريح ريحاً لأنّها تريح النفوس، قال وكيع: لو لا الريح والذباب لانتنت الدنيا، قيل: ما هبّت الريح إلّا لشفاء سقيم أو لسقم صحيح.

قال بكر بن عبّاس: لا تخرج من السحاب قطرة حتّى تعمل في السحاب هذه الرياح الأربع: فالقبول وهو المعروف بالصبا تهيّجه، والجنوب تقدّره، والدبور تلقحه والشمال تفرّقه. وأصول الرياح هذه الأربع: فالشمال من ناحية الشام، والجنوب تقابلها، والصبا من المشرق تقابلها[2] وكلّ ريح جاءت بين مهبّ ريحين فهي نكباء لأنّها نكبت وعدلت عن مهابّ هذه الأربع.[3]

وقيل: الرياح ثمان: أربع رحمة وأربع عذاب، فالرحمة، الناشرات: وهي

١ـ بحارالأنوار، ج ٥٧، ص ١٨.

٢ـ كذا في الاصل.

٣ـ انظر: الكافي، ج ٨، ص ٩٢.

الرياح الطيّبة، والمبشّرات: وهي الرياح الّتي تبشر بالغيث، واللواقح: وهي الّتي تلقح الأشجار في أوّل الربيع، والذاريات: وهي التي تذروا التراب وغيره وأمّا العذاب، الصرصر والعقيم: وهما في البرّ، والعاصف والقاصف: وهما في البحر، والعقيم: هي الّتي لم تلقح سحاباً ولا شجراً، والعاصف: الشديدة الهجوم الّتي تقلع الأشجار والخيام.[١]

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾ عطف على «تصريف»: أي الغيم المنقاد المذلّل الجاري على ما أجراه الله عليه وسمّي سحاب سحاباً لأنّه ينسحب في الجوّ أي يسير من سرعة كأنّه يسحب ذيله ويجرّ ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صفة للسحاب، والسحاب اسم جنس ويوصف بالجمع باعتبار معناه بقوله: ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾[١] والمراد من معنى بين السماء والأرض أي لا ينزل إلى الأرض ولا يصعد إلى السماء وهو بينهما مع أنّه لو كان خفيفاً لطيفا كان ينبغي أن يصعد ولو كان كثيفاً ثقيلا يقتضي أن ينزل ومن طبعه يقتضي أحد هذين.

﴿لَأَيَٰتٍ﴾ اسم إنّ دخلته اللام لتأخّره عن خبرها ولو كان في موضعه لما جاز دخول اللام عليه، والتنكير للتفخيم كمّاً وكيفاً: أي آيات كثيرة عظيمة دالّة على القدرة القاهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ويتفكّرون فيها بالعقول والقلوب فيستدلوّن بها على موجدها فيوحّدونه، وفيه تعريض للمشركين الّذين اقترحوا على الرسول آية تصدّقه في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إذ لو عقلوه لكفاهم بهذه التصاريف آية، قال رسول الله ﷺ: «ويل لمن قرأ هذه فمجّ بها».[٢]

١ـ انظر: بحارالأنوار، ج ٥٧، ص ٤.

١ـ سورة الأعراف: ٥٧.

٢ـ زبدة البيان، الأردبيلي، ص ٦٢٤.

ومعنى المجّ قذف الريق ونحوه، استعير هنا لعدم التدبّر أي من تفكّر فيها فكأنّه حفظها ولم يلقها من فيه.

واعلم أنّ قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ هو توحيد الذات، ولمّا دقّ هذا التوحيد عن مبالغ أفهام الخلق بيّن سبحانه توحيد الصفات بقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ ثمّ بيّن في هذه الآية وهي أنّ في خلق السماوات والأرض توحيد الأفعال، يستدلّ به عليه ويتبيّن لهم أنّه الحقّ، فالعالم ـ بما فيه ـ خلق للمعرفة فلو لم يكن لأجل معرفة الله خلق الإنسان العارف ما خلق العالم بما فيه، كما قال سبحانه: **«لولاك لما خلقت الكون»** خطاباً للنبيّ العربيّ ﷺ، فالعالم مرآة تظهر فيها قدرة الحقّ وجلاله، والإنسان هو المشاهد لتلك الآيات، وهذا معنى قوله ﷺ: **«من عرف نفسه فقد عرف ربّه»**[1] لأنّ نفسه مرآة بعض قدرته كما قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾.[2]

وممّا يدلّ على أنّ خلق السماوات والأرض تبع لخلق الإنسان الكامل قوله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتّى لا يقال في الأرض: الله الله»**[3]، لأنّه إذا لم يبق المتبوع لم يبق التابع، رزقنا الله عرفان الهدى ومجانبة الهوى.

إلى هنا تمّ الجزء الأول من الكتاب مشتملاً على تمام سورة فاتحة الكتاب و١٦٤ آية من سورة البقرة ولله الحمد.

١ـ شرح أصول الكافي، ج ٣، ص ٢٣.

٢ـ سورة فصلت: ٥٣.

٣ـ المستدرك، ج ٤، ص ٤٩٤. ورواه الترمذي في سننه، ج ٣، ص ٢٣٣.

فهرس الأحاديث

(أ)

أتاني جبرئيل فقال يا محمّد أنّ عفريتاً من الجنّ يكيدك في منامك ٧٧
أتاني جبرئيل مع سبعين ألف بعد صلاة الظهر ٩٧
أتاني جبرئيل وقال انّ الله يقول وعزّتي انّه ليس من الكبائر كبيرة ٢٤
أتدري ما حدث البارحة وقع [خسف] بالصين وانفرج برج ماجين ٤٣٥
اتّقوا الدنيا فإنّها أسحر من هاروت وماروت ٣٣٢
اتّقوا الدنيا، فو الّذي نفس محمّد بيده، انّها لأسحر من هاروت وماروت ٣٥٦
إجلالاً له ولاسمه عن ان يدنس كان عند الله من الصديقين ٣١
أحب البلاد إلى الله، المساجد وأبغضها إليه أسواقها ٣٩٥
إخلاص السريرة والثالث معرفة المسؤول والرابع الإنصاف في المسألة ٢٦٢
آداب الدعاء تبدأ وتذكر نعمه عندك، ثم تشكره ٢٦٣
ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من امّتي، فمن كذّب بها لم ينلها ٢٣٥
إذا أتى على أمّتي مائه وثمانون سنة بعد الالف ١٩٧
إذا احب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه وان رضي اصطفاه ٣٨١
إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينا قلبه ٤٣
إذا أراد بعبد خيراً زهّده في الدنيا ورغّبه في الآخرة وبصّره بعيوب نفسه ٣٧٤
إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء ٣٨٣
إذا ظهر الناس، العلم، وضيّعوا العمل، وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب ١٦٣

إذا أكثر العبد الاستغفار رفعت صحيفته وهي تتلألأ ١٤٣
إذا بخس الكيل، حبس القطر وإذا كثر الزنى ٢٥٩
إذا تطهّر الرجل، ثمّ مرّ إلى المسجد يراعي الصلاة ٣٩٥
إذا رأيتم الرّجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان ٣٩٤
إذا زلّ العالم زلّ بزلّته العالَم ٤٧٤
إذا قال المعلم للصبي بسم الله بالخلوص ٣١
إذا قرأت الفاتحة ففرغت من قراءتها وأنت في الصلاة فقل الحمد لله رب العالمين ٥١
إذا كان لك حاجة فأنذر للطاهرة النفيسة ولو بدرهم يقضي الله حاجتك ١٣٩
إذا كان يوم القيامة واجتمع الخصوم على وليّ الله ٤٤٢
إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق نادى مناد ٤٦١
إذا كنت خلف إمام ففرغ من قراءة الفاتحة ٥١
إذا مات العبد، قال الناس ما خلف وقالت الملائكة ما قدّم ٣٨٥
ارضوا بدنيّ الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بدنيّ الدين مع سلامة الدنيا ٣٣٢
ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد عمّا في أيدي الناس يحبك الناس ٣٧٤
أستعين على هذا الأمر بالله الذي لا يحق العبادة لغيره إذا استغيث والمجيب إذا دعي ٢٨
الاستكبار هو أوّل معصية عصي الله به ١٨٤
أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين ١٠٢
اعبدوا الله بالرضا، فإن لم تستطيعوا ففي الصبر على ما تكره خير كثير ٣٨١
اعتبره في الأكل، فإن أكل لحماً فكلب، وان أكل علفاً فشاة ١٧٤
اعتبره في الجلوس، فإن برك، فشاة وان أقعى فكلب ١٧٤
اعتبره في الشرب، فإن كرع فهو شاة، وان ولغ فكلب ١٧٤
أعظم الناس جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم لأجل مسألته ٢٨٥
اعلم بني إسرائيل انه ليس بيني وبين أحد من خلقي ٨١
اعملوا وكلّ ميسّر لما خلق له ١٨٧

أعوذ بك من هوى متّبع وشحّ مطاع ٣٤٤
آفة العبادة، الفترة ٣٤١
أفضل والديكم وأحقّهما بشكركم، محمّد وعلي صلوات الله عليهما ٣١٤
اقتد بي وعليك باليقين، وان كان في عملك تقصير ١٤٤
إقرار على أنفسنا بالملك وقولنا ٤٦٧
اقرؤا القرآن فخماً مفخماً ٤١
أكثركم شبعاً في الدنيا، أطولكم جوعاً يوم القيامة ٣٥٨
أكثروا من ذكر هادم اللّذات ٣٨٢
الا أخبركم بدائكم ودوائكم؟ دائكم الذنوب، ودوائكم الاستغفار ٢٠٩
الا انّ من قبلكم من أهل الكتاب، افترقوا على اثنتين وسبعين ملّة ٣٠٠
الا تعجبون من أسامة انّه لطويل الأمل ٣٨٣
الا، فمن واساهم بحواشي ماله، وسّع الله عليه جنانه واناله غفرانه ورضوانه ٣١٥
الالتفات، وإذا ركع ربض ١٢٤
إلهي غفرت لدحية قتل بناته بشهادة أن لا إله إلّا الله مرة واحدة ٣٣٩
امّا العظام والعصب والعروق فمن الرجل وامّا اللحم والدم والظفر والشعر فمن المرأة ٣٤٥
أمّة وسطاً أي عدلاً، وخير الأمور أوسطها ٤٤٦
امتحان للعباد ليطيعوا الله فيما يتعلّمون من هذا ويبطلوا به كيد السحر ولا تسحروا ٣٥٠
إنّ إبراهيم كان نازلاً في بادية الشام ٤١٨
إنّ إبراهيم عليه السلام حرّم مكّة وإنّي حرّمت المدينة ٤٢٤
إنّ آدم قال بحقّ محمّد أن تغفر لي، قال الله وكيف عرفت محمّداً ٢٠٧
إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحشر .... ٥٩، ٤٦٦
إنّ إسماعيل عليه السلام تعلّم الرومي في برية فاران ٢٢٠
إنّ اصل الحساب في النجوم حقّ ولكن لا يعلم ذلك إلّا من علم مواليد الخلق كلّهم ٤٣٢
ان البسملة أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها ٣١

إنّ الحاجّ إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلّا كتب الله له عشر حسنات ٤٧٠
انّ السماوات والأرض وما فيهما، من مخلوق في جوف الكرسي ٤٠٧
انّ الشجر لم يزل حصيداً مخضوداً حتّى دعي للرحمن ولد ٤٠٧
ان الصراط أمير المؤمنين ٤٥
انّ الصلاة، قربان كل تقي ٢٢٨
انّ العبد ليرفع يديه الى الله ومطعمه حرام وملبسه حرام ٢٦٢
انّ العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلّا ارتحل ٣٥٨
انّ الكلمات، لا إله الّا أنت سبحانك اللهم وبحمدك ٢٠٥
انّ الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في فلاة مهلكة ٣٧٢
ان الله أوحى إلى بعض الأنبياء انّ لي عباداً يحبوني وأحبّهم ٨١
انّ الله تعالى أوحى إلى إبراهيم ٢٢١
انّ الله تعالى خلقنا من علّيين، وخلق أرواحنا من فوق ذلك ١٩٠
ان الله تعالى قال فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشيّ ٣٣
إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض ٤٢٤
انّ الله خلقني وعليّاً من نور واحد ٢٩
انّ الله قديم، والقدم صفة دلّت على انّه لا شيء قبله ٤٠١
إنّ الله لا يجيب سؤال مانع سائليه ٣١١
إنّ الله لا ينظر الى صوركم وأحوالكم، بل إلى قلوبكم وأعمالكم ٢٨٨
انّ الله لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وانّه لم ينظر إليها منذ خلقها ٣٣٢
ان الله ليهمّ بعذاب أهل الأرض جميعاً حتى لا يحاشي منهم أحداً ٧٧
انّ المريد لا يكون الّا المراد معه، بل لم يزل عالماً قادراً، ثمّ أراد ٣٩٦
انّ المقتول في النار، لأنّه كان حريصاً على قتل صاحبه ٣٣٧
انّ الملائكة كانوا ينزلون من السماء إلى الأرض في كلّ يوم وليلة ٣٥٤
انّ المنافق ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، وإذا قام إلى الصلاة اعترض ١٢٤

أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان خوفاً منه ٩٣
أن المؤمن إذا دخل الجنة رأى سبعين ألف حديقة ١٤٨
إنّ المؤمن قيّده القرآن عن كثير من هوى نفسه ٤٦١
ان المؤمن ليذكره الله الذنب بعد بضعة وعشرين سنة ١٤٣
إنّ أوّل شيء نزل من السماء إلى الأرض لهو البيت الّذي بمكّة ٤٢٥
إنّ بني إسرائيل تفرّقت على اثنتين وسبعين فرقة ٣٨
أن تشهد أن لا إله إلّا الله وانّ محمّداً رسول الله ٧٤
أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ٧٤
أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنّة والنار وبالقدر ٧٤
انّ حجّة الله عليكم بعدي علي بن أبي طالب ١٨٩
انّ شرّ الناس عند الله يوم القيامة من يكرم اتقاء شرّه ٣١٦
انّ عابداً عبد الله ثمانين سنة ثم أشرف على امرأة فوقعت في نفسه ١٠٢
انّ عليّاً، الأول والآخر ٢٥٥
انّ في العرش تمثال جميع ما خلقه الله في البرّ والبحر ١٧٤
إنّ في هاتين الآيتين اسم الله الأعظم ٤٧٥
ان قبلتم وإلّا ألقي عليكم ٢٧٠
إنّ قوماً لا يحضرون الصلاة معنا في مساجدنا فلا يؤاكلونا ٩٨
إن كان كذلك، فما بال بنات النعش والجدي والفرقدين ٤٣٢
ان كنتم لا بدّ لكم من أكلها، فاميتوها طبخاً ٢٦٦
إنّ لكلّ حقّ حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ ٤٢٣
إن لله اثنى عشر ألف عالم، كلّ عالم منهم أكبر من سبع سماوات وسبع أرضين ٣٩٩
إنّ لله تعالى في كلّ يوم عشرين ومائة رحمة تنزل على هذا البيت ٤٢٢
ان لله مائة رحمة أعطى واحدة منها لأهل الدنيا كلها ٣٠
انّ محبّي محمّد ﷺ مساكين، مواساتهم أفضل من مواساة مساكين الفقراء ٣١٥

إنّ مطلعه في السماء السابعة وإنّه ثقب بضوئه حتى أضاء في السماء الدنيا ٤٣٤
انّ من البيان لسحراً ٣٦٠
انّ من الكبائر، شتم الرجل أباه ٣٦٢
انّ من نعمتي على امّتك أنّي قصّرت أعمارهم كيلا تكثر ذنوبهم ١٢٧
انّ هاجر لما غضبت عليها سارة، تراءى لها ملك ٢١٨
أن يجعل الخليفة منهم وقالوا نحن نقدّسك، ونطيعك ١٧٠
أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحقّ الّذي لا يتكلّم من قبل نفسه ٢٢٢
أنا الأول، أنا الآخر، أنا الظّاهر، أنا الباطن .... ٢٥٦،١٠٥
أنا الّذي ولايتي ولاية الله ٢٠٦
أنا النقطة تحت الباء ٢٩
أنا دعوة إبراهيم عليه السلام وبشارة عيسى ٢٢٢
أنا من الله والمؤمنون منّي ١٧٠
أنا وعليّ أبوا هذه الأمّة ٣١٤
أنشدكم بالله الّذي أنزل التوراة على موسى ٣٤٥
انظر إلى ذروة العرش، فنظر آدم ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم ١٨٤
انّما الأعمال بالنيّات ٣٨٧
إنّما العلم ثلاثة، آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة وما عداها فضول ٢٩٧
إنّما سمّيت الأرض أرضاً لأنّها تتأرّض ما في بطنها ١٣٩
انّه أوّل من كفر وانشأ الكفر ١٨٤
انّه قال بادروا بالأعمال ستّاً ٢١٠
إنّه قتل مائة نفس، فهل لي من توبة، فقال نعم ٢١٢
إنّه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم مأة مرّة ٢١٠
إنّه واد في جهنّم لو سيّرت فيه جبال الدنيا، لماعت من شدّة حرّه ٢٩٩
أنّه يفسح له مدّ بصره، ويقال له نم نومة العروس ٤٦٤

انّها نزلت في أهل الذمة ٣١٧
أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع عرشي إلى ظهرك ١٨٤
إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ٤٣
إنّي عند الله مكتوب خاتم النبيّين وإنّ آدم لمجدل في طمنته ٤٢٨
أوصيك بأربع خصال (الأولى) الصدق ٣١
أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وخفض الجناح ٣٢٦
اوّل ما ابتلاه الله في نومه، من ذبح ولده إسماعيل أبي العرب ٤٠٩
أول ما خلق الله نور نبيك .... ١٧٨،١٠٥
أوّل ما خلق الله نوري ثم خلق العالم بما فيه من نوره ١٧٠
أي لا يضرّون بذلك السحر الّا بتخلية الله ٣٥١
أي ممّا تتلوا الشياطين على عهد سليمان ٣٥٠
ايّاكم ولو، فإنّه من كلام المنافقين، قالوا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ١٤٠
أيّها اليفن الكبير قد لمزه القتير ٢٤

(ب)

البارحة سعد سبعون ألف عالم وولد في كلّ عالم سبعون ألفاً، واللّيلة يموت مثلهم وهذا منهم ٤٣٥
بنا عرف الله ولو لانا ما عرف الله ١٧٦

(ت)

تارك الجماعة ليس مني، ولا أنا منه، ولا يقبل الله منه ٩٨
تركتم على الحجّة البيضاء ٢٩٨
تطلبون خروج القائم، فو الله إذا خرج لا يلبس الّا الخشن ١٩٢
تطويل المنارات وتنقيش المساجد، وتخريبها تخليتها عن ذكر الله ٣٩٤
تنام عيني ولا ينام قلبي ٣٤٥

التوبة اسم جامع لمعان ستّة، أوّلهن الندم على ما مضى ٢٠٩
توبوا إلى ربّكم فإنّي أتوب إليه في كلّ يوم مائة مرّة ٢١٠

(ث)

ثمن الجنّة لا إله إلا الله ٤٧٥

(ج)

جاء الله من طور سيناء والقدس من جبل فاران ٢٢٠
جزّوا الشوارب واعفوا اللحى ٤١٠

(ح)

حبّ عليّ حسنة لا يضرّ معها سيّئة ٢٢٨
حبّك الشيء يعمي ويصمّ ٣٥٩
حضور مجلس العلم أفضل من صلاة ألف ركعة ١٧٨
حفّوا الشوارب واعفوا اللحى ولا تشبهوا بالمجوس ٤١٠
حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله ٥٩

(خ)

خفني كما تخاف السبع الضاري ٣٧٣
خلق الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران ١٥١
خلقت الملائكة من نور ومن شأن النور الانقياد والطاعة ١٨٣

(ر)

رأس الحكمة مخافة الله ٣٧٣
ركعة من المتأهّل، أفضل من سبعين ركعة من عزب ١٩٧
رهبانيّة أمّتي القعود في المساجد ٣٨٨

(س)

السارق لا يدخل بيتاً ليس فيه شيء فذلك من محض الإيمان ٢٥
سبحان الله! المؤمن أكرم على الله أن يجعل روحه في حوصلة طائر أخضر! ٤٦٣
ستّ من المروّة، ثلاث في الحضر وثلاث في السفر ٣٩٤
السعيد سعيد في بطن أمّه .... ١٨٧، ٣٢٩
السّماء، أمير المؤمنين، والطارق، ما يطرق فيه من العلوم البدائيّة ٢٢٩
سيّد الأعمال، انصاف الناس من نفسك ومؤاساة الأخ في الله وذكر الله على كلّ حال ٢٩٤

(ش)

الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء ٣٢٧
الشياطين ذكور وإناث يتوالدون ولا يموتون، بل يخلّدون حتّى تنقر من الدنيا ٢٢

(ص)

الصبر خير كلّه، فمن تحلّى بحلية الصبر سهل عليه ٤٦١
الصبر كنز من كنوز الجنّة ٣٧٤
الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ٤٦١
الصبر نصف الإيمان ٣٧٤
الصلاة في جماعة تفضل على صلاة الفرد بأربع وعشرين درجة ٩٧

الصلاة قربان كل تقي .... ٨٧، ٢٢٦
الصلاة من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيمة ٣٠٨

(ط)

الطاعون شهادة لأمّتي المؤمنين، ورحمة لهم، ورجس على الكافرين ٢٥٩
طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ٣٤٢
طوبى لمن وجد في صحيفة عمله يوم القيامة تحت كل ذنب استغفر الله ١٤٣

(ع)

عفي عن أمّتي ما حدّثت به أنفسهم ٣٣٦
عليكم بالعدس، فإنّه مبارك مقدس وانّه يرقق القلب ويكثر الدمعة ٢٦٦
عليكم بكتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ٦٦
عمّ الرجل صنو أبيه ولا تفاوت بين صنوي النخلة ٤٣١

(ف)

الفرق بين صلاتنا وصلاة أهل الكتاب وسوسة الشيطان ٢٥
فزت وربّ الكعبة ٢١٥
فضل الصلاة في أول وقتها خير للمؤمن من ولده وماله ٧٧
فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ٥٨
فليكن بلاغك من الدنيا كزاد الراكب والزائد يلهي عن ذكر الله ٣٢٢
في الجنّة على صور أبدانهم لو رأيته ٤٦٤
في المشي مع الماشية، فإن تأخر عنها فكلب، وان تقدّم أو توسّط فهو شاة ١٧٤

(ق)

قاتل الله الحسد ما أعدله، بدء بالحاسد قبل المحسود ٣٦٣
قال العينان رسول الله ﷺ واللسان أمير المؤمنين عليه السلام والشفتان الحسن والحسين عليهما السلام ٢٨٠
القرآن أفضل كل شيء دون الله فمن وقّر القرآن فقد وقر الله ٥٨
القرآن غني لا غنى دونه ولا فقر بعده ٥٨
قرّة عيني الصّلوة ٢٣٣
قم من الليل ولو قدر حلب شاة أو قدر أربع ركعات أو ركعتين ٨٨
قول لا إله الا الله والاستغفار خير العبادة ١٤٣
قولوا للناس أحسن ما تحبّون أن يقال لكم ٣١٦
قولوا للناس حسنا كلّهم، مؤمنيهم ومخالفيهم ٣١٦

(ك)

كان بنو إسرائيل ينظر بعضهم إلى سوأة بعض، ولكن موسى يغتسل وحده ٢٦٠
كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مجلس وان خف ١٤٣
كلّ شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة ٤٦٧
كلّ قرض جرّ نفعاً فهو ربا ٧٣
كلّ مسكر خمر وكلّ خمر حرام ومن شرب الخمر ٣٠٨
كلوا النصاف البطون ١٩١
كنت نبيّا وآدم بين الماء والطين ٢٠٠
كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام ١٧٠

(ل)

لا بأس بفكاهة يخرج بها الإنسان من حدّ العبوس ٢٧٦
لا تأكل إلّا طعام تقيّ ولا يأكل طعامك إلّا تقيّ ١٠٢

لا تتّخذوا من دون الله وليجة ٣٦
لا تقولوا الّا خيراً حتى تعلموا ما هو ٣١٦
لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض ٤٧٩
لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإنّ بريق أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم ٣٢٥
لا صلاة لمن لا يصلّي في المسجد إلا من علة ٩٧
لا صلاة لمن لم يطع الصلاة وطاعة الصلاة أن ينته المصلّي عن المعاصي ٤٦٢
لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين ٣٦٢
لا يدخل الجنّة مسكين متكبّر ولا شيخ زان ولا منّان بعمله على الله ٣٠٨
لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن ٣٣٢
لا يستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحبّ إليه من كثرته ٩٤
لا يمنعنّ أحدكم هيبة أحد ٢٢٤
لا يموتنّ أحدكم الّا وهو حسن الظّن بربّه ٣٧٤
لا يؤمن أحدكم حتّى يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما ٣٧٩
لبّيك اللهم لبّيك لا شريك لك لبّيك ٢٢١
لقد خفت ربّك حق مخافته، فإنّ ربّك يباهي بك أهل السماء ٦١
لما دخل على يعقوب، بشير يوسف وبشّره بحياته، قال له يعقوب ٣٣٨
لما زلّت من آدم، الخطيئة واعتذر إلى ربّه قال ٢٠٥
لما هلك سليمان وضع إبليس السحر وكتبه في كتاب ٣٤٩
لو أنّ الناس إذا زالت عنهم النعم، وحلّت بهم النقم ٢٦٢
لو انّ شعرة من وجع الميّت وضعت على أهل السماوات والأرضين، لماتوا أجمعين ٣٤٣
لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ٣٧٧
لو كان الأمر يردّ إلينا، ما كان عيشنا الّا عيش رسول الله وعليّ صلوات الله عليهما ١٩٢
لو لا إنّا نزداد لأ نفدنا أو لينفد ما عندنا ٢١٣
لو لا بنوا إسرائيل، لم يخبث الطعام ولم يخبز اللحم ٢٥٣

لو لم يستثنوا ما بيّنت لهم إلى آخر الأبد ٢٨٥
لو يعلم البهائم من الموت، ما يعلم ابن آدم، لما أكلتم منها سميناً ٣٨٢
لولاك لما خلقت الأفلاك ١٧٩
ليس شيء إلّا وله شيء يعدله إلّا الله فإنّه لا يعدله شيء ٤٧٥
ليس شيء خيراً من ألف مثله إلّا الإنسان ١٢١
ليكن لسانك وقلبك واحداً في السرّ والعلانية ١٨٧
ليلة أسري بي إلى السماء عرض عليّ جميع الجنان ٣٠

(م)

ما أثبت الله حبّ علي بن أبي طالب في قلب أحد فزلّت له قدم إلّا ثبت له قدم أخرى ١٩٠
ما اجتمع من المسلمين في جماعة، أربعون رجلاً، إلّا وفيهم رجل، مغفور له ٢٢٦
ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق .... ١١٥، ١٨٧
ما زالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوان انقطاع أبهري ٣٢٤
ما ضعف بدن عمّا قويت عليه النيّة ٤٥٨
ما من حرف من حروف الهجاء إلّا وله اسم من أسماء الله تعالى ١٧٥
ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه غمّ من غموم الدنيا أن يتوضّأ ثمّ يدخل المسجد ٢٣٢
مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركب فيها نجى ومن تخلّف عنها هلك ٦٣
المجاهد من جاهد هواه والمهاجر من هجر السوء ٣٧٥
مرحباً بمن خلقه الله قبل أبيه آدم بأربعين ألف سنة ٢٩
مررت ليلة أسري بي على أناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار ٢٢٩
المشيّة من صفات الأفعال، فمن زعم أنّ الله لم يزل مريداً شائياً، فليس بموحّد ٣٩٦
معاشر الناس من أحسن من الله قيلاً وأصدق من الله حديثاً ٤٨
معرفتي بالنورانية معرفة الله .... ١٨٩، ٢٠٦
ملك من الملائكة، موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار، تسوقه بها حيث شاء الله ١٣٤

من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ٤٣٨
من إجلال الله أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك ٣٧٥
من أراد ان ينظر الى عتقاء الله من النار، فلينظر إلى المتعلّمين ١٧٨
من أصيب بمصيبة فأحدث استرجاعاً وإن تقادم عهدها ٤٦٧
من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقربن مسجدنا ٢٦٦
من أكل بأخيه أكلة، أطعمه الله من نار جهنّم ٣٠٧
من انقطع إلى الله كفاه كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ٣٧٧
من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة ٣٩٦
من ترك صلاة حتّى مضى وقتها عذّب بالنار حقباً ٨٧
من تطهّر في بيته، ثمّ مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله ٣٩٥
من تلا كتاب الله من الصفحة ٥٩
من خرج من مكة وهو ينوي الحج من قابل زيد في عمره ٤١٧
من دخل المسجد مستجيراً بالله فهو آمن من سخط الله ٤٢٤
من رعى حق قرابات أبويه أعطي في الجنّة ألف ألف درجة ٣١٤
من رفع قرطاساً من الأرض مكتوباً عليه ٣١
من زار بيت المقدس محتسباً، أعطاه الله ثواب ألف شهيد ٣٩٤
من صلّى ركعتين صحيحتين ولم تحدّث نفسه بشيء من الدنيا غفر الله ما تقدم من ذنبه ٩٣
من ضرب بيده على فخذه عند مصيبة فقد حبط أجره ٤٦٨
من ظلم قيد شبر من أرض، طوّقه يوم القيامة من سبع أرضين ٣٠٨
من عادى لي وليّاً، فقد بارزني بالحرب ١٧٨
من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخط نفسه عن الدنيا ٦٠
من عرف نفسه فقد عرف ربّه ٤٧٩
من قال عند منامه ثلاثاً ١٩٠
من قال لا إله إلّا الله غرست له شجرة في الجنّة من ياقوتة حمراء ٤٧٥

من قال لا إله إلّا الله مخلصاً دخل الجنة ٢٨
من قرأ القرآن كتب له بكل حرف عشر حسنات ٤٠
من قرأ ثلث القرآن كأنّه أوتي ثلث النبوّة ٥٩
من قعد في المسجد، فقد زار الله وحقّ على المزور إكرام زائره ٣٨٧
من كان ذا لسانين وذا وجهين كان في النّار ٣٠٨
من كان فيه أربع كتبه من أهل الجنّة ٤٦٧
من كانت عليه مظلمة لأخيه من عرض او غيره، فليستحلل منه اليوم ٤٠٨
من كثر كلامه، كثر خطاؤه ومن كثر خطاؤه، قلّ حياؤه ١٩٣
من لبس نعلاً صفراء قلّ همّه ٢٨٤
الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة واحدة ١٢١

(ن)

نجا أوّل هذه الامّة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل ٣٨٣
نحن الأوّلون ونحن الآخرون .... ١٠٦، ٢٥٥
نحن الصراط المستقيم ٤٥
نحن باب حطّتكم ٢٥٥
نحن وجه الله الّذي لا يهلك ١٧٦
الندم توبة إذ لا ينفك الندم عن علم أوجبه ٢٠٩
نزل القرآن أثلاثاً، ثلث فينا وفي عدوّنا وثلث سنن وأمثال وثلث فرائض وأحكام ٦٣
نزل القرآن على أربعة أرباع ربع فينا وربع في عدوّنا وربع سنن وأمثال وربع في فرائض ٦٣
نزلت ثلاثة أحجار من الجنّة ٤١٨
النظر إلى وجه الوالد عبادة ١٧٨

(هـ)

الهداية هي الطريق إلى معرفة الله ٤٥

(و)

وأشدّ من يتم هذا اليتيم، يتيم عن امامه ٣١٥
وزنت بأمّتي فرجحت بهم ١٢٢
ويل لمن قرأ هذه فمجّ بها ٤٧٨
الويل واد في جهنّم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا ٢٩٩

(ي)

يابني آدم ان كنتم تعقلون فعدّوا أنفسكم من الموتى ٣٨٣
ياعباد الله انّ آدم لما رأى النور ساطعا من صلبه ١٨٤
ياعباد الله أنتم كالمرضى وربّ العالمين كالطبيب ٣٦٨
ياعبد الله ما حملك على ما صنعت ٦١
ياعلي ان الله أعطاني فيك سبع خصال أنت أول من ينشق القبر عنه ٤٨
ياعلي أنت منّي بمنزلة هبة الله من آدم وبمنزلة سام من نوح ٢٥٦
ياعليّ ردّ درهم مظلمة أفضل عند الله من أربعين حجّة مقبولة ٤٢٣
يامعشر من حضر ادلوا من صاحبكم حتّى يدعو لكم ٦١
يحشر يوم القيمة، أناس من أمّتي، من قبورهم إلى الله، على صورة القردة والخنازير ٢٢٥

المصادر

١ـ القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحي القيوم.

٢ـ الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين عليه السلام (السجاد) (ت ٩٤ هـ ق)

٣ـ الاحتجاج، الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت ٥٨٨ هـ ق).

٤ـ أحكام القرآن، الجصاص، أبي بكر أحمد بن علي الرازي.

٥ـ الاختصاص، الشيخ المفيد، أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ ق).

٦ـ أسباب النزول، الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد بن محمّد النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ ق).

٧ـ الإستبصار فيما اختلف من الأخبار، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

٨ـ الإستبصار في نسب الصحابة الأنصار، عبدالله بن أحمد بن موفق الدين ابن قدامة (ت: ٦٢٠ هـ ق).

٩ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، إبن الأثير الجزري، عزالدين علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ ق).

١٠ـ إعانه الطالبين علي حل الفاظ فتح المعين، بكري المكي ابن السيد محمد شطا عمر الله الدمياطي.

١١ـ الألفية والنفلية، الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي.

١٢ـ الأمالي الشيخ الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

١٣ـ الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية.

١٤ـ بحار الأنوار، المجلسي، محمّد باقر محمّد تقي (ت ١١١٠ هـ ق).

١٥ـ البداية والنهاية، ابن كثير، ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).

١٦ـ بصائر الدرجات في فضائل آل محمّد صلى الله عليه وآله، الصفار، محمد بن حسن (ت ٢٩٠ هـ ق).

١٧ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ ق).

١٨ـ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ ق).

١٩ـ تاريخ (الرسل والأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ ق).
٢٠ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة اللّه الدمشقي (ت ٥٧١ هـ ق).
٢١ـ التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).
٢٢ـ تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الامامية، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـق).
٢٣ـ التحصين في صفات العارفين، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق).
٢٤ـ تحف العقول، ابن شعبة، أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين الحرّاني الحلبي (ت ٣٨١ هـ ق).
٢٥ـ تحفة الأحوذي (شرح جامع الترمذي)، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري الهندي.
٢٦ـ تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـق).
٢٧ـ تذكرة الموضوعات، أبو الفضل محمد بن طاهر بن أحمد المقدسي.
٢٨ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العمادي أبو السعود.
٢٩ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، حسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ ق).
٣٠ـ تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل و أسرار التأويل)، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت ٦٩١ هـ ق).
٣١ـ تفسير الثعلبي (الكشف و البيان عن تفسير القرآن)، ابو اسحاق احمد بن ابراهيم الثعلبي النيشابوري (ت ٤٣٧ هـ ق).
٣٢ـ تفسير الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي.
٣٣ـ تفسير روح المعاني، ابو الفضل، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ ق).
٣٤ـ تفسير الرازي (روض الجنان و روح الجنان في تفسيرالقرآن)، ابوالفتوح حسين بن علي الرازي.
٣٥ـ تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، نصر بن محمد بن احمد السمرقندي.
٣٦ـ التفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
٣٧ـ تفسير العياشي، ابن عياش، أبو النصر محمّد بن المسعود بن محمّد التميمي الكوفي السلمي السمرقندي (من أعلام القرن الثالث الهجري).
٣٨ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).
٣٩ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، أبو عبداللّه محمّد أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ ق).
٤٠ـ تفسير القمي، القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم بن هاشم (ت ٣٠٧ هـ ق).

٤١ـ تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ ق).
٤٢ـ التفسير المنسوب الي الإمام العسكريعليه السلام.
٤٣ـ تفسير جوامع الجامع، فضل بن حسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ ق).
٤٤ـ تفسير كنز الدقائق و بحر الغرائب، محمد بن محمد رضا القمي المشهدي.
٤٥ـ تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ ق).
٤٦ـ تنبيه الخواطر و نزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام، ورام بن أبي فراس (ت ٦٠٥ هـ ق).
٤٧ـ تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، شرف الاسلام بن سعيد المحسن بن كرامة (ت ٤٩٤ هـ ق).
٤٨ـ تنزية الأنبياء، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).
٤٩ـ تهذيب الأحكام، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).
٥٠ـ ثمار القلوب في المضاف و المنسوب، ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ ق)
٥١ـ ثواب الأعمال و عقاب الأعمال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق)
٥٢ـ جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي، (ت ١٣٨٠ هـ ق)
٥٣ـ جامع الأخبار، محمد بن محمد الشعيري (من اعلام القرن السادس الهجري).
٥٤ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ق).
٥٥ـ جامع السعادات، العلامة النراقي، محمد مهدي بن أبي ذر (ت ١٢٠٩ هـ ق).
٥٦ـ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري الدوسي (ت ٣٢١ هـ ق).
٥٧ـ الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، محمد بن حسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).
٥٨ـ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، محمد حسن بن باقر النجفي (ت ١٢٦٦ هـ ق).
٥٩ـ الحبل المتين في أحكام الدين، الشيخ البهائي، الشيخ محمد بن حسين العاملي (ت ١٠٣٠ هـ ق).
٦٠ـ الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦ هـ ق).
٦١ـ حلية الأبرار في أحوال محمّد و آله الأطهارعليهم السلام، السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ ق).
٦٢ـ الخصال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
٦٣ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ ق).
٦٤ـ الدعوات (سلوة الحزين)، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٦٥ـ رسائل المرتضى، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).
٦٦ـ روضة الواعظين و بصيرة المتعظين، محمد بن احمد الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ ق).
٦٧ـ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ ق).
٦٨ـ زبدة البيان في أحكام القرآن، المقدس الأردبيلي، احمد بن محمد (ت ٩٩٣ هـ ق).
٦٩ـ سعد السعود، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
٧٠ـ سنن ابن ماجة، ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧١ـ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير بن سداد الأزدي (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧٢ـ السنن الكبرى، البيهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ ق).
٧٣ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ ق).
٧٤ـ السيرة الحلبية (انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون)، الحلبي، علي بن إبراهيم الحلبي الشافعي.
٧٥ـ شجرة طوبى، محمد مهدي الحائري.
٧٦ـ شرح احقاق الحق، السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (ت ١٤١١ هـ ق).
٧٧ـ شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١ هـ ق).
٧٨ـ شرح الأزهار (المنتزع المختار من الغيث المدرار)، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ ق).
٧٩ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله بن محمّد بن الحسين المدائني المعتزلي (ت ٦٥٥ هـ ق).
٨٠ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني، عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الحذاء الحنفي النيسابوري (من أعلام القرن الخامس الهجري) (المتوفى بعد سنة ٤٧٠ هـ ق).
٨١ـ صحيح البخاري، البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن مغيرة بن بودزبه الجعفي (ت ٢٥٦ هـ ق).
٨٢ـ صحيح مسلم، القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ ق).
٨٣ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد الواقدي، محمّد بن سعد بن منيع الزهري الكاتب (ت ٢٣٠ هـ ق).
٨٤ـ عدة الداعي ونجاح الساعي، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق)
٨٥ـ علل الشرايع، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٦ـ عوالي اللآلي العزيزيّة، ابن أبي جمهور، محمّد بن علي بن ابراهيم الاحسائي (من أعلام القرن التاسع الهجري).

٨٧ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٨ـ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من اعلام القرن السادس الهجري).

٨٩ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني، أحمدبن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ ق).

٩٠ـ الفتوحات المكية، محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (ت ١٢٤٠ هـ ق).

٩١ـ فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٢ـ الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، ابن الصباغ، علي بن محمّد بن أحمد المالكي المكّي (ت ٨٥٥ هـ ق).

٩٣ـ فقه القرآن، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٩٤ـ فلاح السائل و نجاح المسائل، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٥ـ فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، المناوي، أبو زكريّا يحيى بن محمّد عبدالرؤوف (ت ١٠٣١ هـ ق).

٩٦ـ قواعد المرام في علم الكلام، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٩٩ هـ ق).

٩٧ـ الكافي، الكليني أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن اسحاق الرازي (ت ٣٢٨ هـ ق).

٩٨ـ كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، اسماعيل بن محمد (ت ١١١٩ هـ ق).

٩٩ـ كشف الغطاء عن مبهمات شريعة الغراء، كاشف الغطاء، جعفر بن خضر (ت ١٢٢٧ هـ ق).

١٠٠ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥ هـ ق).

١٠١ـ كنز الفوائد، محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ ق).

١٠٢ـ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، عبدالرؤف بن تاج العارفين المناوي الحدادي (ت ١٠٣١ هـ ق).

١٠٣ـ لسان العرب، ابو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ ق).

١٠٤ـ لسان الميزان، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ ق).
١٠٥ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل (ت ٥٤٨ هـ ق).
١٠٦ـ المجموع في شرح المهذب، يحيي بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ ق).
١٠٧ـ المحاسن، ابو جعفر احمد بن محمد بن خالد البرقي، (ت ٢٨٠ هـ ق).
١٠٨ـ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
١٠٩ـ المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦ هـ ق).
١١٠ـ المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ ق).
١١١ـ مستدرك الوسائل و مستنبط المسائل، حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ ق).
١١٢ـ مصباح المتهجد، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٣ـ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن ابي شيبة، أبوبكر عبدالله بن محمّد بن ابراهيم بن عثمان العنبسي الكوفي (ت ٢٣٥ هـ ق).
١١٤ـ مكارم الأخلاق، ابو نصر رضي الدين حسن بن فضل الطبرسي (من اعلام القرن السادس الهجري).
١١٥ـ الملاحم والفتن، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٦ـ من لايحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
١١٧ـ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ابو جعفر رشيد الدين محمّد بن علي السروي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ ق).
١١٨ـ الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ ق).
١١٩ـ النصائح الكافية، السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي (ت ١٣٥٠ هـ ق).
١٢٠ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

المحتويات

مقدمة الناشر ٥

تقديم بقلم: السيد علي الشهرستاني ٩

مقدمة ١٩

الإستعاذة ٢١

سورة الفاتحة ٢٧

سورة البقرة ٦٣

فهرس الأحاديث ٤٨١

المصادر ٤٩٧

المحتويات ٥٠٣